جوانب من التراث الشعبي التونسي بواحات نفزاوة

تأليف : صالح بن حمّادي

الجزء العربي

صالح بن حمّادي

جوانب من التراث الشعبي التونسي بواحات نفزاوة

تونس 2020

مأثورات شعبية عن واحات جمنة وشطيان وكشًادة

يُوجد بمنطقة نفزاوة في الجنوب الغربي للبلاد التونسية قرية مشهورة اسمها "جمنة" نسبة الى جماعة بشرية قديمة جدا مع أن الأخبار والحكايات المأثورة التي يرويها السكان عن أصل قريتهم تجعل بروزها على الساحة في المنتصف الأول للقرن السابع عشر الميلادي بفضل ولي من الأولياء الصالحين اسمه الشيخ عبد الله الحاج وهو فقيه معروف والد العالم المالكي الشهير إبراهيم الجمني صاحب المدرسة والزاوية الجمنية بمدينة حومة السوق بجزيرة جربة التونسية المتوفى والمدفون بهذه الجزيرة في حدود سنة 1721 ميلادي عن سن ناهزت 93 سنة.

وحاز الشيخ إبراهيم الجمني اهتمام مشاهير المؤرخين التونسيين الذين عاصروه أو جاءوا بعده وأوردوا ترجمته مفصًلة في كتبهم من بينهم حسين خوجة الذي عاصره حيث توفي سنة 1732 ميلادي في كتابه "ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان" والوزير محمد بن مصطفى السراج المتوفى في سنة 1735 ميلادي في كتابه "الحلل السندسية في الأخبار التونسية" ومحمود مقديش الصفاقسي الذي قرأ في المدرسة الجمنية بجربة وتوفي سنة 1813 ميلادي في كتابه "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" والوزير أحمد بن أبي الضياف الذي عاش في القرن التاسع عشر في كتابه "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان".

ترجمة مفصلة للشيخ ابراهيم الجمني

غير أنَّ ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني التي أوردها محمود مقديش أكملها وأوفاها بوصفه كان أحد التلاميذ النجباء في المدرسة الجمنية بجربة بداية من سنة 1753 للميلاد ومنها تخرَّج. وقد جاء فيها ما نصُّه :

"ومن أجلَ أعيان المتأخَرين الشيخ شيخ شيوخنا أبو اسحاق سيدي ابراهيم الجمني رحمه الله تعالى.

"وهو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي بكر بن عمر بن محمد بن عبد الله بن منصور بن عبد العزيز بن معين نزيل الجديدة قرية من قرى المدينة المشرفة (بالحجاز) على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وانتقل معين المذكور ونزل جمنة قرية من قرى نفزاوة واستوطنها وتناسل أجداد الشيخ سيدي إبراهيم وهم أجلًة أعيان وكان والده عبد الله فقيها صالحا وكذا جدُّه للأب إبراهيم كان على قدم الأفاضل وكذا جدُّه للأم سيدي علي بن حامد وهو الذي كان أخذ على الشيخ الخروبي الطرابلسي لقيه وتتلمذ له فناوله السبحة وألبسه الخرقة وأضافه التمر والماء وأعطاه الورد وألزمه قراءته.

"ونسبة الشيخ الى جمنة بكسر الجيم وفتح الميم المشدًدة بعدها نون فهاء التأنيث ونسبه ينتهي الى المقداد بن الأسود الكندي رضي الله تعالى عنه ووصل الى الديار المصرية بإشارة من الأستاذ شيخ البركة سيدي علي الوحيشي نفعنا الله بهما وكان دخوله مصر اثر وفاة سيدي على الأجهوري سنة 1066 هجري (1656 ميلادي). فقرأ على الشيخ سيدي عبد الباقي الزرقاني وحصل عنه فأجازه في النحو والمنطق والبيان والأصول والتوحيد وأخذ عن الشيخ سيدي محمد الخرشي وأجازه في الحديث الشريف وحجً وكان قبل ذلك أخذ عن الشيخ العارف

بالله سيدي عبد الله بن القاسم الجلالي بضم الجيم نسبة الى قرية بالمغرب (وسط الجزائر حاليا) واجتمع به في زاوية خنقة سيدي ناجي ورحل الى بلاد زواوة ومكث بها ست سنين وأخذ عن أكابر أجلًة منهم الشيخ العالم الفاضل سيدي محمد السعدي والشيخ الفاضل العامل الزاهد سيدي محمد الغربي والشيخ العالم النحرير والجهبذ الشهير الراضي سيدي أبو القاسم القاضي وكانت له الكلمة العليا والأمر المطاع بجميع جبال زواوة . ثمّ سافر الشيخ صاحب الترجمة من بلاد زواوة الى مصر فأقام بها 9 سنين فأخذ عن أعيان الجامع الأزهر كالشيخ ياسين والشيخ علي الشبراملسي وأخذ القراءات عن الشيخ سيدي سلطان وعن الشيخ إبراهيم اللقاني وعن الشيخ إبراهيم الشبرخيتي وعن الشيخ أحمد البشبيشي وكان الشيخ الخرشي يدعو له ولازمه لزوما طويلا.

"ثمّ استأذن مشايخه في النقلة الى بلاده بالمغرب فأذنوا له ويوم خروجه خرج معه الجمع الغفير جبرا لخاطره وتعظيما لقدره . وكان انتقاله من مصر سنة 1078 هجري (1664 ميلادي) ثمّ ركب البحر فهاج البحر وغرقت السفينة وطلع من كان بها سوى الشيخ فلم يطلع فغاص الغواصون فوجدوه في قعر البحر فأخرجوه مغمى عليه فلمًا أفاق سأل عن كتبه وكانت كثيرة فسُلي بسلامة نفسه فرجع الى مصر وجمع غيرها في مدًة إقامته بها وهو يُعلَم الناس وظهرت بركات الفتح على يديه ومال إليه أهل الخير والصلاح.

"ثم ً رجع لبلده جمنة ثم انتقل لجزيرة جربة فقصد جامع الغرباء بها يُعلَم به الناس . قيل ان إمام الجامع أخذه ما يأخذ الفقهاء من الغيرة فمنعه من الإقراء به فعزم على الانتقال فرأى في المنام قائلا يقول له : يا إبراهيم أعرض عن هذا". وقيل رأى قارئا يقرأ "فأمًا الزبد فيذهب جفاء" (الآية القرآنية) ورأى الشيخ خليل (صاحب كتاب الفقه المالكي

المُسمى مختصر خليل) فقال له : أنت ولدي ومني فاجتهد". فأقام ما شاء الله ساكنا هو ومن يقرأ عليه في أخواص من جريد.

" فقدم وكيل المرحوم السلطان مراد باي الثاني بن حمودة باشا رحمه الله تعالى وكان من أهل قابس فسأل عن الشيخ وكان يعرفه فدُلً عليه فوجده على تلك الحالة فلمًا رجع لتونس أمره السلطان بالحج نيابة عنه لشغله بأحوال رعيته وهو كاف في مذهب أبي حنيفة الذي هو مذهب مراد باي فقال له : يا سيدي ان أردت أجرا خيرا من الحج فابن مدرسة للشيخ الجمني وحكى له أمره ونشر له ذكره فأمر بالتوجَه لبناء المدرسة المرادية بجزيرة جربة ونصب له محرابها الشيخ الميقاتي سيدي أبو راوي من ذرية سيدي عبد السلام الأسمر وقبره بجربة مزار مشهور فبنى له دورا وبيت صلاة وكمل بناؤها سنة 1085 هجري (ما بين 1673 و 1074 ميلادي) وجعل له النظر في الحبس (الأوقاف) وفوًض أمره إليه. فمكث الشيخ يُعلَم بها وقدم عليه الناس من كل فج عميق فبذل جهده في نشر مذهب إمام دار الهجرة (مالك بن أنس) فكان يختم المختصر (مختصر خليل) في كل سنة مرتين في تسعة أشهر بكدَ وجدَ ويقرأ الحديث النبوي في البقية.

"وكان ملازما للصيام والقيام من قبل الفجر لإيقاظ أصحاب الخلوات (الغرف المخصصة للطلبة) من تلاميذه للقراءة والمطالعة والصلاة.

"وكان قوته ممًا يأتيه من تمر بلاده ممًا ورثه عن آبائه محترزا عن الأكل من حبس الزاوية حتًى أنًه كان له وكيل على التصرف فإذا أتى بشيء من غلات الحبس(المحاصيل من مال الأوقاف) وأحضره للشيخ رفع الشيخ جلدا كان يجلس عليه ويلتفت لجهة أخرى ويأمره بوضع ما عنده وبعد ذلك يردٌ طرف الجلد وإذا أراد الوكيل أخذ شيء يصرفه رفع طرف الجلد والتفت كما فعل في القبض حتى يأخذ الوكيل

ما يحتاجه فيضعه فلا يرى الدراهم في دخولها ولا في خروجها تحرزا عن الحبس وبعدا عن الفتنة.

"وكان متجنبا للمناصب بأسرها حتى الإمامة ولم يُسمع منه أنَّه حلف بالله قط.

"وكان أولا مؤثرا للعزبة ثمَّ تزوَّج امرأة نصفا فقال لتلاميذه : من استطاع منكم التزوُّج فليتزوَّج". فكانت زوجته عونا له على طاعة الله وكان لها ولد (من زوجها الأول) أحسن عشرة الشيخ وأحبه محبة الولد للوالد وعطف عليه الشيخ فنالته بركته.

"وكان الشيخ في غاية من التعفف ...وله كرامات كثيرة منها أن إبراهيم الشريف (حاكم تونس آنذاك) لمَّا توجَّه لحرب طرابلس دخل جربة فشكى بعض الناس بالشيخ عمر بن امحمَّد ابن أخيه (تعرَّض إلى السجن) فأتى لإبراهيم الشريف (في مدينة تونس) شفيعا في ابن أخيه فلم يعظم الشيخ في عينه ولم يقبل له شفاعة لعدم معرفته بقدره . فلمَّا جنَّ الليل اضطربت أحواله (أي إبراهيم الشريف حاكم تونس) ولم يهنأ نومه وتحيَّر وضاقت عليه الأرض بما رحبت من غير موجب فتنبَّه وعلم أنَّ سبب ما نزل به ردُّ الشيخ غير مجبور الخاطر فأمر السجَّان بسراح الشيخ عمر من حينه وأرسل للشيخ إبراهيم الجمني فأحضره واسترضاه وطلب منه العفو فعفا عنه.

"ولمَّا تولَّى سيدي حسين باي (مؤسس أسرة البايات الحسينية سنة 1705 بعد مقتل إبراهيم الشريف) وكان حاضرا في هذه القضية وعرف فضل الشيخ أظهر تعظيم الشيخ وإكرامه فبنى للزاوية وكالتين وأجرى للزاوية إنعامات من قوت الطلبة وتحبيسات وغير ذلك.

"وتفقَه بالشيخ علماء أجلة يخرج عددهم عن الحصر ومن جملتهم الشيخ سيدي علي الفرجاني نقل عنه أنً الشيخ كان يقرئ الإنس والجن معا. وشرح المختصر بشرح لم يكمل (له حاشية على مختصر خليل كانت في مناهج التدريس).

"ولمًا عمًت بركاته وتزايدت خيراته امتدحه أهل الفضل من شعراء زمانه كالشيخ محمد بن المؤدب الشرفي (من مدينة صفاقس مثل المؤرخ محمود مقديش) فإنه امتدحه بقصيدة جاء فيها :

"أيا طالبا للعلم ان رمت تجتني   ثمار علوم من رياض أنيقة

فلا تعدُ إبراهيم ذا الفخر والعلا   وذاك ابن عبد الله يا خير نسبة".

"وكانت ولادته ببلدة جمنة سنة 1037 هجري (1628 ميلادي) وتوفي ليلة الجمعة خامس ربيع الثاني سنة 1134 هجري (24 ديسمبر من سنة 1721 ميلادي) فكانت مدًة إقامته بالمدرسة 50 سنة ولم يخلف رحمه الله عقبا ودفن بالمدرسة.

"فلمًا سمع سيدي حسين باي رحمه الله أمر ببناء قبة خضراء على الشيخ فبنيت وجاءت على أحسن ما ترى العين وأبهج شيء عند النفس نور من الله قلً أن يُرى مثلها.

خلفاؤه على المدرسة الجمنية

"وقام بالزاوية بعد الشيخ ابراهيم الجمني ابن أخيه عمر بن امحمًد المقدًم الذكر فكان قيامه أحسن قيام وله مشاركة في المنقول والمعقول.

" وبعد وفاته خلفه أخوه شيخنا سيدي إبراهيم بن امحمًد . فقام بالزاوية قيام أخيه ولحظه الباشا (علي باشا حاكم تونس بعد حسين باي وابن أخيه) لحظا قويا وأحبًه لحبَ الشيخ الأكبر (إبراهيم الجمني بن عبد الله) وأمر ببناء دور في الزاوية فوق الدور الذي بناه مراد باي رحمه الله تعالى.

"وفي أيامه أرسل الشيخ الصالح سيدي عبد الرحمان البو سيف (من أسرة أبو سيف من بوادي ليبيا أناس متدينون) مائة دينار لبناء الفسقية الكبيرة التي خارج الزاوية تحت الوكالة الصغرى. فبنيت وكانت من الأعمال النافعة.

"وفي أيامه عظم النفع وكثر الوارد على المدرسة حتى بلغ عدد الطلبة سنة قراءتنا بها (يقصد نفسه أي محمود مقديش) 270 طالبا ما بين متعلم للسُنًة ومتعلم للقرآن وعظم الاجتهاد مبلغا لم نره في غيرها شرقا ومغربا (ثمً يصف محموود مقديش وصفا دقيقا مناهج وطرق التدريس بالمدرسة وتحتل دراسة مختصر خليل فيها مكانة بارزة ويُشير الى استعانة الشيخ إبراهيم بن امحمد بعالم ليبي قدير اسمه أحمد بن عبد الصادق بصفة رسمية بمعنى أنه كان يتقاضى مرتبا من الدولة).

"والذي يظهر فيه التأهل من الطلبة المقدًمين يُجيزه الشيخ إبراهيم بن امحمد ويرجع الى بلاده فيذهب كل سنة منهم طائفة قد تفقهوا في الدين الى قومهم وينشرون الفقه في الآفاق ويأتي في السنة التي بعدها طائفة غيرهم وهكذا. وتفقه به (أي بالشيخ إبراهيم بن امحمد) خلائق لا يحصون كثرة من جميع الآفاق ولم يبق هذه الأيام من ذلك إلا بقايا فإنً الطاعون جرف أكثر الفقهاء من بلاد إفريقيا سنة 1199 هجري الموافق لسنة 1785 ميلادي.

" ثم ان سيدي ابراهيم (بن امحمًد) امتحن بني جلود (أسرة نافذة وقوية في جربة وكانوا على مذهب الوهبية وهم فرقة من الخوارج الأباضية) وذلك أنًه رحمه الله كان لحظه الباشا (علي باشا) فاستنقذ أكثر الناس من البدعة (الوهبية الاباضية الخارجية) وأدخلهم في السنًة ورجع جملة من الناس الى السُنًة فلمًا فرغت أيامه رحمه الله (أي الباشا) طلب بنو جلود أن يكونوا قيًادا على البلد فأُسعفوا بذلك لخفاء دسائسهم على الأمير فلما تولٌوا سعوا في الأرض ليفسدوا فيها. فسعوا بسيدي إبراهيم بن امحمد وأظهروا باطلا في صورة حق فانخدع الأمير لهم وجعلوا على الشيخ أموالا ثقيلة غرامة وضايقوه في استخلاصها منه فالتجأ الى الناس واستلف منهم الأموال فلمًا عجز خاف من السجن بغضا منهم لرجال السُنًة فأرسل خلف رئيس البحر أحمد غربال الصفاقسي (فساعده على الفرار خلسة الى صفاقس على متن سفينته وأدخله فيها متنكرا في هيأة امرأة وأغلق عليه باب غرفة القيادة حتى لا يتفطن إليه البحارة وسار به في البحر على متن السفينة إلى أن وصل إلى مدينة صفاقس).

" فلمًا وصل الشيخ الى صفاقس ذهب الى تونس واستشفع بإخوانه الفقهاء كالشيخ محمد الغرياني وأضرابه فعرًفوا الأمير بحقيقة الشيخ وسعيه في إحياء السُنًة وإماتة البدعة وما هو عليه من نشر العلم ونفع العباد به وأنً ما فعله بنو جلود إنما هو لبغضهم في السُنًة وأهلها فقبل شفاعتهم في الشيخ وفرح به وأكرم نزله وأزال ما كان عليه من الغرامة وردً عليه ما بذله ظلما وأرجعه الى وطنه مسرورا مجبورا فأقام بزاويته حتى حضرت منيته نيف 1170 هجري (1757 ميلادي).

"وأمًا الشيخ أحمد بن سيدي علي بن عبد الصادق الطرابلسي (وصفه أيضا بالحامدي) فإنًه كان رجلا فقيها محدَثا نحويا عارفا بالسير والمغازي وأيام الناس ووقائعهم له بمختصر الشيخ خليل خبرة زائدة

واعتناء كبير في غاية ما يكون من الفصاحة كامل القامة حسن الصورة والسيرة. كان والده من تلاميذ سيدي ابراهيم بن عبد الله الجمني فتفقه بوالده ثم رحل الى مصر وكان سريع الحفظ كثير النقل ولما رجع الى طرابلس سعى به بعض الحسدة عند سلطانها ففرً الى فزان ولمًا أحس بعدم الطلب رجع الى طرابلس وتزوًج بها واشتغل بالعلم وصاحبه الشيخ محمد أبو عتور الصفاقسي فسعى به الحسدة من جديد ففرً الى جزيرة جربة فنزل على الشيخ سيدي إبراهيم بن امحمد الجمني فقبله وأكرم نزله فاستشفع به لسلطان طرابلس في إرساله زوجة له فقبل شفاعته وأرسلها له مع جدَها فاستقرت به الدار وجعل له سيدي إبراهيم مرتبا من الباشا ليلقي دروسا بجامع الغرباء بجربة وبالمدرسة الجمنية بها .

"وفي سنة 1167 هجري (1753 ميلادي) كانت قراءتنا (يقصد نفسه أي محمود مقديش) على شيخنا سيدي إبراهيم وشيخنا سيدي احمد بن عبد الصادق وامتحنه بنو جلود هو أيضا كما امتحنوا سيدي إبراهيم فأشخصوه مقيدا الى تونس فتلقاه الشيخ عبد الله أبو عتور فاستشفع له عند السلطان فقبل شفاعته وأعطاه مدرسة بير الحجر بتونس (مدرسة بئر الأحجار ما زالت موجودة بنهج الباشا) التي استجدًها الباشا وجعل له بها مرتبا فرجع إلينا مسرورا ودخل جربة فاستخرج أهله وقدم علينا بهم في أمن وسلامة (عند محمود مقديش بمدينة صفاقس مسقط رأس محمود مقديش) فأنزلناهم بسيدي علي عبد الناظر واكترينا لهم إبلا وبغالا وركبنا معهم لتونس فنزل بدار قرب المدرسة وودعناه وسافرنا فأقام بها الى أن حضرته منيته سنة نيف 1190 هجري (1776 ميلادي).

والى هنا ينتهي ما أورده المؤرخ محمود مقديش بخصوص الشيخ إبراهيم الجمني بن عبد الله والمدرسة الجمنية بجربة.

برزيــن بنفــزاوة

في هذا السياق وردت في هذه الترجمة بعض المعلومات والمعطيات التي تستحق التوضيح إتماما للفائدة منها أنً الشيخ إبراهيم الجمني قصد جامع الغرباء عند تحوٌله الى جزيرة جربة وهو بحومة السوق. فقد جاء في دراسة لمؤلف معاصر أن جامع الغرباء كان يُسمى جامع "برزين" وهو اسم جماعة بربرية كان لها فروع في مناطق أخرى من البلاد التونسية وبلدان شمال إفريقيا الأخرى منها فرع كان يقطن في محيط قرية جمنة مسقط رأس الشيخ إبراهيم الجمني في واحة صغيرة تدعى "برزين" اندثرت ولم يعد لها أثر منذ القديم وهجرها أهلها وقد أنشئت مكانها في هذا العهد واحة جديدة كبيرة باسم "برزين" تسقيها بئر ارتوازية عميقة وتملك بساتينها العديدُ من الأسر الجمنية العائشة حاليا بقرية جمنة وتقع غربها.

ويوجد مدينة شهيرة اسمها "بريزينة" بالجزائر بناحية الجنوب الغربي بجهة مدينة البيض الجزائرية عاصمة ولاية البيض. وكانت توجد بمدينة بريزينة مجموعة من القصور البربرية التقليدية منها قصر يدعى قصر بريزينة ويُحكى عن أصلها الكثير من الحكايات الشعبية مفادها أنها كانت إمارة ازدهرت تحت حكم أميرة يقال ان اسمها زينة كان لها بئر ينتفع به عامة الناس فسُمي المكان بئر زينة أو بيرزينة. والصحيح أنه اسم جماعة بربرية قديمة. ويوجد في شمال إيران سلسلة جبلية معروفة تدعى جبال البرز.

قبيلــة زواوة

كما أشارت الترجمة الى إقامة الشيخ إبراهيم الجمني مدة ست سنوات بجبال زواوة بالجزائر لإتمام دراسته العلمية والدينية. وتعرف

جبال زواوة اليوم بمنطقة القبائل بشمال القطر الجزائري شرق عاصمته الجزائر وهي منطقة جبلية تطل على البحر المتوسط وعاصمتها مدينة بجاية التي ولد وعاش بها العالم الإسلامي والصوفي الشهير أبو مدين شعيب المتوفى سنة 1198 بمدينة تلمسان وتوجد بجهة القبائل المدينة المعروفة باسم تيزي وزُو. وقال عنها بعض الدارسين "ان منطقة زواوة تحوّلت مع مطلع القرن 8 الهجري 14 ميلادي الى بيئة عامرة بالصالحين والزهاد والصوفية فما من جبل ببواديها إلا وقد احتوى أحد هؤلاء حتى خيَل للبعض أن زواوة سميت بهذا الاسم لكثرة زواياها".

وكذلك الشأن بالنسبة لمنطقة نفزاوة فقد خيَل لبعضهم أن اسمها اشتق من عبارة "ألف زاوية" لكثرة ما فيها من زوايا وأولياء بينما اتخذت اسمها من اسم قبيلة نفزاوة البربرية المشهورة في التاريخ.

وظلت مدينة بجاية عاصمة منطقة زواوة أو القبائل من أهم المراكز العلمية الكبرى في شمال إفريقيا وتخرّج من مؤسساتها التعليمية الكثير من العلماء والفقهاء والصوفية المعروفون في التاريخ من بينهم عالم اسمه حسن بن أعراب عاصر الشيخ ابراهيم الجمني وأسَّس مدرسة خاصة به بالجزائر اعتمدت أسلوبا في التدريس شبيه تماما بأسلوب التدريس الذي اعتمده الشيخ إبراهيم الجمني في مدرسته بجربة مع التركيز على الكتاب المُسمى "مختصر خليل". والملاحظ أنَّ كتاب "مختصر خليل" هو كتاب في الفقه المالكي من تأليف العالم المالكي خليل بن اسحاق بن موسى الجندي المصري من علماء القرن الرابع عشر ميلادي بالقاهرة بمصر واسمه الأصلي "التوضيح" وهو الآن مطبوع ويقع في حوالي 350 صفحة من الحجم المتوسط وشرحه العديدُ من العلماء منهم الخرشي والزرقاني الذين تتلمذ عليهما الشيخ إبراهيم الجمني بالأزهر بمصر. كما شرحه الشيخ إبراهيم الجمني وجعل له حاشية.

أمًا عن "زواوة" فهم مجموعة كبيرة من القبائل البربرية التي ما زالت تتكلم البربرية الى اليوم ويقول بعضهم إنهم ينتمون الى قبيلة ضريسة البربرية مع أقوال أخرى كثيرة من هذا النوع حتى أنً بعضهم ينسبهم الى قبيلة حمير العربية التي اشتهرت بمملكة أسًستها في اليمن جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام. ويرى هذا الرأي العالم المشهور أبو يعلى الزواوي وهو من زواوة في كتابه "تاريخ زواوة" مستدلا باستعمال جماعة زواوة لأسماء وأعلام يمنية قديمة وقائلا "لا يدرك ذلك إلا من يتكلم بلغة زواوة" أي أنً لغة زواوة هي حميرية وأنً هذه القرابة لا يشعر بعمقها إلا من يتكلم لغة زواوة.

وكان أبو يعلى الزواوي من علماء القرن الخامس عشر ميلادي ببجاية يقول بثبوت الشرف من جهة الأم أو من خلال الاختلاط والمصاهرة بمعنى الانتماء الى أهل بيت النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام فقد كثر من يقولون إنهم ينتمون الى النسب الشريف في بلدان شمال إفريقيا وخاصة منهم الأولياء فإن معظمهم يقولون إنهم من أصل شريف بمعنى أنهم ينتمون الى أهل بيت النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام عن طريق حفيديه الحسن والحسين ابني فاطمة الزهراء بنت النبي محمد بن عبد الله. وتؤكد المعطيات التاريخية الثابتة أن أبناء الحسن بن فاطمة الزهراء بنت النبي محمد الذين قدموا في فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي الى بلدان شمال إفريقيا تزوًجوا بنساء بربريات وأنجبوا منهن أبناء تزوًجوا بدورهم من نساء بربريات واستمر الأمر كذلك الى هذا اليوم.

أمًا الجمنيون أحفاد الشيخ عبد الله الحاج فيقولون إنهم ينتمون الى الصحابي المقداد بن الأسود الكندي. فبالإضافة الى النسب النبوي يرفع بعض الأولياء الصالحون والجماعات البشرية المنتسبون لهم في شمال إفريقيا أصولهم الى بعض صحابة النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام بمعنى رفاقه عندما كان حيا مثل الجمنيين الذين يقولون إنهم

ينتمون الى الصحابي المقداد بن الاسود الكندي بينما يدًعي آخرون الانتساب الى الصحابي أبي بكر الصديق وهذا الانتماء الأخير يعتبره البعض نسبا شريفا باعتبار أن أبا بكر الصديق صهر النبي محمد الذي تزوًج ابنته عائشة.

وقد هاجر الكثير من جماعة زواوة إلى البلاد التونسية وكان يوجد بالجيش التونسي في عهد البايات الحسينيين فرقة تعرف بعسكر زواوة كانوا في خدمة هؤلاء البايات وهم من يقصدهم المثل التونسي القائل "مثل عسكر زواوة متقدمين في الصف متأخرين في الراتب". ووصل عددهم تحت حكم الباي الحسيني المُسمى حمودة باشا حوالي 14 ألف جندي. وقد حكم هذا الباي في البلاد التونسية مدة طويلة ما بين 1782 و1814.

فقد كان يوجد موقع اسمه "زواوة" مجاور لقرية اسمها "المنصورة" بمنطقة نفزاوة غير بعيد عن مدينة قبلي المركز الإداري لمنطقة نفزاوة . وكان في الأصل برجا تقيم به فرقة من عسكر زواوة تابعة للدولة.

بازمة وجبل الزواي وعشيرة الزوي

وتقول الأخبار المأثورة انه كان يوجد بقرية جمنة قبل استيطانها من طرف عائلة الشيخ عبد الله الحاج جماعة يُعرفون باسم "دار بالزوًاي" كانوا يسكنون في دار معروفة بالقرية فانتقلوا الى قرية اسمها "بازمة" تقع على بعد حوالي 9 كلم شمال قرية جمنة. وقد اتخذت بلدة بازمة هذا الاسم نسبة الى جماعة بربرية اسمهم "بازمة" كان لهم

فرع في جزيرة جربة في الحومة التي تحمل اسمهم الى اليوم وهي حومة "بازيم" وبها جامع يُسمى جامع بازيم.

كما يوجد لهم فرع في مدينة الجزائر العاصمة في حي يعرف بحي بازيم بالإضافة الى فرع في ليبيا بقرية تحمل اسم "بازيمة" معروفة بالقرب من واحة الكفرة بالجنوب الشرقي للقطر الليبي.

ويوجد في الجزائر أيضا في محيط مدينة باتنة بجبال الأوراس غابة جبلية تسمى "غابة الزوًاي" بجوار مدينة أريس التي تقع في قلب منطقة الأوراس . ومدينة أريس معروفة بأنها كانت مهد الثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي في نوفمبر 1954. وأغلب سكان جبال الأوراس أيضا جماعات بربرية.

وتوجد بلدة اسمها "الزٌوي" بمنطقة نفزاوة غربي مدينة قبلي عاصمة المنطقة بجوار قريتين تحملان اسم "زاوية الحرث" و"أم الصمعة" بهما جالية جمنية كبيرة ومقام ولي جمني اسمه سيدي علي بن امحمد شقيق الشيخين عمر وإبراهيم ابني امحمد الذين خلفا الشيخ إبراهيم الجمني الكبير في إدارة مدرسته بجربة وهو مدفون بجمنة في تربة الشيخ عبد الله الحاج.

وهناك بلدة تسمى "فقارة الزوي" و"فجارة الزوي" بأقصى الجنوب الجزائري في محيط مدينة تامنراست قرب جبال الهقار بولاية عين صالح . والفقارة أو الفجارة هي مجموعة من آبار المياه متصلة فيما بينها بأنفاق وتصب مياهها في بئر مركزي واحد فتكون غزيرة ومتدفقة . ويقال ان هذه الطريقة في استخراج المياه الجوفية الصحراوية من أصل فارسي. وتتركب الفقارة الواحدة أحيانا من عشرات الآبار وتمتد على طول بعض الكيلومترات. وتنسب الفقارة المذكورة الى قبيلة الزوي أو عرش الزوي وهم سلالة الولي الصالح سيدي عبد القادر بن

محمد المعروف باسم "سيد الشيخ" دفين البلدة المسماة "الأبيض سيد الشيخ" بولاية البيض بالجزائر. فهاجر أبناؤه الى الجنوب الصحراوي حيث استقروا حول فقارة الزوي بناحية الهقار.

كما يوجد فرع لقبيلة الزوي بالقطر الليبي مقيمون في مدينة "جالو" التي تقع على بعد 25 كلم شرقي مدينة "أوجلة" بناحية برقة و طبرق شرق ليبيا جنوب مدبنة بنغازي. وهناك جماعات وعائلات كثيرة يحملون لقب "زوية" في تونس وغيرها من بلدان شمال إفريقيا. وذكر بعض الدارسين أنَّ قبيلة الزوية ينحدرون من سيدي الشريف أحمد البركاتي أو البركاني المدفون بمنطقة القبائل إزاء مدينة مليانة بالقطر الجزائري وهم من أبناء مولانا عمران بن إدريس.

خنقة سيدي ناجي والحمارنة

بخصوص زاوية خنقة سيدي ناجي الوارد ذكرها أيضا في ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني والتي قضى فيها الشيخ مدَّة يتعلَّم العلوم الدينية فهي زاوية مشهورة بالجزائر بناحية قسنطينة تقع شرق ولاية بسكرة في سفح جبل الأوراس عند حافة واد العرب على عتبة الصحراء وكانت تابعة للبلاد التونسية مثل ناحية قسنطينة. أسسها الشيخ سيدي مبارك بن قاسم بن ناجي سنة 1602 ميلادي وهذا الأخير سيدي ناجي هو ولي مشهور مدفون برحبة الخيل بمدينة تونس العاصمة. وكان المكان يسمى مورد النعام . فيُحكى أنَّ سيدي مبارك رأى في المنام شخصا يُشير عليه بتأسيس الزاوية فقصد مورد النعام وبنى الزاوية ونسبت الى جدَه سيدي ناجي فسُميت زاوية خنقة سيدي ناجي. وكان آباء سيدي مبارك يسكنون الأندلس العربية قبل افتكاكها من طرف الأسبان فهاجروها قسرا ووفدوا الى مدينة تونس حيث عاش سيدي

ناجي وابنه القاسم ثم انتقل الشيخ مبارك حفيده الى الجزائر. وظلت زاوية سيدي ناجي تحظى برعاية خاصة من طرف حكام تونس الى أن ألحقت منطقتها بالجزائر.

ويوجد في تلك النواحي غير بعيد عن خنقة سيدي ناجي وسط جبال الأوراس على حافة وادي مستاوة قرية تحمل اسم "جمنة" مثل اسم قرية جمنة بمنطقة نفزاوة مسقط رأس الشيخ إبراهيم الجمني تماما وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل. والسؤال المطروح هو هل كان سيدي إبراهيم الجمني يعلم بوجودها أم لا عندما ذهب إلى زاوية خنقة سيدي ناجي لإتمام تعليمه.

من ناحية أخرى أشار المؤرخ حسين خوجة في ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني الكبير الى أنَّ هذا الشيخ بعد إقامته ببلاد زواوة لطلب العلم عاد الى البلاد التونسية واستقر بزاوية الحمارنة قريبة من بلد قابس واستقر فيها لتقرير العلم الشريف بمعنى لتدريسه. وقال حسين خوجة : ومن غريب تقريره رحمه الله أنَّه ختم مختصر الشيخ خليل في نحو أربع وعشرين يوما وكانوا يجلسون للقراءة بين يديه من صلاة الصبح الى وقت العصر".

فقد كانت زاوية الحمارنة مؤسسة تعليمية معروفة تقع بناحية قريتي مارث وعرّام بجهة قابس حول ضريح مؤسسها الولي سيدي يحي الشريف بن علي بن عبد الرحمان بن جابر بن حمرون ينتهي نسبه الى الأشراف الأدارسة بالمغرب الأقصى عن طريق سيدي عبد السلام بن سليمان مشيش الإدريسي المدفون بجبل العلم بالمغرب من أبرز المتصوفين وعلماء الدين في الإسلام في القرن الثاني عشر للميلاد تلميذ سيدي أبي مدين شعيب . وتوفي سيدي يحي سنة 1010 هجري نهاية القرن الخامس عشر ميلادي عن سن ناهز 90 عاما بقرية عرام حيث يوجد ضريحه وهو جدُّ الجماعة المعروفين باسم "الحمارنة "نسبة الى

حمرون الواقع اسمه في نسب سيدي يحي ولون بشرتهم يميل الى الأسود المشرب بحمرة مثل بشرة الهنود والباكستانيين . وتوجد قرية اسمها "عرّام " في سلطنة عمان في الجزيرة العربية .ولذلك تسمى زاوية الحمارنة نسبة الى هؤلاء الحمارنة. وتتركب من زاوية ومسجد وبعض القصور التقليدية. والحمارنة هم جماعة كبيرة ومنتشرة في العديد من المناطق والبلدان ينحدرون من أبناء الشيخ يحي وكانوا أحد عشر ولدا أنجبهم الولي من 5 نساء من قرى مختلفة بالجهة منهم عائلة تعرف باسم الجلايلة بمارث وعرام وعائلة أخرى تعرف بعائلة المنياوي بجزيرة جربة. ويعرف سيدي يحي باسم يحي الشريف ويحي شائب الذرعان.

الشيخ علي الوحيشي وبعض الأولياء المجاذيب

أمّا بخصوص الشيخ علي الوحيشي الذي نصح الشيخ إبراهيم الجمني بالسفر الى مصر لإتمام دراسته بجامع الأزهر فهو ولي وصوفي مشهور من الصوفية المعروفين بالمجاذيب أو المجذوبين بمعنى أنهم محمولون بحكم طبعهم ونشأتهم على الدخول في أطوار وأحوال خاصة بهم تقترب من فقدان الوعي مع خرق الأعراف والتقاليد وحتى أصول الدين كالإفطار في رمضان . وله زاوية مشهورة بمدينة القيروان وهو أصيل مدينة صفاقس ترجم له محمود مقديش في "نزهة الانظار" فقال انه علي بن سعيد بن سعد الوحيشي. أصل جدَه من وادي العقيق أو وادي الوحش من أرض الحجاز بالجزيرة العربية غلب عليه الانجذاب وهو صغير في مسقط رأسه صفاقس ثم ذهب الى القيروان واتصل بالصوفي سيدي علي العيوني فازدادت به حال الانجذاب حتى أنه كان ينزع ثيابه في الطريق ويبقى عريانا وكان غاية في الجمال ويدور بالأزقة وهو غير مالك لنفسه وشيَّد له زاويته بالقيروان حمودة

باشا بن مراد باي حاكم تونس في عهده سنة 1650 ميلادي . ومات سنة 1665 للميلاد. وخلفه في زاويته ابن عمه سعيد الذي كان مجذوبا مثله حتى أنه إذا أخذه الحال يضرب الناس بالعذرة أي الخرء والإفرازات البشرية وضرب بها ذات مرة مراد باي بن حمودة باشا فاعتبرها تكريما وشرفا له حيث كان للأتراك العثمانيين وأتباعهم من ملوك تونس اعتقاد كبير في الأولياء والمجاذيب.

وقد جاء في "نزهة الأنظار" لمحمود مقديش أن الولي المجذوب المسمى أبو الحسن الكراي بصفاقس حصل له الجذب على يد الشيخ سعيد الوحيشي المذكور وذلك أنه وفد إليه في الزاوية الوحيشية بالقيروان فقبًله الشيخ سعيد ولحظه وجذبه بهمًته فخرج من هناك هائما ثم رجع الى صفاقس وقد أخذه الحال وانجذب لطريق القوم أي الصوفية فأنشأ له زاويته المشهورة به في صفاقس واشتغل بنشر العلم واحتجب وكان يؤلف الموشحات في الوعظ والإرشاد وفي مدح النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام والصالحين.

فلا شك أن الشيخ إبراهيم الجمني لزم الشيخ علي الوحيشي بزاويته بالقيروان ومرً بحالات مماثلة قادته الى السير على الطريق التي سار عليها في حياته مثلما تتجلًى في ترجمته التي أوردها محمود مقديش في كتابه "نزهة الأنظار".

ويوجد ولي مشهور اسمه أيضا علي الوحيشي بمدينة بنغازي بليبيا من علماء القرن الثامن عشر ميلادي.

في ذات السياق فان أولاد أبو سيف الذين موًلوا بناء الفسقية الخارجية للمدرسة الجمنية بجزيرة جربة ينتمون الى الولي سيدي الحاج محمد عبد النبي الأصفر الملقب كليم الطير وأبو سيف.

الشيخ عبد الله الحاج

بالنسبة للشيخ عبد الله الحاج الذي يوجد ضريحه بقرية جمنة فكل ما قيل عنه في هذه الكتب في إطار ترجمة ابنه الشيخ إبراهيم الجمني انه كان فقيها يُدرس القرآن ومبادئ العلوم الدينية في مدرسة خاصة به أسَّسها في قرية جمنة وان ولده الشيخ إبراهيم الجمني أخذ عنه هذه المبادئ قبل ان يواصل دراسته ويصبح من أشهر علماء المذهب المالكي السُّني في عصره. وبالنظر الى أن الشيخ إبراهيم الجمني ولد حوالي سنة 1628 يمكن القول بأن الشيخ عبد الله الحاج ولد حوالي سنة 1600 ميلادي أي أنه أنجب الشيخ إبراهيم الجمني صاحب المدرسة الجمنية بجزيرة جربة وعمره 28 سنة. وكان والد الشيخ عبد الله الحاج المسمى إبراهيم فقيها أيضا حسب محمود مقديش.

فلم يكن الشيخ عبد الله الحاج في الواقع هو الذي أسَّس قرية جمنة باعتبار أنها أقدم منه بكثير وإنما أسَّس فيها الأسرة التي ينحدر منها القسم من سكان جمنة الحاليين المنتسبين اليه ويُسمون باسم "الجمنيين" حيث يوجد جماعات بشرية أخرى في قرية جمنة لا ينتسبون الى الشيخ عبد الله الحاج وكانوا يُعرفون الى عهد قريب بأسماء خاصة بهم قبل أن تشمل الآن تسمية "الجمنيين" سائر السكان بدون تمييز.

فيمكن القول ان الشيخ عبد الله الحاج ساهم في إحياء قرية جمنة بفضل مدرسته الدينية المنتمية للمذهب السني المالكي فساعد في ذات الوقت على نشر المذهب السني في منطقة نفزاوة وما جاورها في إطار التنافس بين المذاهب الإسلامية الثلاثة السُنًة والشيعة والخوارج. فقد كان المذهب الخارجي أو مذهب الخوارج المناهض للمذهبين السُنَي والشيعي هو الغالب على معتقدات السكان في منطقة نفزاوة والجريد وجبال مطماطة وجزيرة جربة والجنوب الشرقي للبلاد التونسية بناحية

جبل دمر وتطاوين ومدنين وفي جبل نفوسة بليبيا وبجنوب الجزائر بناحية ورقلة ووادي ريغ امتدادا الى مدينة تيهرت بجهة الغرب الجزائري التي كانت عاصمة لإمارة اباضية خارجية تضم كل النواحي المذكورة ما بين 160 و 299 هجري. وكان التيار الأباضي أو الأباضية الذي يعتبر أكبر تيار في المذهب الخارجي هو السائد والمنتشر في هذه المناطق وانقسم بدوره الى العديد من الفرق كان لها كلها أنصار.

وتوجد كتب مشهورة تتحدًث بالتفصيل عن أطوار انتشار المذهب الخارجي أو مذهب الخوارج وخاصة منه التيار الأباضي في ربوع شمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام ألًفها علماء من البربر منها كتاب "طبقات مشايخ المغرب" للعالم الأباضي الشهير أحمد بن سعيد الدرجيني من علماء مدينة نفطة ببلاد الجريد بالجنوب التونسي في القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد والكتاب المسمى "كتاب السير" للعالم الأباضي أحمد بن سعيد الشماخي من أبرز علماء جزيرة جربة في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي الى جانب كتاب اسمه "جزيرة جربة في موكب التاريخ" من تصنيف يوسف بن امحمد الباروني عالم ومدرس من المعاصرين من جزيرة جربة عاش بين 1929 و1997 ميلادي.

فقد اعتنق سكان بلدان شمال إفريقيا المعروفون باسم البربر الإسلام والدين الإسلامي منذ ظهوره تماما مثل عرب الجزيرة العربية منذ أن دعا إليه نبي الإسلام محمد بن عبد الله من قبيلة قريش العربية بمدينة مكًة حوالي سنة 610 للميلاد. وتضُم بلدان شمال إفريقيا ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا الى جانب بلاد الساقية الحمراء وواد الذهب جنوب المغرب الأقصى والصحراء الكبرى وجزر الكناري سابقا في عرض سواحل المغرب الأقصى. وهناك أحاديث

صحيحة تشير الى وجود أشخاص من البربر في مدينة مكَّة والجزيرة العربية عند ظهور الإسلام.

فلمَّا انقسم المسلمون بعد موت النبي محمد بسبب الأحقية في إمامة وحكم المسلمين اختار البربر قول المساندين لأحقية كل مسلم في إمامة وحكم المسلمين بغض النظر عن أصله وعنصره وهو ما ذهبت إليه فرقة الخوارج بصراحة وتحاشى السُنَيون اتخاذ موقف واحد وواضح من المسألة بينما تمسَّك الشيعة بوجوب انتماء إمام وحاكم المسلمين الى أهل البيت.

فبخصوص عراقة البربر في اعتناق الدين الإسلامي جاء في كتاب "طبقات مشايخ المغرب" للعالم الاباضي احمد الدرجيني ما نصُّه بشيء من التصرٌّف : "فقد بلغني عن فضائل البربر أنَّ عائشة (زوجة النبي محمد وابنة صاحبه أبو بكر الصديق) دخل عليها ذات مرَّة رجل من البربر وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والأنصار فقامت عائشة عن وسادتها فطرحتها للبربري فاستغرب جماعة المهاجرين والأنصار من إيثارها له وقالوا لها امتعضنا لإيثارك علينا وعلى نفسك رجل كنا ننتقص قومه فقالت إنما فعلت ذلك لما قال رسول الله. قالت أتعرفون فلانا البربري. قالوا نعم . قالت كنت أنا ورسول الله ذات مرة جالسين إذ دخل علينا ذلك البربري وقال لرسول الله تردَّد بصرك فيَّ بالأمس خفت أن يكون نزل فيَّ قرآن فقال لا يحزنك ذلك فإنما ترديدي البصر فيك لأن جبريل جاءني فقال أوصيك بتقوى الله وبالبربر فقلت لجبريل وما شأنهم قال قوم يحيون دين الله بعد أن كاد يموت ويجددونه بعد أن يبلى.

"وبلغنا أن عمر بن الخطاب (الخليفة الثاني للنبي محمد بعد أبو بكر الصديق) قدم عليه وفد من البربر من لواتة (قبيلة بربرية شهيرة) أرسلهم إليه عمر بن العاص (عامله على مصر آنذاك قبل انتشار

الإسلام في شمال إفريقيا) وهم محلقو الرؤوس واللحا فاستفسر عن نسبهم فقال له بعض الحاضرين هؤلاء من ولد بني قيس عيلان (أحد أجداد عرب الحجاز والشمال) وكان لقيس عدة أولاد أحدهم يسمى بربر بن قيس فخرج الى البراري وسكن بها فكثر بها نسله وولده فكانت العرب تقول تبربروا بمعنى كثروا (بالفعل المقطع "بر" يُستعمل للتعبير عن الزيادة والكثرة في البربرية). فاستحضر عمر حديثا للنبي محمد يقول فيه سيفتح للإسلام بابا من المغرب بقوم يعز بهم الإسلام. فردهم إلى عمر بن العاص وأمره أن يجعلهم في مقدمات العسكر وأحسن إليهم عمر بن الخطاب وأمر عمر بن العاص أن يحسن إليهم". (انتهى كلام الدرجيني).

سيـدي معيـن جـدُ الجمنييـن

فبالاستناد على الأخبار المأثورة لم يستوطن الجدَ الأعلى للشيخ عبد الله الحاج الذي اسمه "معين" قرية جمنة بمنطقة نفزاوة عند حلوله بالبلاد التونسية قادما من قرية الجديدة بناحية المدينة المنورة بالجزيرة العربية خلافا لما جاء في ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني التي أوردها محمود مقكديش والمؤرخون التونسيون الآخرون الذين ترجموا له. فبحسب هذه الأخبار المأثورة نزل سيدي معين وعاش بقرية أخرى اسمها "الرحمات" تقع على بعد حوالي 8 كلم شمال قرية جمنة بالقرب من مدينة قبلي المركز الإداري الحالي لمنطقة نفزاوة.

فقد جاء في هذه الأخبار المأثورة والمؤكدة ببعض الشواهد المادَية أنَّ سيدي معين جاء من المشرق رفقة والده الذي كان يُدعى المهدي فسكنا بناحية جبل دمرً بجهة تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية بالقرية التي اسمها "زمور" حيث اشتغل المهدي مدَّة بتدريس

القرآن فحصلت أحداث ومات المهدي في ظروف غامضة فهرب ابنه معين الى مدينة القيروان وسط البلاد التونسية ثم رجع الى الجنوب التونسي وقصد القرية المسماة "طرًة" التي كانت آنذاك عاصمة منطقة نفزاوة ومكث بقرية طرًة يشتغل بالفلاحة. فحصلت أحداث أجبرته على مغادرتها حيث تفيد المعطيات التاريخية المكتوبة أنً مدينة طرًة تعرًضت في أوائل القرن الثالث عشر ميلادي الى هجوم كاسح من طرف المُسمى يحي بن غانية الثائر ضد دولة الموحدين آنذاك باسم دولة المرابطين التي سبقتها في حكم شمال إفريقيا فقام بتدميرها وخرًبها تماما وخرج من سلم من أهلها فتفرًقوا في بلاد نفزاوة .

وكان سيدي معين مرفوقا بحفيده منصور بن عبد العزيز بن معين الوارد ذكره في نسب الشيخ إبراهيم الجمني فسافر هذا الأخير الى الجزائر للعمل هنالك صحبة شخص اسمه الشيخ القفطي بينما انتقل سيدي معين الى قرية الرحمات على الطريق الصحراوي بين مدينتي قبلي ودوز واقتنى أو استنبت واحة نخيل عرفت باسم غابة "المعانية" نسبة إليه ما زالت قائمة الى هذا اليوم وتابعة للزاوية الجمنية بقرية جمنة. وقبل أن يموت ترك لحفيده منصور وصية عند أحد معارفه يوصيه بأن يستوطن ناحية أخرى غير ناحية الرحمات ومات وارتقى في الأثناء الى مرتبة الولي تحت اسم سيدي معين فدفن في قرية الرحمات في ضريحه المنسوب إليه الى هذا اليوم.

ويمكن على أساس وجود 7 أجداد بينه وبين الشيخ عبد الله الحاج القول بأنه عاش في القرن الثالث عشر أي انًه شهد تدمير قرية طرًة المشار إليه أو الرابع عشر.

فإن الاسم الكامل للشيخ عبد الله الحاج مثلما ورد في تراجم ابنه الشيخ إبراهيم الجمني هو عبد الله بن إبراهيم بن أبي بكر بن عمر بن عبد الله بن محمد بن منصور بن عبد العزيز بن معين بحيث يوجد 7

أجداد بينه وبين سيدي معين أي حوالي 400 أو 350 سنة لأن هناك مؤرخين يذكرون اسم الجد الخامس عبد الله ولا يذكرون محمد أو العكس يذكرون محمد ولا يذكرون عبد الله.

وعندما رجع الحفيد منصور بن عبد العزيز بن معين من الجزائر أعلمه صاحب جدَه سيدي معين بما أوصاه به فترك الرحمات وذهب الى قرية اسمها القلعة قريبة من مدينة دوز وتقع على بعد حوالي 8 كلم جنوب قرية جمنة بينما تقع قرية الرحمات على بعد حوالي 8 كلم شمال قرية جمنة بحيث أنَّ جمنة توجد في الوسط بين قريتي الرحمات والقلعة على الطريق الصحراوي الرابط بين مدينتي قبلي ودوز. فاستصلح سيدي منصور أرضا بقرية القلعة وارتقى الى مرتبة الولي تحت اسم سيدي منصور وصار وصيًا على جماعة صغبرة كانت تقطن قرية القلعة اسمهم القنانة ويعرفون باسم "عرش القنانة" بمعنى عشيرة القنانة. وتقول الأخبار المأثورة انه منح لسكان قرية القلعة بعض الامتيازات من بينها التزوُج من بنات الجمنيين مع أن الأعراف تقتضي منهن أن يتزوجن في الجمنيين فقط بما يدلُ على وجود علاقة وطيدة بين سيدي منصور وبين جمنة وسكانها الجمنيين.

مدرسة الشيخ عبد الله الحاج بجمنة

أمًا عن سبب نزول الشيخ عبد الله بقرية جمنة وبنائه مدرسته بها فتقول الأخبار المأثورة انه قدم من منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب بجنوب المغرب الأقصى مثل جل الأولياء الصالحين الآخرين على اثر أدائه لفريضة الحج بالحجاز بالجزيرة العربية أين رأى في المنام شخصا يأمره بالنزول في المكان الذي تعثر فيه فرسه وتنكسر لها ساق وتبرك. فلما بلغ قرية جمنة وجد نساء يملين من بئر فطلب قليلا

من الماء فادًعين أن البئر نازحة فركز عصاه في فم البئر وقال : جمَي يا عين جمنة". فتحول البئر الى عين ماء جارية وبعد أن شرب وسقى فرسه تابع سيره فعثرت فرسه وانكسرت لها ساق وبركت على الأرض فعلم أنه المكان الذي ينبغي عليه أن يقيم فيه ويبعد حوالي مائة متر شرق عين الماء.

فنزل بجمنة وأسًس مدرسة لتدريس القرآن والعلوم الدينية وتزوًج من عدة نساء أغلبهن ينتمين الى عائلات شريفة النسب في منطقة نفزاوة وأنجب منهن عددا من الأبناء هم أجداد الأسر والعائلات التي تتركب منها جماعة الجمنيين المنتسبين اليه منهم ولده إبراهيم صاحب الزاوية الجمنية بجزيرة جربة الذي لم يكن له عقب وولده امحمد الذي أنجب عمر وإبراهيم الذين ساعدا الشيخ إبراهيم الجمني الكبير في توسيع مدرسته بجربة الى جانب علي بن أمحمد المشار إليه سابقا وضو بن امحمد كان أيضا متفقها بحيث أن أولاد أمحمد بعد الشيخ إبراهيم الكبير ورثوا الوظيفة التعليمية لجدهم الشيخ عبد الله الحاج.

واستمرت إدارة المدرسة الجمنية بجربة بأيدي الجمنيين من أولاد امحمد الى حين استقلال تونس سنة 1956 ميلادي وكان آخرهم الشيخ الطيب الجمني حسبما جاء في كتاب "جزيرة جربة في موكب التاريخ" للأستاذ يوسف بن امحمد الباروني.

كما جاء في الكتاب المذكور "جزيرة جربة في موكب التاريخ" أنًه وقع سنة 1117 هجري (1713 للميلاد) الطاعون بجزيرة جربة سمي "وباء ابراهيم الشريف" ودام هذا الوباء 12 سنة يظهر أحيانا ويغيب أحيانا وتوفي فيه عدد من علماء جربة منهم إبراهيم بن ضو الجمني. غير أن التواريخ التي أوردها صاحب كتاب "جزيرة جربة في موكب التاريخ" لا تتوافق مع التاريخ الحقيقي الذي وقع فيه هذا الطاعون مثلما ذكره محمود مقديش وهو سنة 1199 هجري الموافق

لسنة 1785 ميلادي. وقد ظهر هذا الطاعون أولا بمدينة جمال بالساحل التونسي ثمّ عمّ سائر بلدان شمال إفريقيا وجزيرة جربة.

فانسجاما مع التحاليل والمعطيات المتقدمة يمكن القول ان نزول الشيخ عبد الله الحاج بقرية جمنة وتأسيس مدرسة دينية بها جاء تنفيذا لإشارة أحد أساتذته على غرار جلَ الأولياء الذين اختصوا واشتغلوا بنشر الدين الإسلامي والعلوم الدينية وفق المذهب السني لمزاحمة المذهب الاباضي الخارجي. وليس هناك تناقض بين مولده بقرية جمنة إذا كان كذلك فعليا ومقدمه من الساقية الحمراء أو أي مكان آخر لأن هؤلاء الأولياء مثلما مرً ذكره في ترجمات بعض الأولياء الصالحين كانوا يتنقلون بين المناطق والبلدان في شبابهم للدراسة والتفقه في الدين وأحيانا للانخراط في بعض الطرق الصوفية قبل استقرارهم في مكان معلوم وتأسيس مدارس وزوايا وأسر بذلك المكان.

وقد ظلت مدرسة الشيخ عبد الله الحاج بجمنة قائمة الى عهد قريب جدا وكانت تسمى "الخلوة" واقتصرت في العهود الأخيرة على الفضاء الذي يدرس فيه القرآن وهو قاعة كبيرة بجانبها مسجد القرية فوق الهضبة التي كانت تقوم عليها بلدة جمنة قديما. وكانت تضُمُّ المدرسة القاعة الكبيرة وبعض الغرف من البناء التقليدي المحيطة بها والمسجد وظلت القاعة تستقبل الأطفال لحفظ القرآن الى عهد قريب بينما كانت المدرسة بأكملها تستقبل قديما الطلبة من مختلف النواحي على غرار مدرسة الشيخ إبراهيم الجمني بجربة للإقامة الطويلة والتعليم.

والملاحظ أنً اسم "الخلوة" له أبعاد صوفية وهو مشتق من الاختلاء للتأمل بحيث يمكن القول أن الزاوية الجمنية بقرية جمنة مع انخراطها التام في المذهب السني المالكي واعتماده في مناهج التدريس كان لها بعض الأبعاد الصوفية على غرار أغلب الزوايا والمدارس

الدينية القديمة في بلدان شمال إفريقيا من حيث التمسك المطلق بظاهر القرآن والسنة في كل الأحوال انسجاما مع تعاليم المذهب السني المالكي وإعطاء المكانة المرموقة للجوانب الروحية في الحياة الإنسانية وهو ما تبرزه سيرة الشيخ إبراهيم الجمني وعمل زاويته بجربة.

الزوايا التعليمية والطرق الصوفية

فإن أغلب هذه الطرق والزوايا بوصفها أهمّ المؤسسات التعليمية الدينية في تلك العهود في بلدان شمال إفريقيا كانت تستند في سلوكها وعملها الى التصوف السُنّي القائم على تقديم القرآن والسُنّة أي أقوال النبي محمد نبي الإسلام وأفعاله في ما يخصّ معرفة الحقيقة والسير في الحياة . وكان هذا المنهج شعار الطريقة الصوفية الشاذلية التي تعتبر من أقدم وأهم الطرق الصوفية الإسلامية في أخذها بالقرآن والسنة مع إعطاء الجانب الروحي المكانة التي يستحقُها. وقد أسس الطريقة الشاذلية العالم والصوفي الشهير سيدي أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة 656 هجري الموافق لسنة 1258 ميلادي بصحراء عيذاب بجنوب مصر ومدفون هناك في قرية اسمها "حميثرة" ومات فيها وهو في طريقه الى الحج. وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي ولد ونشأ في بلاد غمارة في جبال الريف شمال المغرب الأقصى المطل على البحر الأبيض المتوسط وعاصمتها مدينة نكور غير بعيد عن مدينتي تبسة وتيطاون في بني زرويل الذين يُعتبرون من الأشراف في قول البعض. كُفَّ بصرُه في أخريات حياته.

وتنتمي أسرته الى قبيلة "غمارة" البربرية وهي قبيلة اشتهر أفرادها منذ القديم قبل الإسلام وبعده بممارسة الكهانة والعرافة القائمة على تأويل الأحلام التي يراها الكاهن منهم خلال نوم عميق يستمر معه

طيلة اليومين والثلاثة وعندما يستيقظ يخبر بما سيحصل في المستقبل على ضوء ما رآه من أحلام خلال نومه العميق. وكان هذا الأسلوب في الكهانة والعرافة منتشرا لدى الكثير من الجماعات البشرية الأصلية في بلاد روسيا وسيبيريا وأمريكا الشمالية. ولكنً المؤرخين العرب الذين كتبوا عن قبيلة غمارة البربرية كانوا متأثرين بالثقافة الإسلامية فكانوا يصفون هذا الفن المعرفي بالسحر في معناه العادي بوصفه صنف من الشعوذة مخالفة للعقل والدين وهو رأي بعيد جدا عن الصواب.

فان العديد من الأولياء الصالحين المشتهرين بالمتصوفين هم من قبيلة غمارة وتوجد ببلادهم جماعة من العروسيين في قرية تسمى "بن عروس" يقال ان الولي أحمد بن عروس من أهل القرن الخامس عشر ميلادي منهم بالإضافة الى الولي والمتصوف محمد الغماري من أصحاب أبو الحسن الشاذلي الأربعين توفي سنة 663 هجري حوالي 1270 ميلادي. وهناك بعض المواقع في بلدان شمال إفريقيا تحمل اسم "قمار" لا شكً أنها اتخذت هذا الاسم من قبيلة غمارة بينها حي بضواحي العاصمة الليبية طرابلس اسمه "قمارة". كما يوجد قرية اسمها "قمار" بوادي سوف غرب الجزائر بالإضافة الى جزيرة تحمل اسم "غمارة" في جزر الكناري في عرض المغرب الأقصى جنوبا وكانت جزر الكناري تابعة لشمال إفريقيا وسكانها من البربر قبل استعمارها من طرف الأسبان المسيحيين في القرن الخامس عشر ميلادي ودمج سكانها في الثقافة الاسبانية المسيحية.

وينتسب الى قبيلة غمارة الولي الصالح سيدي علي بن عون القماري نسبة الى مدينة قمار بوادي سوف بغرب الجزائر عاش ما بين 1640 و1760 وقضى فترة من حياته بقرية سيدي علي بن عون بجهة سيدي بوزيد بالشمال التونسي حيث توفي ودفن فسميت القرية باسمه. وهو الذي يقول :

"سياحتــك فــي البلــدان رياســة ومعرفتـك فـي الرجـال كنـوز"

وبعضهم ينشد هذا البيت

"دورانــك في البلــدان رياســة ومعرفتـك فـي الرجـال كنـوز".

وقد أخذ أبو الحسن الشاذلي الطريقة الصوفية عن سيدي عبد السلام بن سليمان مشيش الذي أخذها بدوره عن سيدي أبي مدين شعيب الذي أخذها بدوره عن القطب عبد القادر الجيلاني المتوفى والمدفون ببغداد في 1166 ميلادي الذي استوحاها من تعاليم أبو حامد الغزالي المتوفى في طوس بإيران في سنة 1111 للميلاد تلميذ إمام الحرمين عبد المالك الجويني المتوفى بنيسابور بإيران سنة 1085 للميلاد الذي كان له السبق في صهر الفقه السُّني بالعقيدة الأشعرية المنسوبة لصاحبها العالم أبو الحسن الأشعري المتوفى ببغداد سنة 936 ميلادي . وكان الجويني شافعيا على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي له كتاب "الشامل" في العقيدة الأشعرية. وكذلك كان أبو حامد الغزالي تلميذه. أمّا الإمام محمد بن إدريس الشافعي فكان من أعز تلامذة الإمام مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي السائد في بلدان شمال إفريقيا وأسّسه الإمام مالك بالمدينة المنوّرة بالجزيرة العربية حيث توفي سنة 795 للميلاد بينما توفي الشافعي في القاهرة بمصر سنة 820 للميلاد وله مقام مشهور هناك فوق ضريحه بسفح جبل المقطم.

فكان أبو الحسن الشاذلي يقول "إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسّك بالكتاب والسنة ودع الكشف". ويقصد بالكتاب كما هو معلوم القرآن بينما يقصد بالكشف مثلما هو متعارف عليه عند أهل التصوف المعرفة المحضة والعلم المُستلهم الذي يتحصّل عليه الشيخ الصوفي وأتباعه من المريدين لطريقته بواسطة الممارسة والمجاهدة الصوفية وتسمى أيضا العمل الصوفي. ذلك أنّ الكثير من الصوفية من

طائفة المجاذيب والملهمين يفضَلون الكشف بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق المجاهدة الصوفية على المعرفة المكتسبة بواسطة دراسة الشريعة والتعاليم الدينية ويُسمون هذا الكشف الحقيقة فيفرقون بين الشريعة والحقيقة أي بعبارة أخرى بين الدين والحقيقة فاصطدموا بالفقهاء.

وفي هذا المعنى يقول أحد الصوفية من تونس :

رأيــت العلــم علميـــــن	موهــــوب ومكســــــوب
ولا ينفــــع مكســـــوب	إذا لـــم يــك موهـــــوب
كمـــا لا تنفــع الشمــس	وضــوء العيــن مسلــوب

ورغم هذا التمسك المطلق بالقرآن والسنة فقد اتهم أبو الحسن الشاذلي من طرف بعض فقهاء تونس عند إقامته بها بالزندقة وتعاطي الكيمياء أو السيمياء مثلما كانت تدعى في ذلك الوقت بوصفها فرع من العلوم الفلسفية المراد منها تغيير طبائع العناصر المادية كتغيير النحاس الى ذهب.

كما أنَّ أبو حامد الغزالي الذي كان سباقا في تقديم القرآن والسنة على الكشف اتهم بالكفر والشرك. وأقدم الجماعة المعروفون باسم "المرابطون" أثناء ازدهار دولتهم ببلدان شمال إفريقيا والأندلس العربية باسبانيا ما بين 1061 و1147 للميلاد على إحراق كتبه وخاصة كتابه "إحياء علوم الدين" وكان ذلك سنة 507 هجري بأمر السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين. وأُحرق كتابُه "إحياء علوم الدين" بمدينة قرطبة عاصمة الأندلس العربية في ذلك الوقت على الجانب الغربي من رحبة مسجدها الكبير بجلوده بعد إشباعه زيتا بمحضر جماعة من أعيان الناس اثر إصدار قاضي قرطبة محمد بن حمدين فتواه بتكفير الغزالي. وكان الغزالي شافعي المذهب أشعري العقيدة.

وزعم الشاعر السوري الحلبي علي بن منصور المعروف بابن القارح المتوفى حوالي سنة 1020 للميلاد بالموصل بالعراق في رسالته لشيخ معرة النعمان بسوريا الشاعر العربي الكبير أبو العلاء المعري المتوفى سنة 1057 للميلاد بذات المدينة أن قراءة بعض كتب الغزالي على غرار " المنقذ من الضلال" و"تهافت الفلاسفة " يترك الانطباع بأن الذات الإلهية ثنائية. وانتقد في ذات السياق ضمن رسالته المتصوفين عموما وفي مقدمتهم الشاعر والصوفي الشهير حسين بن منصور الحلاج الذي قتل مصلوبا سنة 922 للميلاد ببغداد تنفيذا لأمر الملك أو الخليفة العباسي كما يُسمى آنذاك المقتدر بالله بتهمة الكفر والزندقة بعد محاكمة استمرت 9 سنوات.

وكان الحلاج أحد تلاميذ العالم والصوفي الكبير الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي المتوفى حوالي سنة 897 للميلاد غير أنَّ الجنيد مع تصوفه كان متمسكا بالقرآن والسنة بخلاف الحلاج الذي كان يميل الى المجاهدة والمكاشفة الصوفية لبلوغ الحقيقة فاصطدم بالفقهاء. فقد كان الجنيد يقول "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة". ويعود الى تلميذ آخر من تلاميذ الجنيد اسمه عمر بن عثمان المكّي نشر عادة لباس الخرقة عند الصوفية وهي الثوب الممزق بمثابة الرمز المعرَف للتصوف والمتصوفين وكانت الخرقة يتوارثها هؤلاء المتصوفون.

عبد الله الحاج يصاهر الحوامد

فكان هناك تكامل كبير في العمل بين مختلف الزوايا بقيادة مؤسسيها وأصحابها من الأولياء الصالحين من أجل إعلاء شأن المذهب السُني المالكي ونشره بدل المذاهب الأخرى وخاصة منها المذهبين الشيعي والخارجي في ربوع شمال إفريقيا وفي منطقة نفزاوة بالذات

وخاصة بناحية جمنة وما جاورها امتدادا الى ليبيا حتًى أنً الكثير من الأولياء وأصحاب الزوايا في هذه الربوع تجمع بينهم قرابة دموية متأكدة الى جانب المصاهرة.

وعلى ذلك حرص الشيخ عبد الله الحاج على التزوًّج بنساء ينتمين إلى أسر شريفة بمعنى الى أسر تنتسب الى بعض الأولياء الصالحين من بينهن بالخصوص ابنة الشيخ علي بن حامد التي أنجبت له الشيخ إبراهيم الجمني.

وقد أشار الى ذلك محمود مقديش في ترجمة الشيخ إبراهيم الجمني حين قال إن جدًه للأم علي بن حامد كان من العلماء الأفاضل أخذ على الشيخ الخروبي الطرابلسي لقيه وتتلمذ عليه وناوله السبحة وألبسه الخرقة وأضافه التمر والماء وأعطاه الورد وألزمه قراءته.

فقد كان الشيخ علي بن حامد وليا من الصوفية ابن ولي مشهور بتلك النواحي اسمه سيدي حامد الشريف جدٌ جماعة شريفة اسمهم "الحوامد" كانوا يقطنون في ذلك الوقت ببلدة صغيرة في محيط قرية جمنة تعرف باسم "القصر الأحمر" حتى أن جدًهم يعرف أيضا باسم "حامد الأحمر" ويفصلها عن قرية جمنة شريط صغير جدا من شط الجريد يُسمى الى هذا اليوم باسم الشط ثم نزح الحوامد نهاية القرن العشرين ميلادي الى قرية جمنة في حي خاص بهم يُسمى حي القصارى نسبة الى القصر الأحمر الذي جاءوا منه. وتوجد أضرحة أجداد الحوامد أو القصارى ومن بينهم ضريحي سيدي حامد الشريف وسيدي على بن حامد ابنه في بلدة القصر الأحمر بينما يوجد ضريح الشيخ عبد الله الحاج والأجداد الأولين للجمنيين أبنائه في قرية جمنة.

وكان الشيخ محمد علي الخروبي الطرابلسي الذي تتلمذ عليه سيدي علي بن حامد من أصحاب الشيخ أحمد زروق . ويعتبر الخروبي

من أبرز صوفية وعلماء المالكية في القرن السادس عشر للميلاد بالجزائر التي توفي بها سنة 1557 وعرف بشرحه لكتاب "عيوب النفس" لأستاذه العالم المالكي والصوفي الكبير الشيخ أحمد زروق دفين مدينة مصراتة في ليبيا المتوفى بها في سنة 1460 ميلادي. وهو أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي ولد وتعلم بفاس ثمّ استمرً في طلب العلم حتى تبرز فيه وجلس للوعظ وله كتاب "قواعد الصوفية". وكان سيدي أحمد زروق التقى بالولي الصالح والصوفي الشهير سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري وهو صغير وتمنى له البروز في العلم والكشف. وهذا الأخير هو مؤسس الطريقة السلامية دفين مدينة زليطن بليبيا حيث توفي حوالي سنة 1555 ميلادي عن عمر ناهز 90 عاما وله زاوية كبيرة بهذه المدينة تعرف بزاوية سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري تعرًضت للتدمير سنة 995 هجري نهاية القرن السادس عشر للميلاد على يدي شخص اسمه يحي السويدي ادعى النبوة في ذلك الوقت. كما تعرًضت للتدمير أيضا في هذا الوقت سنة 2012 من طرف جماعة السلفيين أتباع مذهب محمد بن عبد الوهاب الحنبلي الذي ظهر في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي ما بين 1703 و1791 ميلادي.

وكان الشيخ الخروبي أستاذ سيدي علي بن حامد من أتباع الطريقة الشاذلية وعلى هذا فإنه ألبس الشيخ علي بن حامد خرقة الانخراط في الطريقة الشاذلية وهي قطعة من الثوب الممزق واتخذت الخرقة عند الصوفية أبعادا كثيرة يمكن الاطلاع عليها في الكتب المختصة. وعادة ما يُلبسها شيخ الطريقة في أي مكان كان للمريد الذي يريد الانضمام الى تلك الطريقة.

واشتهر أصحاب بعض الطرق الصوفية مثل الطريقة العيساوية في بعض قرى منطقة نفزاوة كما في قرية جمنة بإتباعهم أسلوبا خاصا

بهم في الانخراط في طريقتهم وهو أن يبصق مقدَّم الطريقة في القرية في فم المريد إيذانا بدخوله في صفوف الطريقة. وأسَّس الطريقة العيساوية العالم والصوفي الكبير سيدي محمد بن عيسى دفين مدينة مكناس بالمغرب الأقصى من أشهر علماء وصوفية الإسلام في القرن السادس عشر للميلاد.

فقد كان للبصاق والريق قيمة روحية حيث جاء في "نزهة الأنظار" لمحمود مقديش أن الشيخ الصفاقسي المعروف أحمد بن محمد الشرفي من أهل القرن الثامن عشر للميلاد "دخل وهو صغير على الولي الصالح المجذوب سيدي محمد عباس فناوله نرجيلة كان يشرب بها الدخان وما يعرف اليوم بالتبغ فانتهز الفرصة لمّا رأى على آلة الشرب أثر ريق الشيخ فالتهمه بهمّة ونية صادقة فمن ثمّ ظهر منه ينابيع العلم".

كما تزوّج الشيخ عبد الله الحاج من امرأة اسمها الشاعلية تنتسب الى ولية صالحة بناحية الصابرية بصحراء مدينة دوز اسمها أمي هندة. وكان يوجد الى عهد قريب ضريح من الأضرحة العادية ينسب الى امرأة صالحة يسميها الجمنيون "أمي الجليلة" بالقرب من العين القديمة التي فجّرها الشيخ عبد الله الحاج وبعضهم يقول إنها أخته وآخرون يقولون إنها زوجته وهو الأقرب ولعلّها من جماعة الجلايلة المنتمين للحمارنة كما مرّ ذكره.

أولياء آخرون بجمنة

فقد كانت منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية والمناطق المتصلة بها في تونس والجزائر وليبيا في فترة الشيخ عبد الله الحاج وما قبلها بقليل تعج بالأولياء الصالحين الوافدين من شتى النواحي

لشتى الأغراض ولشتى الأسباب فاختاروا ما يناسبهم من الأماكن فاستوطنوها وأسَّسوا بها الأسر واستصلحوا الأراضي للزراعة وفجًروا عيون الماء وأقاموا المدارس والمساجد والزوايا والقرى والبلدات.

فإلى جانب الحوامد الأشراف لقي الشيخ عبد الله الحاج بقرية جمنة ومحيطها المباشر أولياء آخرين وعائلات مستقرة بها تنتمي الى أولياء أقدم عصرا منه بينهم جماعة يعرفون باسم الميايحة و"أولاد مياح" مقيمون بواحة صغيرة في محيط جمنة اسمها واحة "مياح" نسبة الى ولي قديم اسمه سيدي مياح بو غرارة جدٌ الميايحة.

وقد عاش سيدي مياح بوغرارة في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد وبداية القرن الرابع عشر أي في زمن سيدي معين الجد البعيد للشيخ عبد الله الحاج وهو ابن الولي المعروف سيدي سلام بوغرارة دفين قرية كتًانة على الطريق الرابط بين مدينتي قابس ومدنين غير بعيد عن جبال مطماطة القريبة من مدينة قابس.

كما كان يقطن بقرية جمنة أيضا في حياة الشيخ عبد الله الحاج ولي آخر اسمه سيدي محمد بن بالقاسم ينتسب اليه جماعة اسمهم "البداوة" أو "البداوى" والواحد "بدوي" مقيمون بجمنة بينما يوجد ضريح سيدي محمد بن بالقاسم بناحية مطماطة بالقرب من مدينة قابس لأنه كان يتنقل أثناء حياته بين جمنة ومطماطة حيث مات ودفن وكانت له أملاك كثيرة بتلك النواحي. ويوجد للبداوى فروع في المغرب الأقصى بالشمال . وقال بعض الدارسين انً جماعة البداوى هم من بني عامر الهلاليين سُلكوا ضمن قبيلة العيايشة أو "أعياش" وهي قبيلة كبيرة لها فروع في مختلف بلدان شمال إفريقيا وحتى في الحجاز. وفيهم من يدًعي شرف النسب.

في هذا السياق ذكر بعض العارفين أنَّ سيدي عبد الله الحاج وسيدي محمد بن بالقاسم قدما معا الى جمنة فاستعانا الاثنان على إحياء البئر النازحة التي كانت بها فتحوَّلت الى عين ماء جارية فاستقر الشيخ عبد الله الحاج في ناحية واستقر سيدي محمد بن بالقاسم في ناحية أخرى من الهضبة التي كانت تقوم عليها في بداية الأمر قرية جمنة قبل أن تتوسَّع. وكانت عين الماء تجري في سفح الهضبة المطل حاليا على ضريح الشيخ عبد الله الحاج . وبالفعل كانت قرية جمنة أو بلدة جمنة الأصلية مقامة فوق هذه الهضبة فكانت مقسمة بين الجمنيين المنتسبين للشيخ عبد الله الحاج والبداوة المنتسبين للشيخ محمد بن بالقاسم . كما أن البساتين القديمة المحيطة بالهضبة كانت مقسمة بين الجماعتين.

وتوجد معطيات مكتوبة تشير الى أن الولي محمد بن بالقاسم كان متواجدا بجمنة في عهد الشيخ عبد الله الحاج.

التوسُع الاستيطاني عند أولياء نفزاوة

فقد اتخذ انتصاب الأولياء الصالحين في منطقة نفزاوة وغيرها من المناطق في البلاد التونسية وفي بلدان شمال إفريقيا عموما وخاصة الجزائر وتونس وليبيا طابع التوسع الاستيطاني تجسَّم في انتشار أبناء وأحفاد كل ولي من هؤلاء الأولياء من منطقتهم الأصلية حيث استقر أبوهم أو جدهم الى المناطق المجاورة داخل البلد الواحد وخارجه.

ففي ليبيا ما زال يوجد الى هذا اليوم العديد من الجماعات الذين يُسمَّون باسم "الغراير" وكذلك "الغرارات" نسبة الى بوغرارة في العديد من المدن الليبية ينتسبون الى أولياء صالحين من أبناء سيد سلام بوغرارة مثل سيدي مياح بوغرارة اختاروا استيطان ليبيا بينما اختار سيدي مياح الاستقرار بواحة "مياح" قرب جمنة. ويوجد من بين من

هؤلاء "الغراير" شقيق لسيدي مياح اسمه خليفة بو غرارة بن سلام بو غرارة دفين منطقة الغرارات بسوق الجمعة بالعاصمة الليبية طرابلس وأحفاده متواجدون في العديد من المدن الليبية في طرابلس وغريان ومسلاتة وترهونة وجنزور.

كما كان لسيدي سلام بوغرارة أخ شقيق اسمه محمد بو صاع استوطن ناحية سبيبة بجهة القصرين بالشمال الغربي للبلاد التونسية حيث يوجد ضريحه ويعرف عند الدارسين بأنًه ولي ليبي. والجدير بالملاحظة أنه يوجد بناحية سبيبة المذكورة مقام آخر ينسب الى سيدي حامد والد الشيخ علي بن حامد صهر الشيخ عبد الله الحاج الجمني. وعلى ذلك يلقب سيدي حامد بلقب حامد بوقبرين لأن له مقام بالقصر الأحمر قرب قرية جمنة ومقام بناحية سبيبة المذكورة بمكان يسمى "القرجومة".

ويبرز هذا السعى الى التوسع الاستيطاني لدى أولياء ذلك العصر في انتشار أبناء أسرة تعرف بأسرة شائب الذرعان تنتسب الى الأشراف المعروفين باسم الفواتير أحفاد الشريف خليفة الفيتوري. فهناك في منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية ولي صالح اسمه سيدي بالقاسم شائب الذرعان استوطن منذ قرون قرية اسمها "كلوامن" غير بعيدة عن قرية جمنة واليه ينتسب سكانها. وفي ليبيا ما زال يوجد الى هذا اليوم جماعات ينتسبون الى أولياء صالحين من آل شايب الذرعان بعضهم أخوة سيدي بالقاسم شائب الذرعان بينهم جماعة يعرفون باسم أولاد بن الأشهر مرابطون بناحية تاجوراء من نواحي طرابلس عاصمة ليبيا ينحدرون من سيدي عبد الرحمان بن الأشهر شائب الذرعان من عشائر فواتير مدينة زليطن. وتفيد الأخبار المأثورة وبعض الوثائق الرسمية أن سيدي عبد الرحمان بن الاشهر توفى سنة

1640 ميلادي. ويوجد جماعة آخرون من آل شائب الذرعان ينتسبون الى ولي صالح اسمه سيدي سعدى شائب الذرعان بمدينة قماطة الليبية.

في هذا السياق أشار بعض الدارسين الى وجود ولي آخر اسمه سيدي شعبان شايب الذرعان قال انه مدفون بمنطقة الطرشان بناحية ترهونة بليبيا على بعد حوالي 100 كلم جنوب شرق العاصمة الليبية طرابلس. ونسبه الى جماعة الغرارات المستقرين بناحية مسلاتة بليبيا. وذكر أنً هناك من يقول انه مدفون بناحية "بورنو" بالسودان الغربي. وأشار الدارس المذكور الى ولي من الغررارت اسمه عثمان بن يونس بوجريدة بن سلام بوغرارة قال انه مدفون في سوق الجمعة بطرابلس مثل خليفة بو غرارة شقيق سيدي مياح وابن سلام بو غرارة.

وأكد هذا الدارس أن الغرارات هم من البربر من قبيلة عوسجة مشيرا الى وثيقة مخطوطة تؤكد أنً أحد أولاد بو غرارة يلقب بالدمًري نسبة الى جبل دمًر بجهة تطاوين بتونس والملاحظ أنً دمًر هم جماعة بربرية من قبيلة زواغة.

الفواتير وانتشارهم بنفزاوة

أمًا جماعة الفواتير الذين تنتمي إليهم أسرة شائب الذرعان فهم قبيلة شريفة النسب مشهورة وتعتبر من أكبر القبائل الشريفة عددا. يرتفع نسبهم حسبما هم مشهور عنها الى سيدي سليمان الفيتوري دفين مقبرة الشعاب بمدينة طرابلس عاصمة القطر الليبي ومنهم الولي المعروف سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري من أولياء القرن السادس عشر للميلاد مؤسس الطريقة السلامية دفين مدينة زليطن شرق مدينة طرابلس بقليل بالقرب من الساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط بجوار مدن الخمس ومصراطة ولبدة وترهونة وتاورغا.

وينحدر الفواتير من 7 أبناء خلفهم الشريف سليمان الفيتوري وهم محيا ومحمد الكبير ومحمد الصغير وعبد الله وعبد الواحد وعبد العزيز ويعقوب. توجد أضرحتهم بمدينة زليطن مع ضريح الولي عبد السلام الأسمر الفيتوري الذي ينحدر من محيا بن سليمان الفيتوري.

وجدٌهم البعيد هو خليفة ويلقب بلقب "فيتور" وسببه حسبما يقال ان أمه أخفته وهو صغير عن أعين بعض الأعداء خلف كدس من الفيتورة وهي ما يتبقى من الزيتون بعد عصره واستخراج الزيت منه فلقب بلقب "فيتور". أمًا سليمان الفيتوري فهو سليمان بن سالم بن خليفة الصغير بن عمران بن أحمد بن خليفة فيتور.

وكان لخليفة فيتور أخ شقيق اسمه يوسف ويلقب بلقب "عوسج". وأبوهما اسمه عبد الله نبيل وقيل ان أباهم هو ابنه عبد العزيز بن عبد الله نبيل. ولقب عبد الله بهذا اللقب "نبيل" لأنه اجتمع فيه النسب الشريف من الإمام حسن والإمام حسين ابني فاطمة الزهراء بنت النبي محمد بن عبد اله نبي الإسلام. نال نسب الإمام حسن من جهة أبيه الذي ينحدر من المُسمى إدريس الأول مؤسس الدولة الإدريسية الهاشمية بالمغرب الأقصى في القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي وهو أحد أحفاد الإمام حسن وحاز نسب الإمام حسين من جهة أمه . قدم عبد الله نبيل مع أسرته من الحجاز بالجزيرة العربية الى شمال إفريقيا فتنقل بين العرب من المغرب الأقصى الى ليبيا تارة مع أولاد سعيد وتارة مع قبيلة دريد . وتزوًج وهو بالمغرب أو بليبيا بمدينة الزاوية غرب طرابلس بالقرب من الحدود التونسية الليبية وأنجب خليفة ويوسف أو في قول آخر عبد العزيز أباهما مع إخوة آخرين. ثم ذهب للحجاز ليحج فمات في المدينة المنورة حيث دفن فتكفل بأبنائه أخوه واسمه مسلم جدُ الجماعة المعروفين باسم أشراف قماطة.

وجاء في مخطوطة حول هذه الأسرة بعنوان "روضة الأزهار" تنسب الى عالم اسمه البرموني أن "خليفة ويوسف ماتا بالصابرية ودفنا وسط الجامع الذي أسسه أبوهما هنالك وقبورهم مشهورة يزاران وذريتهما شرفهما صحيح لا خلاف فيه". ومات عبد الله نبيل مثلما تقدم ذكره وهو يؤدي فريضة الحج بالمدينة المنورة ودفن هناك. وبعضهم يقول خطأ بمكة.

ومع أن السياق والمتعارف عليه أن المقصود بقرية الصابرية في هذا الخبر هي قرية الصابرية الموجودة بناحية الزاوية بليبيا بالقرب من الحدود التونسية الليبية غير أنًه توجد أيضا قرية اسمها الصابرية بصحراء مدينة دوز بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية غير بعيدة عن الحدود مع ليبيا فيها أضرحة ومقامات للعديد من الأولياء الصالحين والوليات الصالحات وخاصة في بلدة اسمها "بشني" نسبة الى جماعة البشنات وهم فرع من الفواتير. ويقيم الأهالي ببلدة بشني المذكورة الى اليوم كل سنة "زردة" بمعنى احتفالا دينيا من نوع ما يسمى باسم "المولد" في مصر على شرف أجدادهم وهم مجموعة من الأولياء الصالحين يشيرون إليهم باسم "رجال قعود". ويوجد الى اليوم علماء دين مشهورون لقبهم "قعود". وجماعة البشنات هم أشراف من الفواتير يقيمون في حي اسمه "توز القديم" بناحية زليطن بليبيا وفي بعض أحياء هذه المدينة.

وينتمي الى الأشراف الفواتير كلٌ الأسر والعائلات التي تنتسب للعالم والصوفي الكبير سيد عبد السلام الأسمر الفيتوري دفين مدينة زليطن وهو عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميد بن عمران المعروف بالخليفة بن محيا بن سيدي سليمان الفيتوري. وهذا الأخير هو سليمان بن سالم بن خليفة بن عمران بن أحمد بن خليفة الملقب بفيتور. وهذا الأخير هو خليفة بن عبد العزيز بن عبد الله نبيل بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن عبد الرحيم بن أحمد

بن محمد بن الأمير عبد الله المخلص بن إدريس الأزهر باني مدينة فاس بن إدريس الأكبر مؤسس الدولة الادريسية بالمغرب في 172 هجري بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبت بن فاطمة الزهراء بنت النبي محمد بن عبد الله نبي الاسلام. وأنجب العالم عبد السلام الأسمر 15 ابنا كلهم خلفوا ذرية إلا ابن واحد فقط لم يخلف.

أمّا يوسف شقيق خليفة فيتور فقد استقر أبناؤه بالزاوية واليه ينتسب الأشراف المعروفون باسم "أولاد بو حميرة" ويرجعون كلهم الى الشريف إبراهيم الأمير بن علي بوحميرة بن عبد الحميد بن يوسف الصغير بن عبد الحميد بن نبيل الصغير بن يوسف بن عبد الحميد بن سعد بن يوسف عوسج.

مدينة دوز بنفزاوة وقرية توز القديم بليبيا

وتفيد بعض المعطيات المكتوبة أن سلام بوغرارة المذكور هو من العواسج بحيث أنه من الأشراف من ذرية عبد الله نبيل من ابنه يوسف عوسج فيكون ذرية سلام بو غرارة أو الغرارات أبناء عمومة الفواتير. ولعل لقب "عوسج" الذي يحمله يوسف شقيق خليفة فيتور جد الفواتير هو الذي دفع بالبعض الى اعتبارهم من البربر العاديين من جماعة عوسجة الكتاميين. وتوجد قرية اسمها عوسجة بالقرب من مدينة بنزرت بالشمال التونسي.

كما يستنتج من بعض المعطيات بهذا الخصوص أنه يوجد ضمن فواتير ليبيا جماعة اسمهم أولاد حامد ينتسبون الى ولي من الفواتير اسمه سيدي حامد من إحدى بطون فواتير ليبيا اسمهم العطايا. ويقيم أولاد سيدي حامد هؤلاء في القرية التي اسمها "توز القديم" بنواحي زليطن بليبيا مثل البشينات. واسم هذه القرية هو نفس الاسم

الذي تحمله مدينة "دوز" بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية غير أنه ينطق "توز" في ليبيا وينطق "دوز" في تونس. ويسكن مدينة دوز التونسية جماعة يسمون "المرازيق" يقولون انهم أشراف مثل الحوامد. وينتسبون الى سيدي مرزوق من أحفاد سيدي محمد بو دبوس الشقراني نسبة الى عائلة الشقارنة الشريفة بقرية شكشوك بجبل نفوسة بليبيا دفين مدينة غريان بليبيا فيكون المرازيق إخوة الشرفاء الشقارنة.

في هذا الإطار يقول بعض العارفين ان أصل اسم "توز" و"دوز" هو اسم "طوز" الذي يطلق على القلعة في اللغات الفارسية والكردية والتركمانية القديمة وتوجد مدينة في العراق اسمها "طوز خرماتو" يتركب من "طوز" بمعنى القلعة و"خورماتو" الذي قد يكون اسم المنطقة آو اسم أصحابها مع أن كلمة "خورما" تعني أيضا التمر والملح في التركمانية القديمة.

التوسُـع الجمنـــي

فقد اتسمت ظاهرة الأولياء الصالحين في بلدان شمال إفريقيا بهذا الانتشار والتوسع الاستيطاني العائلي سعيا الى الإشعاع الديني أو هربا من شتى المضايقات.

وهو ما سعت اليه عائلة الشيخ عبد الله الحاج في منطقة نفزاوة والمناطق المجاورة من خلال استيطان أفرادها منذ القديم بكامل الشريط العمراني الممتد من قرية القلعة بالقرب من مدينة دوز الى قرية الرحمات بالقرب من مدينة قبلي مرورا بقرية جمنة . ثمّ توجه بعض أفرادها الى الاستقرار بالجهة الغربية لمنطقة نفزاوة بناحية زاوية الحارث وأم الصمعة وبلدة الزوي بفضل الولي سيد علي بن امحمد بن عبد الله الحاج دفين جمنة لكن له مقام بزاوية الحرث. واستقر الشيخ

إبراهيم الجمني من ناحيته بجزيرة جربة وساعده حكام تونس من الأتراك في عهده على تدعيم مركزه بهذه الجزيرة من خلال إعانته على بعث المدرسة الجمنية المالكية بها مناهضة للمذهب الاباضي الخارجي الذي كان سائدا في جزيرة جربة. وكان حكام تونس من البايات التابعين للأتراك العثمانيين في ذلك الوقت يتبعون المذهب السُني الحنفي.

فقد تعرًض الشيخ إبراهيم الجمني للعديد من المضايقات من طرف أنصار المذهب الأباضي بجزيرة جربة كما مرً ذكره في ترجمته. وتقول الأخبار المأثورة ان والده الشيخ عبد الله الحاج عرف نفس المضايقات عند نزوله بقرية جمنة بمنطقة نفزاوة بما يدلٌ على أنه كان يوجد بها أنصار لمذهب الخوارج بمختلف تياراته وتمسك بالهوية البربرية ضدً الهوية العربية حيث ظلت بعض الجماعات في قرية جمنة يستعملون أسماء بربرية لتسمية الأشخاص الى عهد قريب مثل اسم "مزريوي" بمعنى السيد والشيخ. هذا بالإضافة الى وجود جماعات بربرية محضة كانت تسكن أو تستغل عددا من الواحات الصغيرة المحيطة بقرية جمنة آنذاك تسمى "العقلية" و"شطيان" و"كشادة" و"الأمطورية" و"تمداي" و"الحشانة" وغيرها.

وتدعى هذه الواحات الصغيرة المحيطة بالقرى كالتي مرً ذكرها باسم "زيرة" وهي واحات قديمة جدا وكانت كل قرى نفزاوة على شاكلتها. أمًا اسم "زيرة" الذي يطلق عليها فهو اسم بربري عريق ذو أبعاد حضارية ويفيد معنى الحي والبلدة والقرية والأهل والأسرة وما شابه ذلك ويدخل في تركيب الكثير من أسماء القرى والمدن في سائر بلدان شمال إفريقيا على غرار اسم مدينة "توزر" عاصمة بلاد الجريد بالجنوب التونسي ومدينة "بن زرت" وتكتب "بنزرت" في الشمال التونسي وقرية تامزرت بجهة جبال مطماطة.

وسبقت الإشارة الى أن الجماعة المنتسبين الى سيدي مياح بوغرارة بمحيط قرية جمنة آنذاك هم من العواسج أبناء عمومة الفواتير الأشراف حيث أنّ جدهم سيدي سلام بوغرارة دفين كتانة والد سيدي مياح دفين واحة مياح بجوار قرية جمنة من الأشراف من أولاد سيدي بوحميرة العواسج في ليبيا الذين هم من نسل سيدي يوسف العوسجي شقيق سيدي خليفة الفيتوري في مدينة الزاوية الغربية بالقطر الليبي. وكذلك الشان بالنسبة لجماعة الصيعان اولاد سيدي محمد بو صاع دفين سبيبة بجهة القصرين بالبلاد التونسية وشقيق سيدي سلام بوغرارة المتواجدين بالبلاد التونسية وبالقطر الليبي. ويقول البعض ان عوسجة قبيلة بربرية من قبيلة كتامة لكن سبقت الإشارة الى أن الانتماء الى البربر لا ينفي الانتماء الى النسب الشريف عن طريق الأم والاختلاط والمصاهرة مثلما أفتى به العالم أبو يعلى الزواوي المذكور سابقا.

واصطحب سيدي إبراهيم الجمني معه الى جزيرة جربة أفرادا من عائلته الجمنية استقروا بجربة وما زال أحفادهم بها الى هذا اليوم منهم عمر بن امحمد بن الشيخ عبد الله الحاج الذي خلف الشيخ إبراهيم الجمني على إدارة المدرسة الجمنية بجربة بعد وفاته. وكان له ابن اسمه موسى استقر بإشارة من أبيه أو عمه ابراهيم بن امحمد بجبال مطماطة القريبة وسكانها من البربر من قبيلة مطماطة البربرية وغيرها وكانوا يدينون آنذاك بالمذهب الخارجي الاباضي وخاصة التيار النفاتي المتفرع عنه نسبة الى عالم اباضي قديم اسمه نفات بن نصر. وما زال يوجد بمطماطة الى اليوم جماعة من الجمنيين ينتسبون الى سيدي موسى بن عمر بن امحمد بن الشيخ عبد الله الحاج وله هناك مقام معروف.

توسُــع الحوامــد

كما سعت عائلة سيدي حامد الشريف الولي الصالح ببلدة القصر الأحمر في محيط قرية جمنة ووالد سيد علي بن حامد الذي تزوّج الشيخ عبد الله الحاج ابنته الى التوسع والانتشار حيث يوجد للحوامد ولي آخر مشهور اسمه حامد الحشاني اختار الاستقرار في قرية اسمها المنشية قريبة من مدينة قبلي لكنها تقع غربيها بحيث يفصلها عن القصر الأحمر وعن جمنة جزء من شط الجريد. فان قرى وبلدات منطقة نفزاوة تقع كلها في الحافة الجنوبية لشط الجريد تتوسطها نوعا ما مدينة قبلي فبعضها يقع غربيها وبعضها يقع جنوبها وقليل منها يقع شمالها. وتقع بلاد الجريد ومدنها وقراها على الضفة الشمالية لشط الجريد وعاصمتها مدينة توزر وبها مدينة نفطة الشهيرة ومدينة دقاش.

ويُعرف سيدي حامد بقرية المنشية باسم سيدي حامد الحشاني بينما يعرف سيدي حامد بالقصر الأحمر ومدينة سبيبة باسم "حامد الشريف" و"حامد بوقبرين".

كما يوجد ولي صالح اسمه سيدي علي الحشاني بقرية منزل عبد الرحمان بضواحي مدينة بنزرت شمال البلاد التونسية. يقال انه قدم الى تونس في بداية القرن السادس عشر للميلاد من المغرب سابحا في البحر على خشبة أرست به حيث يوجد اليوم ضريحه بقرية منزل عبد الرحمان على ضفة بحيرة بنزرت أو بحيرة المزوًقة.

غير أن هناك جماعات كثيرة تسمى باسم " الحوامد" وتنتسب الى سيدي حامد في العديد من المدن والقرى والبلدات بتونس وليبيا والجزائر منهم جماعة يقيمون بقرية صغيرة اسمها "الحوامد" بناحية مدينة القيروان وسط البلاد التونسية بجوار قرية صغيرة مثلها تحمل

اسم "المرازيق" بحيث أن البلدتين ملتصقين بما يدل على وجود قرابة بين الجماعتين. وهناك جماعات من الحوامد ببعض قرى جهة سيدي بوزيد وفي جهة جندوبة بالشمال التونسي بينما يوجد مقام لسيدي حامد الشريف بجهة سبيبة مثلما سبقت الإشارة اليه.

وهناك بعض المعطيات حول الحوامد وحول سيدي حامد بالذات تقول إنهم أبناء عمومة جماعة المحاجيب الذين ينتسبون الى الأسياد المحاجيب ومنهم سيدي ابراهيم المحجوب دفين مصراتة بليبيا والأسياد المحاجيب الخمسة المدفونون بقرية قصور الساف بالساحل التونسي على أساس أن سيدي حامد هو شقيق سيدي ابراهيم المحجوب. وهناك قرية "الحوامد" بناحية مدينة نالوت غرب ليبيا. ويقال عنهم إنهم شرفاء . ويوجد جماعة من الحوامد ينتسبون الى سيدي حامد الشريف يقال عنه انه من فواتير ليبيا من جماعة منهم اسمهم العطايا الى جانب سيد حامد الحضيري الملقب بالغوث بمنطقة الجديد بناحية سبها بالقطر الليبي وله مقبرة بمدينة سبها باقليم فزًان اسمها مقبرة سيدي حامد الغوث. ويقول السكان في هذه النواحي عند التوسُل به : يا غوث حامد يا ولي فزًان". ويسمى "حامد الحضيري" واليه ينتسب جماعة الحضيرات.

وتوجد جماعات من الحوامد في الجزائر منهم جماعة تعرف بأسرة الشيخ بمدينة مليانة ينتسبون الى سيدي حامد الشريف ومنهم العالم الجزائري المعروف محمد بن عبد القادر بن الحاج بن عبد القادر بن الحاج المدني بن الحاج بن حليمة بن رابح بن عواز بن زيان بن حامد الشارف بن يعقوب الشريف بن محمد بن احمد بن عبد الله وينتهي نسبه الى سليمان بن عبد الله بن ادريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن فاطمة الزهراء بنت النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام.

وعاش العالم الجزائري محمد بن عبد القادر في القرن العشرين اذ هو من مواليد 1908 وعمَّر طويلا. مات سنة 2011 وله 103 سنة.

وهناك قرية اسمها "الحوامد" بناحية المسيلة بالجزائر وتسمى أيضا "الرمانة" ويوجد جماعة من الحوامد في مدينة بوسعادة القريبة منها الى جانب بعض الحوامد بمدينة بسكرة وقرية بريكة في تلك النواحي يقال إنهم ينتسبون الى ولي صالح اسمه سيدي مرات مع العلم وأنه يوجد بقرية المنشية بمنطقة نفزاوة حيث ضريح سيدي حامد الحشاني عائلة تسمى "عائلة المري".

وحسب شجرة نسب العالم محمد بن عبد القادر يوجد بينه وبين حامد الشارف 9 جدود.

وأورد بعض سكان قرية المنشية بمنطقة نفزاوة من الحوامد في هذا الوقت شجرة نسب لجده ترفعه الى الولي الصالح سيدي حامد الحشاني واسم جده سعد وهي سعد بن الهاني بن الطاهر بن كمالة بن محمد بن جمال الدين بن حامد الحشاني بما يعني ان بين الرجل الذي أورد النسب وبين سيدي حامد الحشاني 9 جدود وهو عدد الجدود بين العالم الجزائري محمد بن عبد القادر المولود سنة 1908 وجده سيدي حامد الشارف بحيث أن سيدي حامد الشريف نزيل ودفين القصر الأحمر بمحيط قرية جمنة أقدم بقليل أو انه معاصر لحامد الحشاني نزيل ودفين قرية المنشية بالقرب من مدينة قبلي .وتقول بعض الأخبار المأثورة إنهما إخوة هذا على افتراض أن الأمر يتعلق بنفس الشخص بمعنى أنَّ جد حوامد القصر الأحمر بجوار قرية جمنة وجد العالم الجزائري محمد بن عبد القادر هما شخص واحد. والملاحظ أنه يوجد حي وقرية اسمها المنشية تابعة للعاصمة الليبية طرابلس.

وزعم بعض الدارسين انًه يوجد كتاب مخطوط بعنوان "السيرة الغراء في مناقب سيدي حامد بن فاطمة الزهراء" جاء فيه حسب زعمه " أنً أبو الشكر حامد الحشاني ولد سنة 950 هجري في منطقة تعرف بالقصر الأحمر بجمنة أبوه سيدي محمد المحجوب بن خليفة بن خليفة بن حامد الأصغر بن حامد الحشاني الأكبر يتصل نسبه إلى الإمام جعفر الصادق الحسيني. أمًا أمٌه فاسمها علية بنت حسن الشريف جدً بلدة البرغوثية. عاش متصوفا ثم جاء الى المنشية .وتوفي حامد الحشاني في سنة 1043 هجري الموافق لسنة 1633 للميلاد عن 93 سنة ".

رجـال الحشـــان

وأورد الشخص المذكور نسب جدَه سعد بوصفه مؤلف قصيدة مشهورة في مدح الحوامد يقول مطلعها :

"يــا رجــال الحشــان   نظـــرة يــا رقــود المنشيــة".

وعلى هذا الأساس فإن حامد الحشاني اكتسب لقب "الحشاني" لأنه ينتمي الى "رجال الحشان" وهم مجموعة من الأولياء الصالحين القدماء تقول الأخبار المأثورة والمكتوبة إنهم من منطقة وادي ريغ بالجنوب الجزائري الصحراوي بولاية ورقلة وعاشوا منذ قرون بنواحي مدينة تقرت وبعض القرى الأخرى المحيطة بها مثل قرية تبسبست وقرية جامعة وبلدة عمر وبلدة "قوق" وقرى أخرى. وهي قرى شبيهة بقرى منطقة نفزاوة وبلاد الجريد بالجنوب التونسي تحيط بها واحات النخيل المنتج للتمر مثل النوع المعروف باسم "دقلة" ونوع "كنتة" ونوع "حرة" وغيرها. واستنادا الى هذه الأخبار فان اسم "حشان" يطلق على النخل وخاصة الفسيلة من النخل أي الصغيرة

المعدة للغرس وتسمى أيضا "جبارة" للمفرد و"جبار "للجمع بحيث أن رجال الحشان هم بصفة عامة الصحراويون الذين يستغلون بزراعة وغرس النخيل المنتج للتمر في المناطق الصحراوية.

فقد سبقت الإشارة الى وجود واحة صغيرة قديمة بمحيط قرية جمنة اسمها "الحشانة". وكان يوجد داخل قرية جمنة حديقة صغيرة بها نخلات مجتمعة اسمها "الحشيشينة" أي تصغير "حشانة". غير أن السكان في قرية جمنة وقرى نفزاوة يستعملون كلمة "جبارة" لتسمية النخل الصغير وأيضا كلمة "شكان" وهي كلمة من أصل بربري في صيغة الجمع ومفردها كلمة "شكَي" بمعنى الولد الصغير في البربرية.

وبالفعل كانت قرية "بلدة عمر" الجزائرية تسمى باسم "أجلو" و"جالو". وتوجد مدينة شهيرة اسمها "أوجلة" وأخرى اسمها "جالو" بليبيا تحيط بهما واحات النخيل بجنوب مدينة بنغازي وعلى بعد حوالي 250 كلم من البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر مدينة أوجلة الليبية من أقدم الواحات في العالم وتوجد بقربها مدينة "جالو" ويفصل بين المدينتين حوالي 25 كلم بحيث ان أوجلة تقع على بعد 25 كلم غرب مدينة "جالو". وقد أشار إليها بهذا الاسم المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد في كتابه "الموسوعة التاريخية". وذكر أن جماعة من أسلاف البربر اسمهم "نسامون" كانوا يقيمون في مدينة "أوجلة" طيلة الخريف لجني محاصيل النخيل من التمر ويتركون قطعانهم في الشمال قرب البحر ثم بعد جني التمر يرجعون الى الشمال. ويُسمى السكان بهذه الناحية حاليا باسم الأواجلة وهم أول من استنبت النخيل واستغل تمرها ومشتقاتها الأخرى.

وقد ظل سكان الواحات الصحراوية في مختلف بلدان شمال إفريقيا الى عهد قريب يقضون فترة من السنة طيلة فصل الخريف في

واحاتهم وقراهم في المناطق الصحراوية ويقضون الفترة الأخرى في المناطق الشمالية المجاورة حيث يزرعون الحبوب أو يرعون قطعانهم. فما زال سكان بلدة عمر المذكورة بالجزائر يقيمون في نهاية شهر ماي وبداية شهر جوان حفلا شعبيا بمناسبة ظهور البلح بمعنى التمر في فترة نضجه الأولى ويسمونه "الغيوان".

لذلك فان الانتماء الى رجال الحشان ليس خاصا بأهل منطقة ريغ بالجزائر باعتبار وجود الواحات في مختلف المناطق الصحراوية لبلدان شمال إفريقيا بما فيها مصر. وعلى هذا الأساس فان اسم "حشان" منتشر بين كل هذه البلدان حيث يوجد ا حي كبير اسمه الحشان بمحيط مدينة طرابلس عاصمة القطر الليبي وبلدة اسمها "حومة الحشان" بجزيرة جربة التونسية بمعنى حي الحشان باعتبار أن الحي يسمى "حومة" في البلاد التونسية ويدعو الأهالي شاطئها باسم شاطئ سيدي الحشاني .

فيمكن القول على ضوء هذه المعطيات ان أصل الحوامد المنتسبين للحشاشنة بقرية المنشية بمنطقة نفزاوة وجماعة الحشاشنة عموما قديم جدا و لا يمكن حصره في ناحية معلومة من شمال إفريقيا مثل وادي ريغ وناحية ورقلة وتقرت. غير أن السكان في وادي ريغ حافظوا على بعض العادات القديمة المتصلة بالنخل وبغراسة النخل اكتسبوا بفضلها اسم رجال الحشان . وما زال هؤلاء السكان يقيمون الى اليوم حفلات شبه دينية على شرف مجموعة من الأولياء الصالحين يُعرفون باسم "رجال الحشان" منها حفلات أصبحت مهرجانات ثقافية رسمية تقام الى هذا اليوم تحت رعاية السلطات المحلية.

وتذكر الأخبار أن الأصل الأول لكل هذه العادات هو أن أجداد الجماعات البشرية الذين استوطنوا ناحية تقرت بالجنوب الجزائري كانوا رجالا صالحين و "رجال ملاح" في التعبير المحلي وكانوا

يجتمعون بعد موسم جني التمر من كل سنة للنظر في مشاكل المنطقة وإيجاد حلول لها وفض النزاعات الطارئة بين الأهالي كتقسيم مياه الري الى جانب العمل الاجتماعي كالمساعدة على تزويج البنات والشبان البالغين. ثم مع مرور الزمن تحوًل هذا الاجتماع السنوي الى حفلة من نوع الزردة والحضرة التي تقام على شرف الأولياء الى هذا اليوم في مختلف ربوع بلدان شمال إفريقيا تحت اسم "زردة رجال الحشان" و"حضرة رجال الحشان". كما اتخذ في بعض الأحيان اسم زردة "للة المليحة" حيث أن الشخص الصالح والطيب يوصف بوصف " مليح" في شمال إفريقيا فكانت حضرة "رجال الحشان" تسمى "حضرة "رجال الملاح" فتحولت الى زردة "للة المليحة" بمعنى زردة "السيدة المليحة".

فقيل في هذا المعنى انه على اثر بعض المحن التاريخية والتشرد بين البلدان رجع أهالي وادي ريغ الى مواطنهم وقرروا تجديد مجمع رجال الحشان فاتجه الجماعة القاطنون بشمال المنطقة جهة الجنوب واتجه القاطنون بالجنوب جهة الشمال فالتقوا في مكان يسمى اليوم باسم الجامعة تخليدا للحدث وهو قرية الجامعة الحالية بوادي ريغ فجددوا بها ديوان رجال الحشان على الصيغة الموصوفة سابقا.

والغالب على الظن أن جماعة الحوامد بمنطقة نفزاوة وإخوانهم بالقرب من مدينة القيروان وجماعة الميايحة بقرية جمنة وجماعة المرازيق بمدينة دوز وإخوانهم بالقرب من مدينة القيروان قدموا في بداية أمرهم من ليبيا ولا شكً أنه كانت تجمع بينهم بعض صلات القرابة حيث أن الحوامد والميياحة هم من الفواتير والعواسج بينما ينتمي المرازيق أيضا الى نخبة من الأولياء الأشراف.

فقد ذكر بعض العارفين أن الولي مياح بوغرارة قدم من ناحية زليطن بليبيا وتعتبر مدينة زليطن المركز الرئيسي للأشراف الفواتير حيث يوجد بها مقام سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري جدَ أغلب الأسر

المنتمية للفواتير بليبيا. كما أنَّ الولي سيدي محمد بو صاع دفين مدينة سبيبة بالبلاد التونسية وشقيق سيدي سلام بوغرارة والد سيدي مياح يوصف في بعض الدراسات بأنه ولي ليبي. وهناك علاقات تاريخية بين سيدي حامد الشريف دفين القصر الأحمر في محيط قرية جمنة بمنطقة نفزاوة وأهل سبيبة بجهة القصرين بالشمال التونسي.

الهجـــرات القسريّـــة

فالي جانب التنقل الإرادي لغرض من الأغراض كانت الجماعات البشرية باستمرار عرضة الى التشرد والهجرة القسرية من مكان الى آخر بسبب ظلم الحكام والفتن والمشاكل الأسرية الداخلية والغزو الخارجي حيث كانت المدن الساحلية بشمال إفريقيا مثل مدينة طرابلس بليبيا وجزيرة جربة التونسية ومدينة المهدية التونسية وغيرها من المدن والمناطق ببلدان شمال إفريقيا مسرحا ومجالا للتنافس والتطاحن بين القوى الإسلامية على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط والقوى المسيحية النصرانية على ضفته الشمالية الى هذا اليوم بدون انقطاع.

فمن ذلك أن مدينة طرابلس تعرَّضت الى غزو مسيحي أوروبي سنة 1510 للميلاد دفع بسكانها وبسكان مدن ليبية أخرى قريبة وساحلية الى الهروب والتحصن في أماكن أخرى أو الهجرة شرقا وغربا. ووقعت في البلاد التونسية فتن كثيرة في ذات القرن بسبب التطاحن على الحكم بين أفراد أسرة بنو حفص الحاكمة في البلاد التونسية منذ القرن الثالث عشر للميلاد تسبَّبت في تدخل القوى المسيحية الأوروبية مثل اسبانيا في الشؤون التونسية واحتلال تونس من طرف اسبانيا المسيحية سنة 1535 فتحولت البلاد التونسية الى ساحة اقتتال بين

القوى المسيحية الأوروبية بقيادة اسبانيا من جهة والقوى الإسلامية بقيادة تركيا وسلاطينها من آل عثمان المعروفين باسم " العثمانيين" من حهة ثانية. وأفضى الأمر الى سقوط مصر وليبيا وتونس والجزائر تحت حكم آل عثمان حوالي 1575 الى أن جاء الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر فضمًها إليه وظلت تحت وصايته حتى استقلت في العقود الأخيرة منذ حوالي 70 سنة.

فمثلما حصل في الماضي للجماعات البشرية في مختلف أصقاع الأرض اجتمعت كل هذه الأسباب المذكورة لدفع الأسر والعائلات البشرية المنتمية لبعض الأولياء الصالحين بمنطقة نفزاوة وما جاورها من المناطق بالجزائر وليبيا للانتشار والتوسع الاستيطاني حتى أنًه توجد عائلات وأسر مشهورة في بعض البلدان العربية بالمشرق العربي تحمل اسم "الحشان" منهم أسر الحشان بدولة الكويت ويقال ان أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان من ذرية حميد بن عبد الله بن حشان..

أصـــول عربيـــة قحطانيـــة

ويقول البعض أيضا أن جماعة الأواجلة سكان منطقة أوجلة بليبيا ينتمون الى قبيلة جهينة العربية وهي أيضا من عرب اليمن من ولد قحطان.

في ذات السياق يرفع الجمنيون أبناء الشيخ عبد الله الحاج نسبهم الى الصحابي المقداد بن الأسود الكندي نسبة الى قبيلة كندة العربية التي كانت من أشهر قبائل اليمن بجنوب الجزيرة العربية في القديم وأسست في وسط الجزيرة العربية قبل الإسلام بمنطقة نجد واليمامة مملكة مشهورة عرفت باسم "مملكة كندة" كانت حليفا قويا لمملكة "حمير" باليمن. وقامت مملكة حمير باليمن في القرن الثاني قبل الميلاد

واستمرت الى سنة 527 بعد الميلاد وتعود تسميتها الى قبيلة حمير وهي قبيلة عربية يمنية ذكرت في بعض الكتابات التي تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد وتنسب الى جدها حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وتعرف مملكتها في الكتابات القديمة باسم "مملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابهم في المرتفعات والتهائم". والمعلوم أن العرب قديما يُقسَمون أنفسهم بين عرب الجنوب ويُسمون القحطانيون نسبة الى قحطان وعرب الشمال ويُسمون العدنانيون نسبة الى نزار بن معد بن عدنان الذي خلف أربعة أبناء هم أنمار واياد وربيعة ومضر أجداد مختلف القبائل العربية المنتسبة الى نزار ومن بينها قبيلة قريش التي كانت تنتسب الى مضر وكانت تسكن بمدينة مكة بالحجاز بالجزيرة العربية واليها ينتمي نبي الإسلام محمد بن عبد الله.

معطيات من رحلة العياشي

وفي هذا الإطار أيضا ذكر الفقيه والمتصوف السُني عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي من فقهاء ناحية سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى من جماعة آيت أعشاش في القرن السابع عشر الميلادي في كتابه المُسمى "رحلة العياشي" أنًه مرً بمنطقة نفزاوة وبقرية جمنة بالذات وهو في طريقه الى الحج في شتاء سنة 1661 للميلاد ضمن ركب حجيج سجلماسة. وأورد بعض المعطيات والمعلومات عن منطقة نفزاوة وقرية جمنة بهذه المناسبة فيها الكثير من الخلط والقلب للحقائق إما عن جهل أو عن قصد. فقد نسب زاوية جمنة الى الولي حامد الشريف دفين القصر الأحمر وأصبغ عليه لقب الجمني وهو بعيد تماما عن الحقيقة مثلما تقدًم الحديث عنه . كما أنًه أغفل تماما ذكر الشيخ عبد الله الحاج الذي هو صاحب الزاوية الجمنية. ولم يذكر الشيخ إبراهيم الجمني الذي كان مشهورا في ذلك الوقت. وكان الحوامد أحفاد الولي

حامد الشريف أصهار الشيخ عبد الله الحاج فقط باعتبار أنًه تزوًج ابنة الشيخ علي بن حامد وكانوا يقطنون آنذاك بالقصر الأحمر وليس بقرية جمنة. وهناك أخبار مأثورة تقول ان الولي حامد بوقبرين كان يخدم الشيخ عبد الله الحاج.

وذكر العياشي أنه التقى بالشيخ محمد بن بالقاسم جد قبيلة البداوى بقرية جمنة وهم في الأصل الأصيل من جماعة العيايشة مثل العياشي ووصفه بأنه من أصحاب العالم إبراهيم اللقاني المصري بينما ابنه اسمه إبراهيم اللقاني. لكن الشيخ ابراهيم الجمني قرأ على الشيخ ابراهيم اللقاني المصري القراءات. وبالجملة فكأنما الرجل استقى معلوماته من مصادر أخرى ولم يعاين الأمور بنفسه خاصة وأنه قدًم وصفا دقيقا لقرى نفزاوة من الناحية الطبيعية والجغرافية لا شك أنه منقول عن مصدر آخر يعرف المنطقة جيدا.

فقد ذكر العياشي أنً ركب حجيج سجلماسة بات ليلة فقط في جمنة. ورغم إشارته الى أن عدد قرى نفزاوة لا يحصى لكثرته وأنً الركب مرً بالبعض منها إلا أنه لم يذكر منها بالاسم سوى قرية جمنة فقط سواء لدى ذهابه الى الحج أو لدى عودته منه لأنه رجع من نفس الطريق. وتحدًث بشيء من الازدراء عن بعض طلبة الزاوية الجمنية لأنًهم لم يقدروه في ظنه حقً قدره.

وينتمي الفقيه محمد العياشي الى آيت أعياش بجهة سجلماسة التي تعرف اليوم بإقليم تافيلالت في جنوب المغرب الأقصى وكان أهله أصحاب زاوية تعرف بالزاوية العياشية أسسها والده محمد بن أبي بكر العياشي وكان والده ميتا آنذاك وهو معاصر للشيخ عبد الله الحاج جد الجمنيين الذي بدأ نشاطه الدعوي بقرية جمنة حوالي سنة 1625 وربما توفي قبل مرور العياشي بجمنة في هذه الحجة لأنً العياشي حج مرتين قبل هذه الحجة الثالثة وسلك نفس الطريق من سجلماسة الى الحجاز.

ولكنًه كان فقيها وقليل الإلمام بدقائق الأمور في ما يتعلق بتاريخ وخصائص الشعوب والجماعات البشرية.

وفي ما يلي كل ما أورده العياشي في كتابه "رحلة العياشي" واسمه أيضا "ماء الموائد" بخصوص منطقة نفزاوة وقرية جمنة والحوامد وغيرها من المسائل ذات الصلة :

"ثمً ارتحلنا من هناك مرحلتين وفي الثالثة وصلنا الى ماء قريب من السبخة (شط الجريد) ثم ارتحلنا من ذلك الماء وبتنا على حدَ السبخة التي هي على حدَ قرى نفزاوة وأظنٌ أنًها سبخة سيدي أبو هلال ودخلناها اثر سماء (مطر) فقاسى الناس فيها شدًة ولم يهتدوا للطريق إلا بعد هنيئة وسلكت فيها على صراط غير مستقيم أرقً من الشعر وأحدً من السيف لا يمشي فيه الا بعير واحد اثر بعير ومن أعرض عنه أو أشاح يمينا أو شمالا ربما تسيخ رجلاه في الأرض وخرجنا منها ظهرا بعد مشقة عظيمة.

"ثمً رحلنا ذلك اليوم الى قرية من قرى نفزاوة وذلك أول يوم رجب. وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرة تقرب من الألف كل قرية منفردة وحدها على نشز من الأرض بنخل مجتمع بازاءها وماؤها فيها حياض واسعة في وسط ذلك النخل. والعجيب من كون الماء فيها إنما يبرز في الغالب من الأماكن المرتفعة. وقراها شبيهة بقرى ربف مصر (تشبيه غريب) إلا أن الأرض غير الأرض وماؤها حلو والحجاج يزعمون أصل تسمية هذه البلد بنفزاوة أنًها كانت فيها ألف زاوية. وما ذكروه وان كان قريبا لا يصحُ لأن تسميتها بذلك قديمة من قبل الاسلام على ما في التواريخ والأصل المذكور عربي ولا عربية في المغرب قبل الإسلام.

"ثمً ارتحلنا منها ومررنا على طريقنا على قرى كثيرة فاقت الحصر وبتنا بآخرها في زاوية يقال لها جمنة وفيها قبر رجل من الصالحين يقال له سيدي حامد الجمني وعقبه الى الآن بالقرية متمسكون بسيرة الفقراء يطعمون الطعام ولقيت بهذه القرية رجلا اسمه سيدي محمد بن بالقاسم من أصحاب الشيخ إبراهيم اللقاني وعليه سمت حسن ووقار وله ماسة بالفقه وعنده بعض كتبه كالتتائي الكبير. وزرنا قبر صاحب الزاوية ثم ارتحلنا من جمنة وهي آخر قرى نفزاوة ومررنا بأرض طيبة ذات مزارع وعشب كثير ووجدنا غالب أهل نفزاوة يحرثون بها على البقر.

"وقد خرج معنا رجل من أهل الزاوية المذكورة ممًن ينتحل الفقه ومعه بعض الحمارنة قدموا هناك يمتارون التمر وسألهم أمير الركب أن يدلونا الطريق الى بلادهم فساروا معنا. فبينما أنا أسير في اليوم الثاني ضحى اذ هم جاءوا على خيلهم و بأيديهم صقور يسألون عني في الركب حتى وجدوني فسلموا علي بعدما نزلوا عن خيلهم. فلما ركبوا قال لي المتفقه منهم أريد منك أن تأذن لي لسؤال في مسألة فقهية. واستحسنت أدبه في الاستئذان واستقبحت فعله في سؤاله إياي وهو راكب وأنا ماش. فأذنت له في السؤال حياء من ردَه فأخذ يسأل عن مسائل في العبادات فبينما أنا آخذ معه اذ نفج الركب أرنبا فتصايح الحجاج عليها يمينا وشمالا فلمًا رأى ذلك أرسل عليها الصقر وأخذ يركض في أثرها وذهب وتركني ولم يسمع تمام الجواب عن مسائله فعلمت أنً الرجل في الغالب أخرق وأنً استئذانه أولا لم يكن عن أدب وإنما هو شيء رآه من غيره أو سمع به فعلق بذهنه.

"وفي اليوم الثالث من رحيلنا من نفزاوة تركنا جبال مطماطة عن يميننا ومررنا ضحى بسيدي قناو وهو في قرية خالية بفضاء من الأرض مدفون بإزاء مسجد حسن عتيق عليه رونق.

"وفي ذلك اليوم رحلنا الى قرب زريق وهي بلدة فيها زاوية سيدي عبد العزيز بن يحي بن عبد الرحمان بن جابر أحد السادات الحمارنة وكان ولده قدم معنا من نفزاوة (اسمه عبد الله ويكنى محمد الصالح) وتقدم هو الى بلده.

"ومررنا ذلك اليوم بقرى متعددة ولم نبت الى عرًام وهي قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادة الحمارنة بها مقابر أسلافهم سيدي يحي وغيره وهم الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة . ثم ارتحلنا من عرًام ونزلنا قرب واد يقال له واد السمار.

"وعند وصولنا أوائل بلاد زواغة (في التراب الليبي) لقينا ركب الحجاج المغربة من أهل مراكش ومن انضاف إليهم وسرنا ذلك اليوم وبتنا بزاوية صرمان. ثم في الغد مررنا صباحا بالزاوية الغربية وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ بن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي (دفين طرابلس) خرج معهم يشيعهم الى جربة ومعه صهره من أولاد سيدي حامد القاطنين بجربة وكان تزوًج منهم امرأة وله دار يأتيها الفينة بعد الفينة.

أمًا في طريق العودة من الحج في سنة 1663 للميلاد أي بعد سنتين من الذهاب فيقول العياشي : ثمً نزلنا قرب عرًام ثم زريق واجتمعت بالسيد محمد الصالح عبد الله بن عبد العزيز الحمروني وبتنا عنده. ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مدينة قابس. وفي الغد ارتحلنا الى الحامة وبتنا بها ثم ارتحلنا من الحامة وكان نزول الركب بعدما قطعوا الوادي ولم نبت تلك الليلة الى نبش الذئب عند شارية سيدي جمال بن سيدي حامد. وفي الغد نزلنا قصر الرمان وفي الغد مررنا بزاوية سيدي حامد ولم نبت الى زاوية الرمل ومنها قطعنا السبخة الكبيرة التي لا

نظير لها الى زاوية سيدي أبو هلال السوداني ونزلنا البلد ظهرا وقيلنا في النخيل فطلعنا الى زاوية سيدي أبو هلال في سن الجبل.

"ومررنا بعد ذلك بقرية دقيوس "(دقاش) وهي من أكبر بلدان تلك الناحية وفي الجبل الذي فوقها غار يُسمى أهل الكهف وكأنًهم تلمًحوا ذلك من كون البلد يُسمى دقيوس. وقد استفاض على ألسنة الحجاج وعامة أهل البلد أنً أهل الكهف في ذلك الغار وذكر لي صاحبنا أحمد بن عبد الإله عن سيدي محمد بن بالقاسم أنًه ذهب مع بعض الصالحين من أهل جمنة الى فم الكهف ودخل فخرج ممتقعا لونه وذكر أنًهم وجدهم هناك ورأى منهم عجبا ولم يقض لي الوصول إليه لضيق الوقت.

"ثم وصلنا الى توزر ضحى يوم الأربعاء 21 شعبان. (والى هنا ينتهي حديث العياشي عن منطقة نفزاوة وقرية جمنة).

أهل الكهف والرقود السبعة

وممًا يسترعي الانتباه في سرد العياشي لحكاية غار أهل الكهف بقرية دقيوس أو دقاش حاليا إشارته إلى أن هذا الاعتقاد يرجع الى تسمية البلد باسم "دقيوس" لأن الحكاية الأصلية لأهل الكهف ظهرت في سوريا حوالي سنة 500 للميلاد وتقول إنهم سبعة شبان مسيحيين عاشوا في عهد إمبراطور روماني اسمه بالفعل دكيوس حكم ما بين 249 و251 ميلادي ويسُمى أيضا "داك" وقد اشتهر باضطهاده للمسيحيين حسب المؤرخين المسيحيين . فكان الشبان السبعة المذكورين من ضمن ضحاياه حسب ما كان يرويه نصارى ذلك الوقت ففرٌوا الى كهف بجبل بالقرب من مدينة افس بتركيا حاليا فانطبق عليهم الكهف وظلوا فيه

قرنين من الزمان في سبات عميق ثم عادوا الى الحياة وخرجوا من الكهف فوجدوا أن الأمور تغيرت فرجعوا الى الكهف الذي أطبق عليهم من جديد. ووردت قصتهم في سورة الكهف في القرآن.

غير أنَّ المشهور عن غار أهل الكهف أنَّه موجود في قرية شنني بناحية تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية. ويُسمَي الأهالي بهذه الناحية الأشخاص الغيبيين المدفونين فيه "الرقود السبعة" وما زال موجودا الى هذا اليوم ويقام في محيطه كل سنة مهرجان ثقافي اسمه مهرجان دقيانوس نسبة الى موقع أثري بالمنطقة يحمل هذا الاسم في موضع يعرف باسم قصر الفرش. وأسطورة الرقود السبعة منتشرة بكثرة في سائر البلاد التونسية والقطر الجزائري على وجه الخصوص. وتوجد شواهد حجرية منسوبة لهم في أغلب المدن والقرى بما في ذلك مدينة تونس في الزاوية البكرية.

جمنة التونسية وجمنة الجزائرية

فإن قرية جمنة بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية عريقة جدا من الناحية التاريخية والبشرية على غرار مدينة أوجلة الليبية التي سبق الحديث عنها. فقرية جمنة وأغلب قرى منطقة نفزاوة هي مستوطنات بشرية قديمة تتركَّب كل مستوطنة من بعض الأسر والعائلات البشرية المنتمية الى أصل واحد ومن بعض بساتين النخيل المنتج للتمر تستغلها تلك الأسر بواسطة عين ماء جارية أو أكثر. وكانت هذه المستوطنات مستقلة نسبيا عن بعضها البعض كاستقلال الأحياء البشرية والنجوع عند الجماعات الرحل. وعلى غرار الأحياء البشرية المذكورة كانت معظم هذه المستوطنات تحمل اسم الأسر والعائلات التي تستغلها وهو حال قرية جمنة.

فإن جمنة هم في الأصل الأصيل جماعة بشرية قديمة تحمل هذا الاسم فاستوطنوا المكان فنقلوا اسمهم اليه على غرار منطقة نفزاوة فإنها تحمل هذا الاسم نسبة الى قبيلة نفزاوة البربرية المشهورة في التاريخ استوطنت المنطقة منذ القديم فنقلت اسمها إليها.

فما زال يوجد ببلدان شمال إفريقيا العديد من القرى الحاملة لهذا الاسم من ضمنها قرية تدعى باسم جمنة تقع في جبال الأوراس بالجزائر بنواحي "تكوت" على ضفة الواد المُسمى واد مستاوة في تلك الربوع غير بعيد عن زاوية خنقة سيدي ناجي المذكورة سابقا. ويوجد قرية اسمها "غليسية" بجوار قرية جمنة الجزائرية. كما يوجد بلدة اسمها "غليسية" بجوار قرية جمنة التونسية بمنطقة نفزاوة وهي تابعة لقرية كبيرة اسمها "زعفران" بالقرب من مدينة دوز بصحراء منطقة نفزاوة وتتركًب قرية زعفران المذكورة من ثلاث بلدات مجتمعة هي زعفران وغليسية وصنم. وكانت هذه البلدة الصغيرة تسمى صنم العذارى نسبة الى جماعة اسمهم العذارى قاطنين بالمكان منذ القديم وكانت البلدات الثلاثة تسمى باسم "العذارى" أو "صنم العذارى" ثم اتخذت في هذا العهد اسم زعفران. وتوجد مدينة زعفران على بعد حوالي 15 كلم جنوب مدينة جمنة بمنطقة نفزاوة وهي نفس المسافة التي تفصل تقريبا بين قريتي جمنة وغليسية بمنطقة جبال الأوراس بالجزائر.

فقد كانت قرية جمنة بجبال الأوراس بالجزائر في الأصل الأصيل مجموعة من الحصون والقلاع التقليدية مُقامة فوق أعلى قمة في جبال الأوراس وتعرف باسم "القلعة الجمنية" و"حصن جمنة" و"الحصن الجمني". وقد ورد ذكر الحصن الجمني بجبال الأوراس في كتاب تاريخ من تأليف مؤرخ يوناني بيزنطي اسمه "بروكوب" (Procope) من أهل القرن السادس الميلادي في إطار حديثه عن معارك طاحنة دارت رحاها في ربوع جبال الأوراس قرب حصن جمنة

بين بعض الجيوش البيزنطية الغازية ونخبة من المقاومين من سكان شمال إفريقيا من البربر بقيادة ملك بربري اسمه "باديس" جعلوا من حصن جمنة المنيع قاعدة لعملياتهم ضد الغزاة البيزنطيين.

في هذا المعنى جاء في دراسة للجامعي الجزائري زهير بخوش بعنوان "آثار القلاع المحصّنة والملاجئ الكهوفية بأوراس" ما نصّه : قرية جمنة على واد مستاوة هي امتداد لقلعة تاجمنت القديمة التي تقع في جبل أحمر خدُّو جنوب الكتلة الأوراسية يصعب الوصول إليها إلا عن طريق شقَ طبيعي بداخلها يخترقها من الأسفل الى الأعلى". وما زالت آثارها قائمة الى هذا اليوم

وكان مستعملوها قديما يصعدون إليها بواسطة سلالم من الحبال المتحرَكة في الظروف الصعبة.

ثم تحول الموقع مع مرور الزمن الى قرية جمنة على ضفة واد مستاوة مع مجموعة أخرى من القرى منها قرية غليسية المذكور وقرية أخرى اسمها "قلعة رمان" وقرية أخرى اسمها "تاجموت" مثل قرية بربرية اسمها تاجموت بناحية مطماطة بالجنوب التونسي ما زالت قائمة الى اليوم بالقرب من قرية تامزرت. وهذا ليس بغريب فإنً الكثير من القصور والقلاع البربرية القديمة اندثرت وحلت محلها قرى عادية على غرار قرية القلعة بجوار مدينة دوز بمنطقة نفزاوة أو القصر الأحمر بجوار قرية جمنة بمنطقة نفزاوة فانً القلعة والقصر اندثرا منذ زمان بعيد فتحولت القلعة الى قرية عادية وكذلك القصر الأحمر الذي تحول الى بلدة هجرها أصحابها من الحوامد منذ عقود وانتقلوا بالسكنى الى قرية جمنة المجاورة.

كما يوجد عددٌ من القرى تحمل اسم "جمنة" وبعض صيغه بجبل نفوسة في ليبيا منها موقع في غابة ككلة اسمه "جيمان" . وذكر

بعض الدارسين أن اللغة البربرية كانت مستعملة بهذه المنطقة الى سنوات 1960 مشيرا الى أن هذا الاسم اصله "ايجمي" وايجمان بمعنى الحقل والحقول والبساتين.

ويُوجد بلدتان اسمُهما" ايجمان" في محيط مدينة يفرن بجبل نفوسة بليبيا واحدة اسمها "ويجمان ن شرشور" والأخرى اسمها "ايجمان ن الكنيس" ويستعمل حرف "النون" للاضافة في اللغة البربرية بحيث يمكن القول ان البلدة الأولى اسمها "جمنة الشرشور" والثانية اسمها "جمنة الكنايس" مع الملاحظة وأن لفظة "أو" في البربرية تعادلها لفظة "بنو" و"أولاد " في العربية بحيث أن الاسم "ويجمين" يعني " بنو جمنة" و"الجمنيون".

فقد كان لقب "يوجمين" مستعملا بالفعل لتسمية الأشخاص عند الجماعات البربرية . ففي هذا الإطار ذكر العالم البربري والاباضي أحمد الشماخي في كتابه المعروف باسم "كتاب السير" عددا كبيرا من الشيوخ البرابرة الذين يحملون لقب "يوجمين" منهم يحي بن ويجمين الهواري من ناحية ورقلة بجنوب الجزائر وكانت تعرف باسم "ورجلان" ويوسف بن ويجمين وقال عن هذا الأخير انه من الأبدال السبعة وهؤلاء الابدال في المعتقدات الإسلامية "هم قوم من الصالحين من رجال الغيب كلّما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا آخر يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف بهم العذاب عمّن يريد" كما جاء في بعض الأحاديث النبوية. ولا يعرف عددهم بالضبط. والملاحظ أن لقب "هواري" الذي يحمله يحي بن ويجمين مأخوذ من اسم "هوارة" وهو اسم قبيلة بربرية مشهورة في التاريخ انصهرت معها قبيلة أوريغة البربرية المشهورة أيضا في التاريخ. أمّا عن يحي يوجمين فهو عالم اباضي مشهور ترجم له الدرجيني والشماخي.

كما توجد قرية اسمها "جومين" بناحية بنزرت بالشمال التونسي.ويوجد بإزائها قرية اسمها "بازينة" بالنون وليس بالميم مثل بازيمة القرية المجاورة لجمنة بمنطقة نفزاوة. وكلمة "بازينة" مشتقة من كلمة "بازين" المستعملة في اللغة البربرية في معنى الكوم والمرتفع من كل شيء مثل كوم التراب بكل أشكاله من هضبة وجبل وغيرهما وكوم الطعام وما يُسمى بالعيش والعصيدة في البلاد التونسية.

شعب الأمونيون

فمن الناحية اللغوية تعتبر كلمة "جمنة" صيغة الجمع لكلمة "آجيم" في اللغة البربرية. وتوجد في البلاد التونسية المدينة الساحلية المسماة "الجم". وتوجد قرية اسمها "آجيم" بجزيرة جربة. وهي مأخوذة من كلمة "تجمي" وتعني في اللغة البربرية الدار والبيت والأهل والحي من الأحياء وتعادل كلمة "زيرة" و"افراي" و"تادرات" والاسم الأخير مأخوذ من كلمة "دار" العربية. فقد ورد في قصة انتصاب الشيخ عبد الله الحاج بقرية جمنة بمنطقة نفزاوة أنًه ركز عصاه في فم البئر وقال : "جمي يا عين جمنة" فتحوًلت الى عين ماء جارية. فهناك علاقة بين "تجمي" و" جمنة" من الناحية اللغوية فيكون اسم جمنة الذي تحمله جماعة جمنة معناه الأهل والأجداد والحي والوطن.

وتأكيدا لصحة ما تقدم من تحاليل ومعطيات أشار المؤرخ اليوناني هيرودوت (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد في كتابه "الموسوعة التاريخية" الى وجود عدد من الشعوب والجماعات البربرية المستقرين في المناطق الصحراوية الممتدة من الحدود الليبية المصرية الى شط الجريد بالبلاد التونسية ذكر منهم حرفيا جماعة اسمهم "اقبلاوية' أو "اقبليون" (Cabales) وشعب آخر اسمه

"ابشلاوية" و"ابشلاويون" و"بسيلي" (Psylles) وشعب آخراسمه "الأمونيون" (Ammoniens). فان جماعة "القبليون" تركوا من الآثار المادَية المدينة المُسماة "قبلي" المركز الإداري الحالي لمنطقة نفزاوة وتنطق محليا في صيغة "اقبلي" وهو الأصحُ بينما ترك جماعة البيسلي قرية "ابشلي" القريبة من مدينة قبلي وتقع غربها. وفي ذات السياق ترك جماعة "الآمونيون" قرية جمنة على الطريق الصحراوية بين مدينتي قبلي ودوز.

وعلى هذا الأساس فإن "الجمنيون" هم هؤلاء "الأمونيون" الذين تحدًث عنهم هذا المؤرخ اليوناني هيروردوت في القرن الخامس قبل الميلاد علما وأنً الجيم في بداية الكلمة تسقط في بعض اللغات الإنسانية أو يعوض نطقها بالقاف البدوية كما يفعله المصريون. كما أنً سكان المناطق الصحراوية في البلاد التونسية كسكان منطقة نفزاوة وفي بلدان شمال إفريقيا عموما ما زال الناس يسمونهم باسم "القبليين". ويُسمى سكان مدينة قبلي بالذات باسم "القبلاويون". وكذلك الشأن بالنسبة للانتساب الى قرية ابشلي فيقال للشخص انه "ابشلاوي".

وقدًم المؤرخ هيروردوت وصفا دقيقا للمجال الترابي والطبيعي الذي كان يعيش فيه هؤلاء الجماعات فذكر أنهم كانوا مستقرين حول مستوطنات في شكل واحات تقوم على غراسة واستغلال النخيل المنتج للتمر فوق ربى وهضاب وتلال تسقيها عيون ماء طبيعية جارية في سفوح تلك الربى أو في أعلاها وأنهم كانوا شبه رحل فكانوا يقضون فصلي الصيف والخريف في واحاتهم الصحراوية لجني التمور وفصلي الشتاء والربيع بالناوحي الشمالية بالقرب من الساحل للرعي. وسبقت الإشارة الى أن هذا الوضع ظل وما زال قائما الى هذا اليوم ويتفق مع ما جاء في رحلة العياشي في القرن السابع عشر ميلادي بهذا الخصوص.

ماضي ضارب في القدم

ثمَّ إنَّ اسم "أمونيون" أو "الجمنيون" في التعبير الحالي مشتق من اسم "أمٌون" وهو اسم أحد الآلهة القدماء الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في الماضي كان يعبده بالخصوص البربر والمصريون القدماء وعظًمه أيضا جماعة الكنعانيون المعروفون باسم الفينيقيون في شمال إفريقيا وكان له معبد كبير في واحة سيوة على الحدود الليبية المصرية ولكنًه كان مشهورا في القديم بأنه إله بربري أو ليبي كما كان القدماء من اليونانيين يُسمون أسلاف البربر. فكان المؤرخ هيرودوت يدعوه باسم "أمٌون الليبي".

ويرمز الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في القديم الى آبائهم وأجدادهم الأولين بحيث أنَّ الإله أمٌون يرمز الى بعض آباء وأجداد وأسلاف البربر واسمه مشتق من اسم "من" الذي يفيد معنى الأبناء والأسرة ويعادل اسم "بن" واسم "حن" بالحاء وكذلك اسم "جن" بالجيم . وما زالت هذه الألفاظ تستعمل للانتساب . فان العرب يستعملون لفظة "بن" و"بنو" للانتساب بينما يستعمل الكنعانيون القدماء سكان الشام قديما لفظة "حن". وكان سكان مدينة رومة عاصمة ايطاليا بالجنوب الغربي للقارة الأوروبية المعروفون باسم "الرومان" يستعملون قديما لفظة "جن" للانتساب.

فهناك قرابة من هذه الناحية مع اسم "يمن" الذي تحمله بلاد اليمن بجنوب الجزيرة العربية ولا شكَّ أنها تعكس قرابة بين سكان اليمن في القديم وشعوب البربر في شمال إفريقيا سواء كانت قرابة دموية أو قرابة بالاختلاط والمصاهرة وهو ما يؤيد ما ذهب إليه العالم أبو يعلى الزواوي الجزائري المذكور سابقا في قوله بوجود قرابة بين جماعة زواوة البربرية وجماعة حمير أو قبيلة حمير اليمنية بالاستناد

الى التشابه بين اللغة الحميرية اليمينة القديمة واللغة البربرية مثلما يتكلًمها جماعة زواوة. وهو ما يفسَر أيضا اعتقاد الجمنيين الحاليين في الانتساب الى المقداد بن الأسود الكندي من قبيلة كندة العربية اليمنية.

أمًا عن اتجاهات ودروب هذا القرابة فيصعب البتٌ فيها بمعنى البتٌ في المصدر الأول الذي انتشر منه الأجداد والآباء الأولون للبربر وعرب اليمن وجنوب الجزيرة العربية عموما. فهل كان في الغرب من ناحية شمال إفريقيا بما فيها الصحراء الكبرى واتجه نحو المشرق أم كان في المشرق من اليمن وجنوب الجزيرة العربية بما فيها صحاريها وربعها الخالي فاتجه الى الغرب. ومع أن الرأي السائد هو أنً المصدر كان في المشرق فليس هنالك ما يؤكد هذا الرأي بصفة مطلقة.

واحــة شطيــان والتنـاوتـة

فالي جانب قرية جمنة بمنطقة نفزاوة كان يوجد الى عهد قريب جدا في محيطها المباشر واحة صغيرة اسمها "شطيان" اندثرت وزالت من الوجود منذ عقود وبقي اسمها فقط يُشير الى موقعها التي كانت قائمة فيه. فإن واحة شطيان تتسم هي أيضا بعراقتها التاريخية وورد ذكرها في بعض الكتب على أنًها كانت عامرة ومزدهرة في فترة ظهور الإسلام وما قبله وبعده أي في القرن السابع الميلادي وما بعدهي في القرن .

ففي هذا المعنى ورد في كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب" لصاحبه المؤرخ البربري المذكور سابقا أحمد بن سعيد الدرجيني من علماء الأباضية المشاهير بمدينة نفطة ببلاد الجريد بتونس في القرن السابع الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي ما نصه : "ثم هجم إبراهيم بن الأغلب على قنطرار (بلدة قديمة قرب نفطة) ثم سار الى

نفزاوة وفيها عالم (أباضي) يقال له أبو بكر بن يرسف النفوسي في قرية يقال لها "تنزاج" فأسَّره جند إبراهيم بن الأغلب فساعده ابنه على الهروب وكان الشيخ كفيفا ومضى به الى التناوتة وهم أهل القرية المعروفة "بشطيان" من قرى نفزاوة." كما ورد الخبر في الكتاب المسمى "كتاب السير" للمؤرخ والعالم الاباضي المذكور سابقا أحمد الشماخي من أهل القرن الخامس عشر ميلادي بجزيرة جربة التونسية.

وعاش هذا الرجل المسمى إبراهيم بن الأغلب في القرن الثاني للهجرة الموافق للقرن الثامن وبداية القرن التاسع للميلاد ما بين 757 و812 ميلادي (ما بين 140 و196 هجري) وهو قائد عسكري عربي عيَّنه الملك العربي القائم بشؤون الدولة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت المُسمى هارون الرشيد في مدينة بغداد بالعراق واليا ونائبا له على افريقية بمعنى تونس وبلدان شمال إفريقيا آنذاك وأرسله على رأس جيش كبير من المقاتلين العرب لتوطيد سلطانه بهذه البلدان والتصدي للثورات والانتفاضات المتتالية التي كان البربر بشمال إفريقيا يقومون بها باستمرار ضد الحكام العرب القادمين من الجزيرة العربية والمشرق العربي بعنوان الإسلام. فخالف هؤلاء الحكام العرب على افريقية مبادئ دينهم والقيم العربية النبيلة في سياسة البربر فثار عليهم البربر باستمرار باسم الإسلام الحق المتجسَم حسب رأيهم في مذهب الخوارج والاباضية بصفة خاصة.

كما أشار الشماخي الى وجود موقع آخر بجبل نفوسة بليبيا على الساحل اسمه "شطيان" و"شطيانة" حيث أورد انَّه رُوى عن شيخ اباضي اسمه يحي بن زكريا بن فصيل الزواغي قوله : كنا نأكل في الساحل في شطيانة اسفنجا (فطير)".

في ذات السياق ظل سكان قرية جمنة يحكون الى هذا اليوم أن واحة شطيان المنقرضة أو المندرسة كما يقال في اللغة العربية كانت في

يوم من الأيام آهلة بالسكان وكانت هي مركز العمران بتلك النواحي. وظلت قائمة وحيًة الى أواخر القرن العشرين بمثابة واحة تابعة لقرية جمنة على ملك بعض أسر هذه القرية يعتنون بها ويستغلونها فنضبت مياه العين التي كانت تسقيها فمات نخيلها وأهملها أصحابها فانقرضت واندرست على غرار العديد من الواحات الصغيرة القديمة مثل بلدة تنزاج الوارد ذكرها في خبر شطيان. فقد انقرضت قرية تنزاج منذ القديم ولم يعد يعرف موقعها بالضبط وبعضهم يقول إنها كانت قرب قرية طرًة العاصمة المحلية لمنطقة نفزاوة قديما أو إنها هي قرية طرًة. وما يمكن قوله هو أن اسمها "تين أزاج" بمعنى "منزل ازاج" نسبة الى جماعة بربرية اسمهم "ازاج" حيث ورد ذكر العديد من الأشخاص الحاملين للقب "الأزاجي" في كتابي الدرجيني والشماخي وأذا صحً أن تنزاج هي طرة فان بني أزاج فرع من قبيلة لواتة البربرية المشهورة في التاريخ لأن قرية طرة كانت تسكنها جماعات من لواتة حسب الأخبار أو إنًهم من قبيلة "ازداجة" البربرية.

والملاحظ أنه يوجد الكثير من المواقع في بلدان شمال إفريقيا أسماؤها بهذه الصيغة أي صيغة "تين فلان" على غرار موقع اسمه "تين اسلي" بجبل نفوسة بليبيا ذكره الشماخي ومعناه بالبربرية "منزل العريس" أو "منزل الصخر" و "منزل الجبل" أو كذلك "منزل اسلي" نسبة الى جماعة اسمهم أسلي. والمرجح أن القرية المُسماة "طمبار" بمنطقة نفزاوة بالقرب من مدينة قبلي أصل اسمها "تين بامر" حيث اشار الشماخي الى شيخ اباضي اسمه اسماعيل بن علي النفزاوي قال عنه وهذا الشيخ من "تين بامر" تناوتي.

وظل الجمنيون الى عهد قريب يتحدًثون عن شخص جبًار يسمونه باسم "غول شطيان" ويقولون عنه إنه كان صاحب واحة شطيان وكان جبارا عنيدا من المستكبرين والمترفين فاستضعف البلدات التي حوله ومن ضمنها بلدة جمنة وقهر أهلها وفرض عليهم الضرائب

والمكوس المجحفة منها تسليمه في مواسم معلومة بنتا من بناتهم تهدى له وسط حفل كبير تتخلله الولائم والأفراح وقصاعي الكسكسي باللحم.

ولا شكً أنً الأمر هو تعبير قديم عن الأوضاع التي كانت سائدة في الماضي والى عهد قريب جدا والمتمثلة في قيام الأقوياء باستغلال الضعفاء كما كان يفعل العرب بالبربر ببلدان شمال إفريقيا عند غلبتهم لهم وكما كان يفعل البربر أيضا عندما تسنح لهم الفرصة حيث تقول بعض الأخبار المأثورة إنً بنو هلال استوطنوا في فترة من الفترات واحة شطيان وتركوا فيها كنزا مدفونا أو إنًهم كانوا يستغلون لصالحهم العائلات البربرية التي كانت تستغلها. وبالفعل ظلت واحة شطيان الى حين اندثارها تستغل من طرف عائلة من أصول بربرية في قرية جمنة اسمهم "دار بن صميدة" وفيهم أفراد أسماؤهم بربرية مثل اسم "تلادة" للنساء و"القرماسي" للرجال نسبة الى قرية قرماسة البربرية بجهة تطاوين بالقرب من قرية شنني. وكانوا موالين لبعض عشائر أولاد يعقوب من العرب الهلالية المقيمين بقرية "نقة" على وزن "جدًة" غرب مدينة قبلي وكان أولاد يعقوب قبل الاستعمار الفرنسي لتونس سنة 1881 يستغلون من منطلق القوة سكان العديد من قرى نفزاوة من ذوي الأصول البربرية بالخصوص.

كما يتحدَث سكان جمنة أيضا عن ساكن غيبي يسكن واحة شطيان اسمه "سيدي الشطياني" نسبة الى شطيان يقولون عنه انه ولي صالح ويظهر أحيانا للناس الأحياء في شكل حنش جميل المنظر على غرار العديد من الأولياء الصالحين مثله حسب أقوالهم.

وبحسب العالمين الدرجيني والشماخي برز من جماعة التناوتة ويقال لهم أيضا "بنو تناوت" علماء أجلة من علماء الأباضية منهم عالم اسمه عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي من أهل ورجلان بالجزائر (ورقلة حاليا) له كتاب مشهور عند الاباضية بعنوان "الموجز في

العقائد والكلام". عاش في القرن السادس الهجري الثالث عشر الميلادي.

وينتمي الى قبيلة التناوتة أيضا أحد أكبر علماء الاباضية على الإطلاق وهو اسماعيل بن درار الغدامسي من الذين يعرفون عند الاباضية بحملة العلم الخمسة وهم عبد الرحمان بن رستم الفارسي وأبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المغافري الحميري اليمني وعاصم السدراتي وأبو داوود القبلي النفزاوي واسماعيل بن درار الغدامسي عاشوا في القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي وكانوا تلامذة عالم الخوارج ومرجع المذهب الاباضي آنذاك بمدينة البصرة جنوب العراق أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وتشاركوا بعد ذلك في نشر المذهب الاباضي في شمال إفريقيا وأسَّسوا مع بعضهم إمارات أباضية منذ سنة 140 للهجرة منها واحدة في جبل نفوسة بليبيا وطرابلس وامتدت الى القيروان ولم تعمَر طويلا وأخرى في مدينة تيهرت بالجزائر وضمت المناطق الجنوبية بالجزائر وتونس وجبل نفوسة وجزيرة جربة وبلاد الجريد واستمرًت من 160 الى حوالي 300 للهجرة (ما بين القرن الثامن وبداية القرن العاشر ميلادي).

واحـــة كشـــادة

وكذلك الشأن بالنسبة لواحة صغيرة أخرى في محيط جمنة اسمها "كشادة" كانت الى عهد قريب على ملك بعض الأسر الجمنية من أبناء الشيخ عبد الله الحاج وغيرهم. فقد كانت هذه الواحة زيرة قائمة بذاتها ومستوطنة مستقلة اتخذت اسمها من اسم الجماعة الذين كانوا يسكنونها واسمهم "كشادة" أو "كشات" وهم على الأرجح فرقة من قبيلة بربرية معروفة اسمها "كشات" ذكرها المؤرخ العلامة عبد الرحمان

ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة 1406في تاريخه الكبير المُسمى "كتاب العبر" وتنسب إليها مدينة "أنواكشوت" عاصمة دولة موريتانيا حيث أنه يتركب من لفظة "أنو" ومعناها البئر باللغة البربرية و"كشات" وهي قبيلة كشات فيكون معنى اسمها "بئر كشات". والأرجح أنهم من قبيلة زواوة لأنه يوجد فرقة اسمهم "كشوطة" تابعة لقبيلة زواوة.

غير أنً هناك أيضا فرقة من الأشراف الفواتير اسمهم "الكشاشدة".

وتفيد المعطيات المتوفرة أن الأشراف الكشاشدة المنتسبين للفواتير هم من أبناء سيدي محمد الكبير بن سليمان الفيتوري المدفون بمدينة زليطن مع اخوته الآخرين وهم 7 اخوة مثلما تقدًم ذكره ويسكن الكشاشدة ببلدة "توز القديم" بناحية زليطن مثل أبناء عمومتهم البشينات القاطنين بقرية "بشني" بصحراء مدينة دوز ولهم أيضا صلة قرابة بالحوامد المنتمين للفواتير ومثل سكان قرية كلوامن من آل شائب الذرعان بحيث هناك احتمال كبير في أن تكون زيرة "كشادة" التابعة لقرية جمنة اتخذت اسمها من الأشراف الكشاشدة من الفواتير باعتبار وجود جماعات لهم معهم صلة قرابة في جهة نفزاوة.

فقد اندثرت واحة أو زيرة شطيان مع العديد من الواحات التي في وضعها في منطقة نفزاوة لأنً عيون الماء التي كانت تسقيها نضبت وجفت نتيجة الاستغلال المكثف للمياه المتجمعة في جوف وباطن الأرض بالمناطق الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا مثل منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية. وتسمى هذه المياه الجوفية بالمائدة المائية. فمنذ بدايات القرن العشرين الميلادي انطلق استغلال هذه المائدة المائية بواسطة حفر الآبار الارتوازية العميقة بصورة مكثفة فنضبت مياه العيون القديمة التي كانت تغذيها ينابيع طبيعية سطحية واندثرت معها بساتين النخيل التي كانت ترويها ولكن في الأثناء أُنشئت

واحات نخيل جديدة على مساحات كبيرة تسقيها مياه الآبار الارتوازية العميقة التي تتغذى من المائدة المائية العميقة والمتوسطة العمق فتوسعت الواحات وتوسعت معها القرى المحيطة بها وأصبحت عبارة عن مدن صغيرة.

لا جديـد تحـت الشمـس

ومع ذلك ظل المشهد العام بمنطقة نفزاوة كما هو منذ استيطان الإنسان في هذه الربوع واستغلاله لبساتين النخيل المنتجة للتمر. فإن الوصف الذي أورده المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد لهذه الربوع ما زال صحيحا ومطابقا للوضع القائم. وكذلك الشأن بالنسبة للوصف الذي أورده الفقيه العياشي في القرن السابع عشر للميلاد فإنه ما زال مطابقا للوضع القائم.

فعلى هذا الأساس صدق الذي قال لا جديد تحت الشمس مع أنَّ الناس يستعملون هذا القول ببساطة غير مدركين لأبعاده العميقة وهي أنَّ الأمور ثابتة ومستقرة وعلى حالها كما هي لا تتغيَّر ولا تتحوَّل ويقابله الرأي الذي يقول دوام الحال من المحال بمعنى أنَّ الأمور غير ثابتة وتتحوَّل من حال الى حال باستمرار . وهذا الرأي الأخير هو المعتمد والسائد بين الناس في كل المستويات العلميَّة والعادية لأنَّ القول بالثبوت فيه نفي وإنكار لوجود الزمن وتعارض ظاهري مع التجربة الحسَية على غرار ما يشاهده أي شخص من خلال تجربته الخاصَّة حيث أن كل شخص في الظاهر يُولد ويحيا ويعيش ويكبُر مع الوقت ويهرم ويموت ويضمحل.

فبالنظر الى هذه التجربة الحسَية البسيطة يبدوا أنه ليس هناك أي ثبوت واستقرار ومع ذلك هناك ثبوت لأن الذي يُولد هو جسم متركب من كتلة من العناصر المادية الموجودة من قبل فتجمَّعت فيه

وركّبته بينما يقتصر نموّه وكبرُه في زيادة حجمه باستيعاب وامتصاص عناصر مادية أخرى من محيطه ثم إنَّ هذا الجسم الكبير بحكم بعض التأثيرات المادَية يتبعثر لأسباب مادية بحتة فتنتشر عناصره في المحيط وتظل قائمة مثل كوم من ذرات الرمل يبدأ صغيرا ثم يزداد حجمه نتيجة تراكم وتجمع ذرات أخرى من الرمل فيه فتهبُ رياح عاصفة فتذروه وتبعثره بحيث لم تكن هناك لا ولادة عناصر جديدة ولا اضمحلال.

ويتجسَّم الزمن أو الزمان في ما يُسمى بالفترات الزمنية وهي الأيام والشهور والفصول والسنين. فإن هذه الفترات الزمنية ليس لها وجود حقيقي وإنما أوجدتها صروف الحياة البشرية بمعنى أن الأوضاع البشرية هي التي كانت وراء ظهور الفترات الزمنية على غرار الفترة المُسماة "ساعة" أو الفترة المُسماة "أسبوع" فإن هذين الفترتين ليس لهما سند مادي حقيقي وإنما صنعهما الإنسان . فليس هناك في الوجود شيء اسمه "ساعة" أو شيء اسمه "أسبوع" مثل الشيء الذي اسمه "نخلة" و"ذئب" و"ماء".

فقد تعوَّد الناس في البلاد التونسية وغيرها من بلدان شمال إفريقيا على الخروج لاستقبال فصل الربيع من كلَ سنة في البراري والحدائق والأجنَّة وسط أجواء مفعمة بالفرحة حاملين معهم شتى أنواع الشراب والطعام لتناولها بالمناسبة. فقد كان الربيع في الأصل الأصيل شخصا وإنسانا بعينه يقوم بانجاز مهمة دورية لصالحه أو لصالح أحد غيره كأحد الملوك والحكام مثل جمع الضرائب من الراجعين بالنظر لذلك الحاكم والملك مع الاطلاع على أحوال الناس بالمناسبة وفضَ النزاعات الطارئة بينهم والإشراف على تزويج البنات والشبان وغير ذلك من المهام الدورية. فكانت خطته تسمى "الربيع" مثل خطة القاضي والوالي ورئيس الجمهورية. فكان "هذا الربيع" يخرج بصورة دورية لجمع الضرائب وما شابه ذلك فيخرج الأهالي في القرى والبلدات التابعة له أو لسيده الملك لاستقباله على النحو الموصوف وهكذا ساهمت

هذه المهمة الدورية في إيجاد الفترة الزمنية المُسماة باسم "ربيع" وما يتخللها من خروج الناس لاستقباله.

قصص وحكايات تراثية حول عيون الماء بواحات نفزاوة

يتناقل السكان في منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية العديد من القصص والحكايات التراثية حول عيون الماء الطبيعية التي كانت تسقي القرى والواحات بهذه المنطقة الصحراوية حيث أن الأحياء البشرية والتجمعات السكنية في هذه الربوع كانت منذ ظهورها وما زالت إلى الوقت الحالي عبارة عن قرى وبلدات محاطة بغابات وبساتين النخيل المنتج للتمر وتتوسط كل قرية وكل بلدة عين ماء جارية أو أكثر تسقي الأهالي والغابة.

فكان يوجد منذ البداية انصهار والتحام عضوي بين القرية والواحة وعين الماء ما زالت آثاره بارزة إلى اليوم من خلال إشارة القصص والحكايات المذكورة إلى الاقتران بين تأسيس القرية وحفر عين الماء وكذلك في تسمية الكثير من هذه المدن والقرى في حدَ ذاتها بأسماء تطلق على عين الماء والبئر سواء في اللغة العربية أو في اللغة البربرية التي كانت لغة السكان.

عيـن القطوسيـة وعوينـة دوز

فمن ذلك قصة يحكيها أهالي قرية اسمها "زرسين" و"جرسين" على بعد حوالي 30 كيلومتر جنوب غرب مدينة قبلي المركز الإداري لمنطقة نفزاوة بخصوص عين الماء الطبيعية التي كانت تروي هذه

القرية وبساتينها واسمها "القطوسية" بمعنى عين القطوسة وهو اسم القطة الأنثى في البلاد التونسية بينما القط الذكر يُسمى "قطوس".

فقد ذكر بعض العارفين أن اكتشاف وحفر عين القطوسية بقرية زرسين يرجع الفضل فيه إلى قطة أو قطوسة على ملك بعض الأسر القاطنة في المكان. فخرجت ذات يوم ولمّا رجعت لاحظ أصحابها أن شعرها مبتلُ بالماء فاقتفوا أثرها فاكتشفوا منبعه فحفروا فيه فانفجرت عين ماء جارية فأُطلق عليها اسم القطوسية بمعنى عين القطوسة. ويقع المكان بين هضبتين متقابلتين تبدوان للناظر من بعيد كأنهما ضرسين اثنين بمعنى سنين اثنين إحداهما بالجهة الجنوبية تدعى باسم الشكرية والأخرى بالجهة الشمالية تدعى باسم برقو. وتنطق كلمة "ضرس" في صيغة "زرس" في سائر البلاد التونسية. وكما هو معلوم فان الأضراس في الفم هي عظام بارزة غالبا ما يُشبَه الناس بها كل ما هو بارز كالهضاب والتلال والروابي. فلمّا حُفرت عين القطوسية نزلت الأسرُ التي كانت مستقرة على الهضبتين واستقرت في محيط عين القطوسية فدُعي الحيٌ الجديد باسم "زرسين" أي "ضرسين" مثنى "ضرس" لوجوده بين الهضبتين المذكورتين. وتعرف القرية أيضا باسم "جرسين".

وبالإضافة إلى العائلات والأسر المستقرة فوق الهضبتين استقبلت قرية زرسين جماعات أخرى من مناطق بعيدة. فجاءت جماعة تعرف بالزراقين والزرقان من تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية. وجاءت جماعة تعرف بالسلمة من الصعيد المصري وجاء جماعة اسمهم المناجلة من نفيضة أولاد سعيد بالقرب من سوسة بالساحل التونسي وجاء أولاد ضيف الله من بلدة كوينين من منطقة واد سوف بالجزائر من الغرب وجاء جماعة ابن عمر من بلاد الجريد القريبة.

في ذات السياق يحكي جماعة المرازيق سكان مدينة "دوز" على عتبة الصحراء الكبرى في الجزء الصحراوي من منطقة نفزاوة حكاية حول تأسيس قرية "العوينة" أحد أحياء مدينة دوز اليوم صورتها أنَّ جدَّهم الولي الصالح سيدي عمر المحجوب تخاصم ذات يوم مع عمَه الولي الصالح حمد الغوث وكانا يعيشان معا في نجع واحد غير بعيد. فقرَّر سيدي عمر المحجوب مفارقته والاستقرار في موضع آخر مع أهله. وكانت له كلبة من فصيلة الكلاب السلوقية. فلمًا وصلت القافلة الى المكان التي تقوم فيه اليوم بلدة العوينة غرقت الكلبة في الرمال فاستعان سيدي عمر المحجوب وخادمه على تخليصها فلما أخرجاها انفجرت عين ماء جارية بالمكان الذي غرقت فيه السلوقية ونبَّع الماء منها غزيرا. وتسمى مثل هذه العيون الطبيعية باسم "يُنبع" و"نبع" للمفرد و"ينابيع" للجمع في اللغة العربية. ودُعيت العين التي كشفتها سلوقية سيدي عمر المحجوب باسم "العوينة" بمعنى العين الصغيرة فاستقر سيدي عمر المحجوب وأهله بذلك المكان وأسَّس به حيا جديدا للمرازيق. وكان السبب في الخصام أن خادم المحجوب رصد غزالة في بعض الأماكن فأعلم سيده واستأذنه في اصطحاب السلوقية لاصطيادها صباح الغد وكان خادم الغوث قريبا فسمع ما قاله خادم المحجوب فقام في الصباح الباكر وقصد المكان وسبق خادم المحجوب واصطاد الغزالة ولمًا انكشف الأمر تخاصم الرجلان.

سيدي مرزوق العجمي وأبو سعدية

ويروي سكان قرية اسمها "سيدي مرزوق" بصحراء مدينة دوز قصة مماثلة حول ظروف ظهور عين الماء التي كانت تقوم عليها هذه البلدة مفادها أن مؤسس القرية هو الولي الصالح سيدي مرزوق العجمي. وكان في بداية أمره يشتغل خادما عند ولي آخر اسمه سيدي

غانم بتلك النواحي. وكان سيدي مرزوق من أصل زنجي أسود اللون قدم الى الجهة مع زوجته مسعودة بصفة سائح في ملك الله من بعض البلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وأهلها سود البشرة وكانت هذه البلدان الإفريقية تسمى قديما بلاد السودان وبر السودان دون تمييز. فانتدبه الولي الصالح سيدي غانم ليشتغل في مزارعه . ولمّا كان سيدي مرزوق وليا صالحا كان يتصرًف في الأشياء فكانت مسحاته التي يخدم بها الأرض تشتغل بمفردها فرآه سيدي غانم ذات مرًة على هذه الحالة فأدرك أنه ولي مثله فأعتقه وقال له باحترام :ما ينبغي لولي أن يخدم وليا مثله. وأقطعه أرضا ليستصلحها ويستقر بها. فأخذ سيدي غانم قصًابة سيدي مرزوق التي كان يغني بها المدائح ورماها بما أوتي من قوة وطلب من سيدي مرزوق أن يدركها ويسكن حيث تسقط . فكان كذلك. وسقطت القصابة على بعد ثلاث كيلومتر من حي سيدي غانم فأدركها سيدي مرزوق ولمّا سحبها انفجرت عين ماء بالمكان استغلًها سيدي مرزوق لاستصلاح الأرض والاستيطان بالمكان مع زوجته. وقدمت عائلات أخرى وسكنت بجواره فأصبح المكان قرية دُعيت باسم "سيدي مرزوق" نسبة للولي الصالح سيدي مرزوق.

غير أنً الاعتقاد في الولي الصالح سيدي مرزوق العجمي منتشر أيضا في بلاد الجريد بمدينة نفطة بالذات وكذلك في مدينة قفصة وقرية المتلوي بجنوب البلاد التونسية. ويحكي عنه الأهالي في بلاد الجريد أنه كان خادما للولي الصالح والعالم الفقيه أبو علي السني الحسيني من علماء القرن الثالث عشر ميلادي بمدينة نفطة ببلاد الجريد فرأى فيه بعض صفات الولاية فأعتقه واعترف له بالولاية وذلك أنه كان يشعل له النار في الصباح لتسخين الماء للوضوء فنفذ الحطب ذات يوم فوضع سيدي مرزوق رجليه في الموقد لإذكاء النار وتسخين الماء دون أن يصيبه أذى فرآه سيًده على هذه الحالة فعرف أنها كرامة من الكرامات فأعتقه.

ويروي الناس حكاية مماثلة بشأن الولي الزنجي سيدي منصور بجهة مدينة صفاقس على الساحل التونسي. ويُسمى منصور الغلام. وأورد المؤرخ الصفاقسي محمود مقديش المتوفى سنة 1813 للميلاد ترجمة له في كتابه "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" فقال إنه كان عبدا من الزنج لرجل من أهل صفاقس صنعته عمل القطن. وكان يخرج في الليل الى مكان قريب اسمه "برج قزل" على بعد 11 كلم شرق مدينة صفاقس حيث يوجد الآن ضريحه وقرية تسمى "قرية سيدي منصور" نسبة إليه . فكان يصلي فيه الليل كله ويترك آلة نسيج القطن تشتغل وحدها من كراماته. فاقتفي سيده ذات ليلة أثره فلما علم أن سرًه انكشف اعتزل الناس فظهرت كراماته وبلغ خبره السلطان فطلبه فاختفى فوُجد بعد زمان ميتا مُغسًلا مُكفنا في المكان الذي وجده سيده يصلي فيه وهو برج "قزل" ويسمى أيضا "برج كرك" ويُدعى اليوم بالناظور فدفنوه فيه وتحول قبره إلى مزار ثم الى قرية "سيدي منصور". وعاش في القرن الخامس عشر للميلاد أو قبله بقليل باعتبار أن الولي الشهير سيدي أحمد بن عروس المتوفى سنة 1463 ميلادي حسبما يُنقل عنه عاش بعده.

وكان زنوج تونس يعتقدون فيه وظلوا يحتفلون بذكراه الى عهد قريب في فصل الخريف.

كما جاء في بعض الحكايات الأخرى أن سيدي مرزوق العجمي المذكور كان يتجول في البلدان مرتديا جلد حيوان للبحث عن ابنة عمه واسمها مبروكة حسب هذه الروايات فوجدها في ناحية واد سوف بالجزائر وتزوًج بها وأنجب منها أولادا هم أجداد بعض الأسر التي ما زالت تنتسب إليه في هذه النواحي من البلاد التونسية.

والمشهور عن أولاد سيدي مرزوق العجمي وأولاد ولي صالح آخر زنجي الأصل بجهة مدينة تونس اسمه سيدي سعد الشوشان بمعنى

الأسود في لغة أهل تونس تنظيمهم لنوع من الحفلات الدينية على وقع موسيقى ذات أصول إفريقية تسمًى "اصطمبالي" في البلاد التونسية و"صمبالي" في جهة غدامس بليبيا. فان اسمها مشتق من كلمة "صمبا " التي تعني الصنم عند بعض الشعوب الإفريقية من السود بجنوب الصحراء الكبرى. وتستعمل هذه الشعوب الإفريقية أيضا كلمة "داكار" بمعنى الصنم وما زالت عاصمة بلاد السينغال بإفريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى تحمل اسم "داكار". فيمكن القول أن هذه الحفلات الدينية كانت تقام على شرف بعض الأشخاص المعظمين والمقدسين طمعا أو خوفا مثل الكائنات الغيبية التي تسمى "جن" في تونس وغيرها من البلدان العربية وتسمى "بوري" عند الشعوب الإفريقية المذكورة وتشبه الحفلات المسماة "حضرة" في تونس و "زار" في مصر.

وهناك في التراث الشعبي التونسي شخصية ذات أصول افريقية اسمها "أبو سعدية" مشهورة في البلاد التونسية ويضرب بها بعض الأمثال في البساطة تشترك مع سيدي مرزوق في العديد من الجوانب منها أن أبو سعدية يلبس هو الآخر جلدا من جلود الحيوانات وقناعا على الوجه مثل الأقنعة التي يلبسها بعض الأقوام من الأفارقة السود عند ممارسة بعض الحفلات الدينية الراقصة. ويحكى عن أبو سعدية أنه كان يتجوًل هو الآخر بين البلدان بحثا عن ابنته المخطوفة وكان يرقص ويشطح في الساحات العامًة أمام الناس بحيث كان أحيانا رمزا للأشخاص البسطاء. وفي هذا المعنى يقول مثل تونسي "من معرفته بالأجاود سلًم على بوسعدية".

بئر حامد وعين قارسي

في ذات السياق يتداول أبناء الولي الصالح سيدي حامد بقرية جمنة الواقعة على الطريق الصحراوي بين مدينتي قبلي ودوز حكاية

في هذا المعنى مفادها أن سيدي حامد كان يتجوَّل رفقة جمع من أصحابه . فبينما كانوا يقطعون سبخة جرداء بالقرب من بلدة استفطيمي على بعد بعض الكيلومترات شمال مدينة قبلي عطشوا عطشا شديدا حتى أشرفوا على الهلاك فأمسك سيدي حامد بعصاه وركزها في الأرض ودعا ربه ليغيثهم فلما سحبها انفجرت عين ماء جارية بالمكان فشرب هو وأصحابه وشيَّدوا حول الماء حاجزا وما زالت هذه العين قائمة وتسمى "عين سيدي حامد" و" بئر سيدي حامد". والملاحظ أن البئر المحاطة بحاجز تحمل اسم "المطوية" على غرار قرية اسمها "المطوية" قرب مدينة قابس بالجنوب التونسي.

وفي حقيقة الحال فان مثل هذه القصص والحكايات التراثية منتشرة بالمئات في مختلف مناطق البلاد التونسية وفي سائر نواحي بلدان شمال إفريقيا وهي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا بالإضافة إلى الصحراء الكبرى وجزر كناري سابقا في عرض سواحل المغرب الأقصى في المحيط الأطلسي.

فبعيدا قليلا عن منطقة نفزاوة والجنوب التونسي يروى الناس حكاية تراثية عن أصل "عين قارسي" في جبل قارسي بجهة مدينة النفيضة بشمال البلاد التونسية مفادها أنَّ ماءها الحامض أو القارص كما يقول السكان في تونس لم يكن كذلك منذ البداية وإنما اتخذ هذا المطعم اللذيذ ببركة الولي الصالح سيدي عبد الرحمان القارسي وذلك أنَّ هذا الولي كان يقطن في مدينة زغوان على بعد حوالي ستين كيلومتر غرب مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية فذهب لزيارة مقامات الأولياء الصالحين بمدينة القيروان وسط البلاد التونسية سيرا على الأقدام كما كان الناس يسافرون في عهده. فعطش في الطريق وكان قريبا من جبل قارسي فنعتته امرأة عن عين ماء موجودة في أعلى الجبل فصعد وشرب وكان معه شيء من اللبن الحامض أو القارص في لغة أهل تونس فسكب منه قليلا في العين فتبدَّل طعم مائها وصار

حامضا وحلو المذاق وألذً طعما ممًا كان عليه فسُميت العين باسم "عين قارسي" وعرف سيدي عبد الرحمان بلقب عبد الرحمان القارسي . ثم لمًا قفل راجعا من القيروان استقر في جبل قارسي قرب العين وجاوره جمع من الطلبة للاستفادة من علمه وأصبح المكان زاوية أو "تكية" كما يقال في المشرق العربي وتُسمًى أيضا "خانقاه" في اللغة التركية وتقام الزوايا في الأماكن المنعزلة فلذلك تُسمى مثل هذه الأماكن المنعزلة باسم "خنقة" عند سكان تونس. وكانت الدواب تشرب من عين قارسي فتُدنس ماءها فرأى سيدي عبد الرحمان ذات يوم حمار الزاوية يقترب منها وكان عليه أربعة من قلال الفخار مملوءة ماء فرماه بحبة زيتون فنفر الحمار ووقعت القلال على الأرض وانكسرت فانفجرت في موضعها عين ماء أخرى لكن ماءها كان مرًا فخُصصت لشرب الدواب وطلب سيدي عبد الرحمان أن يدفن قرب العين المرًة عندما يموت فكان كذلك.

عيـن دادس وبركـة المـاء الكونيـة

في ذات السياق يحكي سكان قرية بالمغرب الأقصى بنواحي "دادس" في منطقة ورزازات بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى قصة شبيهة تماما بقصة عين القطوسية بقرية زرسين التونسية حول اكتشاف واد "داداس" بالمغرب الأقصى صورتها أن أحد أولياء تلك النواحي واسمه مولاي عمران خرج من مدينة فاس المغربية رفقة جمع من الأصحاب والمريدين حتى وصلوا ناحية تسمى "آيت سدرات" بجهة دادس بجنوب المغرب فنفذ زادهم من الماء وأصبحوا مهددين بالعطش. وكانت مع مولاي عمران وأصحابه مجموعة من الكلاب فانتشرت في الضواحي ولمًا رجعت لاحظ مولاي عمران وأصحابه أن قوائمها مبلًلة بالماء فاقتفوا آثارها فأشرفوا على غابة من الأشجار الكثيفة وسط سهل يقطعه وادي غزير الماء. فصاح الجماعة قائلين : "واد الكلب". فقال

مولاي عمران : بل "واد باديس" وبمرور الزمن تحول الاسم الى "واد داديس" ثم "واد دادس".

والجدير بالملاحظة أنه ورد في الأشعار العربية القديمة ذكر لنهر بنواحي العراق اسمه "دد". ففي ذلك يقول الشاعر العربي القديم طرفة بن العبد في معلقته مُشبها الهودج الذي يحمل حبيبته واسمها "خولة" فوق ناقتها ببعض السفن الراسية في نهر دد :

كأنَّ حدوج المالكية غدوة بقايا سفين في النواصف من دد".

وتكتسي كلُ هذه القصص والحكايات التراثية المنقولة عن الآباء والأجداد أهمية علمية كبيرة حيث أنَّها تنتمي إلى صنف من الحكايات التراثية منتشر في سائر بقاع الأرض وتصوَر الظروف التي أحاطت بنشأة القرى والمدن القائمة على وجه الأرض وأصل الجماعات والأقوام البشرية المستقرة بها. وتُسمًى هذه القصص التراثية المنقولة عن الأسلاف والأوائل باسم "أساطير النشأة" و"أساطير الخلق والتكوين " حتى أن هناك أساطير من هذا النوع تتعلق بأصل الإنسان والإنسانية عموما وتصوًر ظروف بروز البشر على وجه الأرض على غرار قصة جنة الخلد والفردوس المشهورة في تراث الشعوب السامية كالعرب والكنعانيين واليهود.

فقد جاء في تراث الشعوب السامية من عرب وكنعانيين ويهود وفي تراث سكان العراق القدماء كالبابليين والأكًاديين أن البشرية بأسرها تنحدر من زوجين اثنين ذكر وأنثى أو رجل وامرأة اسم الرجل آدم واسم المرأة حواء حسب التراث السامي. وكان الرجل يعمل خادما لأحد الأسياد الخالدين بصفة حارس على جنًة عجيبة كالحديقة أو البستان لا يعرف مكانها بالضبط كانت على ملك سيَده الخالد ولذلك تسمى "جنة الخلد والفردوس". وكان آدم يعيش بها مع زوجته. وسمح له سيده بالأكل من ثمار سائر أشجار الحديقة والامتناع عن أكل ثمار

شجرتين فقط إحداهما شجرة علم الخير والشر والثانية شجرة الحياة بمعنى أن من يأكل من ثمارها يصبح من الخالدين ولا يفنى أبد الدهر. فعصيا أمر سيدهما وأكلا من ثمار شجرة علم الخير والشر فطردهما سيدهما صاحب الجنة حتى لا يأكلا من ثمار شجرة الحياة ويصبحا من الخالدين مثله. فخرجا صاغرين وذهبا بعيدا الى موضع اسمه الأرض وهي الأرض التي يعيش البشر فيها الى اليوم فسكنا فيها وأنجبا أولادا ذكورا وإناثا فتزوج الذكور بالإناث. وبهذه الصورة برزت أولى الأسر البشرية التي تفرًعت عنها سائر الشعوب والقبائل البشرية الموجودة في الأرض المعمورة.

غير أن البربر والشعوب البربرية بوصفهم السكان الأصليين لبلدان شمال إفريقيا وهي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا وبلاد الساقية الحمراء ووادي الذهب بالإضافة إلى الصحراء الكبرى وجزر كناري سابقا في عرض سواحل المغرب الأقصى في المحيط الأطلسي يحكون قصة أخرى بشأن أصل الإنسانية تلعب عيون الماء فيها دورا أساسيا حيث تذكر هذه الحكاية التراثية البربرية أن النواة الأولى والأسرة البشرية الأولى ظهرت للوجود بجانب عين ماء أو بركة ماء كبيرة ساعدت على الاتصالات الزوجية والجنسية بين الأفراد الذكور والإناث. فظهر في بداية الأمر في باطن الأرض زوجان اثنان رجل وامرأة بجوار بركة ماء ولم يكن يوجد غير هذا الماء والظلام والرطوبة وكانا يجهلان كل شيء فأرادت المرأة ان تشرب من بركة الماء فدفعها الرجل في البركة فانكشف جسدها وبرزت محاسنها ومفاتنها فأثارت شهوة الرجل فواقعها فأنجبت منه عدة أولاد ذكور وإناث يقال كانوا مائة بين خمسين ذكرا وخمسين أنثى. فانقسموا إلى مجموعتين إحداهما مجموعة تضم الذكور والأخرى مجموعة تضم الإناث وساروا تحت الأرض في الظلام كل مجموعة على حدة إلى أن وجدوا منفذا فخرجوا إلى ضوء النهار قرب نهر من الأنهار. فخرجت

البنات في البداية ثم لحقهم الفتيان وسكنت البنات في ضفة من ضفتي النهر وسكن الشبان في الضفة المقابلة فكان النهر فاصلا بينهم.

فعبرت إحدى البنات النهر خلسة إلى ضفة الشبان فرآها شاب فأراد الاعتداء عليها فصرخت فهرع لها أخواتها لنجدتها وحصلت معركة بين الشقين كانت الغلبة فيها للبنات فهزمن الذكور وركبن عليهم فوق صدورهم فأبصرن بأيور الذكور فتعجبن منها وأمسكنها بأيدهن فأثرن شهوة الشبان وحصل الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث وهن راكبات على صدور الشبان وظل هذا الوضع عادة عند كل اتصال جنسي. فكانت البنات يركبن الفتيان.

أمَّا البنت التي عبرت النهر خلسة والشاب الذي اعتدى عليها فإنّهما مُسخا فتحوَّل الشاب إلى أسد وتحوَّلت البنت إلى غولة.

فلذلك ما زالت عيون الماء والآبار والأنهار تحظى بالتعظيم لدى الأقوام والجماعات البربرية وخاصة عيون الماء الواقعة قرب الكهوف الجبلية. فكان العروسان ليلة الدخلة يقومان بزيارة هذه العيون والكهوف وأيديهما مخضبة بالحناء وغيرها من الصبائغ فيطبعان بها على جدرانها رسوما على شاكلة اليد إلى غيرها من الطقوس والممارسات المعبرة على التعظيم والتقديس.

فان سكان قرية جمنة التي سبقت الإشارة إليها يقولون إن عين الماء القديمة بهذه القرية التي أحياها جدهم الولي الصالح سيدي عبد الله الحاج يقوم الملائكة بتصفية مائها سبعة مرات في الليلة.

فكلُ هذه الحكايات التراثية المنقولة عن الآباء والأجداد هي قصص حقيقية تنقل أحداثا حصلت بالفعل في الماضي القريب والبعيد لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فقد جاء في قصة تأسيس قرية سيدي مرزوق أن الولي سيدي غانم أخذ قصًابة الولي سيدي مرزوق ورماها بما أوتي من قوة وأعطى لسيدي مرزوق الأرض الواقعة بعد القصابة. فقد كانت الجماعات البشرية في القديم ومن ضمنها القبائل العربية والبربرية تعتمد هذه الطريقة لوضع الحدود بين الممتلكات. فكان رئيس الجماعة يرشق رمحه في مكان معلوم يبعد عن الحي مسافة مقدرة ويقول كل ما دون الرمح هو ملك للجماعة وما بعده فهو مشاع ومباح لمن يريد الاستقرار فيه. وكانت بعض الجماعات تقوم بالفعل برمي رمح أو نبل بالقوس وما شابه ذلك انطلاقا من أحيائها وحيثما يقع الرمح أو النبل تكون حدود أراضيها فما دونه فهو لها وما بعده فهو مشاع ومباح.

أمًا في حكايات أخرى كما في قصة تأسيس قرية جمنة بمنطقة نفزاوة فإن الولي الصالح يستقر حيث تنكسر ساق فرسه تنفيذا لأمر غيبي. فقد كانت بعض الجماعات البشرية تفرض على من يريد مجاورتها والنزول بقربها الابتعاد عن أحيائها مسافة ما يقطعه الراجل في يوم من طلوع الشمس إلى غروبها وكذلك مسافة ما تقطعه الدابة حتى ينهكها التعب.

وفي الواقع فإن مختلف الوقائع والأحداث التي تنقلها الأساطير والحكايات الموروثة عن الآباء والأجداد هي وقائع حقيقية وتشير الى بعض الحقائق والأوضاع التي كانت قائمة في الماضي مهما بدت أحيانا غريبة بحيث أن هذه القصص التراثية هي قصص حقيقية.

وقد سبق للمؤلف صالح بن حمادي أن نشر العديد من الكتب والدراسات بهذا الخصوص منها كتاب بعنوان "دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبية" سنة 1980 وآخر بعنوان "أساطير النشأة في الجنوب التونسي" سنة 1999 و كتاب بعنوان "بحوث في الأساطير الشعبية التونسية" سنة 2009 وتبرز بإسهاب أن هذه الحكايات

الموروثة عن الآباء والأجداد والأسلاف المُسمّاة "أساطير" و"خرافات شعبية" هي أخبار تاريخية تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت لبعض الأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

قبلـي و"رأس العيـن"

من جهة أخرى ومثلما سبقت الإشارة إليه بخصوص الارتباط الوثيق بين القرية وعين الماء في منطقة نفزاوة بالذات ما زالت بعض المدن والقرى في هذه المنطقة تحمل أسماء تطلق على عين الماء والبئر سواء في اللغة العربية أو في اللغة البربرية وهي لغة البربر السكان الأصليين لبلدان شمال إفريقيا.

وتأتي مدينة قبلّي العاصمة الإدارية لمنطقة نفزاوة في مقدمة هذه المدن والقرى التي تحمل أسماؤها معنى عين الماء. فإن اسم "قبلي" يُفيد معنى عين الماء في اللغة البربرية وهو مشتق من كلمة "أغبالو" التي تطلق في اللغة البربرية على عين الماء الكبيرة التي تتخذ شكل البركة العظيمة والحوض الدائري الواسع. وكانت عيون الماء القديمة بمنطقة نفزاوة على هذه الشاكلة ومن ضمنها عين الماء التي كانت تسقي سكان وواحة مدينة قبلي قديما . وكانت تسمى "رأس العين" وقد نضب ماؤها ونزحت واندثرت تماما وبقيت اليوم أثرا من آثار المدينة على غرار جلَ العيون القديمة بمنطقة نفزاوة فإنها جفّت وغارت نتيجة الاستعانة بالآبار الارتوازية العميقة لاستخراج المياه الجوفية من باطن الأرض بينما العيون القديمة كانت بمثابة ينابيع طبيعية سطحية تنبع من أعلى بعض الروابي والتلال و في سفحها فنزحت بمرور الأيام.

فهناك مدينة تحمل اسم "قبلاط" في جهة باجة بشمال البلاد التونسية وهو صيغة لفظية لكلمة "أغبالو" بمعنى عين الماء بالبربرية. كما أن اسم "قبلي" ينطق "إقبلي" ورسمته بعض الكتب العربية القديمة بهذا الشكل.

ويطلق اسم "بلاد القبلة" و"برَ القبلة " على منطقة نفزاوة وعلى المناطق الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا عموما باعتبارها جزءا من الصحراء الكبرى انطلاقا من بلاد الساقية الحمراء ووادي الذهب المحاذية للمحيط الأطلسي جنوب المغرب الأقصى غربا إلى منطقة الواحات الصحراوية بمصر مرورا بالجنوب الجزائري والجنوب التونسي والجنوب الليبي . فإنَّ بلدان شمال إفريقيا مثلما سبقت الإشارة إليه تضمُ ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا وبلاد الساقية الحمراء ووادي الذهب بالإضافة إلى الصحراء الكبرى وجزر كناري سابقا.

لكنَّ الجدير بالملاحظة أن اسم "العين" في حدَ ذاته يُفيد ناحية القبلة ؛ ويطلق كذلك على المناطق الصحراوية المسمَّاة باسم "نجد" و"الحجاز" في الجزيرة العربية مثلما يشهد عليه تسمية مدينة مكة ومسجدها الذي توجد به الكعبة في الحجاز باسم القبلة وهي جهة القبلة التي يتوجه إليها المسلمون عند أداء الصلاة. فالمعلوم أن الصحراء الكبرى تشمل أيضا الصحاري والمفاوز الموجودة في الجزيرة العربية وتمتدُ إلى حدود بلاد الصين مثلما شرحه العالم العربي أبو القاسم محمد بن حوقل من علماء مدينة بغداد بالعراق في القرن التاسع الميلادي في كتابه "صورة الأرض" وكان أول من تفطًن الى هذه الحقيقة وبسطها في كتابه المذكور.

والجدير بالملاحظة أن المصريين يستعملون اسم "قبلة" وينطقونها في لهجتهم "أبلة" في معنى السيدة. فيقول التلاميذ لمعلمتهم

مثلا "يا قبلة" عندما يخاطبونها. وتقول البنت لأختها التي أكبر منها "يا قبلتي" وتقابلها كلمة "أبي" للرجل الذكر حيث أن الأخت تقول لأخيها الذي يكبرها "يا أبي" بينما تستعمل لفظة" قابلة" في اللغة العربية بمثابة الاسم للممرضة المختصة في التوليد بمعنى التي تستقبل المولود الجديد عندما يخرج من بطن أمه بما يُفيد بأنً اسم "قبلة" يعني "الأم" و"السيدة" باعتبار أن اسم "أم" يعني في الأصل الأصيل "السيدة" وبالأحرى "السيدة الكبيرة" ويقابله اسم "أب" بمعنى "السيد الكبير". وكانت هناك قديما إلهة معبودة اسمها "القبلية" (Cybèle) يقال إنً موطنها الأصلي هو شمال إفريقيا ولكنًها كانت معروفة في كامل المجال المتوسطي.

فإنً الآلهة الذين عُبدوا قديما يرمزون الى الآباء والأجداد والكبار والأسياد داخل الجماعات البشرية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

التــلال وعيــون المــاء

وتسمًى عين الماء في البربرية أيضا باسم "تالة" و"تالا" وتنطق أيضا "تارة" بالراء وتوجد مدينة تحمل اسم "تالة" بشمال البلاد التونسية. وسبقت الإشارة إلى أن عيون الماء القديمة بمنطقة نفزاوة تقع فوق بعض التلال والروابي وفي سفحها بما يعني أن هناك ارتباط بين عين الماء والتلًة والربوة.

ففي هذا السياق كانت مدينة الدار البيضاء بالمغرب الأقصى تدعى باسم "أنفي" الذي يفيد معنى التلًة في البربرية حسب المختصين بينما يذكر هؤلاء المختصون أيضا أن الفسيلة وهي النخلة الصغيرة المعدًة للغرس تسمى "تالة" في اللغة السومرية لغة السومريين الذين يعتبرون من أقدم الشعوب التي استوطنت جنوب العراق حيث توجد

أقدم غابات النخيل في العالم. ويعتبر العراق إلى الوقت الحالي من حيث أصول النخيل المغروسة على أرضه في مقدمة البلدان في هذا الميدان وهو أكبر منتج للتمر في العالم. وتسمى الفسيلة باسم "تارة" في اللغة البربرية ويطلق هذا الاسم في الواقع على النباتات وغير مستبعد أن يكون اسم "تارة" واسم "تالة" هو اسم واحد اتخذ هذين الصيغتين باعتبار تعويض حرف اللام بحرف الراء والعكس في الكلام الإنساني.

وتسمى عين الماء أيضا في البربرية باسم "لالة" ويُعتبر صيغة لفظية لاسم "تالة" لأن الأصل هو كلمة "لال" التي تستعمل في معنى الماء في البربرية . وما زال سكان مدينة تونس يستعملون كلمة "شلًّل" في معنى "غسل بالماء" مثل "تشليل" الأيدي بينما تستعمل كلمة "شلال" في اللغة العربية في معنى الماء الغزير النازل بقوة من بعض المرتفعات. وهناك قرية اسمها "لالة" بجهة قفصة في الجنوب التونسي وقرية مشهورة في التاريخ اسمها "تلالت" بجهة تطاوين بنواحي جبل دمَّر في الجنوب الشرقي التونسي.

كما تستعمل كلمة "طلٌ " في اللغة العربية في معنى المطر الضعيف وفي معنى الروضة بلَّها الطل وعلى الشيخ من الرجال بينما تستعمل كلمة "طلل" في العربية أيضا في معنى الموضع المرتفع وما برز من الآثار وجمعها "أطلال" مثل الأطلال التي كان يتغنى بها شعراء العرب بالجزيرة العربية في ماضي الزمان في بداية قصائدهم وترمز الى ما بقي من آثار الحي الذي كانت تسكن فيه حبيبة الشاعر قبل أن ترحل عنه رفقة أهلها للانتجاع في مكان آخر سقته الأمطار فكثر فيه الماء والكلأ. فقد كان العرب سكان الجزيرة العربية شعوبا وقبائل من البدو الرحل يسكنون الصحاري مثل البربر.

فمن ذلك قول الشاعر العربي القديم زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته:

"أمن أمَ أوفى دمنة لم تكلَّم بحومانة الدرَّاج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في مناشر معصم".

والأصل الأصيل لعادة التغني بالأطلال هو قصُ وحكاية الأخبار والأساطير القديمة التي كانت تُروى وتنقل عن الآباء والأجداد بخصوص أصل القبيلة وأمجادها وأسلافها الذين ساهموا في تأسيسها وإظهارها للوجود. ولهذا السبب تحمل كلمة "طلُ" معنى الشيخ.

غير أنَّ اسم "خيف" هو اسم عين الماء الأكثر شيوعا في اللغة العربية وعند القبائل العربية قديما.

قريــة نقــة بنفــزاوة

كما تُدعى عين الماء في البربرية باسم "نقة" على وزن "عمَّة" وهو مشتق من لفظة "انق" و" انج". وتوجد قرية تحمل اسم "نقة" بمنطقة نفزاوة غير بعيد عن مدينة قبلي . وورد في القصة الشعبية المُسماة "سيرة بني هلال" وفي قسمها المُسمى "تغريبة بني هلال" بالذات ذكر لبئر اسمه "بئر نقوى" بمنطقة نفزاوة بناحية قبلي تقول السيرة ان البطل الهلالي أبو زيد الهلالي وابن أخته قاسم أرادا أن يشربا منها ويتزودان بالماء فاعترضت سبيلهما حية و أفعى من الأفاعي السامة كانت تسكن البئر اسمها "النمشة" فعضت ابن أخت أبو زيد الهلالي وقتلته بسمَها.

ويوجد في اللغة العربية كلمة "نقع" المماثلة لفظيا لكلمة "نقة" البربرية وتحمل معاني قريبة واشتق منها اسم "مستنقع" الذي يطلق على الماء المتجمع في منخفض من الأرض وتعتبر عيون الماء بنفزاوة نوعا من المستنقعات التي يتجدد ماؤها طبيعيا بصورة مستمرة طالما

ظل ينبع من الأرض حيث أنها عبارة عن أحواض ماء واسعة تغذيها باستمرار ينابيع ماء طبيعية سطحية.

وليس هناك فرق كبير بين عيون الماء وآبار الماء التي تسمى بالبربرية "حاسي" وكذلك "أنو" غير أن ماء العيون يجري على سطح الأرض وماء الآبار غارق ويستقى منه بواسطة الدلو.

وتلعب الآبار بالخصوص دورا مهما في الخرافات الشعبية بمنطقة نفزاوة وغيرها من المناطق في تونس وبلدان شمال إفريقيا باعتبارها مسكنا للجان والغيلان الذين يختطفون الصبايا ليلة زفافهن ويهربون بهن إلى الآبار التي يسكنونها فيلتقي ببعضهن أبطال الخرافات داخل تلك الآبار بمناسبة ورودهم لتلك الآبار للتزود بالماء . فينزل البطل إلى البئر بواسطة حبل يمسكه إخوته بالخارج لكن إخوته يغدرون به ويقطعون حبل الوصل فيسقط في قاع البئر ويعثر على ثلاثة أو سبعة صبايا فائقات الحسن والجمال اختطفهن الغول أو الجن صاحب البئر فيتعاون معهن على تخليص نفسه وتخليصهن. وتبرز مثل هذه المشاهد الرباط القوي بين المسكن والبئر والعين مثلما سبقت الإشارة إليه.

تيــط وشــط وزيــرة

أمًا في المطلق فان العين تُسمى "تيط" في البربرية وتنطق أيضا "توت" وتجمع على "تطاوين" و"تطوان" . وتوجد مدينة تحمل اسم "تطاوين" بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية بينما توجد في المغرب الأقصى مدينة معروفة اسمها "تطوان" وكانت تسمى قديما "تمودا" و"ثمودا" وهو اسم يطلق على نبع بسيط من الماء ويسمى "ثماد" عند السكان بمنطقة نفزاوة. وكانت توجد غابة نخيل صغيرة تحمل اسم

"تومداي" قرب قرية جمنة على بعد حوالي 15 كلم جنوب مدينة قبلي وانقرضت واحة تمداي بعد أن نزحت عين الماء التي كانت تسقيها.

كما توجد قرية تحمل اسم "تيط" بنواحي مدينة أزمور بالمغرب الأقصى وهي مسقط رأس الولي الصالح سيدي عبد الرحمان المجذوب دفين مدينة مكناس بالمغرب الأقصى من أولياء القرن السادس عشر الميلادي . والملاحظ أن اسم أزمور هو اسم قبيلة بربرية تعرف خاصة باسم باسم "بنو يزمرتن" متفرعة عن قبيلة زناتة المتفرعة عن قبيلة ضريسة البربرية . وتوجد العديد من المواقع بهذا الاسم في تونس في جهة تطاوين وفي جهة نابل وكذلك في الجزائر وليبيا والمغرب. ويوجد بلدة اسمها "يزمرتن" بجهة مدينة تطاوين التونسية .

ويقول بعض المختصين ان اسم "شط" هو صيغة لفظية لاسم "تيط" الذي يطلق على العين في اللغة البربرية فيكون اسم "شط" الذي جرت العادة إطلاقه على في تونس وبلدان شمال إفريقيا الأخرى على السبخة المالحة يُفيد معنى عين الماء حسب هؤلاء المختصين ويُجمع في صيغة "شطيان" في البربرية. فقد كان يوجد بالقرب من قرية جمنة أيضا واحة صغيرة أخرى اسمها "شطيان" اندثرت هي الأخرى بعد أن نضب ماء العين التي كانت تسقيها. وقد كان لواحة شطيان شأن كبير في غابر الزمان وكانت هي مركز العمران بتلك النواحي فحلّت قرية جمنة محلّها.

ويُطلق على الواحات الصغيرة مثل واحتي شطيان وتمداي اسم "زيرة" في منطقة نفزاوة وهو اسم بربري قديم جدا وأصيل ويحمل العديد من المعاني منها عين الماء والحي من الأحياء البشرية. ويُطلق أساسا على التجمع السكني الملتحم عضويا بغابة من النخيل فوق بعض الروابي والتلال والهضاب. ويستعمل في معنى الرابية والتلّة وعرق الرمل. وقد كانت جل مدن وقرى نفزاوة في بدايتها عبارة عن "زيرة"

منتصبة فوق هضبة وتلّة ثم توسعت تدريجيا. كما يُستعمل اسم "زيرة" في اللغة العربية في معاني مماثلة وفي صيغ متعددة منها صيغة "جزيرة" و"زير" و"وزير" و"زارة" و"زور" . وهو اسم موجود في سائر بلدان شمال إفريقيا حيث يوجد حي اسمه "عين زارة" في منطقة تاجوراء بمدينة طرابلس عاصمة القطر الليبي. كما يوجد بئر اسمه بئر "زار" في القسم الصحراوي لمنطقة نفزاوة قرب بئر أخرى تسمى "بئر عوين".

ففي هذا المجال أشار المؤرخ الإغريقي واليوناني القديم هيرودوت (Hérodote) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد إلى وجود شعب من البربر اسمهم "آزر" أو "الآزريون" وكذلك إلى قرية اسمها "أزيريس" في شرق ليبيا بناحية طبرق وبرقة. ويمكن القول أن اسم هذه القرية هو "زيرة". فقد اشار المؤرخ اليوناني هيرودوت الى أنّ البربر يُطلقون اسم "زيرة" هكذا حرفيا على التلال والروابي والهضاب. وكان البربر السكان الأصليون لبلدان شمال إفريقيا يُدعون باسم "اللوبيون" و"الليبيين" عند الإغريق واليونانيين القدماء سكان اليونان بالجنوب الشرقي للقارة الأوروبية.

فتأكيدا لما قاله المؤرخ هيرودوت ما زال يوجد في صحراء ليبيا واحة تعرف باسم "واحة تازربو" وأصله "تازر" بجنوب بنغازي في الربوع الصحراوية التي توجد فيها واحة "جالو" وواحة "اوجلة" وواحة "الكفرة". وذكر أحد الدارسين من المنتمين للجماعة المعروفين باسم "التبو" سكان صحراء ليبيا بفزّان وجبال التبو أو "التيبستي" على الحدود الليبية التشادية أن واحة "تازر" كانت في القديم عاصمة لمملكة "التبو" وتسمى أيضا "تازة" باختصار. واتخذت اسم "تازر" نقلا عن عشيرة تحمل اسم "تازر" من العشائر التي يتركب منها شعب التبو وكانت من العشائر النبيلة مع ثلاثة أخرى اسمها "تمارة" و"قنا" و"أرنا". وقال ان مملكة "التبو" التي عاصمتها "تازر" كانت تشمل

أيضا واحة الكفرة حاليا الى جانب مدينة "جرمة" القديمة التي كانت آهلة بالسكان عند مجيء الجيوش العربية لنشر الإسلام بهذه المناطق حوالي 670 للميلاد قبل أن يهجروها وتصبح خالية مثلما هي عليه في الوقت الراهن.

ويقال إن "جرمة" كانت عاصمة مملكة التبو بعد مدينة تازر . وعلى هذا الأساس فإن "التبو" هم الشعب المعروف باسم "الجرمانيون" أو "الجرامنت" الوارد ذكرهم في الكتب القديمة. فقد تحدّث عنهم بالخصوص المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد. خاصة وأنّ المشهور عن جماعة الجرامنت أنهم سود البشرة دون أن يكونوا من الزنوج مثل جماعة التبو تماما في الوقت الراهن. فيكون الجرامنت بهذه الصورة أسلاف بعض القبائل البربرية وخاصة قبيلة زناتة أو بنو عمومة البربر دون تمييز ولا سيما جماعة الطوارق البربرية . فإنه يوجد اليوم أكثر من 50 بالمائة من الطوارق البربر في دولة مالي الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وأغلبهم سود مثل بقية سكان دولة مالي واسمهم "الأزواد".

وجاء في كتاب "صورة الأرض" للعالم والرحالة العربي أبو القاسم محمد بن حوقل من أهل القرن العاشر للميلاد ما نصّه : وفي كثير من البربر ألوان حسنة ووجوه نقية حتى يأخذوا في جهة الجنوب (المناطق الصحراوية البعيدة عن البحر المتوسط) فكلّما أوغلوا فيه ازدادوا سوادا حتّى ينتهوا إلى بلاد السودان (الغربي) فيكون من ينتجعه أشد سوادا".

ويوجد قرية وبالأحرى سهل اسمها "جرمة" بالجزائر في ولاية باتنة في ناحية جبال الأوراس بينما توجد المدينة المعروفة التي اسمها "تازة" في المغرب الأقصى بناحية الشمال. ويقال ان اسم "تازة" هو صيغة لفظية لاسم "تيزي" الذي يطلق على المجاز والممر والمنفذ في

اللغة البربرية. غير أنه يوجد في منطقة نفزاوة مدينة اسمها "دوز" ولها مقابل في القطر الليبي ينطق في صيغة "توز" بنواحي زليطن ويعرف الموقع باسم "توز القديم" بما يدلُ على عراقته. وتوجد مدينة اسمها "تيزي وزو" بناحية القبائل بشمال الجزائر بينما يوجد صقع وناحية كبيرة اسمها "أوزو" تابعة للقطر الليبي بمقربة من الحدود الليبية التشادية بجوار جبال التيبستي بحيث أنَّ "أوزو" هم جماعة يحملون هذا الاسم ونقلوه الى مختلف الأماكن التي نزلوا واستقروا فيها بليبيا والجزائر وفي تونس في موقع "وزان" على الحدود التونسية الليبية وفي المغرب الأقصى في الشمال.

كما كان يوجد في القديم مجموعة من العشائر الأوروبية يسمون باسم "جرمان" (Germains) أسلاف بعض الشعوب الأوروبية الحالية مثل الألمان والفرنسيين بينما يُطلق سكان تونس اسم "جُرمان" و"جُرمانة" على الطيور المعروفة باسم "بط".

في هذا الإطار كان فراعنة مصر القديمة يُسمٌون مملكة التبو وبلاد التبو بصحراء ليبيا وفزان باسم بلاد "اماري" حرفيا باعتباره نوع من الشجر. فما زال يوجد نوع من التمر اسمه "عماري" في واحات الجنوب التونسي كما في منطقة نفزاوة وفي أغلب الواحات المعروفة شرقا وغربا وتسمى النخلة التي تنتجه باسم "عمارية" وهو أول نوع من التمر يستوي وينضج قبل غيره في شهر أوت وسط فصل الصيف. والملاحظ أنَّ حرف "العين" في بداية الألفاظ يسقط أحيانا في الكلام دون المساس بالمعنى حيث لا يوجد مثلا حرف "العين" في اللغات الأوروبية . كما أن قبيلة تميم العربية مثلا تعوض الهمزة بالعين في بداية الألفاظ وتسمى هذه العادة في الكلام باسم "العنعنة" فتقول مثلا "عروس" عوض "أروس". لكن هناك مختصون قرءوا الاسم الفرعوني لبلاد التبو في صيغة " ارمي" فيكون له علاقة باسم مدينة "جرمة" عاصمتهم القديمة. ولا شكَّ أنَّ اسم "جرمة" هو صيغة لفظية لاسم

"أغرم" الذي يُطلق في اللغة البربرية على القلعة والقصبة والبلدة والحي والقرية والنزلة والعرش والعشيرة.

من ناحية أخرى ما زال يوجد ضمن سكان ليبيا الى هذا اليوم جماعة اسمهم "أجناون" يقول الدارسون إنهم من أقدم السكان في ليبيا ولا شكَّ أن عشيرة "قنا" التباوية تمُت إليهم بصلة علما وأنَّ جماعة "التبو" هم سود البشرة لكنهم ليسوا بزنوج مثل الهنود والباكستانيين. وتوجد قرية اسمها "أجناون" بجبل نفوسة بليبيا.

في ذات السياق كان اسم "أزاريا" يطلق قديما على قرية "جنزور" أو "زنزور" احدى ضواحي العاصمة الليبية طرابلس.

وكانت بلاد الكونغو بإفريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى تدعى باسم "زائير" إلى عهد قريب جدا بينما كان هناك جماعة عرقية تسمى "أزائر" بالمنطقة الممتدة بين دولتي موريتانيا والسينغال غرب القارة الإفريقية. وكان منهم جماعة مستقرون بموريتانيا وتسمى لغتهم أيضا باسم "أزائر". ويستعمل سكان منطقة نفزاوة كلمة "زائر" بمثابة اسم الجمع لكلمة "زيرة". وقد انقرضت لغة "أزاير" في الوقت الراهن حسب بعض الدارسين.

تامــزرت وتــوزر وبنــزرت

في ذات السياق يستعمل البربر بكثرة اسم "زيري" واسم "زار" لتسمية الأشخاص منذ القديم.

واشتهر باسم زيري في العصور الوسطى جدُّ الأسرة الحاكمة بتونس تحت اسم "الزيريين" وهو زيري بن مناد وابنه بلكين بن زيري الذي كان أول حكامها واستمرَّت من نهاية القرن العاشر إلى أواسط

القرن الثاني عشر للميلاد وأصلهم من قبيلة صنهاجة البربرية. ويُفيد اسم "زيري" معنى السيد والرئيس والشيخ.

وانطلاقا من استعمال اسم "زيرة" في معنى الغابة والربوة والحي من الأحياء البشرية والأهل والبلد والوطن توجد العديد من المدن والقرى التي تحمل أسماء مشتقة من اسم "زير" في البلاد التونسية من بينها قرية "زرسين" بمنطقة نفزاوة وقرية اسمها الزارات بالقرب من مدينة قابس في الجنوب التونسي وقرية اسمها "زركين" وموضع اسمه "عيون الزركين" قرب مدينة مارث بجهة قابس أيضا بالإضافة إلى قرية اسمها "تامزرت" في ناحية مطماطة بجهة قابس ومدينة "توزر" عاصمة بلاد الجريد وقرية تازركة بجهة نابل ومدينة بنزرت وأصلها "بن زرت" نسبة الى أحد الملوك القدماء اسمه زيري . وتقول الأخبار التراثية بشأنه إن هذا الملك زرت كان يحكم في إمارة قائمة في ناحية بنزرت آنذاك وكانت له بنت اسمها المُزوًقة فحصل بينهما خلاف لأن أباها كان يرغب في تزويجها من أحد الملوك في تلك الجهة لتثبيت سلطانه بينما كانت ابنته ترفض الصفقة فتسبًب خلافهما في حرب أهلية وزوال مملكة زرت وتأسيس إمارة بدلها برئاسة ابنته المزوقة.

وتوجد بلدة صغيرة اسمها "زريق" قرب بلدة "عيون الزركين" بين مدينتي قابس ومدنين ذكرها الكاتب التونسي عبد الله بن محمد التيجاني من أهل القرن الثالث عشر والرابع عشر ميلادي في كتابه المعروف باسم "رحلة التيجاني" ويصف فيه رحلة قام بها مع أحد كبار أمراء الدولة الحفصية في عهده عبر البلاد التونسية والقطر الليبي بين 1306 و1308 ميلادي. قال إنه عرف في بلدة زريق وليا من الأولياء الصالحين من أصل بربري اسمه سلام بوغرارة وما زال يوجد له ضريح مشهور في قرية كتانة غير بعيد عن مدينة قابس وله أحفاد بقرية جمنة بمنطقة نفزاوة ينحدرون من ابنه مياح بوغرارة إلى جانب أحفاد بليبيا ينحدرون من ابن آخر من أبنائه اسمه سيدي خليفة بوغرارة

بن سلام بو غرارة. وما زالت هناك عائلات في جهة تطاوين تحمل اسم "زريق" واسم "الزرقان" منهم جماعة يسكنون قرية "زرسين" بمنطقة نفزاوة بحيث أن اسم "زرسين" و"زركين" و"زرقان" و"زريق" هو اسم واحد اتخذ كلً هذه الصيغ اللفظية. ويطلق اسم "زريق" على الرحى الحجرية في البربرية في صيغة "آزرق" وهو مشتق من كلمة "أزرو" التي تطلق بصفة اسم على الحجر والصخر والجبل في البربرية.

كما تستعمل كلمة "زر"في اللغة البربرية في معنى "أبصر". وهناك قرية اسمها "قصر أزرو" و"زوارة" بجهة تطاوين في الجنوب الشرقي للبلاد التونسية وما زال سكانها يتكلمون اللغة البربرية الى هذا اليوم الى جانب سكان بعض القرى البربرية المجاورة لها وهي "شنني" و"قرماسة" و"الدويرات" الذين ما زالوا هم أيضا يتكلمون البربرية الى هذا اليوم.

ويستعمل اسم "زر" لتسمية زر الطربوش وخاصة الطربوش الليبي وهو كبًة صغيرة سوداء اللون تخاط في أعلاه فتكون بذلك بارزة وهو ما يفسر تسميتها بهذا الاسم حيث سبقت الإشارة الى أن اسم "زيرة" يطلق على الواحات التي تقع على التلال والروابي فتكون بارزة بالنسبة لمحيطها. ويجمع اسم "زر" في العربية في صيغة "أزرار" في حين يستعمل اسم "زرارة" لتسمية الأشخاص عند العرب.

كما يستعمل اسم "زير" أيضا في اللغة العربية في صيغة "وزير" بمعنى المساعد الأول والأقرب للحاكم والسلطان وفي صيغة "زير" بمعنى الرئيس والسيد. فقد كان الشاعر العربي القديم المسمى "المهلهل" يحمل لقب "الزير" بوصفه كان سيد قومه وقائدهم في الحرب المعروفة بحرب البسوس واسمه الحقيقي هو عدي بن ربيعة وهو خال الشاعر العربي القديم امرئ القيس الذي كان أميرا وابن ملك وصاحب المعلقة الشهيرة التي يقول مطلعها :

"قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجته من جنوب وشمأل" .

ويطلق اسم "زارة" على الأجمة ذات الماء في اللغة العربية بينما تستعمل كلمة "زور" في معنى السيد والزعيم. ويوجد في سوريا مدينة اسمها "دير الزور".

في ذات السياق يستعمل سكان منطقة نفزاوة كلمة "يزهر" لوصف النار الملتهبة فيقولون إنها تزهر. كما تطلق كلمة "زئير " على صوت الأسد. ويطلق على نوار الأشجار اسم "زهر" بينما تستعمل كلمة "تازيري" في اللغة البربرية في معنى القمر المكتمل. ويستعمل اسم "زهرة" لتسمية النساء وهو أيضا اسم كوكب الزهرة بينما يسمى الرجال والذكور باسم "أزهر". وكان العرب قديما يستعملون اسم "زهرة" لتسمية الرجال الذكور.

وتستعمل كلمة "زار" في اللغة العربية بصفة خاصة في معنى الزيارة وهو أن يأتي شخص لشخص آخر في منزله لغرض من الأغراض كالاطلاع على أحواله أو تهنئته لنجاح في أعماله وهو أشهر استعمال لكلمة "زار" في اللغة العربية على العموم. ويقال للذي يقوم بزيارة غيره "زائر" للمذكر و"زائرة" للأنثى. وفي هذا المعنى يقول الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي من شعراء القرن العاشر ميلادي يصف حمى ترتاده في الليل بالأساس :

"وزائرتي كأنً بها حياء   فليس تزور إلا في الظلام".

"أوزيريس" و"آزر" و"زرادشت"

وفي حقيقة الحال فإن استعمالات اسم "زار" تتجاوز حدود العرب والبربر وحدود اللغة العربية واللغة البربرية. فقد كان أحد آلهة الفراعنة والمصريين القدماء عموما يحمل اسم "أوزيريس" وأصله "أوزير" بينما توجد في إيران جماعة اسمهم "أزري" و"أذري" سكان منطقة ومدينة أذربيجان بشمال إيران واليهم ينتسب الكاهن المجوسي المعروف باسم "زرادشت" مثلما يدل عليه اسمه. ويطلق اسم "آزر" على لغة هؤلاء القوم وهي الآزرية. وما زالت كلمة "زر" تستعمل في اللغة الفارسية في معنى الذهب كمعدن وفي معنى النقود ووحدة قياس تعادل المتر بالإضافة الى معنى البروز كالتبرز في مجال العلوم والمعرفة مع كلمة "دانا" و"دانش" بمعنى العالم.

وتستعمل كلمة "زر" ومشتقاتها في العديد من المعاني الأخرى في اللغة الفارسية. فمن ذلك أن النار المقدسة عند الفرس المجوس تدعى باسم "آذار" و"آزار" والمعلوم أن الفرس المجوس كانوا يعظمون النار. وعلى ذلك فان اسم مدينة "أذربيجان" و"آزربيجان" في إيران يعني بلاد النار وقوم النار وعبَّاد النار وعبيد النار وهو معنى اسم الكاهن المجوسي "زرادشت" (عبد النار) على الأرجح. وما زال شهر مارس يسمى بهذا الاسم عند الشعوب العربية بالمشرق العربي وفي تقويم الفرس وهو أول الشهور عندهم. كما يوجد قطر اسمه أذربيجان مجاور لمنطقة ومدينة أذربيجان بشمال إيران.

كما يحمل اسم "زار " في الفارسية معنى الملك والسيد والابن والدستور بوصفه "نظام" يتعلق بميادين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبمسائل ر الترخيص والإباحة بحيث تعادل كلمة "زار" في هذا السياق كلمة "دستور" التي هي كلمة فارسية.

فلهذا السبب يقول المصريون عند استحضار الجن أو الأسياد في حفلات الزار "دستور يا أسيادي" بمعنى أمركم وطلبكم أي بماذا تأمرون وما ذا تطلبون. ولا شكً أنً هناك علاقة بين حفلات الزار والإله اوزيريس باعتبار أن الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في القديم يرمزون الى آبائهم وأجدادهم الأولين بوصفهم يمثلون طبقة الكبار والأسياد والرؤساء والزعماء والقادة في تلك العهود.

في ذات السياق وبالاستناد على ما ورد في القرآن الكتاب المقدس والموحى به من الله إلى النبي محمد نبي الإسلام حسب المسلمين أتباعه فإن والد النبي إبراهيم جدَ العرب يُسمًى باسم "آزر". وهناك من يقول انه اسم صنم كان يعبده قوم إبراهيم وكانوا من المجوس مثل قوم الكاهن زرادشت يقدَسون العديد من الآلهة ويعظمون النار. وكان والد إبراهيم كاهنا وسادنا في معبد الآلهة وبيت النار المقدسة ويصنع لهم الأصنام. والملفت للانتباه أن سادن بيت النار المقدسة عند الفرس المجوس في القديم يسمى "اقليد دار" ويتركب من كلمة "اقليد" بمعنى الرئيس وكلمة "دار" بمعنى الدار والبيت حيث أن اسم "اقليد" يطلق أيضا في اللغة البربرية على الملك والأمير والرئيس. فكان النبي إبراهيم مرشحا لخلافة والده آزر في وظيفة كاهن وسادن وصانع للأصنام في معابد الفرس المجوس. لكن إبراهيم بحسب القرآن تنكًر لآلهة قومه فألقوا به في النار المقدسة ليحرقوه لأنه كان يسبٌ ويتهجًم على الآلهة وهو ما حصل للكاهن زرادشت حسب ما يُروى بخصوصه فإن سيرته الشعبية تقول إن قومه ألقوا به في النار المقدسة في بداية أمره لأنه أراد تغيير دين الآباء والأجداد ثم اتبعوا شريعته. فهناك تقاطع كبير بين قصة إبراهيم وقصة زرادشت في الأحداث وفي أسماء الأشخاص مع العلم وأن إبراهيم أصله من بلاد "أور" في جنوب العراق القديم في مقاطعة الأهواز أو الأحواز كما يسميها العرب وتسمى خوزستان عند الفرس لأنها كانت تتبعهم لفترات طويلة. ولا شكً أن

الاسم الأصلي للكاهن زرادشت هو "آزاردشت" نسبة إلى النار المقدسة عند المجوس.

ويستعمل اليهود اسم "عزرا" و"عُزير" لتسمية الأشخاص نقلا عن اسم "أوزيريس" باعتبار أنهم قضوا مدة طويلة في مصر الفرعونية يشتغلون لحساب حكامها الفراعنة مثلما يقولون في أخبارهم التراثية أو امتدادا لعادة استعمال اسم "آزر" ذي الأصول الفارسية لتسمية الأشخاص لدى الشعوب القديمة التي كانت مستقرة في ناحية خوزستان وجنوب العراق والتي تنتمي إليها أول أسرة يهودية حسب أقوالهم.

الــزار والجــن والأسيـــاد

في ذات السياق تستعمل كلمة "هزار" في اللغة الفارسية في معنى القصة والحكاية والخرافة الشعبية. ويستعمل المصريون كلمة "هزار" في معنى الهزل والمزاح لأن له صلة بالخرافي باعتباره شيء غريب وعجيب أو من كلمة "هذار" بالذال بمعنى الهذيان في العربية من خلال تبديل حرف "الذال" بحرف "الزاي" وهو شائع في الكلام الإنساني وعند المصريين بالذات. فإن كلمة "هذيان" مشتقة من كلمة "يهذي" بمعنى يقول أشياء غريبة لا علاقة لها بالسياق ودون وعي من القائل كهذيان المجنون أو هذيان المصاب بحمى شديدة وينطقها التونسيون في صيغة "يهذري" بزيادة حرف "الراء" أو الصوت "را" ويمكن أن تنطق في صيغة "يهزري". فإن التونسيين يقولون للذي يهذي إنه يهذري بينما يطلق الجزائريون اسم "هدرة" على الكلام بصفة عامة. وقد كانت الشعوب القديمة تشبَه أقوال الأنبياء والكهان والعرافين والشعراء بنوع من الهذيان المستلهم من بعض القوى الغيبية.

وعلى هذا الأساس يمكن إطلاق اسم "زار" على الأنبياء والكهنة والسحرة والعرافين والشعراء بوصفهم أشخاص ملهمون يتكلمون باسم بعض القوى الغيبية ولذلك سُمى الكاهن المجوسي "زرادشت" بهذا الاسم الذي يعادل معنويا اسم "المجذوب" و"الدرويش" لدى سكان بلدان شمال إفريقيا وفي المجتمعات العربية عموما. فإن سكان بلدان شمال إفريقيا يلقبون بلقب "المجذوب" و"الدرويش" بعض الأولياء الصالحين الذين تصدر عنهم أقوال غريبة ومبهمة في شكل حكم. واشتهر منهم الولي الصالح سيدي عبد الرحمان المجذوب دفين مدينة مكناس بالمغرب الأقصى من أولياء القرن السادس عشر الميلادي الذي يقول في بعض حكمه :

"راح ذاك الزمان وناسه وجاء هذا الزمان وفلاسه وكل من يتكلم بالحق يكسروا له راسه".

ولكنّ المعنى البعيد لكل الأسماء المشتقة من "زار" هو السيد والرئيس والمقدًم والملك والأمير. ويعتبر الأولياء من الأسياد بما فيهم المجذوبين. ويطلق الناس أيضا على المجذوب أيضا اسم "بهلول" بمعنى الدرويش بينما يفيد اسم "بهلول" معنى السيد في اللغة العربية على غرار اسم "بهلوان" في الفارسية وهو مأخوذ من اسم" هبل" مع قلب الحروف والمعلوم أن اسم "هبل" يطلق على أعظم آلهة بعض القبائل العربية قبل الإسلام مثل قبيلة قريش بمدينة مكة بالجزيرة العربية. وسبقت الإشارة الى أنً الآلهة يرمزون الى طبقة الآباء والأجداد والرؤساء والكبار داخل الأسر والأقوام البشرية في بداية التاريخ الإنساني. ويُطلق المصريون اسم "أسياد" على الجن الذي يعتبرون مصدر الإلهام للعرافين والسحرة والشعراء وحتى الأنبياء حيث أن خصوم الأنبياء يقولون عنهم إنهم بهم مسٌ من الجن أو مسٌ من الآلهة. ويمكن اعتبار كلمة "مجوس" صيغة لفظية لكلمة "مس" مع أن بعض الدارسين يقولون ان أصلها كلمة "مغ" بمعنى التابع والخادم

والعبد في بعض اللهجات الفارسية القديمة وكانت تطلق على أتباع الدين الفارسي القديم والأصلي المتميز بتعظيم النار وينسب أتباعه ظهوره الى بداية الدنيا في عهد يطلقون عليه اسم 'زروان" بمعنى الدهر والأزل حسب بعض الدارسين.

فإنً الجن والعفاريت مثل الآلهة يرمزون إلى آباء وأجداد الأسر البشرية التي عمًرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني بينما يرمز الوحي والإلهام إلى عمليات التلقين والتعليم التي كان يقوم بها هؤلاء الآباء والأجداد والكبار عموما لنقل معارفهم إلى الأجيال الجديدة.

وعلى هذا الأساس فإنً الملهمين بمعنى الذين ألهمهم الآلهة والجن والعفاريت يعتبرون خدما وأتباعا وعبيدا لهؤلاء الآلهة والجن والعفاريت الذين يرمزون الى طبقة الأسياد في العصور الغابرة.

ولذلك يطلق اسم "زار" في مصر على الحفلات شبه الدينية التي تقام لاستحضار الجن بواسطة الرقص والشطح والغناء والموسيقى للاطلاع على طلباتهم وإرضائها حتى يكفوا عن إيذاء بعض الأشخاص بالذات . وسبقت الإشارة الى أن الساهرين على تنظيم حفلة الزار يقولون لهم "دستور يا أسياد" بمعنى أمركم يا أسياد. فالمعنى الذي تحمله كلمة "زار" في هذا السياق هو الجن والأرواح.

كما توجد حفلات مماثلة في تونس تسمى باسم "حضرة" وتدعى أيضا باسم "وعدة" وكذلك باسم "زردة" وهو اسم قريب من اسم "زرادشت" الذي يتخذ صيغة "زردس" عند بعض الجماعات من أتباعه مع أن الرأي السائد هو أن اسم "زردة" في شمال إفريقيا يعني الأكلة من الفعل "ازدرد" و"زرد" لأن حفلات "الحضرة" والموالد التي تقام على شرف الأولياء الصالحين تتخللها الولائم وتقديم شتى أنواع الطعام والأكل للحاضرين.

وتسمًى مثل هذه الحفلات باسم "بوري" عند بعض الشعوب الإفريقية سود البشرة جنوب الصحراء الكبرى. ويطلق اسم "بوري" على الجن والأسياد والأرواح عند هؤلاء الأفارقة بحيث أن البوري هم الجن والأسياد. وعلى هذا الأساس فإن اسم "بوري" يعادل تماما اسم "زار". وتتخذ كلمة "بوري" صيغة "فيري" التي تطلق في اللغة الانقليزية على الجن والجنيات (fairy) وكذلك صيغة "بيري" التي تستعمل في معنى الجن في الفارسية. وتبرز كل هذه الحقائق اللغوية أنً تقسيم اللغات الإنسانية إلى عائلات منغلقة على بعضها لا أساس له من الصحًة.

قمـرت وسكـرة ونفطـة

في ذات السياق تُدعى عين الماء في اللغة البربرية باسم "تاكمارت". وكان شط الجريد بجنوب البلاد التونسية يُسمى "تاكمارت" وكذلك "بركة فرعون" و"قلتة فرعون" مثلما أكده التيجاني في وصف رحلته عبر البلاد التونسية والقطر الليبي. وتوجد أغلب قرى وواحات نفزاوة بالضفة الجنوبية لشط الجريد بينما يوجد في ضفته الشمالية القرى والواحات المعروفة ببلاد الجريد وعاصمتها الإدارية مدينة توزر بحيث أن شط الجريد هو الفاصل بين منطقة نفزاوة وما يعرف ببلاد الجريد على مسافة حوالي 80 كيلومتر.

وأشار العلامة عبد الرحمان بن خلدون المتوفى في مصر سنة 1406 في تاريخه الكبير الى وجود قبيلة بربرية اسمها "قمرت". ويوجد مدينة مشهورة اسمها قمرت بالقرب من مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية وبجوارها مدينة أخرى اسمها "سكًرة" .وذكر ابن خلدون وغيره من المؤرخين أن "سكًرة" هي أيضا فرقة بربرية متفرَعة عن

قبيلة سدويكش الكتامية المتفرعة بدورها عن قبيلة كتامة المشهورة. وكان لها فرع مشهور في جزيرة جربة التونسية حيث ما زالت توجد الى اليوم قرية سدويكش بهذه الجزيرة.

فلذلك توجد العديد من المدن والقرى اسمها سكًرة في بلدان شمال إفريقيا منها قرية اسمها "سكًرة" بالقرب من مدينة "سيدي عقبة" بالجزائر وبجوارها قرية تحمل اسم "نفطة" مثل اسم مدينة نفطة ببلاد الجريد في جنوب البلاد التونسية. وبحسب بعض المختصين فإنً اسم "نفطة" يُفيد معنى عين الماء ويستشهدون على ذلك بكلمة "نبط" التي تستعمل في العربية في معنى "نبًع" فيقال في العربية نبط الماء بمعنى نبع الماء وخرج من العين بينما تطلق كلمة "نفطة" في اللغة السريانية على مجرى الماء الصافي. ويستعمل السكان في منطقة نفزاوة ومناطق أخرى في تونس وشمال إفريقيا عموما كلمة "نفًط" في معنى "برز" كالدمامل والحبوب التي تبرز على سطح الجلد عند الالتهاب فيقولون إنً الجلد "نفًط" بمعنى ظهرت فيه هذه الحبوب والقروح الصغيرة بسبب تجمع الماء بين الجلد واللحم نقلا عن العربية. وتطلق كلمة "نابطة" على الماء الصافي في بعض اللغات السامية علما وأنه كان يوجد شعب قديم من العرب اسمهم "الأنباط" كانوا مستقرين جنوب فلسطين وكانوا من البدو الرحل أسًسوا إمارة جنوب الأردن عاصمتها مدينة البتراء المشهورة.

وتوجد قرية في سوريا تحمل اسم "قلعة سكرة".

وتنسب بعض الأقوال إلى الصحابي عبد الله بن عباس وهو ابن عم نبي الإسلام محمد بن عبد الله يؤكد فيها أن قبيلة قريش العربية التي ينتمي إليها النبي محمد وعبد الله بن عباس هي من الأنباط. وكانت قبيلة قريش تسكن مدينة مكة بالجزيرة العربية وتقول الأخبار إنً الأصل

الأول لمدينة مكة هو بئر ماء محفورة بالمكان منذ زمن بعيد وتعرف باسم بئر زمزم.

كما يستعمل اسم "أنصارين" في البربرية لتسمية عين الماء وهناك مدينة اسمها "أنصارين "قرب مدينة تونس. واعتبر البعض غلطا أن اسمها مشتق من كلمة "أنصار" المشتقة من فعل "نصر ينصر" في اللغة العربية.

وتسمى عين الماء باسم "تارقا" أيضا في اللغة البربرية ويعادله اسم "ترعة" في اللغة العربية. وكان يوجد عين ماء اسمها "تاورغا" بقرية بشَري بمنطقة نفزاوة مذكورة في التاريخ. وأشار العالم العربي أبو عبيد البكري من علماء الأندلس العربية في القرن الحادي عشر الميلادي في كتابة "المسالك والممالك" الى وجود موقع اسمه "تاورقى" بين مدينتي قابس وصفاقس بالبلاد التونسية الى جانب موضع اسمه عين الزيتونة. وتوجد قرية اسمها "تارقا" قرب مدينة سوق اهراس بالجزائر.

وكان يوجد مدينة اسمها "طُرَّة" في منطقة نفزاوة مشهورة في التاريخ لأنها كانت العاصمة المحلية للجهة وهي الآن قرية المنصورة القريبة من قرية بشَري وكان بها عين ماء مشهورة ومذكورة في الكتب مثل عين تاورغا. فيمكن القول أن اسم "طرًة" هو صيغة لفظية لكلمة "تالة" التي تطلق على عين الماء في البربرية مثلما سبقت الإشارة إليه وتنطق أحيانا في صيغة "تارة" باعتبار أن حرف "اللام" وحرف "الراء" يعوَضان بعضهما في الكلام البشري. فيكون أصل "طرًة" هو "ترًة". وبالفعل تستعمل كلمة "تارويهت" في معنى الربوة والتل والهضبة في اللغة البربرية ويمكن أن تفيد "عين الماء" باعتبار وجود أغلب عيون الماء فوق التلال وفي سفوحها في منطقة نفزاوة وغيرها من المناطق الصحراوية الأخرى بشمال إفريقيا. ويوجد موقع اسمه "طرًة" بمصر به سجن مشهور بالقرب من مدينة القاهرة العاصمة

المصرية جنوب غرب موقع حلوان وهو موقع قديم كان يُسمى في عهد فراعنة مصر باسم "طرويو" حسب بعض الدارسين وكانت به مقاطع للحجر الجيري كان يستعمل لبناء القبور.

لكنً الأرجح أن اسم "طرًة" في هذا السياق هو صيغة لفظية لاسم "تروة" الذي يطلق على الأولاد والأسرة بصفة عامة في البربرية حيث أن أسماء الأماكن تشير غالبا الى هذه المعاني مع معنى الأب والأم والجد والأهل والوطن.

كما تطلق كلمة "أمدون" في البربرية على عيون الماء والقلت وهي المياه المتجمعة في المنخفضات من الأرض وينطقها البعض في صيغة "عمدون". وهناك مدينة اسمها "عمدون "بجهة مدينة باجة بالشمال التونسي. والملاحظ أن مدينة باجة كانت مشتهرة بعيونها منها عين ذكرها أبو عبيد البكري وقال ان اسمها عين الشمس مثل عين شمس في القاهرة بمصر وكانت اسم مدينة فرعونية شهيرة في ماضي الزمان. وهناك عين شمس في واحة سيوة على الحدود الليبية المصرية وهي أيضا عين مشهورة منذ القديم وتحدًث عنها المؤرخ اليوناني هيرودوت.

ويستعمل البربر كلمة "تقز" في معنى "حفر عين ماء" وهي كلمة تفيد التخمين والتكهن حيث يطلق على العرافين والعرافات الشعبيين اسم "تقاز" في البلاد التونسية نقلا عن اللغة البربرية اللغة الأصلية للسكان .فمن المعلوم أن البحث عن ينابيع الماء الطبيعية قصد تفجيرها أو ما يسمى الاستنباط يستدعي الكثير من التقدير والتخمين والقياس ومدة من الوقت قبل الوصول الى نتيجة واكتشاف نبع ماء. كما أنً كلمتي "نبط" و"نبع" متعادلتان في العربية ولهما جذر واحد مع أن بعض قواميس اللغة العربية تقول ان كلمة "نبع" في معنى عين الماء

هي سريانية غير أن العربية والسريانية هما لغتان ساميتان وقريبتان كثيرا من بعضهما.

وتسمى عين الماء باسم "ماسين" أيضا في اللغة البربرية.

عــادات بربريـــة فريـــدة

في هذا السياق سبقت الإشارة إلى وجود جماعة بربرية اسمهم "قمرت" فيمكن القول إنهم فرع من قبيلة "غمارة " البربرية التي تعتبر من أعرق القبائل البربرية . ويتخذ هذا الاسم صيغة "غمراسن" وتوجد قرية اسمها "غمراسن" بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية بالقرب من مدينة تطاوين. كما يتخذ صيغة "قمارة" و"قمار".

واشتهرت قبيلة غمارة البربرية بممارستها للكهانة بواسطة الأحلام حيث كان فيها جماعة من الكهان والسحرة والمجذوبين يتنبئون ويتكهّنون بالمستقبل وبالغيب بواسطة ما يرونه من الأحلام أثناء النوم والرقاد. ويطلق عليهم اسم "رقادة" بالعربية مثلما ذكره العالم العربي أبو عبيد البكري من علماء الأندلس العربية في القرن الحادي عشر ميلادي في كتابه المسمى "المسالك والممالك" ولكنّه لم يذكر مقابله باللغة البربرية. فكان الواحد من هؤلاء الرقادة ينام ويرقد ثلاثة أيام متتالية ثم يستيقظ فيُخبر عمَا سيجري في المستقبل على ضوء ما رآه من أحلام أثناء نومه الطويل.

وقد اتخذت قرية "رقادة" بجوار مدينة القيروان التونسية هذا الاسم نسبة إلى هؤلاء الكهنة والسحرة لأن موقع القيروان كان موقعا مقدسا عند البربر قبل الإسلام وكان لهم فيه أصنام وكان الكهنة والسحرة يتعبَّدون ويُمارسون أنشطتهم الدينية قرب وداخل المعابد

المخصصة للآلهة وللأصنام التي تمثلهم. ولهذا السبب اختاره العرب القادمون من جزيرتهم لنشر الإسلام في شمال إفريقيا في بداية ظهور هذا الدين في القرن السابع الميلادي وشيدوا فيه جامعا حيث جرت العادة ان يبني المحتلون الجدد لبلد من البلدان معابدهم مكان معابد سكان البلد.

وأورد المؤرخون العرب والبربر في القرون الوسطى حكايات عن أصل تسمية موقع رقادة تقوم على اشتقاقه من كلمة "رقد " بمعنى "نام" في العربية كصدى بعيد لأصله الحقيقي في إطار أحداث ليس لها أية علاقة بهذا الأصل الحقيقي منها أخبار أوردها المؤرخ البربري أحمد بن سعيد الدرجيني من علماء المذهب الأباضي أو الأباضية بمدينة نفطة ببلاد الجريد بالجنوب التونسي في القرن السابع هجري الرابع عشر ميلادي في كتابه "طبقات مشايخ المغرب". تقول هذه الأخبار ان الناس أبصروا بالموتى راقدين في المكان اثر معركة رهيبة وهم على هيأة الأحياء بلباسهم وأسلحتهم فقالوا إنهم "رقود" أو كأنهم "رقود" فسمي المكان "رقادة".

كما ذكر أبو عبيد البكري أن قبيلة غمارة البربرية كانت تمارس عادة المواربة وتتمثل المواربة في المواقعة الجنسية الجماعية للعروس ليلة دخلتها. فكانت العروس ليلة دخلتها ترقد مع العريس ومع أصحابه المقربين وتمكّنهم جنسيا من نفسها ومن مواقعتها مثلما تفعل مع عريسها ليلة الدخلة والأيام التي تليها.

فتأكيدا لما ذكره أبو عبيد البكري تحدَّث المؤرخ اليوناني هيرودوت عن انتشار هذه العادة لدى أقوام البربر واللوبيين في عهده مشيرا الى أن بعض الجماعات البربرية كانت تعرض كل عروس تزف الى عريسها الى ملكهم ليكون أول من يتمتع بها وهي عادة كان عرب اليمن يمارسونها قديما مثلما تشهد عليه قصة طسم وجديس وهما قبيلتان

من العرب البائدة . فكان طسم يستعبدون جديس وكان جديس يهدون كل عروس منهم تزف الى عريسها لملك طسم ليتمتع بها فثارت جديس ضد طسم وقتلوا ملكها وأتباعه وتحرًروا من الاستعباد. كما كانت موجودة في البلدان الأوروبية في عهد الإقطاع في القرون الوسطى. فكان النبيل صاحب المقاطعة هو الذي يزيل بكارة العروس ولذلك كان الولد البكر للعروس يعتبر ملكه.

الإباحية الجنسية عند البربر

كما كان بعض الأقوام البربرية بحسب ما نقله هيرودوت يمارسون الإباحية الجنسية والمعاشرة الجماعية للنساء . فكان الرجل يعاشر المرأة التي يرغب فيها. كما كانت المرأة تعاشر الرجل الذي ترغب فيه وكانت تفتخر بكثرة عشاقها والمعاشرين لها من الرجال وتضع سيرا من الجلد حول ساقها كلما عاشرت رجلا فكانت تعتز بكثرة تلك السيور.

وورد في حكاية شهريار وشهرزاد في الكتاب العربي المُسمى "ألف ليلة وليلة" وهي أول حكاية في هذا الكتاب أن الملك شهريار وأخاه الملك شاه زمان تركا مدينتهما بعد أن تفطنا الى خيانة زوجتيهما لهما فلقي في طريقهما صبية ذات حسن وجمال قد اختطفها عفريت من الجن ليلة زفافها وكان العفريت نائما بجانبها فأرغمتهما على مواقعتها جنسيا وهددتهما بإيقاظ العفريت ان امتنعا فاستسلما للأمر ثم طلبت منهما أن يعطيها كل واحد منهما خاتمه وأخرجت لهما كيسا فيه عشرات الخواتم قالت لهما إنها خواتم كل الرجال الذين واقعوها قبلهما. وسبقت الإشارة إلى المشاهد التي تتضمنها الخرافات الشعبية حول العفاريت الذين يختطفون العرائس ليلة الدخلة. فإن كل هذه الحكايات هي صدى

لعادة إهداء العروس للملك ليلة دخلتها ليستمتع بها ويزيل بكارتها باعتباره سيد القوم وكانت تمارسها العديد من الأقوام والشعوب الإنسانية في الماضي.

وهناك بعض التطابق بين الموارية عند البربر والبغاء المقدّس الذي كانت تمارسه بعض الجماعات البشرية في القديم حسب المؤرخين ويتمثل البغاء المقدس في إقامة المرأة في معبد من معابد الآلهة مدة من الزمن ومعاشرة من يرغب فيها من زوّار المعبد داخل المعبد. ويرى البعض من الدارسين أن ما ورد في القصص التراثية المتعلقة بالنبي عيسى بن مريم نبي النصارى بخصوص أمه مريم وإنجابها له بصورة عجيبة يخفي في الواقع ممارسة البغاء المقدس حيث تقول القصة إن زوج أختها المسمى زكريا كان يزورها في المعبد وقد اتهمه قومه بالزنا مع مريم. وكان الكنعانيون يمارسون البغاء المقدس في بعض معابدهم حسب المؤرخين.

كما كانت بعض الجماعات البربرية إلى عهد قريب جدا يمارسون اللواط المتمثل في الاتصال الجنسي بين الذكور ويتعاطونه باعتباره عادة وخصلة حميدة موروثة عن الأجداد ولها أبعاد عقائدية. وقد أشار ابن حوقل إلى هذه العادة في كتابه المذكور علما وأن ابن حوقل زار شمال إفريقيا في عهده وذكر أنَّ جماعة البربر بالصحراء الكبرى من التوارق يمارسون اللواط وأن الرجل الشريف والشجاع منهم ينام مع ضيفه ويُمكّنه من نفسه تقديرا لضيفه.

وتحدّث الكتاب المسمى "تاريخ العدواني" المنسوب للشيخ محمد العدواني من علماء وادي سوف بالجزائر في القرن السابع عشر الميلادي عن هذه العادة. وبحسب ما ذكره الشيخ محمد العدواني كان الرجال في بعض الجماعات البربرية في عهده يقيمون مجالس إباحية بغرض اللواط وهم عرايا تماما ويحلقون عانات بعضهم البعض

ويتناكحون. كما أشار إلى ممارستهم للعبة تدعى لعبة الشاة وتتمثل في قيام جماعة من الرجال وهم عرايا تماما في تشخيص شاة يطاردها سرب من الذئاب فتتعرّض لهم كلاب الحي ويدفعونهم عنها.

في ذات السياق اشتهر بممارسة اللواط قومٌ قدماء من الكنعانيين من أقارب العرب كانوا مستقرين جنوب البحر الميت في فلسطين تقول الأخبار إنهم كانوا يتعاطونه تبعا لعادة قديمة وهو مشتق من كلمة "لوط" التي ما زالت تستعمل في العربية للتعبير عن العديد من المعاني منها معنى الالتصاق والقرب للنفس والمحبَّة. وتتحدَّث أخبار تراثية أخرى عن كاهن قديم اسمه "لوط" من قوم النبي إبراهيم كان نازلا مع إبراهيم بجوار هؤلاء الكنعانيين وكان إبراهيم ولوط وقومهم مهاجرين غرباء عن بلاد كنعان فلم يفهموا المغزى العميق لعادة الاتصالات الجنسية بين الذكور فكان هذا الكاهن لوط ينتقدها.

وما زالت توجد أصداء لهذه العادات البربرية المتميَزة الى هذا اليوم من خلال نعت بعض الجماعات في تونس وشمال إفريقيا بحسن استقبال ومعاشرة الغرباء والاشتهار بجمال نسائهم وبناتهم حتى أنَّ الغريب الذي يفد عليهم ينسى أهله ووطنه ويقيم معهم ويتزوج منهم.

ففي هذا السياق كان جماعة اسمهم أولاد سعيد بوخلوط بجبل بو لحناش بجهة الكاف في الشمال الغربي التونسي مشهورين بتفتحهم الأخلاقي بينما اشتهرت نساء قرية زرسين بمنطقة نفزاوة بسحر جمالهن وحسن معاشرتهن للغريب وهناك أشعار شعبية تنصح العاشق بالذهاب إلى زرسين فإنَّه سيجد حاجته.

كما اشتهرت منطقة بالجزائر تدعى "تيكوت" في السفح الغربي لجبال الأوراس بجمال نسائها وبجاذبيتهن الخاصة بحيث يوصي الناس كلَّ من يريد الذهاب إلى تيكوت بأن يتزوَّد بزاد وفير لأنه سيجد نفسه مضطرا إلى المكوث طويلا بالمكان للاستمتاع بفتنة بناته. ويوجد موقع

اسمه "كوتين" قرب مدينة جرجيس بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية ويعتبر اسمه صيغة لفظية لاسم "تيكوت" حيث اشتهرت مدينة جرجيس أيضا بحسن جمال نسائها وبناتها وينطق التونسيون في العديد من المناطق كلمة "بنات" في صيغة "بناويت". كما يوجد قرية اسمها "كتّانة" بناحية مدينة قابس في الطريق بين مدينة قابس ومدينة مدنين بالجنوب الشرقي التونسي.

تونـس ملكـة بربريـة قديمـة

في ذات السياق تشير الكثير من المعطيات التراثية والمكتوبة الى أن اسم "تونس" الذي تحمله مدينة "تونس" عاصمة البلاد التونسية هو اسم جماعة بشرية قديمة استوطنوا البلاد التونسية في ماضي الزمان ونقلوا اسمهم الى الأماكن التي نزلوا فيها واتخذوا اسم "تونس" و"توانسة" نسبة الى اسم آبائهم وأجدادهم الأولين وخاصة منهم النساء.

والى جانب مدينة تونس ما زالت هناك العديد من المواقع التي تحمل هذا الاسم في البلاد التونسية وشمال إفريقيا منها مدينة "طينة" و"تينة" بالقرب من مدينة صفاقس وسط ساحل البلاد التونسية. وهناك موقع أثري قديم بالقرب من مدينة تونس اسمه "أوذنة" وهو صيغة لاسم "تونس". كما ظل النساء الى اليوم يُسمُّون باسم "تونس" خاصة في البلاد التونسية.

كما اتخذ اسم تونس صيغة "طانجة" وهو اسم تحمله مدينة طانجة في المغرب الأقصى. وهناك مدينة تونسية اسمها "تينجة" بالقرب من مدينة بنزرت بالشمال التونسي. ويعتبر اسم "طانجة" و"تينجة" صيغة لفظية لاسم "تونس" مع أنَّ اسم "طانجة" و"تينجة" مشتق من لفظة "انق" و"انج" التي اشتق منها اسم قرية "نقة" بمنطقة

نفزاوة مثلما تقدَّم شرحه بحيث يمكن القول بأن كل هذه الكلمات والألفاظ هي صيغ لفظية لكلمة أصلية واحدة وهي كلمة "انج" و"انس".

فقد جاء في الأساطير والقصص التراثية القديمة أن شمال إفريقيا كان يحكمه في يوم من الأيام في غابر الزمان زعيم اسمه "أنتي" كنت له زوجة اسمها "طانجة" وأنها ولدت له ولدا اسمه "صفاقس".

ويقول بعض الدارسين أن عاصمة الملك أنتي كانت توجد بناحية العرائش قرب مدينة تطوان بالمغرب وكانت تسمى باسم "تمودا" غير بعيد عن مدينة طانجة بحيث أن طانجة كانت ملكة على ناحيتها فخطبها أنتي وتزوج بها لتوطيد مملكتيهما. وهناك أيضا من يقول بأن القبور الجلدومية بموقع "المزورة" بهذه النواحي هو قبر الملك انتي باعتبار أنَّه من الناس الأوائل المشهورين بضخامة أجسامهم .فكان جبارا من جبابرة الزمن الماضي كالعماليق في بلدان المشرق العربي القديم.

كما أورد المؤرخ الإغريقي هيرودوت أخبارا تشير إلى تعظيم الجماعات البربرية المقيمة حول شط الجريد لإحدى الربات والآلهات القديمة اسمها "أثينا" ويُسميها البربر "تانيت" باعتبارها مولودة في المنطقة. وكان اليونانيون القدماء في عهد هيرودوت وقبله بكثير يقدَسون أيضا هذه الربَّة وما زالت عاصمة بلاد اليونان تحمل اسم "أثينا". فقد أشار هيرودوت ومؤرخون يونانيون قدماء آخرون إلى وجود بحيرة كبيرة في هذه الربوع الممتدة من غرب ليبيا إلى جنوب البلاد التونسية ويعتقد المختصون في العصر الحاضر أنها شط الجريد. ويسميها المؤرخون اليونانيون القدماء باسم "بحيرة تريتونية" نسبة الى ملك الناحية ويقولون إن نهرا بالمنطقة يسمونه نهر "تريتون" كان يصب في هذه البحيرة. فهناك من كان يقول من اليونانيين إنَّ أثينا أو "تانيت" كما يُسميها البربر هي ابنة تريتون ثمَّ تبناها "زوس" كبير آلهة

اليونانيين القدماء. فلا شكً أن تريتون يرمز الى ملك قديم كانت له إمارة باسمه في المنطقة فنقل اسمه الى البحيرة.

فإن اسم "أثينا" و"تانيت" هو صيغة لفظية لاسم "تونس" وسبقت الإشارة الى أن الآلهة يرمزون الى أقوام وأشخاص وجدوا في ماضي الزمان وكان لهم شأن كبير أثناء حياتهم ووجودهم فوق الأرض فعظمهم معاصروهم أثناء حياتهم وربوا أبناءهم على تعظيمهم من بعدهم مثل الأولياء الصالحين في العصر الحالي لدى سكان بلدان شمال إفريقيا والمجتمعات الإسلامية عموما.

وكان البربر يقدَسون الربًة "تانيت". كما كان الكنعانيون المقيمون بتونس وشمال إفريقيا يعظمونها أيضا وخاصة فرعهم المعروف باسم الفينيقيين الذين ينسب إليهم تأسيس مدينة قرطاج بالقرب من مدينة تونس في القرن التاسع قبل الميلاد.

في هذا المعنى استشهد بعض الدارسين بالأصل البربري للربة "تانيت" بانتشار رمزها المعروف بين القبائل البربرية الى هذا اليوم مع انعدام وجوده عند الكنعانيين في المشرق العربي قديما. ويتمثل الرمز في جسم شخص بشري على هيأة مثلث بمثابة الجسم تعلوه دائرة بمثابة الرأس وسط خط بمثابة اليدين.

فالملاحظ أن الانتساب عند العديد من الجماعات البربرية ما زال يتمٌ الى عهد قريب جدا عبر الأم وليس عبر الأب على غرار البربر المعروفين باسم التوارق سكان الصحراء الكبرى في الوقت الحاضر. وتسمى العشيرة الصغيرة عند بعض التوارق باسم "طاوس" مثل الطائر المعروف بهذا الاسم وبالأحرى باسم "تاوس" لأن البربر يستعملون حرف التاء في بداية الكلمة بمثابة العلامة على التأنيث والتصغير حتى أن بعض الخرافات الشعبية التونسية التي تحكى باللهجة العربية الدارجة تتحدث عن فتاة جميلة تولًى تربيتها طاووس بمعنى

الطائر المعروف بهذا الاسم وذلك من باب الخلط لأنً أصلها منقول من البربرية. لكن هناك أيضا بعض التوارق الذين يُسمون العشيرة باسم "الطبل" بمعنى الآلة الموسيقية الجلدية التي يضرب عليها لإحداث الأصوات لأن زعيم العشيرة كان له طبل يستعمله لإشعار الجماعة ببعض توجيهاته. وظلت هذه العادة موجودة في الجنوب الشرقي التونسي الى عهد قريب.

في ذات السياق توجد قبيلة بربرية تحمل اسم "هنتاتة" مشهورة في التاريخ بينما اسم "انت" و"أند" يستعمل أيضا عند بعض الجماعات البربرية في معنى "الابن" وينطق "آت" عند جماعات بربرية أخرى بحيث أن الملك البربري القديم المسمى "أنتي" كان ينتمي الى جماعة اسمهم هنتاتة أو إنه كان جدُّهم الأول عرفوا باسمه. وتقول الأخبار ان الملك أنتي كان من الجبارين. وما زال اسم عنتيت يستعمل الى اليوم لتسمية الأشخاص في تونس. ويستعمل كلمة "عنت" في العربية في معنى التجبر وهي صيغة لاسم "أنتي" الذي تقول عنه الأخبار انه كان جبارا قويا. وهناك شاعر عربي قديم اسمه عنتر اشتهر بقوته وشجاعته وكان أسود اللون.

وما زال يوجد بليبيا ولي صالح اسمه "سيدي أنتات" دفين مدينة غريان وينتسب إليه بالتبنَي جماعة اسمهم "العزين" وهم عشيرة تطوع أجدادهم منذ القديم لخدمة سيدي أنتات دون أن يكونوا من أبنائه.

فبالاستناد إلى كل الحقائق والمعطيات السابقة يمكن القول بصفة عامة بأن اسم "تونس" كان يطلق على بعض الجماعات البربرية القديمة كانوا من أوائل الجماعات البربرية الذين استوطنوا شمال إفريقيا وذلك نسبة إلى أسماء أجدادهم وآبائهم الأولين من الذكور والإناث. وكان الأجداد والآباء يُسمون ويُنعتون في الغالب باسم السيد والأسياد بحيث أن كلمة "تونس" تفيد معنى السيدة والشريفة. وما زال السكان في شمال

إفريقيا يستعملون لقب "لالّة" و"للّة" وكذلك "ألّة" في معنى السيدة والشريفة وهو اسم مستعمل بكثرة في اللغات السامية ومشتق من اسم "ايل" بمعنى إله ورب عند الشعوب السامية. وما زال اسم "رب" يستعمل في معنى السيد والرئيس بينما يُسمى السيد في العربية باسم "مولى" وهو مشتق من اسم "ايل' وهو من الأسماء الأضداد يطلق على السيد والتابع معا.

أمّا الأصل الأصيل لاسم "تونس" فهو كلمة "نساء" في معنى الأسرة التابعة لسيد من الأسياد أي أسرة محصنة تحت حماية رئيسها بمعنى الأب بالنسبة للأولاد والزوج بالنسبة للنساء.

وجاء في كتاب "تاريخ العدواني" المنسوب للشيخ محمد العدواني من أهالي واد سوف بالجزائر في القرن السابع عشر الميلادي أنّ الملك والقائد البربري كسيلة بن لزم المشهور في التاريخ من أهل القرن الأول الهجري السابع الميلادي كانت له بنت تسمّى تونس وكانت أميرة مرموقة شيّد لها قصرا منيفا قرب مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية فعرفت مدينة تونس بها .

في ذات الإطار كان يوجد في القديم جماعة من البربر اسمهم "ماسيلي" أسّسوا بعض الممالك في جهة الجزائر. فقد ذكر بعض العارفين أن اسم "ماسيليا" يعني الفتاة الجميلة والرقيقة في اللغة البربرية فيمكن القول ان جماعة الماسيلي اتخذوا هذا الاسم نسبة الى جدتهم التي تدعى ماسيليا.

زرسين و"أزيريس" و"بشلي"

في ذات السياق سبقت الإشارة إلى أن قرية "زرسين" و"جرسين" بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية تدخل في

إطار القرى والبلدات التي اشتق اسمها من اسم "زيرة" في البلاد التونسية على غرار قرية الزارات قرب مدينة قابس. ويطلق اسم "زيرة" ذي الأصول البربرية في منطقة نفزاوة على غابة النخيل الصغيرة في الصحراء على ملك بعض الجماعات البشرية تقع عادة فوق هضبة وتلًة تنبع منها عين ماء تسقيها. وكانت كل قرى منطقة نفزاوة في الأصل الأصيل عبارة عن زيرة.

ففي هذا المعنى ومثلما سبقت الإشارة إليه تحدًث المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (Hérodote) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد عن وجود مدينة بشرق ليبيا اسمها "أزيريس" (Aziris) تنتسب إليها جماعة بربرية قديمة اسمهم "بنو آزر" أو "الآزريون" ورد ذكرهم في كتب التاريخ القديمة ضمن القبائل البربرية الغابرة . وتقع مدينة أزيريس بناحية برقة شرق ليبيا.

وجاء في قصة تأسيس قرية زرسين بمنطقة نفزاوة أن بها هضبة تدعى باسم "برقو".

فبالرجوع إلى أسماء معظم الأماكن المعروفة والمسكونة في شمال إفريقيا وفي غيره من بقاع الأرض يمكن القول بأن اسم "جرسين" و "زرسين" هو اسم بعض الأقوام والجماعات البشرية الذين وجدوا في القديم فاستوطنوا المكان فنقلوا اسمهم إليه أو إنهم كانوا يختلفون إليه بانتظام فعرفوا به وعرف بهم. فيمكن القول إنً هؤلاء القوم هم "بنو آزر" أو "الآزريون" الذين ذكرهم المؤرخ اليوناني هيرودوت.

فهناك الى اليوم قرية اسمها "زركين" وموقع اسمه "عين الزركين" بالقرب من قرية الزارات بجهة قابس في الطريق الذي يصل بين هذه المدينة ومدن الجنوب الشرقي مثل مدنين وتطاوين. ولا شكً أنً اسم" زركين" هو صيغة لفظية لاسم "زرسين" و"جرسين".

فإن اسم نفزاوة الذي تحمله منطقة نفزاوة هو اسم قبيلة بربرية مشهورة في التاريخ استوطنت المنطقة فنقلت اسمها إليها . ويقول المؤرخون ان قبيلة نفزاوة هي قبيلة بربرية متفرًعة عن قبيلة لواتة البربرية الشهيرة مع ان التيجاني يقول في كتابه المعروف برحلة التيجاني إنً قبيلة نفزاوة هم بنو نفزاو وإنهم من عرب الجزيرة ويرفع نسبهم الى نزار بن معد بن عدنان الجدٌ الأول لعرب وسط وشمال الجزيرة العربية ويقال لهم "العدنانيون" مقارنة بعرب جنوب الجزيرة العربية وبلاد اليمن بصفة خاصة الذين يقال لهم "القحطانيون" نسبة الى رجل اسمه "قحطان" جدُهم الأول. وجاء في كتب المؤرخين العرب أن القرية التي اسمها "طرًة" بمنطقة نفزاوة بجوار مدينة قبلي كان يسكنها جماعة من قبيلة لواتة البربرية وكانت عاصمة المنطقة في يوم من الأيام.

وتوجد قرية تحمل اسم "فطناسة" في منطقة نفزاوة غير بعيد عن قرية زرسين اتخذت هذا الاسم نقلا عن اسم قبيلة فطناسة البربرية المعروفة في التاريخ ويُسمٌون أيضا بنو فاتن نسبة الى جدَهم فاتن. وتنتمي قبيلة فطناسة الى قبيلة ضريسة.

كما أن اسم "تامزرت" الذي تحمله قرية تامزرت بناحية مطماطة بجهة قابس في الجنوب التونسي يُستعمل لتسمية الأشخاص عند البربر منذ القديم.

ففي هذا السياق ما زالت توجد قرية اسمها "بشلي" وتنطق "ابشلي" مجاورة لقرية "جرسين". فان اسم "بشلي" هو اسم جماعة بشرية قديمة ورد ذكرهم في كتب المؤرخين اليونانيين القدماء ومن بينهم هيرودوت. وقد ظل هذا الاسم يستعمل في البلاد التونسية إلى هذا اليوم في صيغة "بسيلَي" و"بصلي". وكان يوجد الى عهد قريب مقبرة تسمى مقبرة البسيلي في مدينة تونس.

فقد أورد المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت أسماء العديد من القبائل البربرية التي كانت تقطن في المجال الترابي الممتد من واحة سيوة على الحدود المصرية الليبية شرقا الى جبال الاوراس بالجزائر غربا وخاصة في المناطق الجنوبية من هذا المجال الترابي الواسع بما فيها منطقة نفزاوة. فأشار الى وجود جماعة اسمهم "القبليون" (Cabales) نسبة الى قبلي وبلاد القبلة والى جماعة أخرى اسمهم "بسلي" (Psylles) اشتهروا بمهاراتهم في ترويض الحيات والأفاعي لاستعمالها لشتى الأغراض الحياتية وكانوا في صراع مستمر مع زحف الرمال الصحراوية حتى أنهم ذهبوا إلى وسط الصحراء للاستطلاع ومعرفة مصادر الرياح لعلًهم يتغلبون عليها بحيلة من الحيل فتاهوا في الصحراء ومات أكثرهم.

وتوجد قرية تحمل اسم "بشلي" في سوريا التي كانت من أهم مواطن الكنعانيين في المشرق في القديم مع لبنان وفلسطين. ويعني اسم "بشلي" الملك والأمير حيث ما زال هذا الاسم يطلق على الملك في اللغة اليونانية في صيغة "بازيلوس".

كما توجد قرية اسمها "بشَري" بجوار قرية "ابشلي" كانت عاصمة منطقة نفزاوة في يوم من الأيام. فالجدير بالملاحظة أنه يوجد مدينة اسمها "بشرَي" في لبنان موطن الكنعانيين وفرعهم الفينيقي بالذات قرب جبل بشرَي المعروف بلبنان والذي يضم غابة صنوبر تعتبر من أقدم غابات الصنوبر في العالم. والمعلوم أن حرف" الراء" وحرف "اللام" يعوَضان بعضهما في الكلام الإنساني بحيث أن اسم "ابشلي" واسم "بشَري" هو اسم واحد ينطق في هذين الصيغتين.

ثمَ إن اسم "زرسين" يحمل أيضا معنى الملك والأمير مثلما سبقت الإشارة اليه بمناسبة عرض المعاني التي يحملها اسم "زار" ومشتقاته العديدة في اللغات الإنسانية.

قبيلة ضريسة وأصل اسم زرسين

وجاء في حكاية تأسيس قرية "زرسين" أنها سُميت بهذا الاسم لوقوعها بين هضبتين يبدوان كأنهما "ضرسين" بمعنى سنًين وتنطق "زرسين".

فقد ذكر المؤرخون العرب والبربر في العصور الوسطى منهم ابن خلدون أن قرية زرسين أو جرسين بمنطقة نفزاوة كان يسكنها جماعة ينتمون إلى قبيلة ضريسة البربرية وهم بنو الرند وبنو يزمرتن وبنو مرين.

ففي هذا المعنى ذكر العلامة ابن خلدون أنه "كان يوجد بقفصة عاملا لصنهاجة (حكام تونس في القرن الحادي عشر ميلادي) اسمه عبد الله بن محمد بن الرند وأصله من جربة من بني صدغيان وقال ابن نخيل (مؤرخ تونسي في القرن الثالث عشر ميلادي) هو من بني مرين من مغراوة وكان مسكنهم بالجرسين من نفزاوة فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد".

وذكر المؤرخ البربري أحمد بن سعيد الدرجيني من علماء الاباضية بمدينة نفطة ببلاد الجريد بتونس في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي في كتابه "طبقات مشايخ المغرب" والمؤرخ البربري أحمد الشماخي من علماء الأباضية في القرن السادس عشر ميلادي بجزيرة جربة في مصنفه المسمى "كتاب السير" بأن العالم الاباضي المشهور فصيل بن العالم الاباضي الشهير يسجا بن يوجين اليهراسني من علماء جزيرة جربة التونسية في القرن العاشر الميلادي سافر وهو شاب بطلب من أبيه الى نفزاوة ليشتري لهم التمر من قرى "يزمرتن" بناحية زرسين. وما زال يوجد الى هذا اليوم بجزيرة جربة جامع منسوب الى العالم الاباضي يسجا بن يوجين اليهراسني الملقب

بأبو مسور ويعرف بجامع أبو مسور ويوجد قبره بمدينة قلالة بجربة بينما يوجد قبر ابنه العالم فصيل بن يسجا بخبلاش بجربة.

فقد كانت كل ًهذه الجماعات البربرية بنو مرين وبنو الرند وبنو يزمرتن ينتمون الى قبيلة زناتة البربرية الشهيرة والمتفرعة بدورها عن قبيلة ضريسة. واتخذت قبيلة ضريسة هذا الاسم نسبة إلى جدها الأول الذي يُدعى "ضري" فيقال لهم "بنو ضري" و"ضرية" و"ضريسة" بحيث يمكن اعتبار قصة اشتقاق اسم "زرسين" من كلمة "ضرس" صدى لهذا الوجود القديم لقبيلة ضريسة البربرية في المكان. ومن المعلوم ان حرف الضاد يُعوًض بحرف الزاي . كما أنً حرف الذال يعوًض بحرف الزاي. وكذلك الشأن بالنسبة لحرف الجيم فإنه يُعوًض بحرف الزاي لأن كل هذه الحروف تصدر من مخرج واحد من الفم في الكلام الإنساني فهي متساوية ويعوَض بعضها البعض. وهناك من يعوَض حرف "الضاد" بحرف "الدال". وظاهرة تعويض الحروف بعضها البعض مشهورة في الكلام الإنساني وعند العرب والبربر بالخصوص. فليس بغريب أن ينطق اسم قرية "زرسين" في هذه الصيغة وفي صيغة "جرسين" باعتباره مشتق من اسم "ضريسة" أو "ضرية" المشتق بدوره من اسم "آزري" و"آزيريس" المشتق بدوره من اسم "زيرة" و"زار" و"زيري".

فمن ذلك أن أبو عبيدة البكري أشار الى وجود مدينة اسمها "أجًر" في جهة مدينة القيروان وعين جلولا قال إنها كانت محاطة بجماعات تنتمي الى قبيلة ضريسة. وهناك الحي الذي اسمه "جارة' في مدينة قابس بالجنوب التونسي فإنً اسم "جارة" هو صيغة لفظية لاسم "أجًر". وذكر المؤرخون العرب أنهم فرقة من البربر وما زال يوجد ناحية اسمها "قلوع جارة" بشمال المغرب الأقصى. وهناك مدينة "جريسة" أو "جريصة" بجهة الكاف بالشمال الغربي للبلاد التونسية.

ويستعمل اسم "جري" الى اليوم لتسمية الأشخاص ويوجد في الجنوب الشرقي التونسي عائلات تحمل هذا الاسم.

وذكر بعض الدارسين أن اسم "زار" الذي يطلق على حفلات الزار في مصر والسودان والنوبة والحبشة مأخوذ من اسم إله حبشي قديم يدعى "جار" بينما يطلق اسم "جر" على الواحة وغابة النخيل في بلاد الجريد وفي قرية جمنة بنفزاوة ويعادل اسم "زيرة" الذي يُطلق على الغابة الصغيرة من النخيل في منطقة نفزاوة مثلما سبقت الإشارة إليه بحيث ليس هناك فرق يذكر بين ""زرسين" و"جرسين" في مختلف المستويات.

فيمكن القول أن قبيلة "ضريسة" هي امتداد لجماعة الآزريين الذين تحدَّث عنهم المؤرخ اليوناني هيرودوت خاصة وأن قبيلة زناتة المتفرعة عن قبيلة ضريسة والتي ينتمي اليها بنو يزمرتن وبنو مرين وبنو الرند المستوطنين قديما لقرية زرسين كانت من البدو الرحل وكان مجالها الترابي يمتد من مدينة غدامس جنوب ليبيا شرقا الى منطقة السوس بجنوب المغرب الأقصى غربا مرورا بالجنوب التونسي بما فيه منطقة نفزاوة وبلاد الجريد والجنوب الجزائري.

وقد أشار المؤرخون العرب والبربر في القرون الوسطى في أخبارهم إلى وجود قلعة اسمها قلعة "جرسينة" أو "قرسينة" بجهة مدينة بنزرت بالشمال التونسي. وجاء في هذه الأخبار أن رجلا من المغامرين اسمه أبو الرجاء الوردي ضمً إليه جماعة من الدعًار وجعل من قلعة جرسينة وكرا للنهب والسلب والاعتداء على السابلة . وقد ظلت سيرة أبو الرجاء الوردي عالقة في الأذهان من خلال حكاية تراثية حول مدينة اسمها المدينة الحمراء بجهة بنزرت كانت وكرا لعصابة من المفسدين فأغرقتها مياه البحر استجابة لدعوة أحد الأولياء الصالحين. وما زال

يوجد بتلك النواحي قرية اسمها "جرزونة" وينطقها الناس أيضا في صيغة "زرزونة".

وهناك جماعة اسمهم "كل جريس" من البربر التوارق سكان الصحراء الكبرى في منطقة جبال الهقار جنوب الجزائر ومعناه "قوم جريس" بالبربرية كما يقال بالعربية "أولاد جريس".

في ذات السياق توجد مدينة شهيرة اسمها "جرش" في الأردن وكانت تسمى في الأصل باسم "جارسا" بمعنى الغابة في لغة السكان القدماء للمكان حسب بعض الدارسين. ويطلق على العشب والحشيش اسم "غراس" و"جراس" في اللغة الانقليزية مع نطق حرف الجيم على الطريقة البدوية (grass).

وكان العرب في الجزيرة العربية يستعملون اسم "جريس" لتسمية الأشخاص. ويوجد اسم "جرس" في اللغة العربية وهو اسم مفرد ويجمع على "أجراس" ويطلق على الجلجل الذي يستعمل لإحداث الأصوات والجلبة وهو جسم مجوًف صغير من شتى المواد كالنحاس والحديد به مدقة تدقه كلما حُرَك فيٌحدث الأصوات والجلبة ويُعلًق على الغنم والماعز لتخويف وإبعاد الذئاب بما يصدر عنه من أصوات وجلبة عند سيرها. كما كان يُعلًق قديما على الخدم والعبيد برباط مناسب حول الساق .وتعتبر الأجراس والجلاجل الأصل الأصيل للحُليَ الفضية والذهبية والنحاسية والعاجية المُسماة بالأساور والدمالج والخلاخيل. وهناك نوع من النبات اسمه "جريس" يستعمل للزينة لأزهاره الجميلة.

العذارى وزعفران وغليسية

كما يوجد بمنطقة نفزاوة جماعة اسمهم "العذارى" يسكنون في ثلاثة بلدات صغيرة اسمها "زعفران وغليسية وصنم" بالقرب من مدينة

دوز. وكان المكان يسمى أيضا "صنم وصنيم" و"صنم العذارى". فعلى غرار ما كان يُحكى عن صراع جماعة بشلي في القديم مع الرياح الصحراوية ما زال يُروى أيضا عن العذارى أنهم كانوا هم أيضا في صراع مستمر مع الرياح الجنوبية ومع الرمال الصحراوية التي تغزوهم باستمرار. ويقال ان أحد أولياء المرازيق سكان مدينة دوز هو الذي دعا عليهم بذلك.

ويعطي جماعة العذارى مثالا حيا في التنقل من مكان إلى مكان وتسمية الأماكن الجديدة بمستوطنيها الجدد. فالي جانب قرية زعفران بالقرب من مدينة دوز بمنطقة نفزاوة المعروفة بهم توجد قرية زعفران.

بجهة الكاف في الشمال الغربي التونسي الى جانب موقع آخر يُسمى قصر العذارى في الشمال التونسي أيضا. وهناك قرية تسمى وادي العذارى في سفح جبل الأوراس بالجزائر وقعت فيه المعركة الحاسمة بين ملكة البربر المعروفة باسم الكاهنة والأمير العربي حسان بن النعمان في القرن الأول الهجري الثامن الميلادي. وسمًى ابن خلدون المكان باسم وادي مسكيانة. ويوجد بالقرب من وادي العذارى بالجزائر في سفح جبل الأوراس قرية تحمل اسم "غليسية" مثل بلدة غليسية بمنطقة نفزاوة التونسية التي يسكنها عذارى تونس. وتوجد بجوار قرية غليسية الجزائرية بلدة اسمها "جمنة" مثل قرية جمنة بمنطقة نفزاوة التونسية المجاورة لمدينة دوز وللبلدات المنسوبة للعذارى بالقرب من مدينة دوز.

برقــو وبــورك وبريك

كذلك الشأن بالنسبة لاسم "برقو" الذي تحمله الهضبة الشمالية بقرية زرسين فهو اسم منتشر في البلاد التونسية وشمال إفريقيا عموما

وفي بقاع أخرى من العالم في صيغ متعددة. فهناك موقع يحمل اسم "بورقو" بحومة خزرون قرب مدينة ميدون بجزيرة جربة التونسية . وهناك مدينة تحمل اسم "برقو" وجبل "برقو" في جهة سليانة بالشمال الغربي للبلاد التونسية. وهناك اقليم برقة ومدينة "برقة" و"طبرق" في شرق ليبيا حيث كانت توجد مدينة "أزريس" التي تحدَّث عنها المؤرخ اليوناني هيرودوت. وتوجد مدينة اسمها "طبرقة" في شمال البلاد التونسية. وتستعمل هذه التسمية أيضا في صيغة "بريقة" بالتصغير كتصغير اسم "جدة" في صيغة "جديدة". فكان يوجد بلدة اسمها "البريقة" في الجنوب الشرقي للبلاد التونسية بالقرب من بلدة أخرى اسمها "سقدل" وكانت بلدة البريقة وبلدة سقدل وبلدة أخرى اسمها "ماطوسة" بجوارها وقرية أخرى اسمها "تكريف" ويقال أيضا" نكريف" بالنون تشكَّل في مجموعها ناحية ومقاطعة على ملك أحد الأسياد حسب الأخبار التراثية. وكان جبارا يستضعف قومه فخذله قومه وهجروا المكان ذات ليلة سرا فلحقها الخراب. والجدير بالملاحظة أن اسم "ماطوسة" هو اسم قبيلة ماطوسة البربرية المشهورة في التاريخ نسبة الى جدها المُسمى "ماطوس".

ويوجد موقع اسمه "بوركو" و"باراك" في أقصى جنوب ليبيا في جبال التبسي بينما يستعمل اسم "بورقو" في صيغ متعددة لتسمية الأشخاص عند البربر منها اسم "بريك" وكان اسما لأحد الأجداد الأولين للبربر. وما زال اسم "بريك" يُستعمل الى هذا اليوم لتسمية الأشخاص في تونس ويُستعمل كذلك لقب في صيغة "البريكي".

كما يوجد عائلات بربرية في جهة القبائل بالجزائر يقولون إنهم ينتسبون الى شخص اسمه "بورك" يحكون بشأنه حكاية ملخصها أن صبية اسمها عائشة المهبولة كانت تعيش في دوًار أو حي بتلك النواحي بالقرب من قرية ايفن. فقدم مغربي فكتب لها تعويذة على بيضة لجلب الحبيب وقال لها راقبيها فخرج منها ثعبان يأتي في الليل للدوار فتنبح

عليه الكلاب. فخرجت عائشة فرأته فأعلمت أهلها فذهبوا الى ايفن لطلب النجدة. وكان يوجد بها شيخ اسمه بورك الأعمى ففزع جماعة ايفن فوجدوا أن الثعبان قد أكل أهل الدوار فاستعانوا عليه وأحرقوه بالنار فساح شحمه فأكله النحل وصنع منه عسلا فناولوا قليلا منه لبورك الأعمى فعاد إليه بصره وتزوج من عائشة المهبولة وأنجب منها أولادا أعادوا الحياة من جديد للدوار.

ويوجد موقع اسمه "تل براك" في منطقة الحسكة بشمال شرق سوريا وهو موقع قديم جدا فيه معبد يقال له معبد العين شبيه بمعبد عين برمبة بجبل برمبة بمنطقة نفزاوة في البلاد التونسية التابع لجبال الطباقة. ويتمثّل المعبدان التونسي والسوري في كوم من الحجر الصغير مثل أكوام الحجارة التي توضع كشواهد على القبور في منطقة نفزاوة . ويحمل الحجر في المعبد السوري أشكالا على هيأة رأس صغير منحوتة فيه عدد من العيون البشرية. ويقول المختصون ان معبد عين برمبة التونسي يعود الى أكثر من 40 ألف سنة أي الى عهود ما قبل التاريخ عندما كانت البيئة في البلاد التونسية وشمال إفريقيا وفي الصحراء الكبرى عموما شبيهة بالبيئة المميزة للبلدان الإفريقية جنوب الصحراء حسب المختصين.

غير أن اسم "برقة" يوجد في اللغة البربرية وفي اللغة العربية معا. ففي هذا السياق يقول الشاعر العربي القديم طرفة بن العبد في مطلع معلقته :

"لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد".

ويحمل اسم "برقة" في العربية العديد من المعاني منها الأرض الغليظة ذات الحجارة بينما يطلق اسم "برق" ومشتقاته في اللغة العربية على البرق الذي يلمع في السماء من خلال السحب أثناء الأجواء الممطرة وعلى الأشياء النيرة التي تبرق. أمّا في اللغة البربرية فإن اسم

برقة" يطلق على الأسود في صيغة "أبرك" و"أبرش" و"أبرشان". ويطلق على الجدي من الماعز في تونس اسم "برشني" وهو اسم من أصل عربي حيث يطلق اسم "برقان" على الحمل من الضأن في العربية.

وتجدر الإشارة أيضا الى اسم "إبريق" وهو من أصل فارسي ويستعمل في مختلف البلدان العربية لتسمية الوعاء المجعول لحفظ الماء واستعماله وله عروة وأنبوب صغير يخرج منه الماء.

غير أن اسم "برقو" هو صيغة لفظية لكلمة "برج" التي تطلق في اللغة العربية على القلعة والقصر وتعني في الأصل الأصيل الحي والرًبع والنزلة والحارة والحومة والقرية والأسرة والأهل والوطن باعتبار ان كلمة "برج" تستعمل الى اليوم في تونس في معنى الجزء والقطعة من البطيخة المقسومة بسكين بين عدة أبراج ويقابلها كلمة "كارتي" في اللغة الفرنسية (quartier) وتفيد معنى الحي والربع بضم الراء حيث أنها مشتقة من كلمة "كارت" (quart) بمعنى رُبع الشيء في اللغة الفرنسية مثل ربع البطيخة المقسومة بين أربعة أبراج.

وتستعمل كلمة "برج" في العديد من اللغات الأوروبية كاللغة الفرنسية في نفس المعنى الذي تحمله في اللغة العربية بمعنى القلعة والبلدة والحي والنزلة والأسرة وتكتب بالحروف اللاتينية (bourg) ومنها جاءت كلمة "بورجوازية" التي تطلق على سكان المدن الذين يمارسون التجارة والأعمال والمهن الحرًة لحسابهم الخاص عكس النبلاء والأشراف قديما الذين كانوا يعيشون على عمل الفلاحين والمزارعين الذين يشتغلون لفائدتهم في أقطاعاتهم الكبيرة بصفة تابعين وخدم.

كما أن كلمة "بركة" العربية هي صيغة لفظية لاسم "بورقو" أو العكس بمعنى أن كلمة "بورقو" هي صيغة لفظية لكلمة "بركة" بمعنى عين الماء وكذلك بمعنى النزول مثل الجمل الذي يبرك على الأرض. وسبقت الإشارة إلى العادة القديمة التي تفرض على الغرباء الابتعاد عن حي من الأحياء القائمة مسافة ما يقطعه مترجل أو راكب على دابة قبل أن ينهكه التعب ان كان مترجلا فيسقط على الأرض أو ينهك دابته فتبرك وتنزل على الأرض فيمكن له حينئذ أن ينزل ويبرك ويسكن ويقيم هناك.

في ذات السياق يتخذ اسم "بورقو" و اسم "بركة" صيغة "بيرصة" بمعنى القلعة والحي والقرية والرَّبع. وما زال اسم "بيرصة" يطلق في تونس إلى اليوم على الهضبة والربوة التي تأسست فوقها مدينة قرطاج الفينيقية في القرن التاسع قبل الميلاد. وكانت بعض الأسر النبيلة في قرطاج الفينيقية يحملون لقب "بركة" و"برصا" منهم قادة مشهورون في التاريخ. واشتهر الكنعانيون المشرقيون الذين ينحدر منهم الفينيقيون مؤسسو مدينة قرطاج باستعمال اسم "بيرص" و"بيرز" لتسمية الأشخاص وأخذه عنهم اليهود الذين ما زالوا إلى اليوم يستعملون اسم "بيرص" و"بيرز" لتسمية الأشخاص.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن اسم "بيرص" و"بيرز" الكنعاني يفيد معنى الرئيس والسيد والأمير بينما يفيد مؤنثه "بيرصة" معنى السيدة والأميرة على غرار السيادة التي يختص بها الابن الأول والابن البكر في العائلة بوصفه الابن الأول أو البنت الأولى. فقد جرت العادة في العديد من المجتمعات الإنسانية أن يرث الابن الأول والبكر سيادة الأسرة والعائلة بعد وفاة الأب.

اقديــس والقــط والقـــادوس

كما ورد في قصة تأسيس قرية زرسين أن اكتشاف ينابيع عين القطوسية التي كانت تزود القرية بالماء يرجع الفضل فيه إلى قطة أو قطوسة في لغة أهل تونس لاحظ السكان الأصليون للمكان المقيمون فوق هضبة برقو أن شعرها مبتل بالماء فاقتفوا أثرها فوجدوا ينابيع الماء فحفروها فانفجرت منها عين دعيت بعين القطوسية نسبة إلى القطوسة التي ساعدت على اكتشافها.

أما القصة المغربية المتعلقة باكتشاف عيون وواد دادس فتقول ان الفضل فيه يعود الى كلاب المولى عمران بينما تقول قصة أصل العوينة بمدينة دوز إن كلبة سيدي عمر المحجوب هي التي كانت السبب في تفجير هذه العين . وتقول قصة أصل العين المرة بجبل قارسي ان الفضل فيها يعود الى حمار سيدي عبد الرحمان القارسي.

فإن كل هذه الحيوانات في القصص التراثية المذكورة تنتمي الى ما يُسمى بالحيوانات المساعدة داخل الأساطير والخرافات الشعبية وهي حيوانات عاقلة تساعد البطل في انجاز بعض المهمات ردا لجميل أسداه لهم . وترمز الحيوانات المساعدة في معظم الحالات داخل الأساطير والخرافات الشعبية الى أقوام من البشر يحملون أسماء تلك الحيوانات ويمثلون أتباعا وخدما للبطل. فقد كان البشر وما زالوا الى اليوم يحملون أسماء بعض الحيوانات مثل اسم "مشيش" الذي يطلق على القط والقطوس في اللغة البربرية فإنه لقب لوالد الولي الصالح سيدي عبد السلام بن سليمان مشيش من مشاهير الصوفية في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد بالمغرب الأقصى.

فمن ذلك أن السكان في جهة تطاوين في الجنوب الشرقي التونسي يحكون بخصوص ظروف بناء قصر بربري بالمكان اسمه

قصر بني بركة حكاية تراثية مفادها أن غرابا من الغربان السود هو الذي قام بنقل المواد اللازمة للبناء من جبل "تين نبوكت" الواقع شرق وادي زنداق بالجهة الى حيث يوجد القصر المذكور غرب الوادي في ليلة واحدة. فان الغراب يرمز في حقيقة الحال الى أحد أعوان شيخ القبيلة في تلك النواحي حيث كان شيخ الجماعة بهذه الربوع له عون غالبا ما يكون من السكان السود وكان يركب حصانا أسود ويرتدي برنسا أسود ويتبعه كلب سلوقي أسود فكان يكنًى عنه بعبارة "أسود يتنفس وأسود بلا نفس وأسود أعفس وأسود يقص الأرض قص" بمعنى العون الأسود وبرنسه وجواده وكلبه.

فيمكن القول بأن القطوسة في قصة عين القطوسية بقرية زرسين ترمز الى جماعة من البشر يحملون اسم قط" أو أحد مشتقاته أو اسما يحمل معناه خاصة وأن اسم "شكرية" الذي تحمله هضبة زرسين كان يُستعمل كثيرا لتسمية الخدم والعبيد في عدة مناطق من شمال إفريقيا مثل نفزاوة وواد سوف.

فهناك جماعة بشرية يحملون اسم "القطاطسة" في قرية المنشية بمنطقة نفزاوة غير بعيد عن قرية زرسين . ويقول الدارسون إنهم من البربر.

واشار أبو عبيد البكري الى وجود جماعة بربرية اسمهم "بنو اقطيطين" تابعين لقبيلة غمارة البربرية بشمال المغرب الأقصى . وتحدًث عن رجل منهم بموضع يسمى "مرسى بادس" قال عنه انه كان "قصير القامة مصفر الوجه يُكرمه أهل ذلك الموضع ويذكرون أنه ينبط المياه في المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيونا وآبارا وأنه يخبر بقرب الماء وبعده (عن سطح الأرض) وأنه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير".

فإن اسم "قط" هو اسم منتشر في صيغ متعددة في العديد من اللغات الإنسانية مثل اسم "زار" وأصله لفظة "قديس" التي ما زالت تستعمل الى اليوم في بلاد النوبة والحبشة جنوب مصر لتسمية القطط . وتعتبر الحبشة والنوبة الموطن الأول للزار أيضا حسب بعض الدارسين.

ويُستعمل اسم "قديس" لتسمية الأشخاص في تونس حيث توجد عائلات ذات أصول بربرية تحمل اسم "اقديس" في جزيرة جربة التونسية. وهناك أيضا اسم "كتوٌ" و"قطاط" لتسمية الأشخاص عند الجماعات البربرية. ويُستعمل اسم "مقيدش" و"قداشة" في معنى الخدم والأتباع في البربرية وهو اسم مشتق من اسم "قديس" على غرار المريدين المقيمين في الزوايا حول مرشد ديني فإنهم يسمون "قداشة" لأنهم يقومون بكل الأشغال المنزلية ويخدمون زوار الزاوية. ويُعتبر أفرادُ الأسرة البشرية "قداشة" بالنسبة للأب خاصة في الأزمنة القديمة. وما زالت كلمة "قد" تستعمل بكثرة في البلاد التونسية في معنى العمل والاشتغال.

فلا يستبعد أن القطوسة في حكاية تأسيس قرية زرسين ترمز الى بعض الخدم والأتباع. وقد كانت الجماعات البشرية في الجنوب التونسي وغيره من الجهات الأخرى في شمال إفريقيا الى عهد قريب تنقسم الى قبائل قوية متسلَطة على قبائل مستضعفة وتفرض عليها حمايتها مقابل تسليم ضريبة معلومة لها. وكانت القبائل الحامية هي في الغالب القبائل ذات الأصول العربية بينما القبائل المستضعفة هي قبائل ذات أصول بربرية الى جانب وجود العبيد والجواري والإيماء والموالي الذين يباعون في الاسواق ويُشترون كما هو معلوم.

والملفت للانتباه أن بعض القبائل العربية قبل الإسلام كانت تنعت باسم قريب من اسم "زرسين" وهو اسم "سراسين" من طرف الروم أو البيزنطيين بمدينة القسطنطينية. فقد كانت بعض القبائل العربية

قبل الإسلام تعيش في فلك البيزنطيين بمثابة التابعين لهم بينما كانت هناك قبائل عربية أخرى تعيش في فلك الفرس ببلاد فارس وإيران بمثابة التابعين لهم مع العلم ان الفرس والبيزنطيين كانوا آنذاك يتنافسون على السيطرة على بلدان الشرق الأدنى والأوسط بما فيها الجزيرة العربية. فكان البيزنطيون يُسمون هذه القبائل العربية وبالأحرى ملوكها وشيوخها باسم "سراسين" سواء التابعين لهم أو التابعين للفرس الذين كانوا يُسمونهم باسم "سراسين الفرس". وقد ظل هذا الاسم يطلق على العرب عموما لدى الشعوب الأوروبية بعد انتشار الإسلام ويكتب بالحروف اللاتينية (sarrasins).

غير أن هناك أيضا اسم "قادوس" الذي يطلق على عين الماء بالمغرب الأقصى وبمدينة "فاس" المغربية بالذات حيث توجد عين ماء تسمى باسم عين القادوس بمدينة فاس المغربية وأصبح اسما للحي الذي توجد فيه العين. ويطلق اسم "قادوس" في المغرب أساسا على العيون الطبيعية التي تغذيها الينابيع وهي كثيرة في مدينة فاس ومنها يتغذى واد فاس الذي عرفت به هذه المدينة وأصله كلمة "أسوف" و"سوف" و"أزوف" الذي يطلق على النهر والواد في اللغة البربرية فطرأ عليه قلب للحروف وهو أمر شائع.. وتسمى الينابيع باسم "بلاعة" بمعنى بالوعة في بعض قرى نفزاوة كقرية جمنة. وكان الأطفال قديما يتجنبون العوم والسباحة قرب ينابيع العيون خوفا من أن تبلعهم حيث أن عيون الماء كانت تتخذ شكل الحوض والبركة الكبيرة التي تتجمع فيها المياه الخارجة من الينابيع فكان الأطفال يعومون فيها في الصيف.

وامتدً استعمال اسم "قادوس" الى القنوات وما يشبهها حتى أن سكان مدينة فاس والمغاربة عموما يكنُون عن فرج المرأة باسم "قادوس".

وهناك آلة تسمى قادوس تستعمل في واحات بلاد الجريد لتحديد الزمن والوقت المخصَّص لكل بستان لاستعمال مياه العيون الجماعية لري بستانه. كما يطلق اسم "قادوس" على الحجر يرمى في البئر ليعلم ماؤها.

وذكر أبو عبيد البكري أن كبير الشيعة الفاطميين في تونس عبيد الله المهدي في بداية القرن العاشر ميلادي جلب الماء إلى مدينة المهدية التونسية المُسماة باسمه من قرية قريبة بواسطة القواديس.

لكن اسم "قادوس" يستعمل أيضا لتسمية الأشخاص في مصر حيث وُجد بعض القضاة في مصر في العصور الوسطى يحملون اسم "قادوس" منهم محمود بن إسماعيل بن قادوس وهو قاضي من دمياط من أهل القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي. وتوجد قرية بمصر اسمها "ميت القادوس" بمحافظة الجيزة مع العلم وأن اسم "ميت" هو اسم قبطي قديم ويعني القرية والمدينة. فهناك في مصر قرية أخرى اسمها "ميت أبو الكوم".

وعلى غرار اسم "زار" فان اسم "قطوس" وهو اسم القط والهرّ والسنور في لغة أهل تونس يحمل معنى الإله والسيد والملك والأب حيث يستعمل في اللغة الألمانية في هذه المعاني في صيغة "قوط" وفي اللغة الانقليزية في صيغة "قود" ويتخذ اسم "قود" في الجمع صيغة "قودس" . وتكتب هذه الأسماء بالأحرف اللاتينية (got ;god ;gods). والجدير بالذكر أن الملك يحمل اسم "شاه" في اللغة الفارسية بينما يستعمل هذا الاسم في معنى القط في اللغة الفرنسية ويكتب بالحروف اللاتينية (chat) وهو صيغة لكلمة "قط". ويستعمل في صيغة "كات" في الانقليزية في نفس المعنى (cat). في ذات السياق يستعمل اسم "هر" في معنى "السيد" في اللغة الالمانية (herr). وتبرز هذه الحقائق

اللغوية التشابك القوي بين اللغات الإنسانية وهشاشة النظريات التي تدّعي تقسيمها الى مجموعات مستقلة عن بعضها.

في ذات السياق تسمى العين في اللغة الفارسية باسم "جاه" وينطق في صيغة "شاه" مثل اسم "شاه" المستعمل في معنى الملك في الفارسية واسم "شاه" المستعمل في معنى القط والهر في اللغة الفرنسية كما سبقت الإشارة اليه (chat).

بئــر غيـزان وعيــن تاورغــا

كما توجد بمنطقة نفزاوة العديد من آبار الماء المنسوبة إلى أصحابها منها بئر تدعى "بئر غيزان" على بعد حوالي 20 كيلومتر شرقي مدينة دوز في عمق الصحراء جنوب جبال الطباقة وبئر أخرى تدعى "بئر الحاج ابراهيم" وبئر ثالثة اسمها "رأس الحاشي" و"غدير الحاشي" بناحية قرعة بو فليجة في القسم الصحراوي لمنطقة نفزاوة غير بعيد عن العرق الصحراوي الشرقي.

فإن اسم "غيزان" هو اسم جماعة بربرية قديمة ذكرهم المؤرخ اليوناني هيرودوت وكانوا مجاورين لجماعة الآزريون والبسيلي وللجماعة الأخرى الذين اسمهم "القبليون" نسبة الى قبلي والقبلة. ويكتب اسم "غيزان" بالحروف اللاتينية (Gysantes) بينما يكتب اسم القبليون (Cabales). وما زال هذا الاسم يستعمل في تونس في صيغة "القيزاني" مع نطق حرف القاف على الطريقة البدوية.

ويوجد حيٌ أو حارة في جزيرة جربة التونسية اسمه "حومة غيزن" مع العلم وأن اسم "حومة" يعني الحي والحارة في البلاد التونسية. ويحمل اسم "غيزان" معنى الكاهن والعارف والسيد في اللغة

البربرية حيث ما زال العرّاف الذي يتنبأ بالمستقبل يُسمى إلى اليوم باسم "تقاز" في تونس بينما تدعى العرّافة باسم "تقازة" نقلا عن البربرية واصله "ايقز" و"ايغز" بمعنى الحفر والتنقيب ويمكن تشبيه عمل التقازة بالحفر والتنقيب خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالبحث والتنقيب عن ينابيع الماء لتفجيرها في هيأة العيون فإنّه يتطلب الكثير من القياس والتخمين والتفكير. كما تستعمل هذه الكلمة في معنى القطع في صيغة "اقزم" بزيادة حرف الميم.

هنالك أيضا موقع في الجزائر بجهة مدينة تبسة اسمه "واد أبو ايغسان".

كما يوجد جماعة من أصل عربي اسمهم "غسان" و"غساسنة" كانت لهم مملكة في بلاد الشام في القديم وهم في الأصل جماعة من قبيلة "لخم" العربية وهي قبيلة يمنية من اليمن في جنوب الجزيرة العربية . ويقول المؤرخون العرب إنهم سُمّوا بهذا الاسم نقلا عن اسم "غسان" كانت تعرف به عين ماء جارية بالمكان الذي نزلوا فيه عند مجيئهم من اليمن.

في هذا الإطار سبقت الإشارة إلى الأساطير والحكايات التراثية التي يرويها الناس حول الآبار بوصفها مسكنا للجن والعفاريت والغيلان وتبعا لذلك تقول هذه الأساطير والخرافات الشعبية إنّه ينبغي أخذ العديد من الاحتياطات لاستغلالها وورودها على غرار تقديم ذبيحة وهدية لعمارها الغيبيين من الجن والعفاريت والغيلان .ويحكي سكان منطقة نفزاوة بهذا الخصوص أسطورة حول غدير الحاشي بقرعة بوفليجة توصي كل من يرغب في ورودها أن يذبح لها ذبيحة جديا أو خروفا بمثابة هدية لعمارها من الجن والعفاريت مخافة إصابته بسوء ان تمنّع.

كما أن استغلال عيون الماء الطبيعية بمنطقة نفزاوة وفي مناطق أخرى كان يُحاط ببعض الممارسات والأفعال العقائدية المماثلة. فمن

ذلك أن الأهالي بقرية زرسين كانوا يذبحون معزة سوداء على شرف عينهم المسماة عين القطوسية كل سنة دفعا للشرَ الذي يصل إلى حدَ ابتلاع أحد السكّان أو أحد الغرباء المارين من المكان.

ففي هذا السياق يقول السكان في منطقة نفزاوة أن عين تاورغا بقرية بشَري تبتلع شخصا كل سنة وخاصة من الغرباء مع أن الكاتب التيجاني ذكر في "رحلته" أن عين قرية طرَّة المجاورة هي التي تبتلع أحد الغرباء كل سنة لا بدً لها من ذلك وليس عين تاورغا بقرية بشًري.

فممًا يحكيه الناس في نفزاوة بخصوص عين تاورغا بقرية بشري أن جماعة مرٌوا بعين تاورغا وكانوا يزُفون عروسا الى عريسها في هودج على جمل يقوده خادم أو وصيف. فتقدًم الجمل ليشرب فابتلعته العين بهودجه وعروسه في رمش العين كما يقال وكان الوصيف واقفا ينظر. فلمًا جاء أصحاب الجمل ولم يروا له أثرا سألوا الوصيف عنه فقال لهم "تو رغى" بمعنى "كان يرغي منذ لحظة" فلذلك سميت العين باسم عين تاورغا. وتحكى نفس القصة حول عين ماء بقرية المطوية قرب مدينة قابس وفيها أن الوصيف لمًا سأله الجماعة عن الجمل قال لهم "طوته" بمعنى "طوته العين" فسميت قرية المطوية بهذا الاسم. وتوجد كلمة "مطوية" في العربية في معنى البئر التي تحاط بحاجز حجري وما شابه ذلك.

غير أن اسم "تاورغا" هو اسم جماعة بربرية تنحدر من قبيلة أوريغة البربرية المشهورة في التاريخ واليها تنتسب قبيلة هوارة البربرية الشهيرة. وتوجد مدينة اسمها "تاورغا" في ليبيا تحتوي هي أيضا على عين مشهورة تنسب إليها. كما يوجد لقبيلة أوريغة فروع في تونس وفي كامل شمال إفريقيا منها فرع نقل اسم القبيلة إلى قرية تدعى الى هذا اليوم باسم "ورغة" في الشمال التونسي. وهناك جبل ورغة بناحية الكاف بالشمال التونسي أيضا.

وقد سبقت الإشارة إلى إطلاق اسم "تارغا" و"تارقا" على عين الماء في اللغة البربرية ويعادله اسم "ترعة" في العربية. ويتخذ هذا الاسم صيغة "تارقي" عند الانتساب الى المكان. ويُسمى البربر سكان الصحراء باسم "توارق" للجمع و"تارقي" للفرد بمعنى "أصحاب العين" و"قوم العيون". وسبقت الإشارة إلى إطلاق اسم "قبلي" على عين الماء في اللغة البربرية . وعلى هذا الأساس يمكن القول بالاعتماد على تعادل كلمة "قبلي" وكلمة "تارقا" بأن اسم "تارقي" يعني "القبلي" نسبة إلى القبلة والى قبلي بينما اسم "توارق" يعني القبليون وكانوا معروفين بهذا الاسم منذ القديم مثلما ذكره المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت.

بخصوص المعنى الحقيقي لكل هذه الأساطير والخرافات الشعبية والحكايات التراثية المتعلَقة بابتلاع آبار وعيون الماء للعرائس وما شابه ذلك فهي ترمز إلى بعض الأوضاع البشرية التي كانت قائمة في القديم وكان بعض المستضعفين مجبورين بمقتضاها على دفع ضرائب ورسوم وأداءات مختلفة لبعض الأقوياء والمستكبرين للترخيص لهم في استغلال ثروات الأرض والطبيعة على غرار عيون الماء والسكن وجني منتوجات الغابات. وكانت هذه الضرائب تصل الى حدَ إجبار المستضعفين على إهداء بعض شبانهم وصباياهم للمستكبرين منها إهداء العروس ليلة دخلتها لملك الناحية ليفتضً بكارتها قبل تسليمها إلى عريسها الشرعي وهو ما ترمز إليه القصص المتعلقة بابتلاع العرائس وقيام الجن والعفاريت بخطف الصبايا ليلة الزفاف والهروب بهن إلى بعض الآبار أين يسكنون..

ويروي السكان في الجزائر والمغرب الأقصى الكثير من القصص التراثية بهذا الشأن منها حكاية يرويها سكان بعض القرى وسط المغرب الأقصى حول عين ماء اسمها "ايمي ن افري" بالبربرية ومعناها "فم الغار" او "فم الكهف" وهو عبارة عن مغارة ينفذ منها واد اسمه تيسليت" بمعنى "العروس" وتنبع منه عدة عيون ماء . وتقول

الأسطورة انه على ملك عفريت في صورة ثعبان ذي سبع رؤوس يسكن المغارة. فكان الأهالي يقدمون له كل سنة فتاة جميلة حتى يسمح لهم باستغلال عيون الماء التي تنبع منه إلى أن جاء فارس مغوار فقتل العفريت وأراح الناس من شروره.

وتحكى حكاية مماثلة عن عين ماء بالجزائر بقرية تسمى "سيدي يحي" بناحية مدينة شرشل بجهة تيبازة وتوجد عين الماء بكهف تقول القصة إنه على ملك ثعبان يسكنه. فكان الأهالي مجبورين على تقديم قربان للثعبان ليسمح لهم بالوصول الى نبع الماء فقارعه فارس اسمه يحي وقتله وأراح الناس منه فسُمَي المكان باسمه.

بنـو الأحمـر والاوراس ويـهراسـن

في ذات السياق تقدَّم الحديث عن جماعة "بنو يهراسن" البربرية بجزيرة جربة التي ينتسب إليها العالم الاباضي المشهور يسجا بن يوجين اليهراسني الملقب بأبو مسور وابنه العالم فصيل بن يسجا . فإنَّ كل ما قيل بشأنهم إنهم كانوا يستوطنون المجال الترابي الممتد من جبل دمَّر بالجنوب الشرقي التونسي الى جبل نفوسة بغرب ليبيا حيث عرفوا في بداية أمرهم وينطق اسمهم أحيانا في صيغة "يراسن" وهو قريب من اسم "زرسين" و"جرسين" ولا يستبعد أن يكون الاسمان في الأصل الأصيل اسما واحدا اتخذ هذين الصيغتين خاصة وأنَّ جماعة يهراسن ينتسبون الى قبيلة زواغة البربرية المتفرعة عن قبيلة ضريسة بحيث أنهم يقربون من بنو مرين وبنو يزمرتن وبنو الرند وغيرهم من الجماعات المتفرعة عن ضريسة والذين كانوا يسكنون قرية زرسين. فمن ذلك أن الأهالي في بعض قرى الساحل التونسي ما زالوا الى اليوم

يستعملون كلمة "هارس" في معنى "أبصر" بينما تستعمل كلمة "زر" في معنى "أبصر" في اللغة البربرية.

وما زالت هناك بلدة قائمة تنسب الى اليراسنة وتدعى "اليراسنة" بنواحي مدينة بن قردان بالجنوب الشرقي التونسي. ووُجد أشخاص اسمهم "هرس" في بلدان شمال إفريقيا منهم واحد حفيد ولي صالح تنتسب إليه بعض العائلات من الجماعة المعروفين باسم الحمارنة و أولاد الحمروني بقرية مارث بناحية قابس بالجنوب التونسي.

فيمكن اعتبار اسم "يهراسن" صيغة الجمع لاسم "اوراس" و"اهراس" الذي يفيد معنى الأشقر والذهبي والأصفر في البربرية وكذلك الأحمر الصحراوي مثل لون الغزلان الصحراوية بالإضافة إلى الشخص الذي يكون لون شعره أحمر حيث تنعت المرأة التي لون شعرها أحمر باسم "روس" في اللغة الفرنسية (rousse). ويُسمى اللون الأحمر باسم "روج" (rouge) في اللغة الفرنسية بينما يُسمى الذهب فيها باسم "أور" (or) نقلا عن اللاتينية . ويستعمل البربر كلمة "أوريغ" في معنى الأصفر. وهناك قبيلة بربرية مشهورة اسمها "أوريغة" متفرعة عن قبيلة هوًارة البربرية المذكورة في التاريخ بينما تستعمل كلمة "ورق" في العربية في معنى النقود الذهبية المستعملة في القديم.

غير أن اسم "اوراس" هو اسم مشتق من لفظة "أر" التي ما زالت تستعمل الى هذا اليوم في منطقة نفزاوة لحثَ الحمير والبغال على السير بينما تستعمل لفظة "أشت" لحثها على الوقوف. وكان البشر قديما يستعملون هذه الألفاظ والأصوات للتخاطب فيما بينهم فكانوا يستعملون الصوت "ار" لحث بعضهم البعض على السير والمشي وكان يستعمله بالخصوص لهذا الغرض آباء ورؤساء الأسر والجماعات البشرية أثناء التنقل كالتنقل بين الأشجار في الغابة لجني الثمار فلذلك استعمله البشر

لتسمية الرؤساء والقادة في صيغة"را" ومنه اشتق اسم "راس" و"رئيس" و"راعي" بينما يستعمل اسم "را" في صيغ متعددة لتسمية الملوك والأمراء في العديد من اللغات الأوروبية كاللغة الفرنسية . فإن الملك والرئيس والمقدَّم يدعى باسم "روا" (roi) في اللغة الفرنسية وهو صيغة لفظية لاسم "را".

ويوجد في شرق الجزائر سلسلة الجبال المعروفة باسم جبل الأوراس وجبال اوراس وكذلك المدينة الشهيرة التي اسمها "سوق اهراس" وتبرز عملية النسب في هذين الاسمين أي نسب الجبل والمدينة الى أوراس أن الأمر يتعلَّق بجماعة اسمهم "اوراس" و"اهراس" للمفرد و "يهراسن" و"يراسن" للجمع ويعني السيد والرئيس والأب مثلما سبق شرحه باعتباره مشتق من اسم "را" وما زال الأسد يُسمى الى اليوم باسم "أر" في بعض اللهجات البربرية وفي اللغة اليهودية أو العبرية. كما أنه يستعمل في معنى "الولد" و"الأولاد" في بعض اللهجات البربرية.

ففي هذا السياق ذكر أبو عبيد البكري أن مدينة "تاهرت" الشهيرة بالجزائر أسَّسها أصحابُها وهم جماعة من الأباضية يقودهم العالم الاباضي الشهير ذو الأصول الفارسية عبد الرحمان بن رستم سنة 160 هجري القرن الثامن الميلادي بعد أن ذبحوا في المكان أسدا خرج عليهم من أجمة كانت هناك. ورغم أن المؤرخين لم يذكروه فان اسم "تاهرت" فيه قرابة لاسم "يهراسن" ويحتوي على لفظة" هار" أو "آر" التي تطلق بصفة اسم على الأسد في البربرية واليهودية مثلما سبقت الإشارة إليه. فيكون معنى اسم "تاهرت" اللبؤة لأنه مؤنث "آر" وينطقها أهالي تونس في صيغة "لبَّة" على وزن "جدة". كما أنه قريب من اسم" طهران" ويكتب أيضا "تهران" عاصمة بلاد فارس وإيران منذ القديم.

وجاء في "تاريخ العدواني" ما نصه أن "اوراس من لخم (قبيلة عربية يمنية قديمة) تزوًجوا نساء فارس ونساء آل العجم".

غير أن اسم "الليث" الذي هو اسم من أسماء الأسد في اللغة العربية يُطلق أيضا على "القطة" بالذات أو"القطوسة" في لغة أهل تونس دون القط الذكر حسبما ذكره علماء اللغة العرب القدماء.

في ذات السياق تعتبر كلمة "سوق" في اسم مدينة "سوق اهراس" صيغة لفظية لكلمة "سيك" وهي كلمة بربرية عريقة وأصيلة تفيد معنى الآباء والأجداد والأهل والأسرة والوطن والمكان المقدس مثل المعابد بصفتها ترمز في الأصل الأصيل الى الحي البشري الذي كان يسكنه الآباء والأجداد والأسلاف. وتتخذ كلمة "سيك" صيغة "زيك" التي تستعمل في البربرية للتعبير عن الماضي والقديم والوقائع الماضية. كما يتخذ هذا الاسم صيغة "أسكة" و"أزكة" للتعبير عن معنى المكان المقدس والمعبد باعتباره مسكن الآباء مثلما سبقت الإشارة اليه وكانت مدينة الكاف بالشمال الغربي التونسي تسمى باسم "أزكة" ويتخذ صيغة "زغوان" عند الجمع وهو اسم مدينة زغوان غير بعيد عن مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية.

وعلى هذا الأساس فان اسم "أوراس" واسم "سيك" يعبَران عن معاني واحدة.

الساقيــة الحمــراء

كما يتخذ اسم "سيك" صيغة "ساقية" وتوجد المنطقة المعروفة باسم "الساقية الحمراء" جنوب المغرب الأقصى التي اتخذت أبعادا روحية ومقدسة لدى سكان شمال إفريقيا لأنها كما يقولون موطن جل

أولياء الله الصالحين الذين يمثلون في جل الحالات آباء وأجداد لبعض الجماعات بهذه الربوع. وهناك بعض العرًافين والسحرة الشعبيون الذين يجعلونها أيضا موطن الجن الذين يتملكون بالناس بحيث أصبحت الساقية الحمراء موقعا غيبيا مثل السماء والجنة والنار في بعض الأديان.

فبالاستناد الى التعادل بين اسمي "سيك" و"اوراس" يمكن القول ان اسم "الساقية الحمراء" هو عبارة عن ترديد كلمة "سيك" مرتين مع تعويضها بمرادفها في المرة الثانية بحيث أنها كانت تعرف في الأصل باسم "سيك" مثل مدينة الكاف بشمال البلاد التونسية قديما حيث كانت تسمى "سيك" أو "أزكة".

ووردت في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلية وليلة" في حكاية "جودر" إشارة إلى جماعة من الجن اسمهم بنو الأحمر هربوا من ناحية الساقية الحمراء وقدموا الى مصر حيث اختفوا وتواروا في بحيرة قارون.

في مستوى البشر ما زال يوجد بمدينة قبلي العاصمة الإدارية لمنطقة نفزاوة بعض الجماعات الذين يقولون إنهم ينحدرون من مجموعة من الأولياء الصالحين اسمهم بنو الأحمر قدموا من الغرب من الساقية الحمراء . وكان هؤلاء الأسر يسكنون ببلدة صغيرة في الجهة اسمها "ابنس" ثم نزحوا الى مدينة قبلي.

كما يوجد في المغرب الأقصى جماعة أولاد الأحمر بمدينة الشمًاعية الواقعة بين مدينتي مراكش وآسفي وتتميًز بمناخ شبه جاف بها بحيرة تسمى بحيرة زيمة. واشتهر شيوخ قبيلة أولاد الأحمر بالشمًاعية منذ القديم بمهاراتهم في الفروسية وفي فنون الرماية وتعليمها للراغبين.

كما كان هناك بالأندلس العربية جنوب بلاد اسبانيا بالجنوب الغربي للقارة الأوروبية ملوك عرب معروفون باسم ملوك بنو الأحمر وينتسبون الى بنو نصر من العرب وكانوا أصحاب آخر دولة إسلامية عربية في مملكة غرناطة بالأندلس العربية ما بين 1232 و1492 ميلادي واليهم ينسب قصر الحمراء الشهير بهذه المدينة.

وتعتبر كلمة "سوق" العربية صيغة لاسم "سيك" لأن المدن في الأرض أصلها أسواق وكذلك الشأن بالنسبة لكلمة "ساقية" و"ساق" وتوجد لعبة شعبية في الجنوب التونسي اسمها لعبة "السيق" فيها انتقال وعبور وجنة ونار وجزاء وعقاب الى جانب مدينة اسمها "ساقية الزيت" قرب مدينة صفاقس في وسط الساحل التونسي.

في ذات السياق يوجد العديد من المواقع التي تحمل اسم الأحمر في تونس وشمال إفريقيا عموما منها بلدة صغيرة اسمها القصر الأحمر كانت تابعة لقرية جمنة بمنطقة نفزاوة فغادرها سكانها واستقروا بقرية جمنة وبقي اسمها فقط بالإضافة الى قرية "بئر لحمر" بجهة تطاوين بالجنوب الشرقي التونسي. ولا شك أن بلدة القصر الأحمر المذكورة كانت في الأصل عبارة عن قصر من القصور البربرية المعروفة وما زال يوجد نماذج من هذه القصور البربرية بجهة تطاوين في الجنوب الشرقي التونسي. وتسمى باسم "الغرف" جمع غرفة أيضا علما وأن اسم "أزكة" يطلق على الغرفة والقبر باعتبار أن المقابر والقبور التي ترمز للآباء والأجداد والأسلاف كانت بمثابة غرف وما زال بعضها موجودا في البلاد التونسية. ويسمي المصريون القبور باسم "قرافة" وهو صيغة لاسم "غرفة" بينما يسمى القبر باسم "غروف" (grove) في اللغة الانقليزية.

كما يُطلق على هذه القصور البربرية أيضا اسم "قلعة" وتوجد قرية اسمها القلعة بمنطقة نفزاوة قرب مدينة دوز مع أن القلعة التي تنسب اليها اضمحلت تماما ولم يعد لها أدنى أثر منذ عدة أجيال .

واحـــات النخيـــل

وبقدر ما اقترنت واحات النخيل المنتج للتمر بعيون الماء فإنها اقترنت أيضا بالصحراء والمناطق الصحراوية القاحلة والجافة على غرار واحات النخيل الصحراوية بمنطقة نفزاوة وبلاد الجريد بالبلاد التونسية والواحات بالمناطق الصحراوية بالجزائر.

لكنً السكان في هذه المناطق نادرا ما يستعملون اسم "واحة" ويطلقون على بساتين النخيل اسم "زيرة" و"غابة" و"بساتين" و"غيط" و"جر". فإن اسم "واحة" ليس عربيا وليس بربريا فيما يبدو ويقال أيضا "واح" واستعمله أبو عبيد البكري في هذه الصيغة مشيرا إلى واحات في قلب الصحراء الليبية اسمها "واح صبرو" بعيدة عن العمران وليس لها أصحاب مشيرا إلى أنه لا يقع عليه إلا من قد ظلً في الصحراء.

وفي هذا السياق كان البربر يتحدًثون عن مكان غيبي اسمه "سرت جغراف" او "سرت جعراف" ذكره المؤرخ البربري أحمد الشماخي من علماء الاباضية بجزيرة جربة التونسية في القرن السادس عشر الميلادي في مصنفه المسمى "كتاب السير". وحسب ما أورده من معلومات فان الجماعات البربرية يعتقدون أن "سرت جغراف سيظهر إذا تحرًكت الأرض بالعساكر وزلزلت وماج أمر الناس" في حين يعتقد آخرون أنه يرمز الى بعض المدن الموجودة بالذات تكون مسكنا للصالحين وأصحاب الدعوة بمعنى نخبة المنتمين لمذهب الأباضية وهم

أكبر فرقة من جماعة المسلمين المعروفين باسم "الخوارج". وهناك من يقول انه مدينة "جالو" إمّا مدينة "جالو" الليبية أو بلدة صغيرة في واد سوف اسمها الحالي"بلدة عمر" كانت قديما تسمى "جالو".

أمّا عن أصل اسم "واحة" فهناك من يقول إنه كلمة من المصرية القديمة. ومهما يكن من أمر فالمؤكد أن اسم "واح "هو صيغة لفظية لاسم "أوزو" مثلما يشهد عليه استعمال اسم "أوازيس" لتسمية واحات النخيل الصحراوية في اللغة الفرنسية (oasis) وتقول قواميس اللغة الفرنسية انه مأخوذ من اللاتينية التي أخذته بدورها عن اللغة اليونانية التي أخذته بدورها عن اللغة المصرية القديمة. فهو إذن اسم قديم جدا. وتشير كل الدلائل الى أنه اسم جماعة بشرية قديمة حيث ما زال يوجد في جنوب ليبيا منطقة اسمها "أوزو" بالإضافة الى ناحية اسمها "وازن" على الحدود التونسية الليبية بالقرب من قرية اسمها "ذهيبة" وبلدة أخرى اسمها "وزان" بناحية تطوان بالمغرب الأقصى..

فان الأسماء التي تطلق على الحيوانات والنباتات بما فيها مختلف أنواع الأشجار المثمرة والجماد استعملها البشر في الأصل الأصيل لتسمية الأشخاص من البشر بمعنى لتسمية بعضهم ثم نقلت الى الحيوانات والنباتات والجماد لسبب من الأسباب مثلما يشهد عليه استمرار الاشتراك في حمل هذه الأسماء الى هذا اليوم بين البشر والحيوانات والنباتات والجماد.

فقد سبقت الإشارة الى أن اسم "قط" و"قطوس" يعني السيد والرئيس والإله باعتبار أن الآلهة كانوا أسياد أقوامهم في الأصل ويعني كذلك التابع والخادم نظرا للعلاقة المادية بين السيد والتابع كاستعمال اسم "مولى" في العربية في معنى السيد والتابع معا. ويستعمل اسم "تفاحة" لتسمية النساء في تونس ولتسمية شجر التفاح وكذلك يستعمل اسم "وردة" واسم "ياسمين" لتسمية النساء في المجتمعات العربية وهما

اسمان لنوعين من الزهور ويستعمل اسم "زهرة" لتسمية النساء في تونس وهو اسم كوكب الزهرة.

ويطلق على النخلة في البربرية اسم "تازدايت" بينما يُسمى التمر عند التوارق باسم "تبعوشت". ويطلق على عرجون التمر اسم "أزيوا" في اللهجة البربرية المستعملة بجبل نفوسة بليبيا وهو اسم قريب من "أوزو". ويوجد اسم "نخلة" في البربرية ويطلق على شجرة التين بينما يدعى العنب باسم "تاجنت" و"تاسنت" في البربرية. كما توجد أنواع من التمر في منطقة نفزاوة وبلاد الجريد تسمى باسم "ترنجة" وهو اسم جماعة من السود الأفارقة مشهورين في التاريخ وتوجد مدينة اسمها "ترنقة" في المنطقة الحدودية الفاصلة بين بلدان شمال إفريقيا والبلدان الإفريقية السوداء جنوب الصحراء الكبرى من جهة المغرب الأقصى ذكرها أبو عبيد البكري وقال إنها مبدأ بلاد السودان بمعنى الأفارقة السود جنوب الصحراء الكبرى. غير انه يوجد قرية اسمها "ترنجة" في سوريا ويوجد شارع صغير كالزقاق في مدينة تونس العتيقة اسمه "نهج ترنجة".

كما يوجد نوع من التمر بمنطقة نفزاوة اسمه "كنته" وهو اسم جماعة افريقية بجهة منطقة ترنقة ونوع آخر اسمه "دنقة" وهو أيضا اسم جماعة افريقية في تلك الربوع ونوع آخر اسمه "هيسة" وهو أيضا اسم جماعة افريقية في تلك النواحي مشهورين وكذلك اسم لغتهم وينطق عندهم في صيغة "هواسة". ويوجد أيضا في منطقة نفزاوة نوع من التمر اسمه "استفطيمي" وهناك قرية اسمها "استفطيمي" بجهة قبلي في منطقة نفزاوة وقرية قديمة اسمها "أفطامان" بجبل نفوسة بليبيا بما يدل على أن الاسم هو اسم جماعة بشرية ينسب إليهم هذا النوع من التمر. وذكر البعض أن كلمة "استفطيمي" تعني الأسود في اللغة البربرية. وهناك أيضا نوع آخر من التمر اسمه "افطيمي" ويسمى أيضا باسم "عليق" في منطقة نفزاوة. غير أن اسم "استفطيمي" و"افطيمي" يطلق

أيضا على بعض الجماعات البربرية كانت موجودة في ليبيا وذكرهم المؤرخ البربري أحمد الشماخي.

في ذات السياق يوجد نوع من التمر في منطقة نفزاوة اسمه "حلاي زرسين". ويفيد الاسم الذي يطلق على التمر في اللغة المصرية القديمة معنى "حلو" و"حلاوة" حسب بعض الدارسين بحيث يمكن القول بأن عبارة "حلاي زرسين" تعني "تمر زرسين". كما يوجد في العراق بناحية مدينة البصرة نوع من التمر اسمه "الحلاوي".

وتقول قواميس اللغة العربية ان اسم "نخل" و"نخيل" و"نخلة" في اللغة العربية مشتق من كلمة "نخل" بمعنى غربل ونقى وصفى بالغربال وبغيره . وتشير بعض الأساطير السامية بهذا الشأن إلى وجود علاقات عميقة بين شجرة النخلة و الإنسان الأول الذي اسمه آدم منذ وجوده في جنة الخلد والفردوس قبل هبوطه الى الأرض ومنها أن النخلة خُلقت من التراب الذي خُلق منه آدم . فقد جمع الملائكة بأمر من الله نصيبا من تراب الأرض ليصنعوا من عجينه بالماء جسم آدم فنخلوه بمعنى غربلوه ليصفوه وينقوه من الشوائب فخلق جسم آدم من التراب النقي والمغربل. أمًا الذي بقي من التراب في الغربال فخلقت منه النخلة.

ويقول الشاعر العربي القديم امريء القيس في معلقته واصفا شعر إحدى حبيباته :

"وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل".

وتوجد أنواع من التمر تنسب الى بلاد فارس اسمها "قسبًا" وهي من أحلى أنواع التمر وورد ذكرها في الكتب وهي نادرة في منطقة نفزاوة حيث لا يكاد يوجد منها نخلة واحدة في بعض الواحات كواحة قرية جمنة رغم أنها من أكبر الواحات التونسية.

أما الغالب حاليا في منطقة نفزاوة وبلاد الجريد وواحات الجزائر الصحراوية فهو نوع التمر المُسمى "دقلة" بمعنى النخلة بصفة عامة في اللغة الآرامية التي هي لغة سامية مثل العربية . ومهما قيل بهذا الشأن لا يستبعد أن يكون اسم نهر "دجلة" في العراق صيغة لفظية لاسم "دقلة" لشهرة العراق بالنخيل منذ القديم. ويدعى النخل في البابلية باسم "جشمارو" الذي يستعمل في منطقة نفزاوة وبلاد الجريد في تونس في صيغة "جمار" بمعنى قلب النخلة الطري وهو أبيض اللون ويؤكل ويستخرج منه مشروب طبيعي بطريقة التقطير يُسمى "لاقمي" في الجنوب التونسي.

ويستعمل اسم "تادقلت" في اللغة البربرية في معنى كف اليد ويحمل الكف في سياق اللغة الفرنسية اسم "بوم" (paume) تقول عنه قواميس اللغة الفرنسية انه مشتق من كلمة "بالما" (palma) التي تطلق على جريد النخل في اللغة اللاتينية بينما تدعى النخلة باسم "بالميي" (palmier) في اللغة الفرنسية وهو اسم مشتق من اسم الجريد باللاتينية مثلما يلاحظ. فإن كف اليد يشبه جريدة النخلة.

أما اسم "تمر" ومفرده "تمرة" الذي يطلق على التمر بوصفه ثمار النخل فهو صيغة لفظية لاسم "ثمار" و"ثمرة" بينما تستعمل كلمة "تمارت" في معنى الأرض في البربرية والحبشية. ويسمى النخل باسم "خورما" في الفارسية والتركمانية وهناك مدينة في شمال العراق اسمها "طوز خرماتو" تتركّب من كلمة "طوز" وتنطق أيضا "دوز" وتعني القلعة ومن كلمة "خورما".

البربـر الأمازيـغ وآل كنعـان

في هذا السياق ذكر ابن خلدون ومؤرخون آخرون في العصور الوسطى أن بعض المختصين في الأنساب في عصورهم يقولون ان ضري جدًّ قبيلة ضريسة البربرية هو ابن الملك الكنعاني جالوت بل هناك من يقول انه هو جالوت نفسه الذي كان ملكا على بلاد فلسطين. وتعتبر فلسطين الموطن الرئيسي للكنعانيين القدماء أو آل كنعان مع سورية ولبنان. والأصل في اسم "كنعان" هو "كن" بصيغ عديدة. ففي فلسطين ما زال يوجد الى اليوم قرية "كفر كنا" أو "كنا" فقط حيث أن "كفر" تعني "قرية" و"منزل" وذلك بمنطقة الجليل شمال فلسطين بجوار مدينة "الناصرة". وتعتبر "كنا" من التجمعات البشرية الضاربة في القدم وتعود الى عشرات آلاف السنين قبل الميلاد أي الى عصور ما قبل التاريخ بحيث أن اسم "كنعان" يشير الى جماعات بشرية قديمة جدا يعرفون باسم "كن" و"كنع" وكانوا من أوائل الذين استوطنوا فلسطين ولبنان وسوريا. كما يوجد أيضا قرية شهيرة اسمها "قانا" و"كانا" بجنوب لبنان بالقرب من مدينة صور وغير بعيدة عن قرية "كنا" بشمال فلسطين.

فقد ذكر العلامة ابن خلدون المتوفى في مدينة القاهرة بمصر سنة 1406 ميلادي أن اسم "زناتة" الذي تحمله القبيلة البربرية الشهيرة بهذا الاسم مشتق من اسم "جانا" و"شانا" وهو اسم جدهم الأول. ويعتبر اسم "جانا" صيغة لفظية لاسم "كانا". والملاحظ أن قبيلة زناتة البربرية متفرعة عن قبيلة ضريسة وهي من أكبر القبائل البربرية على الإطلاق. وأغلب الجماعات البربرية التي كانت مستقرة بمنطقة نفزاوة تنتمي الى قبيلة زناتة.

ثم إن اسم "جالوت" هو لقب ملكي يحمله كل من يرتقي الى سدة الملك عند الكنعانيين على غرار لقب "فرعون" عند ملوك مصر في القديم. ويعتبر اسم "جالوت "صيغة لفظية لاسم "قليد" و"اكليد" و"اجليد" و"اجلاص" و"اجلاصن" الذي يطلق على الملك والأمير في اللغة البربرية.

وسبقت الإشارة الى رواج أسم "أحمر" في بلدان شمال إفريقيا حتّى أصبح بمثابة الخاصية لبلدان شمال إفريقيا.

فمثلما هو معلوم ارتبط اللون الأحمر وكذلك اللون الأرجواني منذ القديم بالكنعانيين حتى أنً البعض يقولون ان اسم "كنعان" يعني الأحمر والأرجواني بينما تستعمل كلمة "قاني" في اللغة العربية في معنى الأحمر. فيقال في العربية "أحمر قاني" بمعنى "شديد الحمرة". ويطلق اسم "قنا" على نوع من الزهور يستخرج منه صبغ أحمر.

غير أن الملفت للانتباه أن قواميس اللغة العربية المعاصرة تقول ان زهرة القنا هي زهرة يستخرج منها الهنود الحمر السكان الأصليون للقارة الأمريكية صبغا أحمر ولا تشير الى استغلالها من طرف الكنعانيين لهذا الغرض. وللإشارة كان بعض الباحثين من فرنسا في بداية القرن العشرين يقولون ان قسما من السكان الأصليين للقارة الأمريكية المعروفين بالهنود الحمر وخاصة في أمريكا الجنوبية أصلهم من جماعات بربرية نجحت في الوصول إلى أمريكا عبر المحيط الأطلسي قبل الأسبان سكان اسبانيا بجنوب غرب أوروبا بمئات بل بآلاف السنين. واستندوا في رأيهم على التشابه بين أسماء الجماعات البربرية الحالية وقبائل من الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية.

وتوجد مدينة "قنا" الشهيرة بالصعيد المصري جنوب مصر.

لكن ليس هناك ما يؤكد وجود علاقة لغوية بين اسم "كنعان" واللون الأحمر والأرجواني حيث أن اسم "كنعان" الذي يتخذ صيغة "كنانة" هو اسم مشتق من اسم "كنا" و" قنا" والأصل فيه اسم "كنًة" و"كن" الذي يعتبر صيغة لفظية لاسم "جن" و"جنة" بمعنى "بن" و"بنو" و"بني". وكانت هناك في القديم قبائل عربية تبدل في كلامها حرف الجيم بحرف الكاف فتقول "كنة" عوض "جنة". فإن اسم "جن" يعادل اسم "بن" واسم "حن" بالحاء. فما زال الولد والابن في بطن أمه يُسمى باسم "جنين" في اللغة العربية وهو تصغير "جن". وقد كانت كل هذه الأسماء تطلق على الجماعات التي تتركًب منها الطبقات الأولى من البشر التي انحدرت منهم مختلف القبائل والشعوب الإنسانية في الأرض. ويعادلها أيضا اسم "انس" و"إنسان". فإن أقوام الجن الذين تتحدًث عنهم الأساطير القديمة يرمزون إلى بعض الأقوام من الطبقات الأولى من البشر الذين عمروا الأرض في بداية التاريخ الإنساني. وتقول الأساطير ان أقوام الجن يضمُون جماعات اسمهم "بن" و"حن" و"أن".

وكان جماعة من الكنعانيين يدعون باسم "بن" ويعرفون باسم الفينيقيون والبونيون وأسًس فرع منهم مدينة قرطاج بالبلاد التونسية بضواحي مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية بالشمال حسبما ذكره المؤرخون في كتبهم. ويُسمي كتاب "تاريخ العدواني" مدينة قرطاج التونسية باسم "قرط جنًة". وفي حقيقة الحال كان كامل الشريط الساحلي التونسي من مدينة قرطاج الى محيط مدينة بنزرت بالشمال التونسي يسكنه الفينيقيون . فبالإضافة إلى قرطاج كانت لهم المدينة التي تعرف هذا اليوم باسم "اوتيك" أي "العتيقة" في محيط مدينة بنزرت حسبما يقوله الدارسون. كما كان هناك بين مدينتي "اوتيك" و"قرطاج" مدينة فينيقية تسمى باسم "أرواد" و تدعى حاليا باسم "رواد"بضواحي مدينة تونس. فالملاحظ أنه يوجد في سوريا جزيرة شهيرة تعرف باسم

"أرواد" على البحر الأبيض المتوسط قبالة مدينة طرطوس الساحلية ليست بعيدة من البر مثل كل المواقع الفينيقية في شمال إفريقيا فإن أغلبها شبه جزر. وكانت مدينة أرواد بسوريا عاصمة لإمارة فينيقية في عهدها.

ويقول الدارسون ان مدينة "اوتيك" سميت "العتيقة" لتمييزها عن مدينة "قرطاج" التي يعني اسمها "المدينة الحديثة" أو بالأحرى "القرية العتيقة" (كرت حدث). ولكن هناك من يشكَك في صحّة هذا القول رغم أن اسم "كرت" مُستعمل في معنى القرية في بعض اللغات السامية.

فقد كان الكنعانيون يستعملون اسم "حن" لتسمية الأشخاص حيث كان منهم في فرعهم الفينيقي بمدينة قرطاج في تونس قائد عسكري مشهور اسمه "حنبعل" وهو اسم يتركّب من اسم "حن" بمعنى "بن" و"بعل" وهو اسم إله كنعاني قديم. وسبقت الإشارة إلى أن الآلهة الذين عبدوا قديما يرمزون الى الآباء والأجداد الأولين للشعوب التي عبدتهم.

وتقدّم القول بأنّ الاسم البربري "جانا" و"شانا" كان يحمله الجد الأول لقبيلة زناتة البربرية ومنه اشتق اسم "زناتة" مثلما ذكره العلامة ابن خلدون.

في ذات السياق يوجد تشابه لفظي كبيرة بين اسم "أموريين" الذي كان يعرف به الكنعانيون في شمال وشرق سوريا واسم "مور" (Maures) الذي أطلق في يوم من الأيام على سكان شمال إفريقيا في القرون الوسطى من طرف الشعوب الأوروبية المجاورة لهم في القارة الأوروبية. ويرى البعض أنّ سبب ذلك يرجع الى أنّ أن اسم "مور" يطلق على جهة الغرب وأرض الغرب عند الشعوب السامية القديمة ويوجد شمال إفريقيا في الغرب. لكنّ الذين أطلقوا اسم "مور" هم في

هذه الحالة الأوروبيون. فلماذا استعاروا اسما ساميا وليس ما يعادله في لغاتهم الأوروبية.

وتوجد مدينة "مراكش" في المغرب الأقصى ويعتبر البعض أن اسمها مشتق من اسم "مور" ويعني المدينة الغربية بينما يقول آخرون إنه يتركب من اسم "تامورت" بمعنى الأرض بالبربرية واسم "يكش" وهو اسم الإله في البربرية فيكون اسم مراكش معناه "أرض يكش" أو "مدينة يكش" بمعنى مدينة الإله "يكش" وهو الأصحٌ.

ففي هذا المعنى ما زال يوجد في مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية شارع صغير اسمه "نهج عبد الله قاش". فإن اسم "قاش" في هذه التسمية هو صيغة لفظية لاسم "يكش" في قول بعض الدارسين مع أنّه يوجد ولي صالح في مدينة تونس حديث العهد اسمه أبو الغيث خالد القشاش يقال إنّه سُمي كذلك نسبة الى سوق في مدينة تونس اسمه سوق القشاشاين بمعني التجار الذين يتاجرون في كل ما هو مستعمل وليس جديدا وتسمى "خردة" عند العامة من الناس.

وتبرز كلُ هذه الحقائق عمق وعراقة وقدم الأواصر التي تربط بين سكان شمال إفريقيا والكنعانيين في سوريا ولبنان وفلسطين بحيث أن قسما هاما من البربر بوصفهم السكان الأصليون لشمال إفريقيا هم جماعات من الكنعانيين كانوا مقيمين منذ الأزل بشمال إفريقيا في عمقه الصحراوي كمنطقة نفزاوة وغيرها من المناطق الأخرى فتكون هجرة الكنعانيين المشرقيين الى شمال إفريقيا حسبما يقوله الدارسون والمؤرخون هي عودة ورجوع الى الأصل وليس هجرة شعب غريب الى مكان جديد.

فقد تقدَّم الحديث عن وجود قرية اسمها "ابشلي" في منطقة نفزاوة نسبة الى جماعة البسيلي الذين ذكرهم المؤرخ اليوناني

هيرودوت وقرية "بشلي" في سوريا الموطن الأصلي للكنعانيين مع لبنان وفلسطين.

وتوجد قرية اسمها "بشًري" قرب قرية "ابشلي" بمنطقة نفزاوة وكانت عاصمة هذه المنطقة في يوم من الأيام ويوجد بلبنان أحد مواطن الكنعانيين المدينة المعروفة باسم "بشرَي" قرب جبل "بشرَي" الشهير الذي يضم أقدم غابة صنوبر في العالم. فان حرف "الراء" وحرف "اللام" يعوَضان بعضهما في الكلام الإنساني بحيث أن اسم مدينة "بشرَي" في تونس وفي لبنان يمكن نطقها في صيغة "بشلي" بما يؤكد أن قريتي ابشلي وبشري كانتا موطنا لجماعة البسيلي وما زال هذا الاسم يستعمل في البلاد التونسية في صيغة "البسيلي" و"البصلي".

لكنً المؤرخين لم ينتبهوا الى هذه الروابط. فقد أورد الأستاذ التونسي المعاصر محمد ضيف الله الاختصاصي في التاريخ معلومات هامة وجيَدة عن قرى منطقة نفزاوة في كتابه "نوافذ على تاريخ نفزاوة" مثل قرية "زرسين" وقرية "بشلي" غير أنه لم يتفطن الى وجود قرية اسمها "بشلي" في سوريا والى علاقة قرية "ابشلي" في منطقة نفزاوة بجماعة البسيلي الذين ذكرهم المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

حقائـــق أخـــرى

في ذات السياق وردت في نقش قديم ينسب الى ملك عراقي قديم من ملوك القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد إشارة الى جبل اسمه "بسلا" بوصفه موطن شعوب "الأموريين" الذين يمثلون أهم الشعوب الكنعانية القديمة في شرق سوريا وكان هذا الملك العراقي القديم ملكا

على إمارة "لكش" قال انه ذهب إلى بلاد الأموريين وجلب معه صخورا من جبلهم الذي اسمه "بسلا" .

واشتهرت في التاريخ دولة "ماري" الأمورية على الحدود السورية العراقية ودولة "ابلا" الأمورية جنوب مدينة حلب بشمال سوريا . وعُرفت مدينة ابلا عاصمة هذه الدولة بالمكتبة الثريَّة التي اكتشفت فيها خلال سنوات 1970 ووجد فيها العلماء حقائق ومعطيات ساعدت الدارسين في مختلف البلدان على تصحيح معلوماتهم حول تاريخ الشعوب السامية ودياناتهم وحول معارفهم عن منطقة المشرق العربي في القديم بصفة عامة. وكانت مكتوبة على الألواح الطينية.

وتشير الكثير من المعطيات الى أن جبل "بسلا" الأموري هو اسم آخر لجبل "بشري" بلبنان لأن الأموريين كانوا يعدٌونه ضمن آلهتهم ويطلقون عليه اسم "بسري" بالسين المهملة غير المنقوطة.

كما أن آخر جالوت أو ملك كنعاني كان اسمه "كلياد" وهو الاسم المستعمل في البربرية في معنى الملك والأمير حيث أن الملك والأمير يدعى باسم "اقليد" و"اكليد" و"اجليد" في اللغة البربرية مع العديد من الصيغ الأخرى المماثلة.

وحكم في "الأموريون" ملك اسمه "أدريمي". وذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت أنه كان يوجد شعب بربري اسمهم "الأدريميون" كانوا يسكنون بجوار شعب البسيلي وشعب الآزريين والقبليين في المنطقة الصحراوية الممتدة من الغرب الليبي الى سفح جبال الأوراس بالجزائر بما فيها منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية. وسجًل المؤرخون العرب والبربر في العصور الوسطى وجود جماعات بربرية تحت هذا الاسم منهم جماعة اسمهم "بنو تيدرميت" كانوا مستقرين بمدينة "جادو" بجبل نفوسة بليبيا.

وما زال يوجد جماعة تسمى باسم "قنانة" مقيمون الى هذا اليوم في قرية القلعة بالقرب من مدينة دوز بمنطقة نفزاوة. فان اسم "قنانة" هو صيغة لفظية لاسم "كنعاني". كما أن اسم قرية "شننًي" بالقرب من مدينة تطاوين بالجنوب الشرقي التونسي مشتق من اسم "كنعاني". وتوجد بلدة أخرى اسمها "شنني" بجهة قابس. ويوجد بجهة بنزرت بلدة تسمى باسم "الشنانًة" وهو أيضا صيغة لفظية لاسم "كنعاني".

كما ذكر بعض العارفين أن جماعة اسمهم "أولاد كرموس" في مدينة "مساكن" بالساحل التونسي هم من الفينيقيين بمعنى الفرع الكنعاني الذي اشتهر عند المؤرخين باستيطان لبنان.

وذكر أبو عبيد البكري الذي عاش في القرن الحادي عشر ميلادي بالأندلس العربية أن جماعة في مدينة سرت بليبيا في عهده كانوا يتكلمون الفينيقية حيث قال انه يوجد بها جماعة يتكلمون لغة ليست بالعربية ولا البربرية ولا القبطية ولا الرومية. فلا شكً أنها الفينيقية لأنهم كانوا بيض البشرة.

آلهــــة قدمـــــاء

فقد حصر الدارسون الوجود الكنعاني بالبلاد التونسية وشمال إفريقيا في قدوم وفود متتالية من التجار الفنيقيين من لبنان بداية من القرن الحادي عشر قبل الميلاد وأظهروهم في مظهر جماعات استغلوا بعض الظروف المواتية فأسسوا بعض المدن وصفوها بأنها كانت منعزلة عن محيطها البربري ومنغلقة على نفسها مثل مدينة قرطاج بالقرب من مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية. ولكن الحقائق السابقة تشهد أن الوجود الكنعاني في البلاد التونسية وشمال إفريقيا هو وجود

استيطاني قديم وعميق مثل الوجود البربري بحيث أن الكنعانيين كانوا مواطنين مستقرين في هذه الربوع منذ القديم في مناطقها الساحلية وأعماقها الصحراوية.

وقال العلامة ابن خلدون ان "البربر هم من الكنعانيين جدُهم اسمه "مازيغ" وإخوانهم "اكريكش" (الجرجيسيون) وأقاربهم الفلسطينيون".

وهناك الكثير من الحكايات التراثية والمكتوبة التي يمكن اعتبارها أصداء لهذه العلاقة العرقية والدموية بين البربر والكنعانيين مع ما فيها من التحريف لجوهرها الحقيقي منها أن عرب سهل المتيجة بالجزائر كانوا يقولون ان البربر القاطنين بمنطقة القبائل واسمهم "زواوة" هم من نسل ملك كنعاني قديم انهزم في بعض المعارك ضد بعض الأعداء في موطنه بالمشرق فحمل مملكته على ظهره وهرب بها الى شمال إفريقيا فلما وصل الى منطقة القبائل بالجزائر أنهكه التعب فخر ميَتا فجبال القبائل هي أرضه التي حملها على ظهره من المشرق بينما سكانها القبائل أو جماعة "زواوة" هم من نسله. بل كانوا يقولون إنهم خرجوا من "الديدان" التي تولّدت في جسمه الميت.

فإن هذه الحكاية ليست تراثية تماما لأن عرب سهل المتيجة هم من العرب الهلاليين الذين جاءوا إلى شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر للميلاد بعد البربر بآلاف السنين وإنما هي صدى لأخبار مكتوبة قديمة وعندما يتعلق الأمر بالأخبار المكتوبة فإن كل الاحتمالات تصبح واردة.

فالمعلوم أن الأساطير القديمة تقول ان الإله الذي اسمه "أطلس" هو الذي كان مجبرا في يوم من الأيام على حمل الكرة الأرضية ممثلة في سلسلة جبال الأطلس بشمال إفريقيا على ظهره ولذلك سُمَيت باسم "أطلس" بينما اسمها المحلي هو "جبال درن". وينتمي الإله أطلس الى

مجموعة الآلهة الذين اسمهم "تيتان" عند اليونانيين القدماء بحيث يمكن القول ان "الديدان" المذكورة في القصة هي صدى لكلمة "تيتان". ولكن الأهم من ذلك بكثير أنه كانت توجد في بلاد اليمن القديم جنوب الجزيرة العربية الموطن الأول لأسلاف الكنعانيين والعرب في زمن مملكة سبأ والممالك التي عاصرتها أقوام من العرب تسمى في ذلك الوقت باسم "دودن وخولن" بمعنى قوم دود أو ربما قوم هود وجماعة الخول ورد ذكرهم في بعض الكتابات المنسوبة الى هذه الممالك.

كما أنَّ اسم "أدد" و "دد" و "ود" يوجد في سلسلة الأجداد الأولين للكنعانيين والعرب. وكان هناك عدد من ملوك الأموريين يحملون اسم "شمسي أدد" منهم "شمسي أدد الأول" من ملوك القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وكان أحد آلهة شعوب ممالك اليمن القديم والقبائل العربية عموما بالجزيرة العربية يُدعى باسم "ود" ورد ذكره في القرآن في سورة "نوح". ويتخذ اسم "دد" صيغة "داود" وقد وجد مكتوبا بهذه الصيغة في بعض كتابات مدينة ابلا السورية باعتباره اسما أموريا بحيث أنَّ اسم "داود "هو اسم أموري فاستعاره اليهود وسمُّوا به الأشخاص.

واستخلص أحد الدارسين العرب من الكتابات المكتشفة في مدينة ابلا السورية الأمورية أن الأموريين كانوا يعظمون الإله السومري المعروف باسم "أيا" و"ياه" معتبرا أن اليهود استعاروا كذلك هذا الاسم وأطلقوه على الإله الذي كانوا يعبدونه في صيغة "ياهو" بفعل احتكاكهم بالأموريين الذين ورثوا الحضارة السومرية بعد الأكاديين ويُعتبرون همزة الوصل بين السومريين والأكاديين من جهة والكنعانين والشعوب الأخرى المتفرعة عنهم من جهة أخرى أي بين الحضارة

العراقية القديمة والحضارة السامية. وترجع الحضارة السومرية الى أكثر من 2500 عام قبل الميلاد.

حضـــارة ونًـــاس

ففي هذا المجال سبقت الإشارة الى أن الجماعات الأولى من الكنعانيين كانوا يقطنون بقرية "كنا" أو "كفر كنا" بمنطقة الجليل شمال فلسطين وبقرية قانا" بالقرب من مدينة صور جنوب لبنان باعتبار أن هذين الموقعين ما زالا يحملان اسمهم الأصلي وهو "كن" و"كنع".

فهناك قبر قديم في "كفر كنا" يقال له قبر النبي يونس والمعلوم أن يونس هو نبي من الأنبياء المذكورين في القرآن. ومثلما جاء في القرآن فان النبي يونس ابتلعه حوت أو سمكة بحرية كبيرة ومكث في بطنه ثلاثة أيام قبل أن يلفظه الحوت في الشاطئ حيث لبث أيضا مدة في العراء ملفوفا وسط شجرة عجيبة من "يقطين".

فقد جاء في بعض الأخبار المنسوبة للسومريين وهم من أوائل من سكن جنوب العراق حيث مجمع "البحرين" دجلة والفرات ومصبًهما في البحر (الخليج العربي والفارسي حاليا) أنهم تعلًموا مبادئ الحضارة من شخص في هيأة سمكة اسمه "ونًاس" قدم إليهم من جهة البحر بينما تقول الأساطير الفرعونية القديمة أن الربة الفرعونية ايزيس زوجة وأخت الإله الفرعوني اوزيريس هامت على وجهها بعد مقتل زوجها من طرف أخيه ست للبحث عن جثته فوجدتها أخيرا ملفوفة في شجرة بأحد الشواطئ اللبنانية.

العلاقـــة بالعـــرب

في ذات الإطار تجمع بين البربر والعرب علاقات وأواصر عرقية وحضارية ضاربة في القدم على غرار العلاقات والأواصر العرقية والحضارية التي تجمع بين البربر والكنعانيين وكذلك بين العرب والكنعانيين رغم ما ظل عالقا في أذهان البربر بشمال إفريقيا من ذكريات أليمة بخصوص السلوك السيئ الذي تصرًف به القادة العسكريون العرب إزاء البربر عند مجيئهم لشمال إفريقيا لنشر الدعوة الإسلامية في القرن السابع الميلادي فضلا عن الأفعال الرذيلة التي فعلتها بعدهم قبائل بني هلال العرب عند غزوهم لشمال إفريقيا في القرن الحادي عشر ميلادي . لكنً جماعة بني هلال ومن لفً لفًهم كانوا جهلة وأميين بخلاف الدعاة المسلمين الأوائل الذين كانوا يقولون إنهم أصحاب دين سماوي جديد وقدموا باسم هذا الدين.

فهناك القبيلة العربية المشهورة في التاريخ التي اسمها قبيلة "كنانة" ومنها تنحدر قبيلة قريش التي ينتسب إليها نبي الإسلام محمد بن عبد الله. فإنَّ قريش هو لقب للجدَ الأول لقبيلة قريش الذي اسمه النظر بن كنانة. بل إنها أشهر قبيلة عربية وكانت تسكن نجد والحجاز في مدينة مكة أين يوجد المعبد العربي القديم المُسمى باسم الكعبة وباسم "القبلة". فإن اسم "كنانة" هو صيغة لفظية لاسم "كنعان" أو العكس أي أن اسم "كنعان" هو صيغة لفظية لاسم "كنانة".

وجاء في القرآن الكتاب المقدس عند العرب والمسلمين ذكرٌ لأقوام من العرب اسمهم "عاد" و"ثمود" كانوا أولاد عم وينتمون إلى جد أعلى واحد وعاشوا في قديم الزمان في عهود متقاربة في الجزيرة العربية. ويُعرف جماعة "عاد" باسم "قوم هود" نسبة الى نبي عربي اسمه هود ورد ذكره في القرآن أراد إصلاح شأنهم في بعض الأزمات

التاريخية التي ألمَّت بهم بينما يُدعى جماعة "ثمود" باسم "قوم صالح" نسبة الى نبي عربي اسمه صالح تحدَّث عنه القرآن وأراد هو أيضا أن يصلح من شؤون قومه أثناء بعض الأزمات الكبرى التي واجهوها فوجد النبيَّان معارضة من كبار القوم وانتهى الأمر بالجميع الى الزوال والفناء حسب المؤرخين العرب والمفسرين للقرآن. فلذلك سُمَى قوم عاد وقوم هود بالعرب البائدة لأنهم بادوا وانقرضوا ولم يعد لهم أثر.

لكنًه ورد ذكر لتحالف عربي اسمه "حلف ثمود" كان قائما قبل الإسلام بحوالي قرنين بنواحي فلسطين حسب بعض الكتابات التي تعود لهذه الفترة.

ويُفهم من الأخبار المتواترة بشأن هذين القبيلتين العربيتين أنً قوم عاد اندثروا بسبب زحف رمال صحاري الجزيرة العربية في المنطقة المعروفة باسم "الربع الخالي" جنوب الجزيرة العربية حيث كانوا مستقرين بناحية تعرف باسم "الأحقاف" أي عروق الرمل فعجزوا على مقاومتها مثلما حصل لجماعة الآزريين بجنوب ليبيا وتونس في القديم ولجماعة العذارى في الوقت الحالي بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي التونسي حسبما يُروى بشأنهم.

أمًا قوم ثمود فإنهم كانوا يعيشون في المنطقة المعروفة باسم "الحجر" بالناحية المعروفة باسم "وادي القرى" بين المدينة المنورة ومدينة تبوك شمال الجزيرة العربية ويُسمى الموقع حاليا باسم "مدائن صالح" وتحوًل الى موقع أثري وسياحي مشهور.

فمثلما أشار اليه القرآن كان قوم ثمود ينحتون من الجبال بيوتا فارهين على غرار العديد من الجماعات البربرية في البلاد التونسية مثل جماعة قبيلة مطماطة البربرية بالجبال المنسوبة إليهم بالقرب من مدينة قابس بالجنوب التونسي فإنهم ظلوا الى هذا اليوم ينحتون من الجبال بيوتا ويُسمون هذه البيوت باسم الغيران وهو اسم جمع ومفرده

غار. فان جماعة مطماطة وجماعات بربرية أخرى بالجنوب الشرقي التونسي يسكنون جبال طباقة وجبال دمَّر بالجنوب التونسي وكانوا ينحتون هذه الغيران في هذه الجبال ويتخذونها مساكن لهم. وما زالت مستعملة الى هذا اليوم.

ويوجد في البراري التابعة لناحية مدينة قبلي بمنطقة نفزاوة مجموعة من الغيران في جبال طباقة غير مسكونة وتسمى الغيران وكانت مساكن لبعض الجماعات البشرية في القديم وكان يوجد بإزائها "ثمد" وينطق في صيغة "ثماد" عند سكان المنطقة وكذلك "اثمد" بمعنى النبع الصغير والضعيف من الماء بينما تقول قواميس اللغة العربية ان اسم "ثمد" يطلق على الماء القليل الذي يتجمَّع في الشتاء وينضب في الصيف . وذكر بعض العارفين أنه رأى "ثمدا" بالبادية التي كان بعض أهل منطقة نفزاوة ينتجعون بها في فصل الربيع بنواحي جبال طباقة ووصفه بأنه نبع ضعيف كانوا يستمدُون منه القليل من الماء لحاجاتهم اليومية عند الضرورة.

كما كان الأهالي في منطقة "السند" على بعد حوالي 40 كلم غربي مدينة قفصة بالجنوب التونسي مثل جماعة مطماطة وقوم ثمود يتخذون بيوتا من الجبال القائمة بناحيتهم على هيأة غيران يحفرونها في الجبال وهم من البربر من قبيلة زناتة البربرية المتفرعة عن قبيلة ضريسة ويعتبر اسم "سند" صيغة لفظية لاسم زناتة. وتشبه منطقة السند التونسية منطقة وادي القرى مسكن قوم ثمود بالجزيرة العربية حيث أنها بمثابة وادي تحفه الجبال وجعلت منه سيول الأمطار خزانا للماء ساهم في وجود الكثير من الينابيع وعيون الماء منها عين ماء اسمها "عين جانا" وقال العلامة ابن خلدون ان اسم زناتة مأخوذ من اسم جد القبيلة وهو "جانا" و"شانا" فنسبت هذه العين إليه.

كما توجد بمنطقة السند عدد من المواقع اسمها "تمودا" و"تمداي" بالبربرية ويعني النبع الضعيف مثل اسم "ثمد" في العربية.

فإن قوم ثمود دُعوا واشتهروا بهذا الاسم نسبة الى أبيهم الذي اسمه "ثمود" حسب المؤرخين غير أن هذا الاسم مشتق من اسم "ثمد" و"اثمد" بحيث يمكن القول ان قوم ثمود هم قوم الثمد أو الاثمد أو "الثماد" كما ينطقه سكان منطقة نفزاوة.

معنـــى ناقــة صالــح

وتقول القصة التراثية المتعلقة بحياة النبي صالح إن قومه كذَّبوه ولم يصدَقوه واستهتروا بما جاءهم به وخاصة منهم طبقة المترفين والمستكبرين حتى أنه صنع لهم من الصخر ناقة حقيقية لعلَّهم يتَّبعونه فازدادوا عُتوا ونحروا الناقة فأصابهم بلاء شديد كان سببا في هلاكهم واضمحلالهم.

فمثلما سبقت الإشارة إليه ما زالت عين الماء تسمى باسم "نقة" على وزن "جدة" في اللغة البربرية وما زالت توجد قرية اسمها "نقة" بجهة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسي. وكان يوجد قرب مدينة قبلي العاصمة الإدارية لمنطقة نفزاوة بئر ماء اسمها "بئر نقوى". ومثلما يمكن ملاحظته فان اسم "نقة" واسم "ناقة " هو اسم واحد بحيث أن الناقة التي نحتها النبي صالح ترمز الى عين ماء اجتهد النبي صالح في حفرها وتفجيرها بوسائله الخاصة من نوع عيون الماء العميقة في شمال إفريقيا التي تتغذى من المياه الجوفية الصحراوية وليس من المياه السطحية. فيمكن القول بأن النبي صالح استعان لحفر هذه العين العميقة أو "الناقة أو "نقة" بالطريقة التي ظل البربر في شمال إفريقيا يستعملونها الى عهد غير بعيد لهذا الغرض وأشار اليها المؤرخون

والرحالة وتتمثل في تهشيم ونقر الصخور الجوفية المانعة لتسرب المياه الجوفية بواسطة صخور عظيمة تستخرج من الجبال ويقوم جماعة من الأشخاص برميها فوق الصخور الجوفية أو استعمالها بواسطة حبال متينة لكسر الصخور الجوفية وثقبها ونقرها وعندما تنكسر الصخور الجوفية وتنقر وتحدث فيها ثقوب تنفجر المياه الجوفية بقوة وتنساب الى الخارج. فيمكن القول ان النبي صالح استعمل هذه الطريقة لتفجير عين الماء أو النقَّة والناقة التي ترمز اليها الناقة المنحوتة من الصخور في القصة التراثية المتعلقة بحياة النبي صالح.

ويعادل كلمة "نقة" البربرية كلمة "نقع" التي تستعمل في اللغة العربية في معنى الماء المتجمع. ويقال في العربية "نقع من الماء" بمعنى"روي به".

فقد أشار القرآن في سورة الفجر الى أن قوم ثمود كانوا يجوبون الصخر بالوادي بمعنى وادي القرى (والآية تقول : وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي). ويرى المفسرون ان كلمة "جابوا " تفيد معنى الكسر والثقب والنقر بمعنى إنهم كانوا يثقبون ويكسرون الصخر بوادي القرى لتفجير عيون المياه الجوفية ولا شكً أنها طريقة مبتكرة أرشدهم إليها النبي صالح فلم يشكروا فضله مثلما تقدًم شرحه. كما كانوا يجوبون صخور الجبال لنحت البيوت الشبيهة بغيران جماعة مطماطة بجنوب البلاد التونسية. ويحيط بوادي القرى مجموعة من الجبال.

وما زال بئر الماء يسمى باسم "جب" في اللغة العربية وهو مشتق من كلمة "جبً" بمعنى "قطع" وهي صيغة أخرى لفعل "جاب يجوب ".

عـروق الرمـــال

وعلى أساس أن قوم ثمود هم في الأصل جماعة من قوم عاد الذين واجهوا أزمة حادة في التزود بالمياه بسبب زحف رمال الربع الخالي على قراهم ومزارعهم لا يُستبعد أن أزمة الماء ظهرت أول الأمر في بلاد قوم عاد بالناحية التي اسمها الأحقاف بمعنى الرمال وعروق الرمال المحاذية للربع الخالي في جنوب الجزيرة العربية وهو ما أشار اليه القرآن . والملاحظ أنَّ الأحقاف اسم جمع ومفرده "حقف". فيكون استنباط الطريقة لتفجير المياه الجوفية بواسطة الصخور حصل في جهة الأحقاف وتواصل اللجوء إليها في ناحية وادي القرى الذي هو بالأساس موقع خصب وفيه ينابيع الماء الطبيعية المغذية للعيون السطحية عندما تنزل الأمطار ولكنه معرَّض لفترات من الجفاف وانحباس الأمطار قد تطول وتقصر فتنضب عيون الماء السطحية بما يستدعي اللجوء الى حفر عيون الماء العميقة التي من نوع "نقة" أو "ناقة" بواسطة الولوج الى المياه الجوفية من خلال ثقب وكسر الصخور الجوفية بواسطة صخور جبلية مماثلة.

وتعرف هذه العيون العميقة في الوقت الحالي باسم الآبار الارتوازية للجمع والبئر الارتوازي للمفرد. وقد عوَّضت تماما العيون السطحية القديمة في منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية فنزحت العيون القديمة واضمحلَّت. وسبقت الإشارة الى أن جماعة من قوم ثمود كانوا موجودين في فلسطين قبل الإسلام بحوالي قرنين.

فقد تقدَّم الحديث عن الحكايات التراثية التي تتعلق بامتلاك الجن والغيلان والعفاريت والثعابين ذوات السبع رؤوس للكهوف وعيون الماء والآبار والأراضي المحيطة بها وإجبار المستضعفين من الناس

على دفع ضرائب مجحفة لهم لتمكينهم من استغلال عيون الماء والموارد الطبيعية الذين سيطروا عليها.

في ذات السياق كان يوجد الى حدود السنين الأخيرة من القرن العشرين للميلاد زيرة أو غابة نخيل صغيرة اسمها "تمُداي" تابعة لقرية جمنة بمنطقة نفزاوة. كما كانت مدينة "تطوان" بالمغرب الأقصى تسمى "تمودا" و"ثمودا" ويمكن اعتبار الاسمين صيغة لفظية لاسم "ثمود" الذي يفيد في الأصل الأصيل "الأهل" بوصفهم يمثلون البشر والناس والإنسان حيث أنه مشتق من اسم "مد" الذي ما زال يُطلق على الناس في اللغة البربرية ومنه اشتق اسم "مدَن" ويُجمع على صيغة "مدنين" وهو اسم مدينة في الجنوب الشرقي التونسي بمعنى الأهل والناس والبشر. وتفيد كلمة "تمداي" داخل اللغة البربرية معنى القلت أي الماء المتجمع في منخفض مثل كلمة "ثمد" في العربية.

وكتب بعضُهم عن جماعة العذارى أصحاب قرية زعفران بالقرب من مدينة دوز بمنطقة نفزاوة "أنهم كانوا يستقون الماء من ثمد بالحقف الذي كانوا مقيمين فيه".

فمثلما تقدم ذكره كان قوم عاد يسكنون بمنطقة اسمها "الأحقاف" بمعنى "عروق الرمال" بجنوب الجزيرة العربية في قرى غمرتها رمال الربع الخالي وكما تقدَّم ذكره فإن الربع الخالي هو امتداد للصحراء الكبرى بشمال إفريقيا ولكنه أشدُّ وطأة منها حيث أنه عبارة عن صحاري رهيبة ورمال مترامية الأطراف خالية من العمران تماما منذ القديم ولا يوجد فيها ماء كما لا يكاد يوجد بها نبات ولا حيوان. وكان ذلك بسبب التصحُّر الناجم عن تمدد الصحراء التي كانت أراضي خضراء تكسوها النباتات وتتوفر فيها المياه الجارية فأصاب بعض نواحيها التصحُّر بمعنى تحوَّلت الى صحراء ثم تمددت حتى أصبحت حزاما صحراويا للأرض بأسرها يمتد من الصحراء الكبرى بشمال

إفريقيا الى بلاد الصين شرقا عبر البحر الأحمر ثم غربا الى المناطق الصحراوية بالقارة الأمريكية عبر المحيط الأطلسي.

والجدير بالذكر أن الأمطار كانت عاملا من العوامل التي ساعدت قديما على انجراف الأرض وتفتيت الأحجار والصخور وتحويلها الى ذرات الرمال بينما الرياح هي التي تساهم في نقلها من موضع الى آخر. غير أن عمل الإنسان الهمجي والعشوائي هو السبب الرئيسي الذي يكمن وراء التصحر قديما وفي الوقت الحاضر.

كما ذكر بعض الدارسين أن أسرة العالم والمؤرخ الاباضي الشهير أحمد الشماخي من علماء القرن السادس عشر ميلادي أصيل مدينة يفرن بجبل نفوسة بليبيا ودفين جزيرة جربة التونسية يرجع نسبها الى النبي هود. وهي أسرة بربرية الأصل.

الحجر وجبال الهقار

في هذا السياق يرى بعض الدارسين أن اسم جبال "الهقار" بجنوب الجزائر بالصحراء الكبرى موطن البربر التوارق مشتق من اسم "حجر" أو انه صيغة محلية لاسم "حجر" الذي يطلق على الصخر في اللغة العربية وبالتالي على الجبال. وتستعمل كلمة "آجر" للجمع و"الأجرًة" للمفرد في معنى قالب الطين المشوي والمحمى بالنار في اللغة العربية وهو المادة الرئيسية لبناء وتشييد الديار وغيرها من المنشآت في العصر الحاضر بينما تستعمل كلمة "آجر" و "هجر" في معنى الطويل في اللغة البربرية وأحيانا في معنى الحجر الطويل بالذات وتنطق أيضا في صيغة "ازر". وكانت منازل ثمود المنحوتة في جبال وادي القرى تسمى باسم "الحجر".

لكنً الأقرب للصواب هو أنً اسم "هقار" مشتق من اسم "أقرو" و"قراو" الذي يستعمل في اللغة البربرية في معنى "الكبير" و"الرئيس" و"الشيخ" و"المقدًم". كما أنه يستعمل في هذه المعاني في بعض اللغات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى. وكان بعض الرجال السود في بعض قرى منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي التونسي الى عهد قريب جدا يسمون باسم "قراو" ويناديهم الأطفال فيقولون لهم "باك قراو" بمعنى "السيد قراو". وتستعمل هذه الكلمة عند سكان الهند في شرق آسيا في صيغة" قورو" في المعاني المذكورة وخاصة في معنى الشيخ العالم بالأديان الهندية والمتفرغ للتأمل ودخلت في اللغات الأوروبية الحديثة للتعبير عن كل هذه المعاني (بالفرنسية gourou).

فلا شكً ان اسم "هقار" كان في الأصل اسم جماعة بشرية نسبة الى أجدادهم الذين يحملون اسم "قراو" بمعنى المشايخ والأسياد.

كما يوجد مدينة "توقرت" المشهورة في الجزائر والأرجح أن اسمها مشتق من اسم "أقور".

ويفيد اسم "حجر" أيضا معنى الحرم على غرار الحرم الذي تتمتع به المعابد في القديم وزوايا الأولياء الصالحين في العصر الحاضر والأماكن المقدًسة عموما ويشمل الحرم الموقع المقدس مع الأراضي المحيطة به الى قدر معلوم. فكان الخائفون لسبب من الأسباب يحتمون بحرم هذه الأماكن المقدسة هربا من القبض عليهم. ويُطلق أيضا اسم "حجر" على الحضن وعلى حضن الأم بالذات لأن الاحتماء كان يتمثل عند بعض المجتمعات البشرية في الارتماء في حضن بعض الأشخاص لحمايتهم مما يخافونه وتكثر هذه المشاهد في الخرافات الشعبية التونسية.

الجبابـرة وعماليـق الماضـي

وكان قوم عاد وقوم ثمود يعتبرون من الجبارين والعمالقة من حيث خلقتهم وأجسامهم. وكان يوجد معهم في الجزيرة العربية أقوام عربية أخرى من العمالقة ويدعون باسم "عماليق" عند المؤرخين العرب اشتهر منهم قبيلتان عربيتان أولاد عمهم أيضا اسمهم "طسم" و"جديس" سبقت الإشارة إليهم. ويقال ان قوم ثمود هم إخوة جاديس وكانوا يسكنون اليمامة المشهورة بواحاتها بمنطقة نجد وسط الجزيرة العربية بما يرجح أن ثمود عاشوا مدة في جنوب ووسط الجزيرة العربية ثم ارتحلوا ناحية الشمال الى وادي القرى. وما زالت كلمة "جاديس" تستعمل الى اليوم في اللغة الفرنسية (jadis) في معنى الماضي والزمن القديم.

وكانت "عاد" تسمى كذلك باسم "ارم" مع أن بعضهم يقول انه اسم مدينتهم بما يعني أن لهم صلة بالشعب المسمى باسم الأراميين وهو شعب سامي عريق محسوب على الكنعانيين مثل الأموريين. تقول آية في القرآن في سورة الفجر "الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد". فهناك قراءة لهذه الآية تفصل بين كلمة عاد وكلمة ارم بينما هناك قراءة أخرى تقرأ الآية دون توقف خاصة وأن "ارم" هو جد عاد وثمود فان عاد اسمه عاد بن عوص بن ارم بينما ثمود اسمه ثمود بن عامر بن ارم. وهناك من يقول انه ابن عاد. ولا يستبعد أنه كان لقوم عاد مدينة اسمها "ارم" على اسم جدهم. وتستعمل كلمة "ارم" في معنى الجنة في اللغة الفارسية سواء في معنى جنة الخلد والفردوس أو في معنى الغابة والبساتين بحيث أنهم كانوا أصحاب بساتين ويزرعون النخيل وغيرها من الأشجار فكانوا في حاجة الى المياه.

كما اشتهر قوم عاد وقوم ثمود ببناء القصور مثلما ذكره القرآن ولا شكَّ أنها كانت من صنف القصور البربرية وتسمى أيضا باسم "القلعة" وما زال يوجد منها بعض النماذج القائمة بالجنوب الشرقي التونسي بجهة تطاوين الى هذا اليوم وهي عبارة عن بنايات تتركب من مجموعة كبيرة من الغرف الصغيرة الملتصقة ببعضها يبنيها أصحابها فوق الربى والمواقع العالية وتستعمل عادة للخزن بينما القرى المعدة للسكنى تحيط بها ولم تكن هذه القرى موجودة عندما كان نمط البدو الرحل هو السائد فكانت تلك القصور تستعمل لخزن المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية والمعدات الفلاحية. وبعد الانتجاع يأتي أصحابها ويقيمون حولها لمدة معلومة ثم يعودون الى منتجعاتهم.

غير أنَّ اسم "ارم" يفيد معنى السيد والرب والرئيس وهو اسم منتشر في العديد من اللغات الإنسانية في صيغة متعددة منها صيغة "رام" واليه يرجع اسم مدينة "رام الله" أو "الرام" في فلسطين واسم مدينة "رومة" عاصمة دولة ايطاليا بجنوب غرب القارة الأوروبية وكانت مدينة مشهورة وذات شأن كبير في التاريخ القديم. والأصل فيه كلمة "الرمة" بمعنى هيكل الميت المدفون وهو اسم مفرد ويجمع على "رمم" وكانت الرمم مقدسة لأنها تمثل الأسلاف باعتبارهم آلهة القوم.

معنى عظمة الناس الأوائل

سبقت الإشارة كذلك في ذات المعنى الى اشتهار الملك البربري القديم الذي اسمه "أنتي" بأنه كان من الجبارين مثل عمالقة عاد وثمود وطسم وجديس. وما زال الناس في تونس وشمال إفريقيا عموما يتحدَّثون عن القبور الجلمودية العظيمة في بعض الجهات من البلاد التونسية وبلدان شمال إفريقيا الأخرى وينسبونها الى أناس من العصور

الغابرة ويرون فيها شواهد على عظمة الأجيال الأولى من البشر. وسبقت الإشارة الى من يقول ان أحجار ومسلات موقع المزورة بالمغرب هو قبر الملك البربري القديم انتي الذي ينعت بالجبار . ويسمي الأهالي في تلك النواحي هذا القبر الجلمودي باسم "الوتد" بالعربية. وتوجد في البلاد التونسية العديد من القبور الجلمودية المماثلة بموقع دقة وجبل القراعة بجهة "باجة" وفي ناحية "مكثر" بسليانة وقرية "اللاس" بجهة الكاف.

وكان الناس الأوائل مشهورين منذ القديم بعظمتهم وعبقريتهم حتى أن الشاعر العربي الكبير أبو العلاء المعري من شعراء القرن الحادي عشر الميلادي حمل نفسه على تحدَيهم لإبراز قدرته من خلال قوله في إحدى قصائده :

"وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل".

فإن كلً هذه التصورات حول عظمة الناس الأوائل ناجمة في حقيقة الحال عن الخلط بين الأشياء لأن كل هذه القصص والحكايات التراثية بما فيها قصص عاد وثمود وطسم وجاديس وأساطير الأولين كأسطورة جنة الخلد والفردوس عند الشعوب السامية وأسطورة العين أو البركة الكونية عند البربر والأمازيغ هي أخبار تاريخية تنقل بعض الوقائع والأحداث التي حصلت في العصور الأولى من التاريخ الإنساني للطبقات الأولى من البشر بمعنى آباء وأجداد الأسر الإنسانية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني. وبهذا الاعتبار فإنها تتعلق بالأوضاع البشرية التي كانت سائدة في تلك العصور. وعلى هذا الأساس فان الصورة الضخمة لأبطال هذه القصص التراثية ولأساطير الأولين هي امتداد للصورة الضخمة التي ظلت تعبر عنها الأسماء والصفات التي كان يحملها آباء وأجداد الأسر الإنسانية في بداية التاريخ الإنساني.

فان هؤلاء الآباء والأجداد هم الذين ظلوا يسمون ويعرفون الى هذا اليوم باسم آلهة وجن وعفاريت ومردة وغيلان وملائكة وشياطين لأنهم كانوا يحملون بالفعل هذه الأسماء عندما كانوا أحياء يرزقون في بعض بقاع الأرض. فما زال اسم إله وربٌ يعني الكائن القادر على فعل كل شيء لأنه كان يطلق على الكبار والرؤساء داخل الأسر والأقوام البشرية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني. وكذلك الشأن بالنسبة لأسماء جن وغول وعفريت وشيطان فإنها كانت تطلق على بعض الفئات من الطبقات الأولى من البشر كانوا مشهورين بتمردهم على الأوضاع القائمة وخروجهم عن الأعراف. فإن الناس ما زالوا الى اليوم في البلاد التونسية والمجتمعات العربية عموما يصفون الشخص المقتدر بالجن والغول والعفريت فيقولون عنه انه عفريت أو انه جن بمعنى شخص ذكي ومقتدر.

أقــوام الجــن والحــن والبــن

وشكّلت هذه الأسر البشرية التي ظهرت في بداية التاريخ الإنساني النواة الأولى التي انحدرت منها مختلف الشعوب والقبائل والجماعات الإنسانية في الأرض المعمورة مثلما ظل يشهد عليه استعمال كل هذه الأسماء للانتساب. فما زال اسم "آل" يستعمل للانتساب عند العرب حيث يقال للقبيلة والعشيرة "آل فلان" في اللغة العربية ويعتبر اسم "آل" الجذر الذي اشتق منه اسم "إله" في اللغات السامية كما هي الحال عند الكنعانيين أو آل كنعان الذين يسمون الإله باسم "ايل". وتقول الأساطير والأخبار القديمة ان أقوام الجن كانوا يشتملون على جماعات اسمهم "جن" بالجيم و"بن" بالباء و"حن" بالحاء و"أن" بينما طائفتهم في المطلق تدعى باسم "جان". فما زال العرب أيضا يستعملون كلمة "بن" للانتساب وتتخذ صيغة "بنو". وكان

الكنعانيون يستعملون كلمة "حن" بالحاء للانتساب بينما كان سكان مدينة رومة عاصمة ايطاليا بالجنوب الغربي للقارة الأوروبية يستعملون كلمة "جن" و"جان" للانتساب فكانوا يقولون "جن فلان" بمعنى "بنو فلان" و"أولاد فلان". وظهرت في التاريخ في شرق القارة الأوروبية جماعات عرفوا باسم "أن" و "هن" ويكتب اسمهم بالأحرف اللاتينية (Huns). وتتخذ هذه الأسماء صيغة "سن" وهو اسم سكان بلاد الصين وكذلك اسم "خن" و"خان" الذي ما زال يستعمل بصفة لقب في معنى "السيد" عند الأتراك مثل لقب "باي" و"داي".

كما يتخذ صيغة "من" حيث يوجد أشخاص اسمهم "منٌ الله" بمعنى "عبد الله" ويعتبر الأبناء قديما "عبيد الأب" حتى أن الأبناء في الجنوب التونسي ما زالوا يقولون لأبيهم "يا سيدي" عندما يخاطبونه بحيث أن كلمة" أب" تساوي كلمة" سيد".ويعتبر اسم "يمن" الذي يُطلق على بلاد اليمن بجنوب الجزيرة العربية صيغة لفظية لكلمة "من" بمعنى "بن" وبالفعل كانت بلاد اليمن تسمى أيضا باسم "بن". وعلى هذا الأساس أطلق اسم "بن" على بذور شجيرة البن التي تنبت في بلاد اليمن والحبشة وتستعمل بذور البن لاستحضار المشروب العالمي المُسمى "قهوة". كما كان اسم "غول" منتشر في اليمن في القديم ويطلق على بعض أتباع وأعوان الحكام والملوك في صيغة "خول".

ويستعمل اليهود كلمة "بر" بدل "بن" وكانت بعض القبائل العربية تستعمل أيضا كلمة "بر" للانتساب.

جماعة "افر" بشمال إفريقيا

في ذات السياق أشار المؤرخون العرب وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون في مصنفاتهم التاريخية إلى خبر مفاده أن ملكا من ملوك

التبابعة باليمن اسمه افريقش بن صيفي غزا شمال إفريقيا بجيش عظيم من القبائل العربية اليمنية الخاضعة للتبابعة آنذاك. وهؤلاء التبابعة هم فرقة من الحميريين الذين سبقوهم في حكم اليمن. ويقول هؤلاء المؤرخون إن افريقش بن صيفي كان مصحوبا في هذه الغزوة الكبرى بقبيلتي كتامة وصنهاجة اللتين هما في الأصل قبيلتان عربيتان من قبيلة حمير من الحميريين بينما تعتبر قبيلتا صنهاجة وكتامة من القبائل البربرية وكان لهما شأن عظيم في تاريخ شمال إفريقيا في العصور الوسطى وحتى في تاريخ مصر بالنسبة لقبيلة كتامة. ويضيفون بأنَّ افريقش بن صيفي هو الذي نقل اسمه إلى افريقية بمعنى البلاد التونسية وهو الذي سمى البربر بهذا الاسم عندما سمع لغتهم المغايرة للغة العربية الحميرية فرآها نوعا من "البربرة" بمعنى اختلاط الأصوات غير المفهومة فقال لهم ما هذه البربرة فسُموا باسم بربر.

وقد كانت قبائل عربية مثل قبيلة "مهرة" بجنوب الجزيرة العربية يتكلمون لهجة عربية غير مفهومة من القبائل العربية الأخرى مثلما أشار إليه العالم ابن حوقل الذي تقدَّم ذكره. وفي حقيقة الحال فإنَّ الاشتراك في استعمال لغة واحدة ليست دليلا على الانتماء الى عرق واحد. كما أن الاختلاف في نوعية اللغة لا ينفي الانتماء الى عرق واحد لأن لغة قوم يمكن أن تكون لغة جماعة بشرية أخرى كانوا متحالفين معهم أو إنهم كانوا أتباعهم مثلما يمكن ملاحظته الى هذا اليوم في مختلف بلدان العالم.

لكنَّ المشهور أن اسم "افريقية" مأخوذ من اسم "أفر" وهو اسم كان يحمله جماعة بشرية قديمة محسوبة على البربر وما زالت هناك جماعات بشرية ومواقع تحمل اسم "أفر" ومشتقاته في شمال إفريقيا منها جماعة "فراشيش" بجهة القصرين بالشمال الغربي التونسي وبلدة اسمها "أفر" تابعة لقرية ميدون بجزيرة جربة التونسية. واتخذ هذا الاسم أيضا صيغة "فارة" كما ذكره أبو عبيد البكري. ويستعمل سكان تونس

كلمة "فارة" في معنى الفخذ بينما ذكر بعض العارفين أن كلمة "أفر" تعني "غطاء الرأس" في البربرية فضلا عن إطلاق اسم "فأر" على الحيوان من فصيلة القوارض المعروف باسم " فأر" في اللغة العربية.

في هذا المجال أيضا سبقت الإشارة الى انتشار استعمال اسم "أحمر" في بلدان شمال إفريقيا لتسمية الأشخاص والجماعات والأماكن وصعوبة تفسيره بما رُوَج بخصوص ارتباط الكنعانيين باللون الأحمر والأرجواني. فيمكن القول أن هذه الخاصية ترمز الى الصلات القديمة بالحميريين اليمنيين أو حمير كما يسميهم المؤرخون العرب بحيث أن اسم "أحمر" بوصفه خاصية لسكان شمال إفريقيا هو في الأصل "حمير" ويفيد معنى "الإنس" و"الإنسان". فإن اسم "حمير" قريب من اسم "حمار" الذي يطلق على الحيوان الأهلي المعروف. ويُسمى الحمار في اللغة الفرنسية باسم "آن" للذكر و"آنس" للأنثى (âne) و (ânesse).

وجاء في كتب المؤرخين العرب في العصور الوسطى من بينهم العلامة ابن خلدون أنَّ بعض نسَّابة قبيلة زناتة المتفرعة عن قبيلة ضريسة يزعمون أنهم من حمير ومن التبابعة وبعضهم يقول إنهم من العمالقة وان جالوت بمعنى ضري جد قبيلة ضريسة أو أباه من العماليق الذين منهم قوم عاد وثمود.

كما أن قبيلة لواتة البربرية التي تنتمي هي وقبيلة ضريسة الى جد أعلى واحد كانوا يقولون إنهم ينتمون إلى القبيلة العربية المسماة "كندة" وهي قبيلة مشهورة في التاريخ كانت تقطن جنوب الجزيرة العربية في اليمن ومنها جماعة "الأوس والخزرج" الذين كانوا يقطنون بالمدينة المنورة أو "يثرب" وناصروا النبي محمد في نشر الدعوة الإسلامية بين العرب. واتخذت قبيلة لواتة هذا الاسم من اسم جدهم "لوا" وكان هناك لوا الأكبر وهو الجد الأعلى لقبيلة لواتة ولوا الأصغر

وهو ابنه جد قبيلة نفزاوة ويعرف باسم "نفزاو". وكان العرب يستعملون منذ القديم اسم "لؤي" لتسمية الأشخاص.

غير أنه كان يوجد بعض النسَّابة الذين يقولون ان ضري جد قبيلة ضريسة فارسي.

بصمات فرعونية وفارسية وافريقية

فإنه يوجد بالفعل الكثير من البصمات الفارسية والفرعونية في بلدان شمال إفريقيا الى جانب الأبعاد الإفريقية حيث يروي الأهالي في مدينة توزر عاصمة بلاد الجريد بالجنوب الغربي التونسي أن توزر هي ملكة فرعونية. وتقدَّم الحديث عن الإله الفرعوني الذي اسمه اوزيريس وأصله "اوزير" بحيث أن اسم "توزر" هو مؤنث اوزيريس بينما تسمى النار عند الفرس المجوس قديما باسم آزر وأضر حتى ان كلمة "زار " تعني الأذى والضرر في الفارسية. وقال التيجاني في رحلته ان شط الجريد كان يسمى "بحيرة فرعون" الى جانب "تاكمارت" وهناك نخيل في واحات نفزاوة محبس باسم فرعون .

وسبقت الإشارة الى جماعة الآزريين الذين كانوا يعيشون في صحراء ليبيا والجنوب التونسي والى مدينة ازيريس بناحية برقة بليبيا. فهناك مدن فارسية قديمة تحمل أسماء مماثلة الى جانب مدينة آزربيجان بمعنى مدينة "عباد النار" حيث تتركب من "جان" أي ناس و"آزر" بمعنى النار المقدسة عند الفرس المجوس. وتمتاز اللغة الفارسية بتقديم المضاف على المضاف اليه. وتوجد مدينة فارسية اسمها "قرماجان" بمعنى مدينة القرماج حسبما فسره بعض العلماء الفرس وتعني كلمة "قرماج" الرعايا وتشير أساسا الى جماعة الأكراد في هذه العبارة بالذات. وقال هذا العالم ان اسمها عُرَب في صيغة "قرماسين"

و"قرماس". فما زال يوجد بجهة تطاوين بالجنوب الشرقي التونسي قرية اسمها "قرماسة" بالقرب من قريتي "شنني" و"الدويرات" ويتكلم سكانها البربرية ويقال للمنتسب اليها "القرماسي" كالذي يولد فيها. من ناحية أخرى قامت في العصور الوسطى وبالتحديد سنة 160 هجري القرن السابع الميلادي في مدينة تاهرت بالجزائر الدولة الرستمية الأباضية بقيادة العالم الأباضي ذي الأصول الفارسية عبد الرحمان بن رستم ويرجع نسبه الى الملك الفارسي الشهير كسرى أنو شروان وامتد نفوذها الى المناطق الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا (جنوب الجزائر والجنوب التونسي وجزيرة جربة وجبل نفوسة بليبيا) وظلّ الحكم فيها لأبنائه من بعده لمدة مائة وثلاثين سنة وكان الحاكم منهم يحمل لقب الإمام.

فقد أشار المؤرخان الدرجيني والشماخي وهما من علماء البربر الى زيارة قام بها الحاكم الثاني لهذه الدولة واسمه عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم الى جبل نفوسة وكان من اكبر العلماء في عصره في شتى العلوم بما فيها علم الفلك. وقالا إنه مكث سبع سنوات بجبل نفوسة والجنوب الشرقي التونسي وان الفرس الذين كانوا معه تزوجوا بإماء البربر الساكنين في تلك النواحي ثم رجعوا مع عبد الوهاب الى مدينة تاهرت وتركوا أولادهم الذين أنجبوهم من الإيماء عند جماعات البربر في تلك الربوع.

في ذات السياق أورد بعض المؤرخين اللاتينيين القدماء من مدينة رومة عاصمة ايطاليا أخبارا تشير الى استيطان جماعات من الفرس لمناطق في شمال إفريقيا في غابر الزمان. ففي هذا السياق ذكر مؤرخ لاتيني اسمه سالوست (Salluste) عاش في القرن الأخير قبل الميلاد وكان حاكما في شمال إفريقيا باسم ملوك رومة في عهده أن جماعة من المقاتلين الفرس في العصور الغابرة ضمن جيش كبير من مختلف الجنسيات في مهمة عسكرية باسبانيا عبروا الى شمال إفريقيا

من الممر البحري الذي يحمل اليوم اسم "مضيق طارق" واختلطوا ببعض الجماعات البربرية المستقرة آنذاك في تلك الربوع وتزوًجوا منهم وأسًسوا عائلات واسر ظلت تعيش في شمال إفريقيا الى جانب سكانه الأصليين من البربر والامازيغ.

ومن الملفت للانتباه في هذا السياق أن قبيلة قريش العربية التي ينتسب إليها نبي الإسلام محمد بن عبد الله اتخذت هذا الاسم نسبة الى جدها المُسمى النضر بن كنانة الذي كان يحمل لقب "قريش". فإن هذا اللقب كان اسم عدد من ملوك الفرس في القديم أشهرهم كبيرهم واسمه القرش الأكبر حكم في مملكة الفرس القديمة ما بين 640 و600 قبل الميلاد. وهناك شارع يحمل اسم "شارع القرش الأكبر" في مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية. فإن اسم "قريش" هو تصغير لاسم "قرش" وقد قدًمت العديد من الأقوال لتفسير أصله منها أنه مأخوذ من اسم السمك المعروف بالقرش رمزا للقوة ومن كلمة "قرش" بمعنى النقود باعتبار أن القرشيين كانوا تجارا.

لكنً التفسير الصحيح يجب أن يفسر أيضا أصل تسمية ملوك فارس باسم "قرش". فإن اسم "قرش" و"قريش" مأخوذ من كلمة "كرًش" التي ما زال يستعملها السكان بمنطقة نفزاوة في الجنوب الغربي للبلاد التونسية بمثابة "صوت" و"لفظة" لمخاطبة الحمير وبعض الحيوانات الأليفة. فعندما يحين إطعام الحيوانات الأليفة يُخرج صاحبهم أو صاحبتهم نصيبا من الحبوب وما شابه ذلك من طعام الحيوانات الأهلية ويضعها في المكان المناسب ثم يتوجه لحيواناته بالكلام ويقول لهم "كرًش كرًش" و"قرًش قرًش" لحثهم على التجمع حول الطعام وتناول ما تيسر منه.

وتقدم القول بأن الجماعات البشرية كانت تستعمل هذه الأصوات والألفاظ في ما بينهم للتخاطب فكان رئيس الجماعة يستعمل لفظة

"كرًش كرًش" أو "قرش قرش" في بعض المناسبات لدعوة أفراد جماعته الى التجمع حوله أو شيئا من هذا القبيل فاستعملها البشر لتسمية الرؤساء والكبار داخل الجماعات البشرية مثل الملوك والأمراء وشيوخ القبائل.

الأبعــاد الإفريقيــة

أما الأبعاد الإفريقية لبلدان شمال إفريقيا بمعنى الصلات مع شعوب إفريقيا السوداء فهي وليدة انتماء البربر والشعوب الإفريقية السوداء الى مجال جغرافي واحد وهو الجزء الشمالي من القارة الإفريقية وخاصة منه الصحراء الكبرى التي كانت في يوم من الأيام خضراء تجري فيها الأنهار وتكسوها الأشجار والنباتات وتعيش فيها شتى الحيوانات التي تعيش حاليا في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى. فلم تكن تشكل عائقا طبيعيا في الاتصالات بين الأفارقة البيض شمال الصحراء والأفارقة السود جنوبها . بل يمكن القول ان الأفارقة السود كانوا يسكنون في شمال الصحراء مثل منطقة نفزاوة وما زالت هناك عدد من أنواع التمر أسماؤها افريقية في هذه المنطقة مثل ترنجة وهيسة ودنقة وكنتة ثم نزحوا الى جنوبها حيث يعيش أحفادهم اليوم نتيجة الغزو الخارجي والتغييرات المناخية وغيرها من العوامل الاجتماعية والطبيعية.

فلا يستبعد أنً المناطق التي تأتي مباشرة شمال الصحراء الكبرى مثل منطقة نفزاوة وبلاد الجريد بالبلاد التونسية وجنوب ليبيا وجنوب الجزائر وجنوب المغرب الأقصى وجنوب مصر كان يسكنها جماعات من الأفارقة السود حيث يقول العديد من الدارسين ان الإله المصري اوزيريس وإخوته كانوا سود البشرة وكانوا خمسة اوزيريس

وأربعة آخرون اثنان من الذكور اسمهما "ست" و"حوريس" واثنان من الإناث اسمهما "ازيس" و"نفطيس" وجاءوا الى مصر من المناطق الجنوبية من النوبة والحبشة. ويعتبر اوزيرس وإخوته الأربعة الآباء والأجداد الأولين لجزء هام من المصريين القدماء وخاصة الطبقات الحاكمة في الشعب المصري في ماضي الزمان.

وهناك شبه كبير بين اسم الإلهة المصرية "نفطيس" واسم مدينة "نفطة" ببلاد الجريد بالجنوب الغربي التونسي خاصة وأنً اسم "نفطيس" أصله "نفطة" باعتبار أن حرف السين زائدة يونانية. وسبقت الإشارة الى الحكايات التراثية التي تقول ان اسم مدينة توزر هو اسم ملكة فرعونية قديمة.

وجاء قسم آخر من بلاد اليمن في جنوب الجزيرة العربية وكانت بشرتهم سمراء وبنية مثل لون بذور البن وهو لون بين الأحمر والأسود يشبه أيضا لون جماعة الحبشة وسكان بلاد إثيوبيا في الوقت الحالي. واشتهر منهم الجماعة الذين كانوا يسمون "حمير" و"حميريين" . فإن بلاد اليمن المشهورة بإنتاج البذور المسماة باسم "بن" كان اسمها بلاد "بن" و"بنغا" و"بنقة" الى جانب اسم بلاد اليمن وأصله "من" نسبة الى أقوام قديمة من البشر اسمهم "بن" و"من" كانوا معاصرين لأقوام اسمهم "جن" و"حن" و"أن". ولذلك ظل العرب يستعملون لفظة "بن" عند الانتساب فيقولون "علي بن أبي طالب" بينما يستعمل الكنعانيون لفظة "حن" فيقولون "أدد حن بعل" واشتهر في التاريخ قائد من مدينة قرطاج الفينيقية بتونس اسمه "حن بعل" أو "حنبعل" بمعنى "ابن بعل". وكان سكان رومة القديمة يستعملون لفظة "جن" للانتساب فكانوا يقولون "جن فلان" بمعنى "أولاد فلان" و"بنو فلان".

ومثلما سبقت الإشارة إليه ما زال يوجد جماعات اسمهم "الحمروني" بناحية قرية مارث بجهة قابس في الجنوب التونسي

وبشرتهم سوداء حمراء مثل الأثيوبيين والسكان الأصليين للقارة الأمريكية المعروفين باسم الهنود الحمر.

ففي هذا المجال أشار المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد الى جماعة بربرية قديمة اسمهم "الأمونيين" نسبة الى جدهم المسمى "أمون" نقلا عن اسم الإله الذي كانوا يعبدونه تحت اسم "أمون" وكانوا مجاورين لجماعة الآزريين والقبليين وجماعة البسيلي . وتقدم القول بأن الآلهة يرمزون الى الأجداد والآباء الأولين للأقوام البشرية الذين عبدوهم. وما زالت توجد بناحية قبلي بمنطقة نفزاوة قرية اسمها "جمنة" غير بعيد عن قرية "ابشلي" وقرية "زرسين". فلا شكَّ أن اسم "جمنة" مأخوذ من اسم "أمون" و"امونيين" على غرار اسم قرية "ابشلي" المأخوذ من اسم "بسيلي".

بنقـة وقنـاوة وغنـوة

من ناحية أخرى يُستعمل اسم "بنغا" و"بنقة" الذي كان يطلق قديما على اليمن وما جاورها جنوبا من المناطق ببلاد الصومال والحبشة في معاني لها صلة بالرئاسة والسيادة في اللغات الإفريقية السارية في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى على غرار معاني السيادة والرئاسة التي يحملها اسم "جن" في البلدان العربية واسم "بوري" الإفريقي الذي ما زال يستعمله السكان في تونس نتيجة اختلاطهم بالأفارقة السود. وتقدَّم الحديث عن هذا الموضوع. وكانت كلمة "بنغة" و"بنقة" تستعمل في بلاد مالي (Mali) بناحية مدينة "تومبكتو" الشهيرة في معنى "عين الماء" و"البركة" لأن البرك وعيون الماء كانت أماكن مختارة لإقامة طقوس عقائدية بمناسبة انتقال الفتيان والفتيات من طور الأطفال الى طور الكبار الراشدين بمعنى انتقال

الأطفال الى طور الأسياد من خلال الزواج وتكوين أسر يكونون القائمين عليها ويصبحون بذلك من طبقة البنقة أي الأسياد والرؤساء. ويمكن القول بأن اسم "تومبكتو" في حد ذاته يفيد معنى الماء وعين الماء حيث أن المصريين ما زالوا يستعملون كلمة "أمبو" في معنى الماء وشرب الماء. والأصل في اسم "تومبكتو" هو "امبوك" و"امبو".

فإلى جانب التصورات المتعلقة بالبوري ساهم الأفارقة السود في نقل اعتقادات وممارسات أخرى الى سكان البلاد التونسية وسكان بلدان شمال إفريقيا ألأخرى الجزائر وليبيا والمغرب وموريتانيا نتيجة اختلاطهم بهم بوصفهم كانوا موالي لهم وكما يقال "عبيد" في يوم من الأيام من بينها الحفلات الموسيقية الصاخبة التي تسمى باسم الصمبالي والبنقة وهي حفلات موسيقية صاخبة تقام على شرف بعض الأولياء الصالحين السود ويتولى تنظيمها فرق من السكان السود. وسبقت الإشارة إليها. فإن كلمة "صمبالي" هي من أصل إفريقي وتعني "الصنم" و"التمثال" المقدس الذي يمثل بعض الأشخاص المقدسين والغيبيين كالآلهة والجن بحيث أنه يعادل معنويا اسم "بوري" و"بنغة" أو "بنقة". وما زال السكان في تونس يستعملون في لهجتهم العربية الدارجة كلمة "بنقة" في معنى "الصخب".

واشتهر بتنظيم حفلات الصمبالي والبنقة وما شابهها فرق وجماعات من السود يعرفون باسم "قناوة" في المغرب والجزائر وتونس. ويوجد ولي صالح اسمه سيدي علي المقاني بجبال مطماطة بالقرب من مدينة قابس بالجنوب التونسي عُرف عند عامة الناس بلقب "سيدي قناوي" ويقال عنه انه أسود البشرة مع أن أتباعه يرفعون نسبه إلى الأشراف الأدارسة أو"الادريسيين" بالمغرب الأقصى عن طريق المتصوف الإسلامي الشهير سيدي عبد القادر الجيلاني دفين بغداد بالعراق من علماء القرن الثاني عشر الميلادي. وهناك من يقول ان

ابنه المُسمى "غانم" هو في الأصل "سيدي قناوي" أو إنه عبد وخادم لسيدي علي المقاني واسرته تحوًل الى مريد من مريديه فاعتقه أسياده.

كما يقول بعضهم ان الولي أبو علي السُني الحسني بمدينة نفطة ببلاد الجريد بالجنوب الغربي التونسي من علماء القرن الثالث عشر للميلاد كان أسود البشرة بينما تذكر الحكايات التراثية أنًه كان له خدم سود اشتهروا مثله بالفضل فأعتقهم وارتقوا الى مرتبة الولاية.

وتقدًم الحديث عن الأولياء سود البشرة في البلاد التونسية وهم سيدي مرزوق العجمي وسيدي سعد الشوشان وسيدي منصور وعن الحفلات التي كانت تقام في مدينة نفطة ببلاد الجريد بالجنوب التونسي ومدن تونسية أخرى بتلك النواحي على شرف سيدي مرزوق العجمي. وينتمي الى هذا الصنف أيضا ولي اسمه سيدي فرج له قبة بسيطة بضواحي مدينة تونس قرب مدينة تدعى باسم "سيدي داوود" نسبة الى ولي صالح بهذا الاسم وكان سيدي فرج يشتغل خادما لحساب سيدي داوود فأعتقه سيده لما رأى فيه بعض صفات الولاية مثلما يحكي السكان.

فان اسم "قناوي" معروف منذ القديم في ليبيا بالخصوص حيث توجد مدينة اسمها "اقناون" و"اجناون" بجبل نفوسة بينما ذكر بعض الدارسين أن جماعة "اقناون" أو "اجناون" هم من أقدم سكان ليبيا.

ويستعمل سكان بعض قرى نفزاوة اسم "قناوة" في صيغة "غنوة" وكان بعض الرجال من السود في المنطقة يحملون اسم "غنوة" و"بن غنوة". وظاهرة تعويض حرف القاف بحرف الغين مشهورة مثلما يمكن ملاحظته عند سكان دولة السودان جنوب مصر في مستوى اللغة العربية حيث يقولون مثلا "استغلال" بدل "استقلال". وذكر بعض العارفين أن أهالي بعض قرى نفزاوة يقولون "مغداد" بدل "مقداد".

فهناك علاقة بين اسم "قناوة" وكلمة "أسود" حسب هذه المعطيات.

شوشان وشوشة وسوسن

ففي هذا السياق يقول بعض العارفين ان اسم "قناوة" مشتق من اسم "غينيا" و"غانة" و"كينيا" وهي أسماء بلدان افريقية جنوب الصحراء الكبرى سكانها سود البشرة وكانت بلا شك أسماء لجماعات بشرية استوطنوا المكان فنقلوا اسمهم إليه.

فقد كان اسم "غانا" لقبا لملوك دولة غانة الإفريقية ببلاد مالي في العصور الوسطى مثلما ذكر ذلك أبو عبيد البكري. ويمكن أن يتخذ صيغة "قان" و" خان" ويطلق اسم "خان" بمثابة لقب على الملوك في الممالك التركية القديمة ويفيد معنى السيد مثل لقب "باي" و"باشا" عند الأتراك أيضا . وكان ملوك تونس يحملون لقب "باي" إلى عهد قريب. وعلى هذا الأساس يمكن القول ان لقب "غانة" يفيد معنى السيد والكبير والمقدم مثل اسم "قراو" المذكور سابقا.

فإن كلمة "أسود" مأخوذة من كلمة "سيد" في اللغة العربية. فقد كانت أسماء الألوان تعبَر عن الانتماء الفئوي والطبقي وليس لها صلة بالألوان الطبيعية كلون الجلد والبشرة بل ان الجماعات البشرية بمختلف ألوانهم الطبيعية كانوا يصبغون أنفسهم بأصباغ مستحدثة تخفي اللون الطبيعي الى جانب الارتداء بجلود الحيوانات وأغصان الأشجار ثم بالثياب المنسوجة التي تغطي وتخفي الجسد. فقد كان السكان في قرى نفزاوة ينقسمون الى بيض وسود وكان البيض يسمون "أحرار" بينما السود يسمون "شواشين" للجمع و"شوشان" للمفرد بينما كلمة "شوشة"

التي اشتق منها اسم "شوشان" تطلق على أعلى الشيء كقمة الجبل وأعلى رأس الإنسان في قرى هذه المنطقة وفي البلاد التونسية عموما.

وعند التخفيف تتخذ كلمة "شوشان" صيغة "سوسن" وهو اسم يطلق على نوع من الزهور البيضاء اللون.

وهناك ظاهرة الأسماء الأضداد المتمثلة في إطلاق الاسم الواحد على الشيء وضده مثل إطلاق اسم "مولى" على السيد والتابع في اللغة العربية.

فيمكن القول ان السيادة كانت في يوم من الأيام بين أيدي الجماعات سود البشرة في شمال إفريقيا عموما في العصور الغابرة بمعنى جنوب مصر حيث توجد مدينة "قنا" و البلدان المعروفة حاليا باسم المغرب الكبير وهي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا إضافة الى الصحراء الكبرى قبل تصحرها وجزر كناري قبالة الساحل المغربي في المحيط الأطلسي. ويمكن القول ان أغلب السكان كانوا سود البشرة وسبقت الإشارة إلى الأخبار التي تقول ان الإله المصري اوزيريس وإخوته كانوا سود البشرة.

ويدخل في إطار هذا الحقل اللغوي اسم نهر "الكونغو" الذي يمرٌ عبر العديد من البلدان الإفريقية منها بلاد الكونغو. ويستعمل فرق القناوة آلة موسيقية اسمها "الكانكاه" وهي الطبل الكبير. ويوجد النهر المقدس في بلاد الهند الذي اسمه "غانج" و"قانج".

كما يستعمل السكان في تونس كلمة "قنج" بمثابة فعل في معنى "خنق" أي وضع يديه في شكل حلقة حول رقبة الشخص وضغط عليه ليقتله من خلال منعه من التنفس ويتخذ نهرا الغانج والكونغوا في مسيريهما شكلا على هيأة الحلقة. وهناك جماعات بشرية اسمهم "كاناك" يعيشون في الجزر المجاورة لاستراليا بالمحيط الهادي

(Canaques). وهناك جماعة "القوانش" (Guanches) المستقرين منذ غابر الزمان في جزر كناري في عرض السواحل المغربية بالمحيط الأطلسي. وأصلهم بربر قبل احتلال هذه الجزر من طرف حكام اسبانيا بجنوب غربي أوروبا في القرن الخامس عشر ميلادي وتنصيرهم ودمجهم في بوتقة الثقافة الاسبانية المسيحية.

الإنـس والبشـر الأهليـون

فان كل هذه الأسماء مشتقة من اسم "كن" الذي هو صيغة لفظية لاسم "جن" مثلما تقدم شرحه ويُفيد معنى البشر والناس. ولكن "جماعة "جن" معروف عنهم أنهم ليسوا من "الإنس" بمعنى الإنسان وذلك لأن الأصل فيه هو أن الجن يرمزون في الأصل الأصيل الى الأقوام البشرية القديمة الذين كانوا يعيشون خارج الأطر الأسرية بينما "الإنس" يرمزون الى الأقوام الذين كانوا يعيشون في نطاق الأسر وكانوا تابعين للأسر فكان الإنس يرمزون الى البشر المدجنيين والأهليين كما يقال للحيوانات المدجنة بأنها حيوانات أهلية بينما الجن هم البشر البريون غير المدجنين والعائشين خارج الاطر الأسريًة. ثم شملهم التدجين بدورهم من خلال تقييدهم وربطهم بالحبال الحاملة لحلق من شتى المواد والمعادن فارتبط اسمهم بذلك.

وقد كانت بلاد مالي الإفريقية همزة وصل بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية للصحراء الكبرى وبرزت فيها ممالك افريقية كبيرة في العصور الوسطى مثل مملكة "غانا". وقد سكنها البربر التوارق منذ القديم ويمثلون اليوم أكثر من نصف السكان ويسمون باسم "الأزواد" وهو اسم قريب من اسم "أزد" الذي يطلق على قبيلة أزد العربية. والملفت للانتباه أن اسم "أزد" موجود في الفارسية ويعني "الحر".

وبالاستناد الى اللغة البربرية فان اسم "مالي" يعني "الأبيض" مثل اسم "ملولي" المستعمل في تونس. لكن الغريب أن اسم "مالي" موجود منذ القديم في اللغة اليونانية ويعني فيها الأسود.

فقد تقدَّم الحديث عن مدينة أغمات بالمغرب الأقصى غير بعيد عن مدينة مراكش ويقول بعض العارفين ان اسمها مشتق من كلمة" مغ" التي تعني التخضيب بصبغة الحناء ويعطي التخضيب بالحناء لونا أحمر قاني يميل الى السواد على غرار الحناء القابسية التي تنتجها مدينة قابس التونسية فإنها مشهورة بجودتها في الحصول على هذا اللون.

ففي هذا المعنى يقول بعض الدارسين ان اسم "مجوس" الذي يطلق على عباد النار من الفرس في القديم مشتق من كلمة "مغ" التي تعني الخادم في اللغة الفارسية القديمة عند الفرس المجوس. ولكن الملفت للانتباه ان بعض الدارسين يقولون ان السود يُدعون باسم "مغاي" و"ميغا" في بعض المناطق من بلدان شمال إفريقيا. أمَّا في اللغة الفارسية الحديثة فان الخادم والوصيف يدعى باسم "شاكر" و"جاكر".

الأميـرة شاكريـة

ففي هذا السياق سبقت الإشارة الى أن الهضبتين اللتين تحيطان بقرية زرسين في منطقة نفزاوة تحمل إحداهما اسم "برقو" بينما تحمل الأخرى اسم "الشكرية".

فان اسم الشاكرية قريب لغويا من اسم "الساكرية" باعتبار تعادل الصوتين "سا" و"شا" في الكلام الإنساني. ويطلق اسم "أسكور" في البربرية على السيد والرئيس والحاكم وهناك ناحية وبلدة بالقرب من تونس العاصمة تسمى باسم "سكرة". كما توجد بلدة تسمى "سكرة" في

الجزائر وأخرى تسمى "السكرية" في سورية . ويوجد حي اسمه "السكرية" بمدينة القاهرة عاصمة مصر. وتقدًّم القول بأن اسم "سكرة" في شمال إفريقيا هو اسم جماعة بربرية.

ويحكي السكان في سورية حكاية شعبية من نوع الخرافات الشعبية مفادها أن اسم "الشاكرية" (باشين) هو في الأصل اسم أميرة قديمة في غاية الحسن والجمال كان لها أختان إحداهما تسمى المشمشية والأخرى تسمى اللبنية من اسم اللبن فتزوًّج بها أمير فماتت غدرا في ليلة دخلتها بفعل عمة الأمير التي كانت ترغب في أن يتزوج الأمير ابنتها فكانت تزيح بالعنف كل نسائه. فتزوًّج الأمير بأختها المشمشية فماتت هي الأخرى غدرا في ليلة دخلتها بفعل العمة وأخيرا تزوًّج الأمير من اللبنية وتفطن في الأثناء الى غدر عمته فحال دون بلوغ شرَها للأميرة اللبنية وعاش سعيدا معها. والملاحظ أن اسم "شاكرية" يطلق الى اليوم في سورية على أكلة سورية من النوع الممتاز والمحبوب تصنع من الأرز واللبن واللحم وغيرها من المستحضرات الغذائية.

كما يطلق اسم "شاكرية" على نوع من السيوف وجاء في بعض الأغاني الشعبية بمنطقة نفزاوة على لسان صريع مضروب بالشاكرية قوله :

"مضروب بالشاكرية بين الصفاق والرية ".

في ذات السياق توجد قرابة كبيرة بين اسم "أزد" العربي واسم "ازتاك" (Aztèques) وأصله "ازت" و"أزد" وهو اسم شعب من السكان الأصليين للقارة الأمريكية الذين يعرفون بالهنود الحمر كان اسم المنطقة التي كانوا يعيشون فيها في بلاد المكسيك بأمريكا الشمالية واشتهروا بتأسيسهم لمملكة كبيرة في القرون الوسطى كانت عاصمتها مدينة مكسيكو عاصمة المكسيك الى هذا اليوم.

معنى المياه الكونية

فإن الكثير من الأوضاع التي سبقت الإشارة إليها هي أوضاع بشرية ضاربة في القدم ترجع الى العصور الأولى من التاريخ الإنساني أي الى ملايين السنين وتعتبر الأساطير والخرافات الشعبية والقصص التراثية التي ما زال الناس يروونها الى هذا اليوم سجلا عالميا لهذه الأوضاع البشرية القديمة على غرار الحكايات التراثية التي تقدم عرضها.

فقد سبق التأكيد على أن الأساطير والحكايات والقصص التراثية المماثلة لها هي أخبار تاريخية تنقل الوقائع والأحداث التي حصلت للطبقات الأولى من البشر في بعض بقاع الأرض على غرار قصة الخلق البربرية التي سبقت الإشارة إليها. فان هذه القصة التراثية أو الأسطورة القديمة هي خبر تاريخي ينقل الظروف التي أحاطت وألمّت بظهور بعض الأسر والأقوام البشرية في الأرض في بداية التاريخ البشري انطلاقا من زوجين اثنين من البشر لا شكً أنهما كانا شقيقين بمعنى أخ وأخت بجوار بركة ماء أو عين ماء أو نهر باعتبار اقتران الاستيطان البشري بوجود عيون الماء والأنهار منذ الأزل.

وسبقت الإشارة الى البعد الحضاري الذي اتخذه مفهوم "البركة" في التراث العربي والبربري بالخصوص مثلما تشهد عليه قصص الأولياء الصالحين التي فيها أوامر لهؤلاء الأولياء بالنزول والاستقرار حيثما تبرك الدابة التي يركبونها من تلقاء نفسها أو نتيجة الإرهاق من السير فلذلك سميت القرى والمنازل والأحياء باسم "برج". وتقول قصص أخرى ان الأولياء الصالحين يوصون أبناءهم أو أصحابهم بدفنهم حيثما تبرك الناقة التي تحمل نعشهم من تلقاء نفسها . وترمز هذه الإشارة الأخيرة الى العادات البشرية التي تقضي بدفن الأموات في

الأماكن التي ظهر فيها الأجداد والأسلاف الذين ظلوا يعبدون في شكل آلهة وأرباب وهي أصل الاعتقادات الدينية والفلسفية التي تقول ان الروح بوصفها جوهر وعنصر الحياة هبطت من السماء وترجع الى السماء عندما تفارق الجسد الذي حلّت فيه أثناء وجودها على الأرض وتعتبر المقابر في حد ذاتها تجسيما لهذه الممارسات القديمة حيث أن المقبرة تنطلق بقبر الجد والسلف الأول ثم تتوسع تدريجيا.

في ذات السياق تحكي العديد من الشعوب أساطير وخرافات شعبية تنقل أن الاتصال الأول بين آبائهم الأولين من الذكور والإناث حصل في محيط بعض عيون الماء والبرك والأنهار في بعض بقاع الأرض حيث تأتي مجموعة من البنات من قرية جبلية يسكنً فيها ليغتسلن ويسبحن داخل عين الماء والبركة وهن مرتديات ثيابا مصنوعة من الريش فيظهرن من بعيد كأنهن طيور نازلات من السماء. ويصادف أن يمرً شاب من المكان فيراهن وعندما ينزعن ثيابهن المصنوعة من الريش يعلم أنهن بنات فتعجبه واحدة منهن بالذات فيحتال على سرقة ثوبها ويرغمها على المكوث معه والزواج منه لأنها لا تستطيع العودة بدون ثيابها وبهذه الصورة يؤسس معها أسرة بشرية فتكبر الأسرة وتصبح جماعة كبيرة وقبيلة وشعبا.

ووردت في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلية" حكايتان في هذا المعنى منها حكاية "جانشاه" صلب حكاية "بلوقيا وملكة الحيات" وحكاية أخرى مستقلة اسمها حكاية "حسن الصائغ المصري".

غير أن الإنسان بوصفه كائن حي ضمن مجموعة الكائنات الحية الموجودة في الأرض كان في بداية أمره كائنا بحريا وكائنا مائيا حسبما يؤكده علماء الطبيعة قبل أن يصبح على ما هو عليه في الوقت الحالي. ففي هذا المجال يؤكد بعض علماء الطبيعة القائلين بنظرية التطور والنشوء والارتقاء أنَّ الأصل الأول للإنسان هو نوع من السمك

البسيط اندثر منذ ملايين السنين وكان يعيش في المحيطات فتفرعت عنه أسلاف الكائنات الحية التي لها صلة عضوية بالإنسان الى جانب الإنسان. وقد ورث البشر والكائنات الحية التي لها بهم صلة القرابة المذكورة بعض الخصائص الناجمة عن تأثير القمر على مياه البحار بواسطة الجاذبية الطبيعية أيام كان أسلافهم يعيشون في البحار في هيأة الأسماك على غرار الدورة الشهرية عند المرأة فإنها تستمر أربعة أسابيع مثل ظهور القمر في السماء وتتخذ أحوالا مغايرة كل أسبوع مثل القمر الذي تتغير هيأته كل أسبوع ويختلف تأثيره على مياه البحار حسب الهيأة التي يتخذها في كل أسبوع الى جانب المدة التي تستغرقها بعض الأمراض البشرية قبل ظهورها وحين ظهورها حتى زوالها فإن هذه المدة غالبا ما تكون أسبوعا أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في حين تفقس البيضة لدى الدجاج في ظرف ثلاث أسابيع .

فهذا ما يقوله بعض علماء الطبيعة وما يعتمده العلم الحديث إلى هذا اليوم كحقائق علمية وخاصة فيما يتعلق بالجذور المائية والبحرية لأسلاف الإنسان والكائنات الحية عموما .

وفي حقيقة الحال فإن هذه الأقوال العلمية هي مجرد تصورات يرجع الكثير منها إلى تأثير الأساطير القديمة المشار إليها أعلاه على تفكير العلماء الذين صاغوا هذه الأفكار العلمية. فهي تشبه النظريات العلمية التي تقول ان الحياة ظهرت من المادة ومن امتزاج بعض العناصر المادية ببعضها في ظروف طبيعية مواتية فإن أصلها هو الأفكار الدينية القديمة التي تقول ان الإنسان خلق من تراب . وترجع هذه الأفكار الدينية القديمة بدورها إلى تأثير الأساطير القديمة على أصحاب هذه الأفكار الدينية القديمة من خلال التأويل الخاطئ لمشاهد المسخ والتحوّل داخل الأساطير القديمة.

ذلك أنَّ الأساطير القديمة تحتوي على مشاهد تشير الى تحوٌل بعض البشر الى حيوانات وجماد ورجوعهم الى هيأتهم البشرية الأولية بعد فترة من الزمن. فكل هذه التحوٌلات ترمز الى تحوٌلات في الوضعية الاجتماعية للأشخاص المعنيين على غرار تحول سيد من الأسياد الى مجرد عبد وخادم بحكم أسره واستعباده من طرف جماعة بشرية معادية أثناء بعض المعارك والحروب. فعندما تتحدَّث الأساطير القديمة عن شخص وقع أسيرا وعبدا عند قوم من البشر يحملون اسم بعض الحيوانات تقول ان ذلك الشخص مُسخ وتحوَّل الى الحيوان الذي يحمل أعداؤه اسمه.

فبمرور الزمن ذهب في ظن الناس بما فيهم أصحاب بعض الديانات أن هذه التحوُلات داخل الأساطير القديمة تشير الى تحولات حقيقية في الهيأة البدنية والجسمية. كما نتج عن هذا الفهم الخاطئ القول بتناسخ الأرواح.

لكنَّ الأمر الثابت والمادَي بخصوص العلاقة بين الإنسان والماء في غابر الزمان والذي لم يتفطن إليه العلماء هو أن الإنسان يجد صعوبة كبرى في التنفس عندما يكون أنفه وخياشيمه جافة وليست مبللة بالماء مثلما يمكن لأي شخص ملاحظته. ويتمثل التنفس في دخول الهواء المحيط بالإنسان من كل جانب في جسمه عبر أنفه وفمه وهما فتحتان طبيعيتان تفتحان على المحيط الخارجي بحيث أن التنفس يتمثل في تسرب الهواء طبيعيا داخل الجسم فيتطلب شيئا من البلل في مستوى الأنف ليتيسَر ويصبح ممكنا. وعلى هذا الأساس فان الوضع الطبيعي للحياة هو أن يكون الأنف والخياشيم مبللة حتى يتيسَر التنفس الذي بدونه تنعدم الحياة. وتقوم بعض الغدد بإفراز هذا الماء. .ويبقى السؤال مطروحا بخصوص الأصل الأصيل لهذه الخاصية . فهل هي إرث من حياة مائية وبحرية قديمة أم لها جذور أخرى؟.

فبالاستناد الى معاني الكلمات والألفاظ والعبارات المتعلقة بمفهوم الحياة في اللغات الإنسانية والحضارة الإنسانية عموما يمكن القول بأنَّ الحياة المتجسَمة في الكائنات الحية الموجودة في الأرض هي نوع من النار والحرارة والاشتعال والاحتراق مثلما تعكسه ما يُسميه البشر بنار الحبَ الذي يمثل بداية العملية لتكوين الحياة ومثلما يعكسه أيضا اللون الأحمر للدم الذي يجري في عروق أجسام البشر والحيوانات. فإن اللون الأحمر للدم يشبه اللون الأحمر الذي يكتسيه ويتًخذه معدن الحديد تحت وطأة النار والحرارة الشديدة والاحتراق والاشتعال والالتهاب وبذلك يكون الدم بوصفه العنصر الرئيسي للحياة مزيجا من الماء والسوائل الملتهبة والمشتعلة تجري في شبكة من العروق داخل أجسام البشر والحيوانات شبيهة بشبكة السواقي التي تتفرع عن عين الماء وبركة الماء لتسقي بساتين النخيل بواحات نفزاوة.

الدالية وأمي هندة وطرفاية

اشتهرت ناحية الصابرية والفوّار في صحراء نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية باحتضانها لمقامين مقدسين لوليتين صالحتين إحداهما اسمها أمي هندة والأخرى تدعى الدالية. ويوجد مقام أمي هندة بقرية صغيرة تعرف باسم أمي هندة وعوينة أمي هندة بينما ينتصب مقام الدالية غير بعيد منه في مكان قفر تحيط به رمال الصحراء على بعد حوالي 12 كلم من مدينة دوز.

فقد ذكر بعض العارفين أن الدالية هي امرأة قدمت من مدينة قفصة في الجنوب التونسي أو من الجزائر وكانت مخطوبة لأحد الشبان ولم تكن ترغب فيه فهربت ليلة دخلتها وهي صبية عذراء مع فريق من الصبايا العذارى مثلها يقال عددهن 40 صبية وهن في أبهى زينتهن قد نذرن أنفسهن للتبتل والتعبد في خلوة بعيدة عن أعين الناس وسرن في القفار وطال بهن السفر فعطشن فأرضعتهن الدالية من حليبها وكانت ولية صالحة فاختفين بأعجوبة بين الرمال عن الأنظار وبقيت آثار أقدامهن ظاهرة فمن حين لآخر تسمع أصواتهن داخل الأرض.

وتقول رواية أخرى إن أمي هندة هي التي وفدت الى ناحية الصابرية قادمة من برَ الغرب على رأس مجموعة من الصبايا العذارى فوجدن المكان مناسبا للاختلاء فنزلن فيه وكانت ضمنهن صبية اسمها حديفة ارتقت هي الأخرى الى مرتبة الولاية. فقد كانت خطيبة أحد الشبان ولكنًها لم تكن تحبٌه فلمًا حلًت ليلة زفها الى عريسها جعلها أهلها في هودج على جمل ويُسمى الهودج باسم "جحفة" في البلاد التونسية. فانطلق بها الجمل مسرعا وهرب الى جبال السقي قرب مدينة قفصة فتبعه الرجال ولمًا اقتربوا منه وأوشكوا أن يدركوه حدفت الصبية

نفسها بمعنى رمت نفسها في لغة أهل الجنوب التونسي صوب الجبل فسقطت وسط كهف هناك وغابت عن الأنظار فدُعيت باسم "حديفة" ودُعي الجبل باسم "جبل حديفة".

غير أن الأهالي في بعض قرى نفزاوة مثل قرية جمنة يقولون ان أمي هندة هي ابنة رجل معروف في تلك البقاع اسمه فضيل وينتسب إليه جماعة بناحية الصابرية يُدعون الى هذا اليوم باسم الفضيليين. ويروي سكان قرية جمنة أخبارا عن جدهم الولي الصالح سيدي عبد الله الحاج دفين قرية جمنة مفادها أنه تزوًج في حياته من امرأة من قرية أمي هندة اسمها الشاعلية. وعاش الشيخ عبد الله الحاج في القرن السابع عشر الميلادي وهو والد العالم المالكي الشهير إبراهيم الجمني صاحب الزاوية الجمنية الشهيرة بحومة السوق بجزيرة جربة بجنوب البلاد التونسية وضريحه بها مشهور يُزار ويُتبرك به.

واشتهر عن أمي هندة أنها أوصت قبل وفاتها أن يُحمل جثمانها فوق جمل وأن توارى التراب حيثما يبرك الجمل من تلقاء نفسه فكان كذلك. ويذكُر بعض العارفين من كرامات أمي هندة أن يوم وفاتها وكان ذلك في مكان بعيد عن قريتها ظلت الشمس مشرقة وتضيء بنورها الأرض الى أن وصل الجمل الذي يحمل جثمانها الى قريتها وبرك من تلقاء نفسه في المكان الذي ينتصب فيه ضريحها الى هذا اليوم.

فان اسم "دالية" يطلق في اللغة التركية على المجذوب والدرويش وهو اسم مؤنث ومفرده "دالي". وتعوًد سكان البلاد التونسية استعماله لتسمية الأشخاص بحكم صلاتهم التاريخية القديمة مع الأتراك. ويجمع اسم "مجذوب" في صيغة "مجاذيب" و"مجذوبون" بينما يجمع اسم "درويش" في صيغة "دراويش".

فبالاستناد الى معنى اسم "الدالية" المذكور يمكن القول ان الولية الصالحة التي اسمها الدالية ترمز الى فتاة وبنت من صنف الأولياء

والوليات الصالحين الذين يُدعون باسم المجاذيب والدراويش في البلاد التونسية وفي بلدان شمال إفريقيا والبلدان العربية والإسلامية عموما.

المجاذيب وعرايا الرؤوس

وهؤلاء الأولياء المجاذيب والدراويش في الإسلام والمجتمعات العربية والإسلامية هم أشخاص اكتسبوا مرتبة الولاية بحكم طبيعتهم ونشأتهم كأن يكون الشخص ولد معتوها أو متخلفا ذهنيا فيكبر في السن ولكن سلوكه يظل صبيانيا كسلوك الأطفال ويتصرف مثلما يتصرف الأطفال فيعاملهم المجتمع معاملته للأطفال الذين يُعتبرون بمثابة الملائكة وخاصة في المجتمعات القديمة. فقد ذكر بعض العارفين أن الأطفال كانوا يُدعون في منطقة نفزاوة باسم "عرايا الرؤوس" تعبيرا عن براءتهم وخلاص نيتهم. وبالفعل عندما كان الرجال الذكور في منطقة نفزاوة وغيرها من المناطق الأخرى في البلاد التونسية يلبسون إلزاما من باب التقاليد الاجتماعية السارية آنذاك الطربوش لتغطية الرأس كان الأطفال الى سن الرابعة عشر تقريبا يمشون عرايا الرؤوس ولا يلبسون الطربوش فكان لباس الطربوش يمثل الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة سن الرشد. كما أنَّ النساء كن ينذرن للأطفال النذور مثلما ينذرنها للأولياء الصالحين فتصنع المرأة طعاما وتدعو له أطفال الحي رجاء قضاء حاجة.

فكان المجاذيب بحكم نشأتهم وطبعهم المذكور رغم كبرهم في السن يتصرفون دون أدنى مراعاة للقيود والأعراف الاجتماعية لأنَّهم لا يفقهونها كالإفطار في رمضان وعدم أداء الصلاة وإهمال المظهر الخارجي وإبراز العورة في الطريق العام وبقدر ما يغالون في

انحرافاتهم السلوكية يزداد الناس اعتقادا فيهم ويضفون على انحرافاتهم السلوكية مقاصد وغايات غيبية بعيدة.

فمن ذلك ما يُروى عن الولي الصالح سيدي علي الوحيشي الذي توجد له زاوية مشهورة بمدينة القيروان وسط البلاد التونسية من أنَّه كان من هؤلاء المجاذيب المحمولين بحكم طبعهم ونشأتهم على الدخول في أطوار وأحوال خاصة بهم تقترب من فقدان الوعي مع خرق الأعراف والتقاليد وحتى أصول الدين كالإفطار في رمضان. وهو أصيل مدينة صفاقس ترجم له المؤرخ الصفاقسي المعروف محمود مقديش المتوفى سنة 1813 للميلاد في كتابه "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" فقال انه علي بن سعيد بن سعد الوحيشي. أصل جدَه من وادي العقيق أو وادي الوحش من أرض الحجاز بالجزيرة العربية غلب عليه الانجذاب وهو صغير في مسقط رأسه صفاقس ثم ذهب الى القيروان واتصل بالصوفي سيدي علي العيوني فازدادت به حال الانجذاب حتى أنه كان ينزع ثيابه في الطريق ويبقى عريانا وكان غاية في الجمال ويدور بالأزقة وهو غير مالك لنفسه وشيًد له زاويته بالقيروان حمودة باشا بن مراد باي حاكم تونس في عهده سنة 1650 ميلادي.

ومات سيدي علي الوحيشي سنة 1665 للميلاد. وخلفه في زاويته ابن عمه سعيد الذي كان مجذوبا مثله حتى أنه إذا أخذه الحال يضرب الناس بالعذرة أي الخرء بمعنى الفضلات والإفرازات البشرية وضرب بها ذات مرة مراد باي بن حمودة باشا المذكور فاعتبرها تكريما وشرفا له حيث كان للأتراك العثمانيين في عهد خلافتهم على المسلمين في القرون الأخيرة وأتباعهم من ملوك تونس اعتقاد كبير في الأولياء والمجاذيب.

وجاء أيضا في "نزهة الأنظار" لمحمود مقديش أن الولي المجذوب المُسمى أبو الحسن الكراي بصفاقس حصل له الجذب على يد الشيخ سعيد الوحيشي المذكور وذلك أنه وفد إليه في الزاوية الوحيشية بالقيروان فقبَّله الشيخ سعيد ولحظه وجذبه بهمَّته فخرج من هناك هائما ثم رجع الى صفاقس وقد أخذه الحال وانجذب لطريق القوم أي طائفة المجاذيب ويُطلق عليهم أيضا اسم "الصوفية" و"المتصوفون" فأنشأ له زاويته المشهورة به في صفاقس واشتغل بنشر العلم واحتجب عن عامَّة الناس وكان يؤلف الموشحات في الوعظ والإرشاد وفي مدح النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام والصالحين.

كما جاء في بعض الكتب أن الملك الظاهر برقوق من حكام مصر من المماليك بين 1382 و1399 ميلادي كان يعتقد في مجذوب اسمه الزهوري حتى لقد كان الأخير يبصق في وجهه.

ويكتسي البصاق والريق مكانة خاصة عند الأولياء والمجاذيب والصوفية حيث ذكر المؤرخ محمود مقديش في كتابه المذكور أن الشيخ والولي الصفاقسي أحمد الشرفي بن محمد الشرفي من أهل القرن الثامن عشر ميلادي "دخل وهو صغير على الولي الصالح المجذوب سيدي محمد عباس وكان يشرب الدخان بمعنى التبغ من الآلة المُسماة نرجيلة وشيشة فناوله الدخان فانتهز الفرصة لمَّا رأى على آلة الشرب أثر ريق الشيخ فالتهمه بهمَّة ونيَّة صالحة فمن ثمَّ ظهر منه ينابيع العلم".

فكان المجاذيب محسوبين ضمن طبقة أولياء الله المصطافين بحكم الطبع والنشأة ويساوون أحيانا من هذه الزاوية في نظر الآخرين كبار الأولياء ممن يُسمون باسم الصوفية وأقطاب الإلهام على غرار أبو حامد الغزالي المتوفى بطوس بخراسان سنة 1111 ميلادي وأبو الحسن الشاذلي المتوفى بمصر سنة 1258 ميلادي ومحي الدين بن عربي المتوفى بدمشق سنة 1240 ميلادي غير أن هؤلاء اكتسبوا هذه المرتبة

عن طريق الاجتهاد وترويض النفس وليس بالانصياع التام لهوى النفس مثل صنف الأولياء المجاذيب والدراويش. فقد بقي أبو حامد الغزالي يجاهد نفسه على حدَ قوله أكثر من عشر سنوات قبل أن يلج باب المعرفة الإلهية بنور قذفه الله في قلبه.

وعلى هذا فإن المجذوب يُجذب جذبا بالطبع والنشأة إلى مركز ومصدر العلم والمعرفة لينهل منه كما يجذب حجرُ المغناطيس الحديد فلذلك سمي مجذوبا في حين يعاني المريد والتلميذ العادي ويشقى طويلا ليصل الى مصدر العلم والمعرفة وينهل منه. ويقول المصريون في هذا المعنى عن هؤلاء المجاذيب "مكشوف عنهم الحجاب" بمعنى أنهم يخترقون الحجاب الذي يحجب عالم الغيب عن الناس العاديين لأن الله رفعه لهم فهم أصحاب الكشف.

غير أنَّ هناك من يفضل الشقاء على الانتقاء على غرار الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي من شعراء القرن العاشر للميلاد الذي يقول :

"ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم".

في ذات المعنى يعتبر الشيخ محمد البوصيري وهو شاعر مصري من أصل بربري من أهل القرن الثالث عشر للميلاد في قصيدة البردة في مدح نبي الإسلام محمد بن عبد الله أن الانصياع لهوى النفس مشين حيث يقول :

"والنفس كالطفل ان تهمله شبَّ على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ان الهوى ما تولى يُصمي أو يصم".

وذهب بعض علماء الإسلام صراحة الى تفضيل المجذوب على المريد الذي يبلغ مرتبة الولاية باجتهاده. ففي هذا المعنى يقول عبد الوهاب الشعراني الفقيه الشافعي والمتصوف المصري من علماء القرن

السادس عشر ميلادي بالقاهرة "والمجذوب اختاره الله وطويت له الطريق واختصرها الله له أما السالك (أي المجتهد) فقد تركه الله يقطع الطريق ويسلكها بنفسه".

ويقال في اللغة العربية "داله" و "دالهة" للشخص الضعيف النفس الذاهب عقله من العشق ونحوه. ويُعتبر حبٌ الله وعشقُ النبي محمد نبي الإسلام من أهمَ أركان الولاية والارتقاء الى مرتبة ولي الله والصوفي والزاهد في الدين الإسلامي.

ويطلق اسم "دالي" و"دالية في العربية أيضا على العنب وخاصة العنب الأسود والعريش المشكّل من بعض أشجار العنب و يُسمى العنب أيضا الكرم في سياق اللغة العربية.

الكهنــة الدراويــش

ففي هذا المجال يُطلق على غابة العنب اسم "تاجنت" و"تاسنت" في اللغة البربرية. فالملاحظ أن كلمة "تاجنت" هي صيغة لفظية لكلمة "جنة" العربية التي لها مدلولات غيبية مثلما هو معلوم بينما كلمة "تاسنت" تعتبر صيغة لفظية لاسم "تاجنت" وكذلك لاسم "سانت" وهو اسم يطلق على الأولياء الصالحين والوليات لصالحات في بعض اللغات الأوروبية كاللغة الفرنسية (saint, sainte). ويُدعى الأولياء الصالحون في الديانة المسيحية التي تدين بها الشعوب الأوروبية باسم "القدّيسين".

كما أن اسم "درويش" يطلق في اللغة الفرنسية في صيغة (druide) على فئة من الكهنة و الكهان والعرّافين في بعض الديانات الوثنية القديمة التي كان يدين بها بعض الشعوب الأوروبية قبل اعتناق

الديانة المسيحية في انقلترا وايرلندا وفي بعض المقاطعات الفرنسية كمقاطعة بريطانيا في شمال فرنسا. وكان هؤلاء الشعوب يعرفون باسم "السلتيون" (Celtes). والملاحظ أن اسم "كهان" هو اسم جمع ومفرده "كاهن" بينما مفرد "عرّافون" هو "عرّاف".

ويُشبه هؤلاء الكهنة والعرّافين الأوروبيين الى حدَ بعيد الكهنة والعرافين في القبائل العربية قبل الإسلام على غرار الكاهن العربي "سطيح" الذي يقال عنه في الأخبار انه تنبأ بظهور النبي محمد نبي الإسلام وعاش قبله بقليل أو الكاهنة "طريفة" التي تنبأت بانهيار سد مأرب في اليمن والسيل العرم الذي نتج عنه قبل ظهور الإسلام وكانت معاصرة للكاهن سطيح وكان معهما كاهن آخر مشهور اسمه شق مع العلم وأن اسم "شق" يطلق في اللغة العربية أيضا على الجنَي.

ومن ضمن العرّافين العرب قبل الإسلام اشتهر رجل اسمه رياح بن كلمة باليمامة وسط الجزيرة العربية وهو الذي قصده أحدُ الشعراء العرب القدماء بقوله :

"فقلت لعرّاف اليمامة داوني فإنّك ان داويتني لطبيب".

وكان هذا الشاعر من عشاق العرب بمعنى عشق الرجل للمرأة وليس العشق الإلهي والروحاني مع أن العرب اشتهر عندهم بعد ظهور الإسلام بقليل مصطلح "الحب العذري" نسبة الى قبيلة بني عذرة العربية وهو الحب الخالص الذي يشعر به الرجل للمرأة أو المرأة للرجل دون اعتبارات جنسية. ويُسمى أحيانا غلطا بالحب الأفلاطوني نسبة الى الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون من فلاسفة القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وهو تعبير ليس في محلَه لأن الحب الأفلاطوني هو عند أفلاطون الحب الفلسفي بمعنى شعور النفس بالانجذاب نحو الجمال المتجسَم في الوجوه الحسنة وبالأخص الوجوه الرجالية الحسنة عند الأحداث والصغار كمنطلق على درب المعرفة الفلسفية.

واشتهر عند البربر والأمازيغ ببلدان شمال إفريقيا في القرون الوسطى الكاهن والعرًاف موسى بن صالح الغماري وذكره الكثير من المؤرخين من بينهم العلامة ابن خلدون المتوفى في القاهرة بمصر سنة 1406 ميلادي في "كتاب العبر". وينتمي الكاهن البربري موسى بن صالح الى قبيلة غمارة البربرية المشهورة في التاريخ وكانت منتشرة أساسا في المغرب الأقصى بالشمال في المنطقة الجغرافية المسماة بالريف على الساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط بناحية اسمها "مجكسة" في محيط مدينة "نكور".

فكانت قبيلة غمارة معروفة بتعاطيها للسحر والكهانة والعرافة منذ القديم وبممارستها لعادات أخرى تميًزت بها عن غيرها وتحدًث عنها بإسهاب العالم العربي أبو عبيد البكري من علماء الأندلس العربية في القرن الحادي عشر الميلادي في كتابه "المسالك والممالك".

طائفة الرقادة لدى قبيلة غمارة

ففي هذا المعنى أورد أبو عبيد البكري ما نصُه : " ويُجاور بلد نكور بلد غمارة فمنه مجكسة. وتنبأ بذلك الصقع أبو محمد حاميم بن منً الله بن حريز بن عمر بن وجفوال بن وزروال فلقب بالمفتري . وببلد مجكسة جبل حاميم المنسوب اليه وهو على مقربة من مدينة تطاون وأجابه بشر كثير أقروا بنبوته. وكان يُدعى حاميم بن أبي خلف نسبة لأبيه الذي اسمه أبو خلف. وكانت له عمًة اسمها "تناعيت"وكانت كاهنة ساحرة. وكانت لحاميم أيضا أخت تسمى "دجو" كانت ساحرة كاهنة من أجمل الناس وكانوا يستغيثون بها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعها.

"وقال شاعر من مدينة طنجة اسمه عبد الله بن محمد المكفوف الطنجي يهجوهم :

وقالوا افتراء ان حاميم مرســـل   إليهم بدين واضح الحق باهر

فقلت كذبتم بدَّد الله شملكـــــــم   فما هو إلا عاهر وابن عاهـر

فان كان حاميم رسولا فإننـــــي   بإرسال حاميم لأوّل كافـــــر

رووا عن عجوز ذات افك فهيمة   تفاوق في أسحارها كلَّ ساحر

أحاديثك افك حاك إبليس نسجهــا   يسرٌونها والله مُبدي السرائر".

" قتل حاميم في أحواز طانجة سنة 315 هجري (في بدايات القرن العاشر للميلاد).

"وكان في بعض قبائل مجكسة (غمارة) رجل من السحرة المهرة يعرف بابن كسية وكان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه وإذا عصاه أحد حوَّل كساءه الذي يلتحف به فيُصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جائحة وان كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك ولبنيه حتى الآن في تلك الناحية منزلة.

"ومن أعاجيب بلد غمارة امرء (شخص) من بني شداد منهم وكان معه عدل مملوء برؤوس الحيوان بريها وبحريها قد نظمها في حبل واتخذها كالسبحة فإذا سأله أحد عن شيء من الحدثان وما هو كائن علَّق عليه تلك السبحة وقلده إياها ثم قلقلها عليه وانتزعها وجعل يشمها قطعة قطعة إلى أن يمسك منها في يده ما أمسك ثم طفق يخبره خبره وما الذي سأل عنه وعما يدور له من مرض أو موت أو ربح أو خسران أو إقبال أو إدبار فلا يكاد يخطئ.

"ومن أعاجيب بلد غمارة أنَّ عندهم قوما يُعرفون بالرقَّادة وهم في بعض الأودية هناك مثل واد "لو" عند بني سعيد وبني اقطيطن وبني بروتن يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرَّك ولا يستيقظ ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى ولو قطع قطعا . فإذا كان بعد ثلاثة أيام من غشيته (نومه) استيقظ كالسكران ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيء فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب ممًا يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب إلى غير ذلك وهذا مستفيض لا يُخفى.

"ويوجد بمرسى بادس رجل قصير القامة مصفر اللون يُكرمه أهل ذلك الموضع ويُقدمونه ويذكرون أنَّه ينبط المياه في المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيونا وآبارا وأنَّه يُخبر بقرب الماء وبعده (من سطح الأرض) وانه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير.

ثمَّ يتحدَّث البكري عن العادة التي اسمها "المواربة" عند قبيلة غمارة وهي تمكين أصحاب العريس من شباب الحي من مواقعة العروس جنسيا عندما يدخل عليها وهي عروس بكر فيقول البكري بهذا الخصوص :

"والمواربة عند أهل غمارة كلها متعارفة يفخر بها نسوانهم وذلك أنَّ الرجل إذا دخل بامرأته البكر واربها شباب أهل ناحيتها فاحتملوها وأمسكوها عن زوجها شهرا وأكثر ثمَّ يردُّونها وربما فُعل بها ذلك مرارا على قدر جمالها. ولا يتمُ إكرامُ الضيف عندهم إلا بأن يؤانسوه بنسائهم الأيامى منهم يُبيت الرجل مع ضيفه أخته الثيب أو بنته ولا يتركون ذا عاهة يستقر ببلدهم ويقولون إنه يفسد النسل وهم يرغبون في الرجل الجميل الشجاع وهم مخصوصون بالجمال ولهم شعور يسدلونها كشعور النساء ويتخذونها ضفائر ويتطيبونها ويتعمَّمون

بها. (انتهى كلام البكري في عادات قبيلة غمارة البربرية بشمال المغرب الأقصى).

فعلى هذا كان إذن يوجد في قبيلة غمارة البربرية طائفة من الكهنة اسمهم "الرقادة" كانوا يتنبئون بما سيحدث في المستقبل بواسطة ما يرونه من أحلام أثناء النوم والرقاد. فكان الواحد منهم ينام ويرقد ثلاثة أيام متتالية منقطعا فيها تماما عن العالم الخارجي ثم يفيق ويستيقظ من سباته فيُخبر بما سيقع في تلك السنة من أحداث صغيرة وكبيرة على ضوء ما رآه من أحلام أثناء نومه. ولذلك يُدعون باسم "رقادة" لأنهم يتكهنون بالمستقبل وفق ما يرونه من أحلام وهم راقدون وغائبون عن الوجود طيلة ثلاثة أيام وأكثر. وتسمى الأحلام كذلك باسم "الرؤيا" في اللغة العربية.

ولا شكً أن هذا الفن القائم على معرفة المستقبل وخبايا الغيب بواسطة الأحلام التي ترى في النوم كان شائعا لدى القبائل البربرية عموما حيث ما زال يوجد موقع يُسمى باسم "رقادة" قرب مدينة القيروان بوسط البلاد التونسية اتخذ هذا الاسم نسبة الى مجموعة من هؤلاء الكهنة الرقادة كانوا يمارسون فيه أنشطتهم السحرية وتنبؤاتهم بالمستقبل بواسطة الأحلام. فقد جرت العادة أن يجتمع الكهنة والسحرة والمتنبَين بالغيب في المعابد والأماكن المقدسة. وقد كانت مدينة القيروان مكانا مقدسا بالنسبة للبربر يحوي أصنام آلهتهم قبل الإسلام ولذلك اختارتها الجيوش العربية بالذات لبناء مسجد بها مكان المعابد الوثنية القديمة التي كانت قائمة بها عندما قدمت هذه الجيوش العربية في القرن السابع الميلادي لنشر الدعوة الإسلامية في بلدان شمال إفريقيا لدى سكانها البربر. فقد كان من عادة المحتلين الجدد لبلد من البلدان بقوة السلاح تشييد معابد باسم الدين الذي يدينون به مكان معابد الأقوام المغلوبة على أمرها التي احتلوا بلدانها.

فكان يوجد في محيط مدينة القيروان موقع اسمه "الأصنام" وفيه يقول أحد الشعراء العرب في القرون الوسطى من قبائل عرب بني هلال وبني سليم :

"صنعت صنيعا ضاع في آل عامر كما ضاع في الأصنام واد زرود".

والمعلوم أن وادي زرود يصب قرب مدينة القيروان . وجاء عرب بنو هلال وبنو سليم الى البلاد التونسية بداية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وامتدادا لهذه العادات والممارسات البربرية القديمة ما زال الناس في بلدان شمال إفريقيا وخاصة في تونس والجزائر يعتقدون الى هذا اليوم في قوم وأشخاص غيبيين تحت اسم "الرقود" وأيضا "الرقود السبعة" يُشار لهم ببعض المشاهد الخاصة منها أحجار منصوبة في المقابر وكهوف جبلية طبيعية وغرف جبلية قديمة محفورة في الجبال على عادة الجماعات البربرية.

فبحسب ما ذكره المؤرخون الإغريق واليونانيين القدماء كان البربر بصفة عامة يسترشدون بالأحلام لتدبير شؤون حياتهم منذ القديم. فإذا أراد الواحد منهم أن ينجز عملا كبيرا يرقد وينام ليلة بجانب قبر أحد أجداده ويفعل طبق ما يراه من أحلام في تلك الليلة وهو ما يُسمى بالاستئناس بالأحلام على غرار الاستخارة عند المسلمين.

وكانت عادة الاستئناس بالأحلام لتدبير شؤون الحياة منتشرة لدى الكثير من الشعوب والقبائل والجماعات البشرية ومن بينهم العرب والشعوب السامية المعروفون بالكنعانيين سكان سوريا ولبنان وفلسطين قديما وكذلك عند سكان العراق في غابر الزمان مثلما يشهد عليه ما ورد في القرآن بخصوص قرار النبي إبراهيم ذبح ابنه إسماعيل الجد الأول

للعرب المستعربة تنفيذا لحلم ورؤيا رآها في المنام ثم استبدله بكبش بوحي من ربَه حسبما ورد في القرآن.

آيــت حديفـــة

كما كان اللواط بمعنى الاتصالات الجنسية بين الرجال والذكور عموما من العادات الراسخة عند بعض القبائل البربرية في إطار نظرة خاصة تعتبره شيمة من شيم الكرم حيث كانت هذه القبائل تكرم ضيوفها بتمكينهم من مواقعة أولادهم الذكور جنسيا عن رضى وطيب خاطر. فقد ذكر العالم والجغرافي والرحالة العربي المشهور أبو القاسم محمد بن حوقل من علماء القرن العاشر للميلاد في كتابه "صورة الأرض" وكان زار شمال إفريقيا ما نصُّه : وهؤلاء البربر بالصورة التي ذكرتها من بذل الطعام والأولاد وكان أصل ما استباحهم به أبو عبد الله الداعي (ناشر الدعوة الشيعية للفاطميين بجنوب المغرب الأقصى) على بذل أولادهم لأضيافهم (أي استباح قتالهم لهذا السبب). فإني سمعت أنه ليبلغ بهم فرط المحبَّة في إكرام الضيف أن يُؤمر الصبي الجليل الأب والأصل الخطير بمصاحبة ضيفه ليقضي منه نهمه وينال منه الحرام وربما وقعت شهوة الضيف في جليل من فرسانهم وشجعانهم فلا يمتنع عليه ويرى ذلك إكراما وفخرا والإباء عنه عارا ونقصا".

في ذات المعنى سبقت الإشارة إلى الولية التي اسمها "حديفة" ضمن مجموعة الصبايا العذارى اللواتي قدمن من المغرب الأقصى إلى جهة الصابرية بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية رفقة الولية أمي هندة في بعض الأقوال والولية الدالية في أقوال أخرى.

فإن هناك فرقة وعشيرة مشهورة اسمهم "آيت حديفة" ينتمون الى قبيلة غمارة البربرية المذكورة لهم قرية خاصة بهم في ناحية الريف

المغربي اسمها "آيت حديفة" قرب مدينتي نكور والحسيمة اشتهرت في المدّة الأخيرة على نطاق واسع بمناسبة الاحتجاجات الشعبية التي شهدتها منطقة الريف بالمغرب. كما اشتهرت بتمرُد شعبي كانت له مسرحا سنة 1959/1958 بقيادة أحد مواطنيها اسمه عبد الله التهامي. وكان محيط مدينة نكور المطلة على البحر الأبيض المتوسط في اتجاه مدينة تطاون مجال انتشار قبيلة غمارة عموما قبل أن ترتقي مدينة الحسيمة حاليا الى منزلة العاصمة الجهوية لهذه الناحية.

ويقال ان اسم "الحسيمة" مشتق من كلمة "خزامي" النبتة العطرية المعروفة فحرَفت تحت تأثير الأسبان الذين استعمروا هذه المنطقة ومناطق أخرى من المغرب الأقصى في فترات مختلفة من التاريخ منها الطويلة ومنها القصيرة. واشتهرت منطقة الريف في المغرب بكونها مسقط رأس الزعيم الوطني عبد الكريم الخطابي أحد قادة معركة التحرير المغربي ضدً الاستعمار الفرنسي قبل استقلال المغرب سنة 1956.

وجاء في بعض الدراسات أنه كان يوجد الى هذه الأيام ببلدة "اقلاطن" قرب قرية "آيت حديفة" شجرة مباركة في اعتقاد الأهالي كانوا يزورونها ويعلقون عليها قطعا من ثيابهم ومن القماش وغيره مع تضمينها لأمانيهم وتطلعاتهم رجاء تحقيقها وكانت النساء والبنات الراغبات في الزواج من أكثر زوًارها.

كما أنً الكثير من الأولياء الصالحين والمتصوفين في الإسلام ينتمون الى قبيلة غمارة من بينهم الولي والعالم والصوفي الشهير أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المتوفى بصعيد مصر في 1258 للميلاد. وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار. كانت ولادته ببلاد غمارة في بني زروال من الأخماس قرب شفشاون مع أن الدارسين يقولون بشرف نسبه بمعنى انتماء أجداده الأولين الى أهل بيت النبي

محمد بن عبد اله نبي الإسلام. فإنهم يرفعون نسب بني زروال الى سيدي عبد الرحمان بركات شقيق المولى علي الشريف جد ملوك الأسرة العلوية التي تحكم المغرب الى اليوم وينتمون الى أهل بيت النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام حسب سلسلة نسب جدهم علي الشريف.

كما يوصف الولي الشهير سيدي أحمد بن عروس التي تنسب إليه الزاوية العروسية بمدينة تونس أحيانا بالناكوري في بعض المدائح نسبة الى مدينة ناكور بمواطن قبيلة غمارة بشمال المغرب حيث توجد الى اليوم قرية اسمها "بن عروس". وتوفى بن عروس سنة 1463 حسب البعض و سنة 1557 حسب آخرين لأنً هناك من يقول ان سيدي احمد بن عروس هو حصريا جدٌ قبيلة العروسيين القاطنين ببلاد الساقية الحمراء ووادي الذهب جنوب المغرب الأقصى وهذا الأخير توفي سنة 1557 ميلادي بالساقية الحمراء بعد أن لجأ إليها هاربا من بعض ملوك المغرب. وعاش في بداية عمره في تونس وفي سن الثامنة عشر غادرها نهائيا وهاجر إلى المغرب.

وهناك الولي سيدي علي بن عون القماري نسبة الى قرية "قمار" بوادي سوف بالجزائر. فهناك بالفعل العديد من القرى التي تحمل اسم "قمارة" في بلدان شمال إفريقيا وهو صيغة لفظية لاسم "غمارة" منها قرية "قمار" المذكورة بواد سوف بالجزائر وضاحية "قمارة" إحدى ضواحي العاصمة الليبية طرابلس. ونقلا عن اسمه تسمًت قرية " سيدي علي بن عون" بولاية سيدي بوزيد بالوسط الغربي للبلاد التونسية حيث يوجد ضريحه في مكان يعرف باسم "فرش الراضية" بسفح جبل الساهلة. عاش سيدي علي بن عون ما بين 1640 و1760 للميلاد أي 120 سنة وهو عالم كبير ومتصوف مجتهد اسمه علي بن عون بن عبد الله بن علي بن مسعود القماري نسبة الى قرية قمار بناحية واد سوف بالجزائر.

ويُنسب إليه قوله :

"دورانك في البلدان رياسة ومعرفتك في الرجال كنوز".

اللعــاب والبصــاق والريق

ويُسمى المجذوب أيضا في اللغة العربية وفي البلاد التونسية والمجتمعات العربية عموما باسم "بهلول" وكذلك "مهبول". فقد كانت الولية الصالحة السيدة المنوبية في مدينة تونس في القرن الثالث عشر ميلادي توصف بالبهلولة من بعض خصومها حيث أنها نذرت هي الأخرى نفسها للتبتل والتعبد مثل الولية الدالية ورفيقاتها ولم تفكر في الزواج رغم أنها عاشت حوالي 75 سنة.

ويُطلق اسم "مهبول" و"درويش" في البلاد التونسية على المتخلف ذهنيا غير أنه يقال أيضا في اللغة العربية "أهبل العاشق" بمعنى "فقد عقله" بحيث أن "البله" و"الدله" و"الجذب "شيء واحد. وظهر في مدينة تونس في منتصف القرن العشرين شخص مهبول من هذا الصنف اسمه سيدي عمر الفياش كان الناس يعتقدون فيه. وذكر بعض العارفين أنه كان يُخرج ذكره بمعنى عورته أمام الناس في ساحة معروفة في مدينة تونس باعتبار أنه كان مختلا عقليا.

لكن هناك في البلاد التونسية أشخاص أقدم عصرا من عمر الفياش كانوا وما زالوا يعتبرون من أولياء الله الصالحين لدى عامة الناس في حين أنهم كانوا من المتخلفين ذهنيا مثلما يشهد عليه ألقابهم على غرار ولي اسمه "سيدي أحمد بوريقة" في مدينة حمام الأنف بضواحي مدينة تونس. فإن عبارة "بوريقة" عند سكان تونس تعادل عبارة "بوريالة" عند المصريين وتعني "أبو لعاب" و"أبو بصاق" و"ابو

ريق". ومن المعلوم أن المتخلفين ذهنيا بحكم النشأة يسيل لعابهم عليهم رغما عنهم كالأطفال في المهد. وهي خاصية من خصائص التخلف الذهني. فان كلمة "ريقة" لدى سكان تونس تعني "الريق" وكلمة "ريالة" لدى المصريين تعني اللعاب والبصاق والريق.

وشتّان ما بين ريق الحبيبة الذي يُشبَهه الشعراء برحيق الزهور وريق المجذوب والدرويش والمهبول غير أن الاعتقاد له أحوال كاعتقاد الملك برقوق المصري في الزهوري المجذوب الذي جعله يرى في لعابه وبصاقه وريقه نوعا من الرحيق وكاعتقاد الناس في المجاذيب عموما الذي جعلهم يرون في انحرافاتهم السلوكية أحوالا ذات دلالات غيبية.

فإن اللعاب والبصاق والريق يكتسي منذ القديم والى هذا اليوم أبعادا غيبية لدى عامة الناس حيث أن المريد الذي ينوي الانضمام الى فرقة وطريقة من بعض الطرق الصوفية الإسلامية وخاصة منها الطريقة العيساوية في البلاد التونسية يتصل بمقدم الطريقة العيساوية في بلدته أو مدينته ويبلغه رغبته فيتفل المقدم في فمه ويبصق فيه. فيصبح ذلك المريد من المجاذيب ويشارك في الحفلات الدينية المسماة باسم "حضرة" التي تقيمها هذه الطرق الصوفية للذكر والإنشاد وبلوغ المرام.

ويعود تأسيس الطريقة العيساوية الى الصوفي والولي الصالح سيدي محمد بن عيسى دفين مكناس في المغرب الأقصى من علماء القرن السادس عشر ميلادي. وورد في خرافة شعبية تونسية أنً أحد التجار كان ذات يوم مارا بأحد الأماكن فرأى كلبا يطارده حنش ليقتله فمنعه فإذا بذلك الكلب جنَي مسحور من بعض أقوام الجن فحمله الى أبيه الذي كان ملك القوم فجازاه على صنيعه وبصق في فمه فتعلًم التاجر منطق الطير وأصبح يفقه لغة الطيور بمختلف أجناسها وانتفع بهذا العلم في يوم من الأيام.

كما جاء في كتاب "المسالك والممالك" للبكري أنَّ المنتمين لما يُسمى بالديانة أو الدعوة البرغواطية أصحاب المتنبي البربري صالح بن طريف البرغواطي بناحية أزمور المطلة على المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى كانوا يتبرّكون ببصاق كهنتم فكان الكاهن فيهم يبصق في أيديهم فيلعقون بصاقه ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به. ونشر المتنبي صالح بن طريف هذه الدعوة في القرن الثامن ميلادي ومات بعد النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام بمائة عام. وتسمى جماعته "بورغواطة".

غير أنَّ الاعتقاد في ولاية هذا الصنف من المجاذيب المعتوهين والمتخلفين ذهنيا من الأمور التي كان يعيبها علماء الدين على عامة الناس حتى أنه يُنسب الى بعضهم قوله "أكلما رأيتم أحدا يبول على عقبيه ويفطر في رمضان قلتم إنه ولي".

وجاء في بعض الكتب أن المجاذيب كانوا يحظون بمكانة كبيرة في مصر في عهد المماليك حتى أن البعض منهم كانوا يمشون عرايا تماما في الطريق العام دون أن يرى الناس في ذلك أدنى حرج فكانت بعض النساء يحتلن على البعض منهم ويستدرجنهم الى بيوتهن ويمارسن معهم الجنس فيشفين غليلهن وغليل شركائهن.

في ذات المعنى ذكر بعض العارفين أنه كان يوجد في قرية جمنة بنفزاوة في أواسط القرن العشرين شخص من المتخلفين ذهنيا كانت عشيرته تعتقد في ولايته وتسميه باسم "سيدي" تقديرا له فكان أحيانا يخرج الى الطريق العام ويبرز ذكره وايره أمام الناس وهو يتحسَّر ممًا هو فيه من الحرمان الجنسي مرددا كلمة "يا احليلي" وهي كلمة تعوَّد سكان البلاد التونسية على ترديدها للتوجُّع مع أن لفظة "احليل" تطلق أساسا على ذكر الرجل ووردت في هذا المعنى في بعض حكايات الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلة". وقال هذا

المخبر ان التخلف الذهني كان منتشرا في العشيرة المذكورة ربما بحكم عادة الزواج بين الأقرباء وأبناء العم حيث كان ابن العم يتزوًج دائما ابنة عمه.

الاتصـال بعالـم الغيـب

غير أن ما يميّز طائفة المجاذيب الأولياء في الإسلام ومن قبلهم الكهنة والعرّافين والسحرة والعزّامين وأشباههم من الأنبياء والقديسين عند الوثنيين والموحدين الاعتقادُ في اتصالهم بعالم الغيب والأرواح وقدرتهم على اختراق مكنوناته والتعبير عن أسراره وخفاياه بما يجري على ألسنتهم من كلام منظوم وسجع موزون يقوم على التشبيه والاستعارة والتورية والإشارة والكناية والأمارة.

وحاز الشهرة في هذا المجال ضمن أولياء الإسلام بلا منازع الولي الصالح سيدي عبد الرحمان المجذوب دفين مدينة مكناس بالمغرب الأقصى وهو من أولياء المغرب الأقصى المعدودين في القرن السادس عشر الميلادي. عاش من 1503 الى 1568 ميلادي وأصله من بلدة اسمها" تيط" بنواحي مدينة أزمور على الساحل المغربي المطل على المحيط الأطلسي ثم انتقل إلى مدينة مكناس. واسمه العائلي هو عبد الرحمان بن عياذ بن خشان الصنهاجي الدوكالي. كان كثير السياحة في البلدان ويجري على لسانه كلام موزون يأتي على نسق الشعر والأوزان الشعرية يُعرف باسم "الشطحات" لدى الأولياء.

فقد ترك سيدي عبد الرحمان المجذوب ديوانا كبيرا من هذه الأشعار والحكم المنظومة يحفظها الناس ويرددونها الى هذا اليوم. فمن ذلك قوله الذي ذهب مثلا يعرفه الكبير والصغير :

"لا يعجبك نوًار دفلــــــة　　　في الواد عامل ضلايـــل
ولا يعجبك زين طفلــــة　　　حتى تشوف الفعايــــــل".

ومن أقواله المشهورة أيضا :

"اللفت ولات شحمــــــة　　　وتنبـــاع بالسوم الغالـــي
في القلوب ما بقات رحمة　　　شوف الحالي يا العالـــي".

وكانت أغلب أزجاله رباعيات من هذا النوع. ومما يحفظه ويردده الناس من أزجاله قوله:

"نرقد على الشوك عريان　　　ونضحك للي جفانــــــي
ونصبر لتعوس الأيّـــام　　　حتى يأتي زمانــــــــي".

ويقول سيدي عبد الرحمان المجذوب في الحب والعشق والمحبة :

"أهل المحبة قالوا لـــي　　　إذا بلاك الله بيهـــــــــا
راه مقامها عالي غالـــي　　　أهل الكتب حاروا فيهـــا
من لامني في نار الحب　　　نبيع له يشريها منـــــي
نبيع له بيع المحتـــاج　　　وإذا جرًب يعذرنــــــي".

وله كذلك في ذمَ الزمان هذه الأبيات الجميلة:

"يا ذا الزمان الغـــدار　　　يا كاسرني من ذراعـــي
طيَحت من كان سلطان　　　وركًبت من كان عاري".

ويُسمي سكان تونس تقلب الدهر "عكس الأيام" ولهم فيه أقوال كثيرة.

كما كان الولي الشهير سيدي رحّال الكوش من المجذوبين مثلما يشهد عليه اسمه المعروف به وهو رحّال المجذوب الكوش. ويُعتبر من الأولياء المعدودين في المغرب. وقد عاش في القرن السادس عشر ميلادي ويُدعى سيدي رحال المجذوب الكوش. ويكتسي اسم "كوش" معاني عديدة منها معنى الزاهد والمتعبد كما في اللغة الفارسية ويعني كذلك الرحال بمعنى الجوال الذي يتجول من مكان الى آخر والسائح في ملك الله. ويُسمى الله في اللغة البربرية باسم " يكش" في صيغ متعددة. وكان سيدي الرحال الكوش أسود اللون واسمه محمد بن أحمد بن الحسن السملالي ويلقب بالكوش والبدالي نسبة الى والده والسملالي وطير الجبل والسبع الأذرع مع أنَّ السملالي معناه الأبيض والعتيق في اللغة البربرية. ولد عام 890 هجري ومات سنة 950 هجري الموافق لسنة 1552 للميلاد. ولد بمراكش حيث تصدر مدة للتدريس ومات بفاس حيث دفن.

ويحمل لقب "كوش" بعض العائلات في البلدان العربية منها عائلات في سوريا.

ويُحسب من الأولياء المجاذيب والصوفية أيضا الولي الصالح سيدي أحمد بن عروس تلميذ سيدي الرحال الكوش بمراكش بالمغرب الأقصى. ويعرف باسم "سيدي أحمد العروسي". ويوجد بمدينة تونس عاصمة البلاد التونسية زاوية ومقام مشهور قرب قصر الحكومة بالقصبة ينسب الى سيدي أحمد بن عروس غير أن الأرجح أنها زاوية عروسية فقط ربما تحوي أضرحة بعض العروسيين بينهم والد سيدي أحمد العروسي. فالمشهور في الكتب أن سيدي أحمد العروسي هو جدٌّ قبيلة العروسيين المستقرة ببلاد الساقية الحمراء ووادي الذهب جنوب

المغرب الأقصى بالمكان المعروف بسيدي أحمد العروسي قرب مدينة الصويرة جنوب مدينة العيون عاصمة الساقية الحمراء ووادي الذهب حيث يوجد ضريحه. وهم أشراف ينتمون الى أهل البيت عن طريق الحسين بن فاطمة الزهراء بنت النبي محمد. وينحدرون مباشرة من جدهم الأول محمد بن عروس الديباج وكان يقطن في نواحي الأهواز بجرجان بإيران فهاجر قسم من أبنائه مع أسرهم إلى مصر وانتقلت فرقة من هؤلاء العروسيين المصريين الى تونس.

وتوفي والد سيدي أحمد العروسي بتونس. وصادف آنذاك غزو صليبي لتونس فهاجر سيدي أحمد العروسي وله من العمر 18 سنة الى المغرب الأقصى وعاش مدة في مدينة مكناس ثم في مدينة مراكش حيث تتلمذ على الولي الصالح سيدي الرحال المجذوب الكوش المتوفى بهذه المدينة غدرا سنة 950 هجري كما سبقت الإشارة إليه وذلك في اثر ما يعرف في التاريخ بنكبة الزوايا بالمغرب الأقصى على يدي السلطان السعدي محمد الشيخ الملقب بالأكحل.

فهرب سيدي أحمد العروسي الى الساقية الحمراء وبني بها مسجدا للصلاة والتدريس وهو مسجد "السبعة أولاد بو سباع" وأسس أسرة كريمة وتوفي سنة 1593 ميلادي.

وكان سيدي أحمد العروسي على غرار أستاذه سيدي الرحال المجذوب الكوش وسيدي عبد الرحمان المجذوب كثير السياحة والتجوال بين القرى والبلدات لإرشاد الناس. ويقال إنه كان يحمل على ظهره صررا مملوءة بمختلف الأشياء ولا يعتني كثيرا بمظهره الخارجي ومارس في صغره عديد المهن البسيطة عندما كان في تونس. واشتهر بأشعاره وأجزاله التلقائية التي ينتقد فيها الناس والزمان وهي من نوع رباعيات سيدي عبد الرحمان المجذوب منها قوله :

"لا في الجبل واد معلـوم ولا في الشتا ليل دافــــي
ولا في النساء نساء خيـر ولا في العدو قلب صافي".

وينسب له أيضا قوله :

"يا زارع الخير حبًّـــــه ويا زارع الشر ياســـــر
مولــى الخيــر ينبـــــا ومولى الشر خاســـــــر".

ومن أشعاره المُبهمة قوله :

"نفتل عمامة من المـــاء ونشدًّهـــا شـــدً مايــــــل
ونعمل من الثلج مصباح إذا حمـــــــات القوايــــــل".

الشطيــح والتخميــرة والـــزردة

وينتمي هؤلاء الأولياء الصالحون الى طبقة الأولياء الذين يدعون باسم "الصوفية" و "المتصوفون" في الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية والواحد منهم يُسمى "صوفي" و"متصوف". ويطلق اسم "صوفية" في الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية على الأولياء من المجاذيب والملهمين عموما الذين يجمعون بين العلم العميق بالقرآن والسنة وأصول الدين وفروعه من جهة وبين الزهد في الحياة المادية والانقطاع للتأمل في ملكوت الله والاجتهاد ببعض الطرق والوسائل المبتكرة ومنها ترويض النفس وقتل شهواتها للتقرب من الله بالمعنى المادي للكلمة حتى أن البعض منهم كانوا يدًّعون الوصول الى الاتحاد

المادي مع الله. فكان هناك من الفقهاء من يعتبرهم كافرين وكان هناك من يجد لهم مبررات.

فقد كان هناك ضمن المذاهب والتيارات الإسلامية الكثيرة في ميدان العقيدة ما يُعرف بالمذاهب "المُجسمة" التي تقول بالظاهر في ما يتعلق بصفات الله الواردة في القرآن كقولهم بخصوص الآية القرآنية "يد الله فوق أيديهم" ان الله له يد حقيقية ولكن ليست كأيدي البشر أو كقولهم بخصوص الآية "ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى" الواردة في سورة النجم ان الله يتحرك ويتدلى وينزل من أعلى الى تحت لكن ليس كنزول البشر بحيث أنَّ هذا التجسيم فيه ما يبرَر القول بالاتحاد مع الله والرغبة فيه والبحث عنه.

ففي هذا السياق ذكر الرحالة المغربي المشهور محمد بن بطوطة من علماء القرن الرابع عشر الميلادي في وصف ما شاهده خلال رحلاته عبر بلدان الأرض في زمانه أنَّ الفقيه الحنبلي المعروف أحمد بن تيمية المتوفى بدمشق في سوريا سنة 1328 للميلاد كان يقول بهذا القول بخصوص تدلي الله ونزوله من فوق الى تحت وسمعه يعلَمه لتلامذته في مدرسته بدمشق. وقد انتقده ابن بطوطة على هذا الكلام ووصفه بالسذاجة وخفة العقل حيث أنَّ ابن بطوطة كان فقيها غزير العلم بالدين الإسلامي وكان يقدَم نفسه دائما على أنَّه فقيه.

ويُشبه القول بالتجسيم عند المسلمين وإمكانية الاتحاد مع الله قول النصارى والمسيحيين في نبيهم عيسى بن مريم من حيث اتحاده مع الله ضمن ما يُسمونه بالثالوث المقدس وهو الله وعيسى بن مريم بوصفه ابن الله والروح القدس الذي نفخ في مريم فحملت بعيسى. فإن الله وعيسى والروح القدس يمثلون عند المسيحيين ذات واحدة في ثلاثة ذوات أو ثلاث ذوات في ذات واحدة.

فبحسب ما يُنقل عن هؤلاء الصوفية والأولياء في الإسلام أنًهم كانوا يستغرقون في التأمل فتعتريهم غيبوبة وأحوال خاصة الى حدَ فقدان الوعي بالدنيا فيصدر عنهم كلام في شكل حكم أحيانا مفهومة وأحيانا مُبهمة وغريبة ويصوغون هذا الكلام في قوالب شعرية موزونة على غرار رباعيات سيدي عبد الرحمان المجذوب وسيدي أحمد العروسي. وليس ذلك بجديد في ميدانهم حيث كان الكهنة العرب قبل الإسلام يتكلمون بالسجع وهو النثر الموزون.

وتسمى هذه الأشعار والأزجال عند الأولياء الملهمين من المتصوفين والمجاذيب باسم "شطحات" وهو اسم جمع ومفرده "شطحة" وهي عندهم تعبير لفظي عمًا يخالجهم ويمرُ بخاطرهم أثناء فقدان الوعي والغيبوبة فتأتي أحيانا "بعيدة عن القول السديد لأن فيها مخالفة للشريعة ويلقيها في أنفسهم الشيطان" في نظر الفقهاء فيعتبرونها من الكفر الصريح. فلذلك يرى فيها بعض الصوفية أنفسهم أسرارا لا ينبغي البوح بها للغير مهما كان.

فما زال يقال في العربية "شطح به خياله وتفكيره" بمعنى ذهب وسار به بعيدا.

لكنً السكان في تونس يستعملون كلمة "شطح" في معنى "رقص" بحيث أن الشطح هو الرقص بكل أشكاله عند سكان البلاد التونسية وخاصة في مدينة تونس عاصمة البلاد. ويستعمل التونسيون بالأساس اسم "شطيح" بكسر الشين والطاء في معنى الرقص. والأصل في ذلك أن هذه الأقوال تجري على ألسنة المتصوفين والمجاذيب أثناء الحفلات الدينية التي كانوا ينظمونها وتسمى باسم "الحضرة" وكذلك باسم "الزردة" و"الوعدة" عندما تقام في ضريح أو زاوية أحد الأولياء المعروفين في مواسم معلومة من السنة. وكان يتخللها العزف والضرب على الدف والبندير وفق إيقاعات معلومة مع إنشاد المدائح والأذكار

والرقص وتحريك الجسد فيسودها جو صاخب وتحصل لهم بالمناسبة حسبما يقولون أحوال خاصة تعرف باسم "التخميرة" في البلاد التونسية بمعنى السكرة أو حالة السكر والانتشاء فهو اسم مشتق من "الخمر" ولكن بدون شرب الخمر الحقيقية.

وعن معنى "الشطح" و"الشطيح" في اللغة العربية فإن القاموس العربي الكبير المسمى "لسان العرب" للعالم محمد بن منظور الملقب بالقفصي من مشاهير علماء اللغة بمصر ما بين 1232 و1311 للميلاد يُشير الى استعمال كلمة "شطيح" بكسر الشين والطاء المشددة بمثابة لفظة لهشَ وزجر الماعز. ويستعمل المصريون لفظة "هشك" وبالأحرى "هشك هشك" على نفس الوزن في معنى الرقص. ويستعمل سكان بعض قرى منطقة نفزاوة لفظة "كرَش" على نفس الوزن لهش وزجر الماعز والغنم عموما. فلا شك أن كلمة " شطيح" كان يرددها الحاضرون قديما في مثل هذه الحفلات الدينية والتجمعات البشرية لتحفيز الراقصين وشحذ طاقتهم وتقوية حماسهم و"تسخينهم" كما يقول السكان في تونس ومصر حيث أنَّ التونسيين والمصريين يستعملون عبارة "سخن" لوصف الشخص المتحمِّس وكلمة "تسخين" في معنى تقوية الحماس.

وقد كانت توقد العديد من النيران في هذه الحفلات لطهي الطعام وكذلك لتسخين جلود الدفوف والبنادير التي يضرب عليها للإنشاد . فكان هذا التحفيز والتسخين للراقصين والراقصات بواسطة إطلاق وترديد لفظة "شطيح" كإذكاء النار بالحطب.

فعلى هذا لا يستبعد أن يكون اسم "سطيح" الذي يطلق على الكاهن العربي القديم المعروف بهذا الاسم هو صيغة لفظية لكلمة "شطيح".

الإباحية الروحية

فبخصوص التخميرة وحالة السكر والانتشاء الروحاني التي تعتري الصوفية ومريديهم وأتباعهم في هذه الحفلات الدينية يقول الصوفي والشاعر الشهير عمر بن الفارض المتوفى في مصر سنة 1235 ميلادي :

"شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن تخلق الخمر

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصوًرها الوهــــم".

ويقول الصوفي والزاهد أبو الحسن الششترى الشهير بأزجاله الصوفية المُبهمة من صوفية وشعراء الأندلس العربية في القرن الثالث عشر للميلاد :

"فإن تجوهرت فاشطح فالسكون هنا لا ينبغي إنما السكران من شطحا".

وكان من أسرة ثرية ووجيهة فاختار الزهد والتصوف مثل الكاهن الهندي المعروف باسم "بوذا" مؤسس الديانة البوذية فإنه كان أميرا وابن ملك فاختار الزهد وجعله المبدأ الأساسي لديانته وفق ما يحكي عنه أتباعه.

غير أنه لم يعُد من الضروري في القرون الأخيرة أن يكون المريد والتلميذ المنتسب للفرق والطرق الصوفية عالما دينيا ليرقى الى هذه الحالات بل بالعكس من ذلك فإن المريدين والأتباع والمجاذيب في العديد من الفرق والطوائف الصوفية كالعيساوية خلال هذه العهود الأخيرة هم في معظمهم من الجهلة والأميين فتساعدهم هذه الحفلات الصاخبة على بلوغ حالة التخميرة والانتشاء حسب وصفهم.

وجاء في كتاب "أخبار وأيام وادي ريغ" من تأليف الشيخ الطاهر بن دومة من علماء وادي ريغ بنواحي مدينة توقرت بالجنوب الجزائري المتوفى سنة 1982 أن المشاركين في بعض هذه الحفلات الدينية من المريدين والأتباع في منطقة وادي ريغ كانوا يتناولون الحشائش المخدرة قبل الشروع في الرقص وكانت تزرع في محيط ضريح الولي.

وأشار هذا الكتاب الى تحوُل البعض من هذه الزردات الدينية مع مرور الزمن الى حفلات إباحية تختلط فيها النساء بالرجال ويمارسون الجنس مع بعضهم ويشربون الخمر في غياب الحشائش المخدرة رغم اعتقادهم في أبعادها الروحية والغيبية. وذكر بالخصوص زردة تسمى "زردة للة المليحة" بمعنى زردة السيدة المليحة كانت في الأصل موسما روحيا يقام في تلك المنطقة تحت اسم زردة "الرجال الملاح" بمعنى الرجال الصالحين فانحرف وتحوًل الى حفل إباحي تحت اسم زردة "للة المليحة" ظل يقام الى هذا اليوم تحت اسم "زردة للة المليحة" وزردة "رجال الحشان".

فبحسب ما جاء في هذا الكتاب وكتب أخرى كانت زردة "رجال الملاح" أو "رجال الحشان" في بداية الأمر موسما أسًسه نخبة من أولياء المنطقة اسمهم "رجال الحشان" وسُموا "الرجال الملاح" بمعنى الرجال الصالحين وينتسب إليهم سكان وادي ريغ. فكانوا يجتمعون بعد جني التمر في شهر سبتمبر بمكان معلوم بناحية مدينة "توقرت" مركز العمران بوادي ريغ بجنوب الجزائر المشهور بنخيله للنظر في شؤون السكان وحلَ المشاكل التي تطرأ بينهم وداخل المنطقة عموما وتزويج البنات والشبان. فلمًا ماتوا سار خلفاؤهم من بعدهم على طريقتهم فانحرف الموسم في القرون الأخيرة حسب وصف الشيخ الطاهر بن دومة وأصبح يقام تحت اسم زردة "للة المليحة" وسط أجواء احتفالية

يكثر فيها الغناء والرقص والضرب على الطبل والنفخ بالمزمار مع الذكر والإنشاد.

كما عُرف عن أتباع الولي الصالح سيدي أبي الحسن الشاذلي من مشاهير أولياء الإسلام في القرن الثالث عشر ميلادي ويسمون باسم "الشاذلية" بتناولهم لمشروب البن أو القهوة مثلما يسميها السكان في البلاد التونسية أثناء حفلاتهم الدينية كي يساعدهم على السهر وقيام الليل للذكر والتهجُد. فكان لكلَ طريقته الخاصة في بلوغ المراد ولذلك يطلق اسم "طريق" و"طريقة" على المذاهب والفرق الصوفية. فهناك الطريقة الشاذلية مثلا والطريقة العيساوية التي سبقت الإشارة إليها ومؤسسها سيدي محمد بن عيسى وغيرهما كثير.

زردة غريب ورجال قعود

في ذات السياق ظل السكان في ناحية الصابرية والفوار بمنطقة نفزاوة بصحراء دوز يقيمون الى هذا اليوم زردات وحضرات موسمية على شرف أمي هندة والدالية في إطار زردة كبيرة تقام في الخريف في شهر سبتمبر بالذات على شرف ثلة من الأولياء الصالحين اسمهم "رجال قعود" بناحية الصابرية في قرية تسمى باسم "بشني" تضم أضرحتهم . وتعرف هذه الزردة أيضا باسم زردة غريب نسبة الى قبيلة غريب التي تقطن بالمكان وتنتسب الى الأولياء المذكورين وعددهم أربعة أو سبعة حسب الروايات. فهي زردة موسمية تنظمها القبيلة على شرف أجدادهم وآبائهم الأولين. ويحضرها أفراد قبيلة غريب وأهالي القرى المجاورة وزوار من ليبيا ومن الجزائر وخاصة من منطقة وادي سوف بجنوب الجزائر.

والجدير بالملاحظة أن كل فرقة أو عرش من قبيلة غريب لها مكان معلوم خاص بها في الساحة الكبيرة التي تقام فيها الزردة وتستمر أربعة أيام فينزل أفراد ذلك العرش في ذلك المكان المخصص لهم طيلة هذه الأيام وتتوسطه شجرة من نوع الرتم تنسب الى جدَ العشيرة وتسميها العشيرة باسم "رتمة الجدً" أو "رتمة جدَي".

فمثلما سبقت الإشارة إليه بخصوص زردة "رجال الملاح" بناحية وادي ريغ ذكر أحد العارفين أن زردة غريب أو زردة "رجال قعود" كانت هي أيضا في الأصل اجتماعا موسميا يعقده الأولياء الصالحون المعروفون باسم "رجال قعود" أجداد عشائر قبيلة غريب للنظر في شؤون السكان وحلَ المشاكل الطارئة. فظلت عادة موسمية يجتمع فيها أبناؤهم وأحفادهم غير أنها تحوًلت في نسخاتها المتأخرة الى احتفال وتجمع بشري كبير لا يخلو من المظاهر الإباحية رغم أبعاده الغيبية والروحية. ويمكن القول على ضوء حضور مشاركين من منطقة وادي سوف بالجزائر ان الأمر يتعلق بزردات ذات أصول واحدة ومتشابهة ضاربة في القدم.

واتخذت قرية "يشني" التي تقام فيها هذه الزردة السنوية اسم "بشني" نسبة الى فرقة أو عرش اسمهم "البشنات" ينتمون الى جماعة الأشراف الفواتير المنتشرون في مختلف بلدان شمال إفريقيا وخاصة في ليبيا في مدينة زليطن شرق العاصمة الليبية طرابلس قليلا بالقرب من الساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط حيث توجد أضرحة أجدادهم الأولين وعددهم سبعة وأسماؤهم محيا ويعقوب ومحمد الكبير ومحمد الصغير وعبد الله وعبد الواحد وعبد العزيز. وينتمي الى هؤلاء الأشراف الفواتير العالم والصوفي الإسلامي الكبير سيدي عبد السلام الأسمر بن سليم الفيتوري دفين مدينة زليطن المتوفى سنة 1573 عن سن ناهز المائة سنة وخلف 15 ولدا تنتمي إليهم الكثير من الأسر والعائلات الشريفة من الأشراف الفواتير.

أمّا البشنات فهم من جماعة الأشراف الفواتير الذين اسمهم "الصقوع" وينتمون الى سيدي محمد الصغير المذكور.

وينحدر الأشراف الفواتير من الشريف خليفة فيتور بن عبد الله الملقب نبيل من ذرية إدريس الأول حفيد الإمام حسن بن فاطمة الزهراء بنت النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام. ووفد إدريس المذكور الى المغرب الأقصى في القرن الثاني للهجرة حيث أسس دولة الأدارسة الشريفة وخلفه في الحكم بعد وفاته ابنه الوحيد واسمه إدريس الثاني فاتخذ من مدينة فاس المغربية عاصمة لدولته حتى انقرضت.

وكان لخليفة فيتور أخ شقيق اسمه يوسف جد جماعة الأشراف الذين يعرفون باسم "أولاد بوحميرة". وجاء في بعض الكتب المخطوطة أن خليفة فيتور وشقيقه يوسف ماتا ودفنا في قرية اسمها "الصابرية" غير أنّ الرأي السائد لدى الدارسين هو أن المقصود بالصابرية في هذا الخبر هي قرية الصابرية بناحية مدينة الزاوية بالقطر الليبي.

فلا شكّ أن موسم الحج السنوي الى مدينة مكّة بالجزيرة العربية الذي كان يقيمه العرب قديما واحتفظ به الإسلام قصد الطواف حول الكعبة في هذه المدينة بوصفها بيت عتيق مقدس ونحر الذبائح المنذورة لها كان في الأصل الأصيل موسما مثل موسم الرجال الملاح أو "رجال الحشان" بناحية واد ريغ بالجزائر وموسم رجال قعود بقرية بشني بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية.

وما زال يقام الى هذا اليوم على شرف الأولياء الصالحين وباسمهم في تونس وبلدان شمال إفريقيا زردات موسمية مماثلة.

وسبقت الإشارة الى انتشار ظاهرة الكهنة الرقادة أو "الرقود" عند البربر منذ غابر الزمان.

فالجدير بالملاحظة أن هذا الشخص الذي اسمه "غريب" هو ولي صالح مثلما هو مشهور عنه في تونس والجزائر وليبيا ولا يُعرف له موطن أصلي. فقد كان يوجد في جل المقابر في تونس والجزائر ضريح باسم "سيدي غريب". وجاء في كتاب بعنون "سكان ليبيا" نقله من الايطالية الى العربية الأستاذ الليبي خليفة محمد التليسي أن أولاد مرابط بناحية قماطة بليبيا "ينحدرون من سيدي غريب الوافد من المغرب ودفين المنطقة". وكان يوجد له ضريح في أحد المقابر بتونس العاصمة زالت اليوم وتحوًلت الى حي سكني. ويوجد مدينة اسمها "الغريبة" بالقرب من مدينة صفاقس وسط الساحل التونسي. ويوجد مكان وجامع اسمه " جامع محراب غريب" في جزيرة جربة التونسية.

كما أن اليهود في بلدان شمال إفريقيا سابقا تعوًدوا إطلاق اسم "غريبة" على بيوت الصلاة اليهودية وكان لهم بالبلاد التونسية بيوت بهذا الاسم في مدينة الكاف بالشمال الغربي وفي جزيرة جربة بالجنوب وما زال بيت الصلاة اليهودي المسمى "غريبة" بجزيرة جربة يستقبل الزوار الى هذا اليوم بحيث أن كل ما يُروى من أخبار توصف بالتاريخية حول هذا المعلم اليهودي بجزيرة جربة غير صحيحة وليس لها أساس من الصحة.

الـزواج المكــروه

في هذا الإطار تنتمي حكاية الدالية وحكاية حديفة صاحبة أمي هندة المشار إليهما سابقا إلى صنف من القصص التراثية منتشر في البلاد التونسية وبلدان شمال إفريقيا ويُصوَر قصة فتاة يرغمها أهلها على الزواج من رجل لا تحبه فتهرب ليلة زفافها وتختفي في بعض الأماكن السرية وخاصة في بعض الكهوف الجبلية في ظروف عجيبة.

فقد كان السكان في مدينة ورداسات بالمغرب الأقصى يحكون الى عهد قريب أن أحد الأولياء الصالحين بالمنطقة اسمه سيدي جبار كانت له بنت جميلة فنوى تزويجها الى شاب من مريديه اسمه سيدي حسين له قبة بالمكان تعلو ضريحه مثل مشاهير الأولياء بينما يُرمز الى ضريح سيدي جبار بكدس بسيط من الحجارة.

لكنَّ الفتاة لم تكن ترغب فيه وفي ليلة الزفاف ذهب جماعة من الرجال والنساء الى بيت سيدي جبار لحمل العروس الى بيت زوجها سيدي حسين فوجدوها قد استعدَّت كأحسن ما يكون الاستعداد للمناسبة فأركبوها في هودج ووضعوه فوق بغلة وقصدوا بيت الزوجية تحفُّ بهم كوكبة من الشبان والصبايا لزف العروس الى عريسها. فنزل عليهم في الطريق مطر قوي فلجئوا الى كهف بجبل قريب من هناك ريثما يكف المطر ودخل الجميع بمن فيهم العروس الى الكهف وتركوا البغلة بالخارج مربوطة في فم المغارة فوجدوه كهفا كبيرا وخلا لهم الجو فشرعوا يُغنُّون ويرقصون ومعهم العروس التي كانت تكره زوجها ثم رقد الشبان مع البنات وأصابوا بعضهم البعض وشبعوا عناقا ووصالا.

واستبطأ سيدي حسين الموكب فذهب يستطلع الأمر ومرَّ قرب الكهف فسمع الغناء والتصفيق واقترب فرأى الجماعة في أجواء أخرى يغنون ويرقصون فدعا عليهم فمسخت البغلة وتحوَّلت الى حجر سدَّ مدخل الكهف وأصبح الجماعة فوجدوا فم المغارة مسدودا فماتوا كلهم بعد أيام . ويقول الأهالي إنهم يقومون أحياء ثلاثة أيام معلومات في السنة فيجددون فيها حفلتهم ويملئون الكهف غناء وصخبا ووصالا ثم يعودون أمواتا كما كانوا. فكان السكان يسمعون رقصهم وغناءهم في تلك الأيام فيُقيمون هم أيضا خارج الكهف وفي محيطه المباشر حفلا كبيرا على غرار الحفل الذي يقيمه المدفونون فيه داخله.

وهناك قصص من هذا النوع تذكر أن الفتاة تكره الزواج من خطيبها لأنه أخوها وشقيقها ويمكن القول على أساسها أن هذا هو السبب الحقيقي في كلَ الأحوال لامتناع البنت عن الزواج وهو الهروب من علاقة زوجية مع شخص محرًم عليها كأن يكون أباها أو أخاها أو ابنها. وكانت كل هذه الأنماط من الزواج موجودة في قديم الزمان.

ففي هذا المعنى يتناقل السكان في منطقة تيزي وزُّو بمنطقة القبائل بالجزائر حكاية تراثية حول بنت اسمها لونجا كان لها أخ شقيق فخرجا يتنزهان في غابة بالمكان بها عين ماء فجاءت البنت لتشرب من العين فسقطت شعرة من شعرات رأسها في الماء فعثر عليها أخوها فصمًم أن يتزوج من صاحبة الشعرة ولمًا علم أنها أخته تمادى في عزمه ولم يغيَر رأيه. فهربت أخته فلحقها فتسلقت شجرة فأصابها أخوها بسيفه فقطع ذراعها فدعت عليه وقالت له : أرجو أن تصيبك شوكة في ذراعك وأكون أنا من ينزعها بيدي المقطوعة. واختبأت الفتاة في كهف بأحد الجبال القريبة حتى لقيها أحد الشبان وتزوج بها وصادف أن غرابا وجد ذراعها المقطوعة فأخذها وأرجعها للبنت وأصابت أخاها ذات يوم شوكة طويلة في ذراعه احتار الناس في نزعها حتى قدمت أخته فنزعتها بيدها التي قطعها أخوها وأعادها لها الغراب وتحققت نبوءتها.

الهـــروب بالجلـــد

فقد برزت حقبات وفترات من الزمن في العهود الأولى من التاريخ الإنساني كان خلالها كبار ورؤساء الأسر والجماعات البشرية يحتكرون لفائدتهم الخاصة كل نساء وبنات الجماعة مع طرد واستبعاد الشبان الذكور من حضيرة الأسرة ثمَ اضطرتهم المستجدًات الى التنازل

عن البعض من النساء والبنات الراجعات لهم بالنظر لفائدة الشبان الذكور وخاصة إخوة البنات داخل الأسرة الواحدة.

ثم ظهرت في سياق هذه الأوضاع بعض العادات الاجتماعية بينها بالخصوص نذر البنات والصبايا للخدمة في معابد الآلهة مدة من الزمن وأحيانا مدى الحياة. فإن الآلهة وغيرهم من الكائنات الغيبية على غرار الملائكة والجن والشياطين والعفاريت والمردة والغيلان يرمزون الى الطوائف والفئات الاجتماعية التي كانت تتركًب منها الجماعات البشرية في بداية التاريخ الإنساني. فكان الآلهة يرمزون إلى الآباء والكبار داخل هذه الطبقات الأولى من البشر بينما يرمز الملائكة الى طائفة البنات. ويرمز الجن الى فئة الشبان الذكور.

وظهر كذلك الاستعمال المفرط للقوة والتجبر والتسلط فكان بعض الأقوياء والمستكبرين من البشر يستعبدون جماعات بشرية بأكملها ويفرضون عليهم شتى الضرائب من بينها تسليمهم عددا من بناتهم وشبانهم لخدمتهم.

فكانت كل هذه الأوضاع سببا في امتحان بعض البنات ودفعهن الى التفكير في إيجاد مخرج يحتملنه والهروب بالنفس أو كما يقول السكان في البلاد التونسية "الهروب بالجلد" وهي عبارة ذات أبعاد حضارية وتشير الى أوضاع حقيقية وليست من باب المجاز.

ففي هذا السياق يذكر المؤرخون أن مدينة قرطاج بضواحي مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية أسَّستها امرأة في مقتبل العمر اسمها "أليسة" قدمت بحرا من مكان بعيد في الشرق اثر خلاف عميق مع أخيها شقيقها تصطحبها كوكبة من الصبايا العذارى. والملاحظ أنً كلمة "آلس" تستعمل في اللغة البربرية وهي لغة السكان الأصليين لبلدان شمال إفريقيا في معنى الرجل والإنسان وخاصة عند البربر التوارق سكان الصحراء الكبرى بحيث أن اسم "أليسة" يفيد معنى السيدة والمرأة

باعتباره مؤنث "آلس". كما تسمى هذه المرأة التي يقال إنها أسست مدينة قرطاج باسم "ديدون" المشتق من كلمة"دد" التي تستعمل في اللغة البربرية في معنى التنقل والسير والذهاب بحيث أن اسم "ديدون" يعني الجوالة والرحالة مثل الولي الشهير سيدي رحال المجذوب الكوش..

لكنَّ اسم "أليسة" يفيد أيضا معنى السيدة في لغة الكنعانيين سكان سوريا ولبنان وفلسطين قديما الذين تنتمي إليهم هذه المرأة حسب الأخبار المنقولة عنها حيث أنه مشتق من اسم "ايل" الذي يطلق على الرب والسيد والمولى في لغة الكنعانيين وهي لغة تنتمي الى عائلة اللغات السامية ومنه اشتق اسم "اله" المستعمل في اللغات السامية في معنى الرب والله.

وتقول الأخبار المنقولة ان المرأة الكنعانية التي اسمها "أليسة" استعانت بجلد من جلود الحيوانات لبناء مدينة قرطاج فقامت بتمزيق جلد من جلود الحيوانات الى قطع وسيور صغيرة ونثرتها على مساحة واسعة من الأرض وأعلنت حيازتها لها ثم شيدت مدينة قرطاج فوق تلك المساحة.

غير أن المعنى الحقيقي لهذا الخبر هو أن اسم "اجليد" يطلق في اللغة البربرية على الملك والأمير وبالتالي على المملكة والإمارة وهو تصغير "جلد" وله صيغ كثيرة بحيث أن عبارة "تأسيس مملكة" بالعربية تعادلها في اللغة البربرية عبارة "إنشاء اجليد" علما وأن "اجليد" هو تصغير "جلد". وتستعمل كلمة "رقعة" في اللغة العربية في معنى القطعة من الأرض بينما اسم "رقعة" يطلق أيضا في اللغة العربية على نوع من جلود الماعز والغنم يستعمل أثناء رحي الحبوب كالقمح تحت الرحى الحجرية لالتقاط ما يخرج عبر الرحى من دقيق مرحي. كما أن كلمة "سير" تعني في بعض اللغات الأوروبية الملك والأمير كما في

اللغة الفرنسية (Sire) بينما تطلق على الخيط الرفيع من الجلد في اللغة العربية.

ثمّ إن الناس والبشر عموما تعوّدوا منذ غابر الزمان على ارتداء جلود الحيوانات للتنكر كحال الهارب من موقف حرج. ففي هذا السياق ورد في بعض الخرافات الشعبية التونسية أن فتاة ضاقت ذرعا من المعاملة السيئة التي كانت تعاملها بها زوجة أبيها فهربت متنكرة في جلد قرد فاحتضنتها أسرة مالكة على أنها قرد بالحق فاكتشف الأمير ابن الملك رئيس الأسرة المالكة هويتها الحقيقية وتزوجها وأصبحت أميرة.

ويُفهم من خرافات شعبية أخرى أن جلد القرد ونحوه كان اللباس الأصلي للفتاة فاستولى عليه أسيادها واستعبدوها باعتبار أنه عنوان ورمز انتمائها الى طبقة النبلاء والأشراف والأحرار فتحتال في استرجاعه وعندما تنجح في ذلك تهرب بجلدها تعبيرا عن استعادتها لسيادتها وحريتها . فيلتحق بها زوجها الأمير الى حيث تسكن مع أسرتها الأصلية ويجدد معها العهد على أساس أنها زوجة حرة وسيدة.

فقد ورد في سياق حكاية "بلوقيا وملكة الحيات" في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلة" أنّ أميرا اسمه جانشاه كان جالسا ذات مرة قرب بركة ماء فنزلت من السماء جماعة من البنات يرتدين ثيابا من الريش حسبهن من بعيد طيورا فنزعن ثيابهن الريش ودخلن يسبحن في البركة فاستولى جانشاه على ثوب إحداهن وكانت أميرة أخت أمير الناحية وسيدة البنات وأرغمها أن تتزوج به وتمكث معه. ويحتال جانشاه في إخفاء الثوب ولكن زوجته تكتشف مكانه بواسطة الشم فتسترجعه وتلبسه وتهرب وترجع الى أهلها فيلتحق بها جانشاه.

واشتهرت في هذا المعنى الخرافة الشعبية العالمية التي تصور فتاة ذات حسن وجمال تساعدها الظروف على حضور حفل يقيمه ملك

البلد لاختيار زوجة لابنه الأمير فيقع عليها الاختيار فتهرب وتفتقد في الأثناء حذاءها فيجده الأمير ويستعين به للوصول اليها والزواج منها. ويوجد العديد من الصيغ لهذه الخرافة في تونس والجزائر تحت عنوان "عيشة رميد" وكلمة "رميد" هي تصغير "رماد" بمعنى بقايا النار في الموقد أو الكانون كما يسميه التونسيون لأنها كانت خادمة تقضي نهارها قرب الموقد بين النار والرماد فكانت ثيابها متسخة دوما بالرماد. وتتحول الى أميرة بفضل زواجها. فإن الحذاء في هذه الخرافة الشعبية هو حذاء البنت الحقيقي باعتباره عنوان سيادتها كما سبق شرحه وعلى ذلك فإن فقدانه يعني وقوعها في الاستعباد والتبعية بينما استرجاعه يعني استرجاعها للسيادة والحرية.

وتستعمل كلمة "نعال" في معنى الملك والسلطان في بعض اللغات الإفريقية جنوب الصحراء بينما يطلق اسم "نعال" في العربية على الحذاء المصنوع من الجلد ولأجل ذلك ظل الناس الى هذا اليوم يتحاشون السير بنعالهم وأحذيتهم في الأماكن المقدسة كالجوامع عند المسلمين ويتركون نعالهم وأحذيتهم بالخارج عندما يدخلونها. فإن نزع النعلين والحذاء الجلدي عموما يرمز الى الخنوع لصاحب المكان المقدس بمعنى ان الداخل ينزع صفات وخصائص السلطنة والسيادة المتمثلة في النعل أمام ملك أقوى منه يعترف له بالتبعية.

لبــاس الصوفيّــة

كما اشتهر المتصوفون والمجاذيب من الأولياء الصالحين بلباس الخرقة وهي الثوب القديم الرث ويسمى في تونس باسم "جرتيلة" نقلا عن البربرية وكذلك باسم "دربالة" . وكان قطب المتصوفين في الإسلام الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة الصوفية المسماة "بالطريقة

القادرية" ببغداد في القرن الثاني عشر للميلاد يلقب بلقب "بو دربالة" بمعنى "أبو دربالة" و"صاحب الدربالة" وخاصة في البلاد التونسية مع أن اسم "دربالة" يطلق أيضا على الدف والبندير الذي يستعمل للعزف والإنشاد في الحفلات الصوفية. فان هذا الشيخ يسمى في تونس باسم "عبد القادر بودربالة" حتى ان هذا اللقب استعاره الكثير من العائلات التونسية كلقب عائلي.

فهناك بعض الدارسين الذين يقولون ان اسم "صوفية" و"متصوف" اتخذه طائفة المتصوفين في الإسلام لأنهم كانوا يلبسون الصوف والثياب المنسوجة من الصوف لخشونتها انسجاما وخشونة حياتهم. وهناك من يقول إنه من الصفاء.

وفي الحقيقة فان اسم "صوفي" يفيد في الأصل الأصيل معنى السيد على غرار اسم اله ورب الذي كان يطلق على الأسياد والكبار والآباء والأجداد داخل الأسر والجماعات البشرية في بداية التاريخ الإنساني بحيث أن اسم اله ورب وأب وجدَ وسيد هي أسماء متساوية ومتعادلة معنويا. فما زال السكان في قرى منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية يسمون الأب باسم "سيد" بحيث أن الابن يقول لأبيه "يا سيدي" عندما يخاطبه.

فإن اسم "صوفي" هو صيغة لفظية لاسم "سيف" الذي يطلق على السلاح الحديدي المعروف وهو من علامات السيادة والرئاسة والقيادة بينما تستعمل كلمة "اشفى" في البربرية وعند التونسيين في معنى الإبرة الطويلة التي تستعمل في خياطة الجلد ونحوه وهي صيغة لفظية لكلمة "سيف". ويطلق اسم "سفا" كما في تونس على شعر سنابل القمح والشعير ويتركب من شعيرات دقيقة وحادًة كالإبرة الطويلة ويشبه "سعف" جريد النخيل وهذا الاسم "سعف" بدوره هو صيغة لفظية لاسم "سفا". وتستعمل كلمة "سفا" في صيغة "شفا" في معنى الشعر عموما

في اللغة الفرنسية (cheveu). ويعتبر الصوف الذي يكسو الغنم نوعا من الشعر حيث أن كلمة شعر تطلق في العربية على غابات الأشجار دون تمييز بحيث أن كل ما يكسو الحيوانات والنباتات هو شعر ويعتبر شعرا وصوفا.

وكانت المعرفة والعلوم والفنون في بداية التاريخ الإنساني من اختصاص الأسياد بمعنى آباء ورؤساء الأسر والجماعات البشرية فهم الذين يعرفون المسالك والطرقات في الجبال والغابات وموارد المياه وأماكن الرعي بالبشر الراجعين لهم بالنظر حيث كانوا يأخذونهم صباح كل يوم لالتقاط الثمار والحشائش الطرية في الغابات التي يسكنون فيها أو في الكهوف الجبلية بالجبال المجاورة لها وكانوا يقودون الأسر والجماعات الراجعة لهم بالنظر في هذه المسالك لأن تلك الأسر كانت تتركب من الإناث ومن الأطفال الصغار بالأساس. فقد كان هؤلاء الأسياد والرؤساء كهنة وسحرة وشعراء لأن هذه الأسماء كانت تطلق في الأصل على المطلعين والمدركين للمعارف المذكورة.

فلأجل ذلك أطلق اسم "صوفي" على الحكمة والعلم والمعرفة في سياق اللغة اليونانية (sophie) ومنه اشتق اسم "فلسفة" بمعنى حب الحكمة والمعرفة والعلم والتدبير المصيب (philosophie).

وتأكيدا لصحة هذه التحاليل فان كلمة "حكم" التي اشتقت منها كلمة "حكمة" في العربية تعني "أمسك" و"قبض" و"ساد" وملك" و"أدرك" وكل ذلك من خصائص الأسياد. وتستعمل كلمة "أدرك" أيضا في معنى "أمسك" و"قبض" وتعتبر مهمة الإمساك والقبض من المهمات الرئيسية للسادة والحكام بمختلف أصنافهم وطوائفهم حتى أنهم يسمون في العربية باسم "أهل الحل والربط" و"أهل الحل والعقد" بمعنى أنهم يربطون ويعقدون ويقيدون ثمَّ يحلون الرباط والعقد فهم يقبضون على الخارجين عن أعرافهم ويقيدونهم ويربطونهم ويعقدون

الرباط ثم يحلون العقد والقيد والرباط لتسريحهم وتحريرهم وذلك أن السيد ورئيس الجماعة في غابر الزمان كان يربط بعض الراجعين له بالنظر في الليل ويحلُ رباطهم في النهار على غرار الأسرى المستعبدين والموكلين بانجاز الأشغال المنزلية لفائدة سيدهم وكان هؤلاء الأسرى المستعبدين في بداية التاريخ نساء وبنات رئيس وسيد الأسرة.

حكايـــات تارقيـــة

في هذا السياق وعودة الى قصة تأسيس مدينة قرطاج التونسية كان اليونانيون القدماء أو الإغريق سكان بلاد اليونان بجنوب شرق أوروبا يحكون قصة تراثية من النوع المسمى "ملحمة" حول رجل مغامر يُسمونه باسم "اليس" و"اوديس" (Ulysse, Odyssius) مفادها أنه قام برحلة طويلة عبر شواطئ البحر الأبيض المتوسط بما فيها بعض الشواطئ التونسية في تأويل البعض مع أنً القصة لا تشير الى تونس بتاتا.

فهناك قرابة لفظية كبيرة بين اسم "أليسة" الذي تحمله المرأة الكنعانية مؤسسة مدينة قرطاج حسب الأخبار المنقولة واسم "أليس" الذي يُطلق على المغامر الإغريقي مع أن بعض الدارسين يستعمل صيغة "عليسة" عوض "أليسة" لتسمية المرأة الكنعانية. ثم إن هذا الاسم يمكن أن يتخذ صيغة "لص" و"لصة" بتفخيم حرف السين في "أليس" و"أليسة". ويعني اسم "لص" كما في اللغة العربية السارق وما يحمله من معاني المغامرة والاقتحام والسلب والنهب فيلتقي في ذلك مع الغازي والمحتل.

كما يحكي البربر التوارق في جبال الهقار بجنوب الجزائر والواحد منهم يسمى "تارقي" قصة تراثية مفادها أن جدهم الأول واسمه

"هقار" كاسم جبل الهقار ينحدر من امرأة اسمها "تين هنان" عاشت في غابر الزمان وكانت أميرة في قومها بناحية سجلماسة بجهة تافلالت في جنوب المغرب الأقصى فتضايقت من العيش مع أسرتها وحصلت لها مشاكل معها فهربت مع خادمة لها اسمها "تاكمات" وبعضهم يقولون إنها أختها . فقطعت تين هنان الصحراء واجتازت بناحية تامنراست بجنوب الجزائر الى أن وصلت الى جبال الهقار في موقع يسمى "أبلسة" يتقاطع فيه واديان فنزلت فيه. ثم استكشفته فوجدته مناسبا لها فنصبت خيامها وكانت عرجاء فسميت باسم "تين هنان" بمعنى "أم الخيام" في لغة التوارق حسب قول بعض الدارسين. وكان يوجد بالمكان قوم من البدو اسمهم "اصباطن" فتزوجت تين هنان فيهم وأنجبت ثلاث بنات تزوجن بدورهن وأنجبن أجداد العشائر الثلاثة المستوطنة حاليا بالهقار وهي عشيرة غيلة وعشيرة تاتيون وعشيرة كرماون أو كلوامن.

الأصول الحقيقية للشطح والتخميرة

وانسجاما مع التحاليل والشروح السابقة يمكن القول بأنً هذه الظواهر البشرية ذات الأبعاد الغيبية ومن بينها ظاهرة الشطح والتخميرة الصوفية هي امتداد واستنساخ لبعض التصرفات والممارسات البشرية القديمة التي قامت داخل الجماعات البشرية على أسس طبيعية بمعنى أنها ليست من ابتداع البشر بمحض تفكيرهم وتصوراتهم الخاصة على غرار الاعتقاد في الآلهة والكائنات الغيبية الشبيهة بهم من الملائكة والجن والشياطين. فقد سبقت الإشارة الى أن الآلهة والملائكة والجن والعفاريت والمردة والشياطين والغيلان يرمزون الى مختلف الطوائف والفئات الاجتماعية التي كانت تتركًب منها الطبقات الأولى من البشر. فالآلهة يرمزون الى الآباء والكبار والأسياد داخل الأقوام والأسر البشرية التي عمرت الأرض في بداية

التاريخ الإنساني بينما يرمز الملائكة الى فئة النساء والبنات . أمَّا الجن ومن شابههم ولفًّ لفَّهم فيرمزون الى فئة الشبان الذكور داخل هذه الجماعات البشرية التي عمَّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

غير أن هذا الاستنساخ اعتراه شيء من الانحراف كالاعتقاد في الآلهة. فإن الأجيال البشرية الأولى كانت تعرف أنهم يرمزون الى آبائهم وأجدادهم الأولين فأصبح مع مرَ الزمن يُنظر إلى هؤلاء الآلهة على أنهم قوى روحانية خارقة للعادة.

ففي هذا المعنى استند العالم الشيعي محمد بن الحسن الطوسي من مدينة طوس بخراسان بإيران في القرن الحادي عشر للميلاد الى العوامل النفسية لتفسير الشطحات وحالات الجذب التي يُقال إنها تنتاب المجذوبين من الأولياء والصوفية وأتباعهم عموما مثلما تتجسَّم في ما يُسمى بحالات "التخميرة والسكرة والنشوة الروحية" بدون خمرة مادية.

يقول الطوسي في هذا المعنى في كتابه" اللمع" : الشطح كالماء الكبير في النهر الضيق فإنه يفيض من حافتيه. وكذلك المُريد الواجدُ إذا قوي عليه وجدُه ولم يطق حمل ما يُريد على قلبه نطق بعبارات مستغربة مشكلة على فهم سامعها وعلى السامع أن يسأل عنها من يعلم علمها ولا يسارع إلى الإنكار".

فإنَّ هذا الشرح فيه شيء من الصواب لكنَّه يستوجب التصحيح أوَّله ضرورة أن تكون الأحوال الخاصة التي يتحدَّث عنها الصوفية حقيقية وليست مفتعلة وكاذبة لأنَّ الفقهاء وعامة الناس يشكُون في حقيقتها ويرون أنَّها مفتعلة. فيكون ما قاله الطوسي بمثابة تشخيص وتفسير مرض ليس له وجود أو شرح لظاهرة خيالية.

ذلك ان أغلب مظاهر الحياة البشرية العادية والحقيقية تدخل بالفعل تحت طائلة ما قاله الطوسي وما يمكن تسميته بالترويح عن النفس من خلال الكلام والصياح والحركة العشوائية على غرار الشخص الذي تعتريه حالة من الغضب لسبب من الأسباب كتعرٌضه للشتم من طرف شخص آخر فإنه يهيج ويضطرب ويصيح ويكثر كلامه وتعلو فمه كشاكش اللعاب المتدفق من داخله كل ذلك رغما عنه كأنه مدفوع دفعا ببعض القوى الخفية للتصرفٌ على هذا النحو فيحسٌ بشيء من الراحة كأنًه كانت به غمة فانقشعت. والأصل في ذلك أن الشتم الذي يصدر عن الشاتم في شكل كلام هو تيار هوائي فيؤثر على المشتوم ويجعله يقوم بالأفعال المذكورة رغما عنه على غرار الريح التي هي تيار هوائي. فعندما تهبٌ الريح تحرَك وتدفع كل ما يعترض سبيلها أو على غرار الماء في الإناء الذي يميل الى الفيضان عندما يرمي فيه أحد الأشخاص حجرا.

فإن هناك سعة وطاقة للنفس بالمعنى المادي للكلمة باعتبار أن النفس تنحصر في القدرة الطبيعية للجسم على التعامل مع الانفعالات الناجمة عن فعل المؤثرات الخارجية والداخلية. ولذلك ينصح الناس الشخص الذي تعتريه حالة شديدة من الغضب بأن "يُوسَع باله" حتى يمتصً بهدوء التيارات المادية المسلطة عليه ولا يكون تماما كالماء في الإناء الذي يفيض تحت تأثير ضربة الحجر.

ويقول الناس أيضا في مثل هذه الحالات ان ذلك الشخص انفجر غضبا وبالفعل فان الغضب وما شابهه من الأحوال كالخوف والسكر هو انفجار طبيعي يتجسم مثلما سبقت الإشارة إليه في كثرة الحركة والكلام والتمدد حيث أن الخائف يهرب ويفرُ بحكم هذا التمدد. ثمً يرجع الجسم تدريجيا الى حالته الأولى على غرار اللولب المضغوط أو الماء المضطرب في رجوعهما الى حالتهما الأولى وليس الى الحالة الطبيعية عندما تنتفي وتزول أسباب الضغط والاضطراب باعتبار أن الحالة

الطبيعية في كل الظروف وكل المستويات ليست معروفة ويستحيل معرفتها.

فلهذا السبب يكثر عند بعض الطيور كالخطاف مثلا الصياحُ وهي تطير وتحلَق في الفضاء مع نهاية النهار وقرب غروب الشمس حتى أن بعض العارفين كان يُشبه صياح الخطاف بإصدار لفظة "شطيح شطيح " و"هشك هشك" التين يستعملان لتحفيز الراقصين عند البشر مثلما سبقت الإشارة إليه بحيث أن الطير تروَح عن نفسها بهذا الصياح وتشحذ طاقتها من جديد في ذات الوقت.

ثمّ إن هناك عامل التعوّد الذي يتمثل في اكتساب بعض العادات والطرق في السلوك والتصرف والتفكير بالإيحاء والتقليد وبالقوة والضغوط المادية كالشخص الذي يكتسب الاعتقاد في حقيقة أشياء وهمية وخيالية تحت تأثير شخص آخر له عليه نفوذ مادي أو معنوي مع أن هذا الشخص الأخير صاحب التأثير يُدرك أن تلك الاعتقادات خيالية ولا أساس لها من الصحة ولكنه يبثها لذلك الشخص على أنها حقائق فتكتسي طابع الأشياء الحقيقية عند الشخص المتعرَض للتأثير. ويُمكن القول بأن هذا العامل هو أصل القسم الأكبر من التصرفات البشرية والحيوانية والنباتية وحتى في مستوى الجماد.

تقديــــس الطرفـــــاء

في ذات السياق يعتقد الأهالي في قرى نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية في ولية صالحة اسمها "أمَي الطرفاية" دون تخصيصها بشاهد أو بضريح معلوم بحيث أصبحت بمثابة كائنة ومعبودة غيبية.

وتوجد قرية تحمل اسم "طرفاية" في الجزء الصحراوي من منطقة نفزاوة بجنوب مدينة دوز غير بعيد عن ناحية الصابرية.

فقد ذكر بعض العارفين أنَّ السكان في قرية بشلي غير بعيد عن مدينة قبلي المركز الإداري لمنطقة نفزاوة كانوا إلى عهد قريب يعتقدون في ولية صالحة اسمها أمَي الطرفاية يشيرون إليها بشجرة طرفاء يقال إنها كانت قائمة بالقرية.

كما كان الأهالي في قرية جمنة في منتصف الطريق الرابطة بين مدينتي قبلي ودوز الى عهد قريب يعتقدون في ولية صالحة اسمها أمي الطرفاية يشيرون اليها بشجرة طرفاء يقال إنها كانت قائمة في محيط واحة اسمها واحة كشادة تابعة لجمنة وتبعد عنها حوالي كيلومتر.

وأشار الشيخ الطاهر بو دومة صاحب كتاب" أخبار وأيام وادي ريغ" الذي تقدم الحديث عنه أن سكان قريته واسمها "تبسبست" بناحية "توقرت" بجنوب الجزائر كانوا يعتقدون في قدسية شجرة طرفاء كانت قائمة في القرية ومن مظاهر تقديسها كان كل من يمُرُّ بها يتمسَّح بها ويعلَّق عليها شيئا ممًا عليه وذكر أنه تولًى اقتلاعها وحرقها مع جماعة من الأهالي المستنيرين "درءا للضلالة والبدع والأوهام" في حدَ قوله.

ويوجد مدينة كبيرة تسمى "طرفاية" بالمغرب الأقصى يقال إنها سميت بهذا الاسم لوجود غطاء كثيف من شجر الطرفاء بالمكان بينما توجد مدينة اسمها الطويرف بجهة الكاف بشمال البلاد التونسية.

وكانت الشعوب السامية القديمة من عرب وكنعانيين و يهود يعتقدون في قدسية بعض الأوثان الصغيرة التي كانت تحمل كما يُحمل الأثاث تحت اسم "طرف" و"ترف" و"أطراف" وتمثل في نظرهم الآباء والأجداد الأولين للعشيرة والقبيلة. وكانت هذه المعتقدات منتشرة في القديم عند سائر الأمم على غرار سكان مدينة رومة عاصمة ايطاليا

بالقارة الأوروبية قديما فإنهم كانوا يعظمون أوثانا من هذا النوع يسمونها في لغتهم اللاتينية حرفيا باسم "بنات" (pénates).

فكانت الأقوام البشرية في القديم يحملون معهم هذه الأوثان والأشكال والصور الصغيرة عندما يهاجرون من مكان الى آخر لسبب من الأسباب سواء بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة كمن يحمل معه رمم وهياكل آبائه وأجداده الأولين.

أمّا الأصل في هذه الاعتقادات والممارسات فيرجع الى احترام الحدود والملكية الخاصة التي تحدُّها تلك الحدود خوفا من بطش أصحابها حيث أن كلمة "طرف" تفيد معنى "الحد" و"الحدود" كما في اللغة العربية. فكانت تلك الأوثان والأشكال والصور استنساخا للشواهد الحجرية والخشبية المقامة على قبور الآباء والأجداد في طرف وحدَ الحيَز الغابي أو الجبلي الذي تسكن فيه الجماعة البشرية بين الأشجار بحيث كانت ترمز الى حدود موطن الجماعة. فما دون تلك الشواهد والحدود فهو للجماعة ويُمنع ويُحجَّر على الآخرين دخوله وما بعدها فهو مشاع ولذلك تستعمل كلمة "حجر" في معنى المنع في اللغة العربية. وأحيانا كانت الجماعة تعلق على تلك الشواهد والأشجار المحيطة بمسكنها الجلود والسيور وما شابهها للإعلام والتنبيه بأنها حدود ينبغي احترامها وعدم تجاوزها.

وعلى هذا الأساس كان المقصود بالتقديس هو الطرف بمعنى الحدَ مهما كان الشاهد الذي يشهد عليه سواء كان كدسا من الحجر أو مجموعة من أشجار الطرفاء أو أشجار الزيتون أو نوع آخر من الأشجار على غرار الأشجار التي تسمى "زربة" في تونس وتحظى بالتعظيم لدى أهالي بعض القرى كتعظيم الطرفاء الذي تقدم الحديث عنه حتى أن الحدود يشار إليها بما يسمى "زرب" أي خط من شتى الأشجار ومشتقاتها كخط من جريد النخل أو خط من شجر التين الشوكي المسمى

باسم "هندي" في تونس ويناسب هذا الاسم تماما دوره باعتبار أن الطرف والحدَ والنهاية تسمى" أند" في اللغة الانقليزية (end).

كما أن الانطلاق والبداية يشار إليه في العامية التونسية والمصرية بعبارة "أنده". والمعلوم أن نهاية شيء تعني بداية شيء آخر. وظل السكان في تونس والجزائر بالخصوص الى عهد قريب يعلقون قطعا من القماش وما يُسمونه بالشراميط على هذه الأشجار المقدًسة باعتبارها رمزا للحدود في الأصل الأصيل ولكنً الناس نسوا هذه الحقيقة.

وما زالت الحدود في مختلف المستويات من حدود الجسم والجسد الى الحدود بين الأوطان والبلدان تعتبر مقدسة لدى البشر بمعنى تستدعي الامتناع عن اختراقها وتجاوزها مخافة التعرض الى التلف والهلاك ما لم يوافق واضعوها على ذلك مثل الزواج بين الأفراد الذي يُعتبر موافقة على اختراق حدود الجسد أو الحصول على تأشيرة رسمية من حكومة بلد من البلدان للسفر الى ذلك البلد واجتياز حدوده وزيارته.

واحات قبلي وتلمين وبشلي في الكتب القديمة

تمتاز الكثير من مدن وقرى منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية بعراقتها التاريخية رغم الطابع الصحراوي الغالب عليها منذ غابر الزمان من بينها المدينة التي اسمها "قبلي" المركز الإداري الحالي لمنطقة نفزاوة وقرية في محيطها القريب اسمها "بشلي". وينطق الأهالي هذين الاسمين في صيغة "اقبلي" و"ابشلي" وهو الصحيح.

فقد ورد ذكر مدينة قبلي وقرية بشلي في بعض الكتب القديمة التي يعود تاريخ تصنيفها الى القرن الخامس قبل الميلاد من ضمنها كتاب "الموسوعة التاريخية" للمؤرخ اليوناني المعروف هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (ما بين 484 و 425 قبل الميلاد).

ففي هذا السياق أشار المؤرخ هيرودوت (Hérodote) في كتابه المذكور الى وجود شعب بربري قديم اسمه حرفيا "اقبلي" و "اقبلاوية" (Cabales) كان يعيش في عهده بالأقاليم الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا الممتدًة من الحدود المصرية الليبية شرقا الى شط الجريد بجنوب البلاد التونسية غربا بما فيها منطقة نفزاوة التي تقع على الضفة الجنوبية لشط الجريد قبالة بلاد الجريد وعاصمتها المحلية مدينة توزر التي تقع على ضفته الشمالية.

وأضاف المؤرخ اليوناني هيرودوت أنًه كان يعيش بجواره شعب بربري آخر اسمه حرفيا "ابشلي" و"ابشلاوية" (Psylles).

وتشمل بلدان شمال إفريقيا تاريخيا وجغرافيا وبشريا الأقطار المعروفة باسم "ليبيا" و"تونس" و"الجزائر" و"المغرب الأقصى" و"موريتانيا" وبلاد "الساقية الحمراء وواد الذهب" بجنوب المغرب الأقصى بالإضافة إلى الصحراء الكبرى و"جزر الكناري" في المحيط

الأطلسي في عرض المغرب الأقصى جنوبا. فإن السكان الأصليين لكل هذه البلدان والنواحي هم شعوب البربر ولغتهم الأصلية هي اللغة البربرية.

بعض الشعوب البربرية القديمة

فقد جاء في كتاب "الموسوعة التاريخية" للمؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (Hérodote) في هذا الخصوص ما نصٌه حرفيا مع الملاحظة أنً المؤرخين اليونانيين أو الإغريق القدماء ومن ضمنهم هيرودوت يُسمٌون بلدان شمال إفريقيا باسم "ليبيا" (Libye) بينما يُسمٌون سكانها البربر الأصليين باسم الليبيون (Libyens) :

"وتضمٌ ليبيا العديد من الشعوب والأقوام البربرية. فأوًل قوم يعترضون سبيل القادم من مصر هم شعب اسمه "بنو تيدرمنت" (Adyrmachides) عاداتهم تتشبه عادات المصريين ولكنًهم يلبسون مثل سائر الليبيين. وتحمل نساؤهم خلاخل من نحاس حول الساق ويرسلن شعورهن ويفلينها من القمل. فعندما تعثر المرأة على قملة تقصعها بأظافرها وتعمل كأنها تأكلها ثم ترميها (ظلت هذه العادة قائمة في قرى نفزاوة الى اليوم وعندما تقصع المرأة القملة بأظافرها تطلق الصوت المعبر عن الإحساس باللذة ويقول السكان في هذه الحالة إنها تتمطق أو إنه يتمطق عن الشخص الذكر).

"ومن عادات "بنو تيدرمنت" إهداء العروس ليلة دخلتها لملكهم ليفتضً بكارتها إن رغب فيها ثم يردُها الى عريسها (أشار الكتاب العربي "ألف ليلة وليلة" الى هذه العادة في حكاية الملك شهريار بشيء من المبالغة).

"ويأتي بعدهم جماعة اسمهم "الزلاغمة" أو "الشلاغمة" (Giligammes) الذين يمتدُّ مجال انتجاعهم ناحية الغرب الى جزيرة "الفردوس" (Aphrodisias) حيث توجد مستوطنة يونانية في جزيرة "بلاتي" (Platée) تابعة لمستعمرة "قورينا" اليونانية بشرق ليبيا (مدينة شحات الليبية حاليا) في محيط المدينة الليبية التي اسمها "أزيريس" (Aziris) غير بعيد عن ساحل البحر (بمعنى البحر الأبيض المتوسط). ومن هذا الموضع تبتدئ منابت شجرة "بـو نافـع" أو السيليفيوم (le silphium) وتمتدُ الى خليج سرت الكبرى.

"وبجوار جماعة الشلاغمة مباشرة توجد منازل الأقوام الذين اسمهم "اصباطن" (ظلوا موجودين الى اليوم بناحية جبال الهقار جنوب الجزائر Asbystes) ومنازلهم جنوب مستعمرة قورينا اليونانية. ويكثر عندهم استعمال العربات التي تجرٌها أربع خيول. ويسكن بالغرب منهم جماعة اسمهم "هوش" أو "أوس" (Auschises) جنوب منطقة برقة ويمتد مجال انتجاعهم الى البحر ناحية ما يُعرف باسم "هسبيريد" (Hespérides وهي ناحية بنغازي حاليا بشرق ليبيا).

القبلاوية والابشلاوية والنسامون

"ويقطن بجوارهم الشعب الذي اسمه "اقبلي" و"اقبلاوية" (Cabales) وعددهم ليس بكثير ويصل مجال انتجاعهم الى البحر عند حدود مدينة "تاسرة" (Tauchires) التابعة لناحية "برقة" وعاداتهم لا تختلف عن عادات سائر الشعوب والقبائل البربرية المستقرة جنوب مستعمرة قورينا اليونانية.

"والى الغرب من جماعة "أوس" توجد منازل شعوب "غمارة" الصحراويون المعروفون باسم "ناسامون" (Nassamons). وهم قبائل كثيرة يتركون قطعانهم ومواشيهم في الصيف قرب ساحل البحر ويصعدون جنوبا الى واحة اسمها "أوجلة" و" جالو" (Augiles) قصد جني التمر في الخريف وهي واحات كبيرة تنتج أنواعا جيدة من التمر. ويصطاد جماعة غمارة الصحراويون أو النسامون الجراد الصحراوي ويستهلكونه وذلك بتجفيفه وطحنه ثم ينقعون دقيق الجراد في الحليب ويشربونه. ومن عادة رجالهم التزوُّج بالعديد من النساء ومعاشرتهن متى شاءوا فيركز الرجل عصاه (أمام خيمته) علامة منه على اختلائه بإحدى نسائه ويواقعها جنسيا دون حرج. وعندما يتزوًّج الغماري الصحراوي لأول مرًّة فإن العروس تمارس الجنس ليلة دخلتها والأيام التي تليها مع شباب الحي من أصحاب العريس ويقدم لها هؤلاء الشباب الهدايا بالمناسبة.

"ولهم طريقة خاصة في الحلف والقسم وذلك بأن يضعوا يدهم على ضريح رجل صالح ويحلفون باسمه. ولهم أيضا طريقة خاصة في الكهانة والعرافة وذلك أن الواحد منهم يقصد قبور أسلافه فيصلي وينام بينها ويفعل بعد ذلك بمقتضى ما يراه من أحلام أثناء رقاده ونومه بين قبور أجداده. وتتمثل تأدية اليمين عندهم في أن يشرب الواحد في يد الآخر. وإذا عطش أحدهم ولم يجد ماء ليشرب يلتقط حفنة من الرمل وتراب الأرض ويلحسه. (تحدَّث العالم العربي أبو عبيد البكري من علماء الأندلس العربية في القرن الحادي عشر ميلادي في كتابه "المسالك والممالك" عن قبيلة "غمارة" في عهده بشمال المغرب الأقصى وذكر أنهم يمارسون كل العادات التي تحدًث عنها هيرودوت بخصوص شعب النسامون ومنها مواقعة العروس جنسيا من طرف أصحاب العريس ويُسميها الموازبة بالإضافة الى الاستعانة بالأحلام للتصرف في الحياة).

"ويأتي بعد شعوب "غمارة" الصحراويون القومُ الذين اسمهم "ابشلي" و"ابسلي" (Psylles). وقد هلك هؤلاء الابشلاوية بريح الشهيلي التي جفًفت عيون المياه والفساقي التي يشربون منها فأعلنوا الحرب على ريح الشهيلي وتوغلوا جنوبا في الصحراء ليناز لوها فهبت عليهم بشدة وسفت عليهم الرمال فاندفنوا فيها وهلكوا. فاحتل أراضيهم جماعة غمارة الصحراوين المعروفون باسم "نسامون".(لا شكً أن "الابشلاوية" ارتحلوا جنوبا الى الصحراء الكبرى هربا من مضايقة شعوب "النسامون" لهم وانعزلوا هنالك ولم يهلكوا باعتبار وجود قرية "ابشلي" الى هذا اليوم بمنطقة نفزاوة).

"اغريمن" أو "الجرامنت"

"وبالجنوب من كل هؤلاء الشعوب والأقوام يعيش الجماعة المعروفون باسم "اغريمن" أو "الجرامنت" (Garamantes) في صقع مليء بالوحوش والحيوانات المفترسة وهم جماعة برَيون يكرهون مخالطة الناس الآخرين ويتحاشونهم. كما يجهلون استعمال الأسلحة ووسائل الدفاع عن النفس.

"ويقطن بالقرب منهم جماعة يُسمون " ماكس" و"ماكسن" (Maces) ويصل مجال انتجاعهم الى البحر. ويقطون شعر الرأس بحيث يتركون نزرا يسيرا في أعلاه فيطول(تسمى قطًاية في نفزاوة وفي تونس عموما نقلا عن كلمة قطاي العربية بمعنى كثيب الرمل وظلت مستعملة الى عهد قريب عند جماعة العذارى بالخصوص سكان قرية زعفران قرب مدينة دوز في صحراء نفزاوة). ويرتدي جماعة "ماكس" دروعا من جلود النعام عند الحرب ويشق أراضيهم نهر البريقة وما يعرف باسم "سينيبس" عند الإغريق (Cinyps) وينحدر من

جبل الجنيات ثم يمرٌ بأراضي جماعة "ماكس " قبل أن يصب في البحر وهذا الجبل مكسو بالأشجار ويكاد ينفرد بذلك لأن ليبيا الشرقية ليس بها أشجار.

بحيرة "تريتون" وشعوبها

"ويعيش بجوار شعب "اغريمن" أو "الجرامنت" القوم الذين اسمهم "زنتان" (Gindanes). ويرتكز قوتهم اليومي على أكل ثمار نبتة اللوتس (lotus) و هي نبتة تعطي ثمارا من نوع النبق حلو المذاق كالتمر ويستخرجون منه نوعا من النبيذ. ويحدٌهم من ناحية البحر الشعب الذي اسمه "بنو مصالي" و"آيت مزال" (Machlyes) وتمتدٌ أراضيهم الى النهر المُسمى "نهر تريتون" (Triton) نسبة لصاحبه شيخ النهر الزلمي "تريتون" وهو نهر كبير يصب في بحيرة "تريتونية" (Tritonis) التي بها جزيرة "فلا" (Phla يسود الاعتقاد أن الأمر يتعلق بشط الجريد بالنسبة لبحيرة تريتونية وبواد المالح بالنسبة لنهر تريتون أو بواد صحراوي قديم جفت مياهه).

"وجاء في بعض الأخبار أنَّ أحدهم تكهن باحتلال هذا البلد من طرف قوم من اليونانيين من مقاطعة "سبارتا" (lacédémoniens de Sparte) باليونان بالجنوب الشرقي للقارة الأوروبية وذلك أنَّ البطل اليوناني المُسمى "جازون" (Jason) بعد قيامه بصنع فلك للقرصنة في البحار الشمالية تاه في البحر مع أصحابه وكان معه طاولة ذات ثلاث سيقان من نحاس (كان هناك منها بنفزاوة نوع يُسمى مثرد بمعنى إناء لأكل الثريد) فدفعه موج البحر الى السواحل الليبية فارتدً وسط بحيرة تريتونية فلم يعرف طريقه فظهر له سلطان البحيرة الزلمي تريتون وعرض عليه مساعدته على أن يسلمه الطاولة النحاسية فأعطاه إياها

فتنبأ له أحدهم أن جماعة من مقاطعة سبارتا من اليونان سيحتلون البلد يوم تضيع الطاولة النحاسية فأخفاها قومه لحفظها من السرقة.

"وبجوار جماعة مصالي توجد قبائل أوزّو" (Auséens) . وكلٌ هؤلاء الأقوام يقطنون حول بحيرة تريتونية (Tritonis). وتترك قبائل المصاليون شعورهم تطول في مؤخرة رؤوسهم بينما يترك الأوزو شعورهم تطول في مقدمة رؤوسهم على هيأة ما يُسمى باسم القصَّة. ومن عاداتهم إقامة احتفال موسمي على شرف الربَّة والإلهة "أثينا" (Athènes) ويُسمونها "تانيت" (Tanit) بمشاركة فتيات البلد .فيتوزعن في مجموعتين ويتقاتلن بالعصي والحجارة حيث أنَّهم يقولون إن الإلهة أثينا أو تانيت وُلدت في بلدهم . وتعتبر الفتيات اللواتي يلقين حتفهن في المعركة غير عفيفات بينما يتمّ تكريم الفتاة التي تمتاز في المعركة. ويقول أهل هذا البلد إنَّ الإلهة أثينا أو تانيت كما يُسمونها هي بنت إله البحر "بوسايدون" أنجبها من حورية بحيرة تريتونية فاستسلمت فيما بعد الى الإله زوس كبير الآلهة فتبناها.

"ومن عادات هؤلاء الشعوب التريتونية اشتراك الرجال في النساء بحيث أنَّ النساء لا يسكنَّ مع الرجال ويعشن بمعزل عنهم ويواقعهن الرجال جنسيا كيفما اتفق وتتولى النساء تربية الأولاد وعندما يبلغ الطفل يؤخذ الى مجمع الرجال فكل من شابهه سُمَي أبوه.

شعوب الواحات الصحراوية

"هذا بخصوص الشعوب الليبية الرحّل المستقرين في المناطق الساحلية. أمّا إذا ما توغل الواحد جنوبا في الأراضي الداخلية فإنه يجد نفسه في ربوع ليبيا المليئة بالوحوش والحيوانات المفترسة حيث ينتصب وراءها عرق هائل من الرمال يمتدُّ من مدينة طيبة المصرية

(Thèbes) الى البحر المحيط غربا. وينتشر على طول هذا العرق الرملي العظيم العديدُ من الأحياء البشرية القائمة حول روابي وتلال تنبع من فوقها عيون ماء جارية ماؤها عذب زلال تسقي واحات من النخيل ويقطنها أقوام مختلفة.

"وأوّل هؤلاء الأقوام للقادم من مدينة طيبة المصرية الجماعة المعروفون باسم "أمونيون" مستقرون بواحة "سيوة" على الحدود المصرية الليبية أين يوجد معبد للإله أمون (les Ammonies). وبهذه الواحة عين تسمى "عين الشمس" من خصائصها أنَّ ماءها يكون فاترا عند مطلع الفجر ثم يبرد تدريجيا في النهار حتى يصبح باردا جدا في أوّل الليل ثم يسخن من جديد وهكذا دواليك.

" بعد مسيرة عشرة أيام (عشرة مراحل عند الجغرافيين العرب) من واحة الأمونيين بمنطقة سيوة توجد واحة نخيل أخرى على ربوة مماثلة يسكن حولها جماعات من قوم "اغريمن" أو "الجرامنت" وقد تعلَّموا استعمال السماد الطبيعي لتثمين الأراضي الزراعية ومنازلهم ليست بعيدة عن بلد آكلي اللوتس. وبعدهم على مسيرة شهر يوجد البلد الذي ينفرد بثيرانه التي ترعى وهي تمشي الى الوراء بسبب قرونها الطويلة والملتوية نحو الأرض. كما يغير جماعات اغريمن هؤلاء باستمرار على سكان الكهوف والغيران من الحبشيين ذوي البشرة السوداء (Ethiopiens troglodytes) ويطاردونهم مستعينين بعرباتهم التي تجرها أربع خيول لأنَّ سكان الكهوف والغيران هم عداءون ممتازون اشتهروا بخفتهم وسرعتهم في الجري ويأكلون الحيات والأحناش وغيرها من الزواحف ولهم لغة تشبه صياح الخفافيش.

"ثمً بعد مسيرة عشرة أيام توجد ربوة أخرى حولها قوم آخرون اسمهم "أطارنت" (Atarantes) وليس للأفراد عندهم أسماء خاصة. وهم يشتمون الشمس ويسبُّونها لأنها تحرقهم.

"وتليها هضبة مماثلة تنبع من فوقها عين ماء جارية ومن حولها بعض السكان وهي محاذية لجبال الأطلس الصحراوي (جبال "درن" عند البربر) وهذه الجبال هي جبال شاهقة لا يكاد المرء يرى قمتها لأن السحب تحجبها ويُسميها الأهالي "عمود السماء".

"ويحمل السكان المقيمون حولها اسم "أطلنت" (Atlantes) نسبة الى أطلس (Atlas). ويُروى عنهم أنهم يمتنعون عن أكل كل ذي روح ولا يحلمون. وبجنوب هذا الصقع توجد الصحراء القاحلة.

عادات بربرية قديمة

"أمًا الشعوب التي تقطن بالغرب من بحيرة تريتونية فإنًهم ليسوا رحًلا. ولهم عادات مختلفة.

"فعندما يبلغ الطفل البربري أربع سنين يكويه البعض في رأسه بينما يكويه آخرون في أصداغه اعتقادا منهم أنً ذلك نافع صحيا. وبالفعل فإنً البربر الليبيين هم أصحٌ الشعوب الإنسانية المعروفة.

"وللبربر طريقة في تقديم الذبائح المقدسة فهم يبتدئون بقطع أذن الضحية ورميها فوق سطح البيت ثم ينحرونها أو يلوون رقبتها. ويعظمون إله الشمس وإله القمر. ويعظمون الربة أثينا أو تانيت كما يُسمونها وكذلك الإله بوسايدون (Poseidon) وشيخ النهر الزلمي تريتون. (ذكر أحد العارفين عاصر مريضا عقليا في النصف الثاني من

القرن العشرين بإحدى قرى نفزاوة أنَّ أوّل ما بدأ به المريض أنه ذبح شاة وقطع أذنها ورماها).

"وقد نقل اليونانيون عن البربر نمط اللباس التي ترتديه الإلهة أثينا في التماثيل والأصنام المقامة لها وخاصة الدرع الذي اسمه "أجيو" (aigis باليونانية ومعناه جلد الماعز). فإنَّ لباس الصبايا الليبيات مصنوع من الجلد تتدلى منه سيور من الجلد بحيث أن صبايا هذه البلاد يجعلن فوق ملابسهن جلدا من جلود الماعز مدبوغ ومنزوع الشعر تزينه شراريب حمراء اللون. فقد استعار اليونانيون درع أثينا من هذه الجلود الليبية. كما أنَّ الأصوات الحادَّة التي يطلقها الزوار عند زيارة المعابد المخصصة للربة أثينا أصلها من ليبيا.

"ومن عادات جماعة "غمارة" الصحراويين أي النسامون أنَّهم يدفنون موتاهم جلوسا وبيوتهم عبارة عن أخصاص محمولة ينقلونها معهم وينصبونها حيثما شاءوا.

المــزارعـــون

"وبالغرب من بحيرة تريتونية يوجد البربر المزارعون مجاورين لقوم "أوزو" ولهم بيوت مبنية بالطوب واسمهم "أمازيغ" (Maxyes) ويرفعون نسبهم الى بعض العائلات من مدينة طروادة القديمة (بما يبرز أن مدينة طروادة الأسطورية قد يكون موقعها في شمال إفريقيا وليس في غرب تركيا كما يقال خاصة وأن الأساطير تنسبها موقعها الى بلد اسمه "إفريقيا" Phrygie). ويأتي بعدهم الجماعة المعروفون باسم "زاوق" (Zauèces) من خصائصهم أن نساءهم يقدن العربات أثناء الحرب. ويوجد بجوارهم الشعب المسمى "غيزن" (Gysantes) ومن خصائصهم صبغ أجسامهم باللون الأحمر

ويأكلون القردة. ويوجد في محيطهم جزيرة صغيرة اسمها " كيروني" (Cyraunis) بها الزياتين والكروم ويسهل الدخول إليها من جهة البرَ. (الجزيرة التونسية التي في هذا الوضع هي جزيرة جربة خاصة وأنًه ما زال يوجد بها الى هذا اليوم قرية تسمى حومة غيزن)".

الى هنا ينتهي ما أورده المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (Hérodote) حرفيا بخصوص الشعوب البربرية القديمة المستقرة ببلدان شمال إفريقيا أو ما كان يُسمًى عند المؤرخين اليونانيين والإغريق القدماء باسم "ليبيا".

"اقبلي" اسم شعب قديم

فانسجاما مع ما سبقت الإشارة إليه تؤكد هذه المعطيات التي أوردها المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت منذ القرن الخامس قبل الميلاد العراقة التاريخية لمدينة قبلي وقرية ابشلي بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية.

ففي هذا السياق يمكن القول انً مدينة "قبلي" اتخذت هذا الاسم نسبة الى الجماعة البربرية القديمة الذين اسمهم "اقبلي" مثلما ورد في نص المؤرخ اليوناني هيرودوت كانوا يعيشون قديما في الربوع الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا من الحدود المصرية الليبية الى جنوب المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسي وكانوا قوما رُحًلا فكانوا ينقلون اسمهم الى الأماكن التي كانوا يحلُون بها. وعلى هذا الأساس فإن اسم "اقبلي" هو في الأصل الأصيل اسم جماعة بشرية قديمة واسم شعب قديم من البربر وليس اسم قرية أو موقع بعينه فنقلوا اسمهم الى ناحية اقبلي بالجنوب الغربي للبلاد التونسية أين استقروا في فترة من فترات تاريخهم.

وتأكيدا لهذه الحقيقة ما زال يوجد الى هذا اليوم قرية بالجزائر تسمى باسم "قصور اقبلي" في إقليم "توات" ذي الطابع الصحراوي بالجنوب الجزائري في ولاية "أدرار" وهو إقليم معروف ومشهور في التاريخ باسم "توات" و"القورارة" و"تيميمون" وغيرها من الأسماء المعروفة.

فقد جاء في دراسة حديثة منشورة على شبكة "الأنترنات" بعنوان "دور إقليم توات في التواصل مع منطقة السودان الغربي" من تأليف الأستاذ الجامعي الجزائري مقلاتي عبد الله والدكتورة رحايلي حياة ما نصّه :

"يتوسط إقليم توات بالجزائر الجهة الغربية من الصحراء الكبرى التي ينتمي إليها وهو يتربع على مساحة واسعة ويطل على منطقة السودان الغربي وبالتحديد دولتي مالي وموريتانيا وينقسم الى ثلاثة مناطق رئيسية هي "قورارة" أو"تين جورارين" و"توات" و"تديكليت".

"تقع منطقة "قورارة" أو "تين جورارين" شمال توات محاطة بالعرق الصحراوي الغربي الكبير من جهة الشمال والشمال الغربي وتضُمُّ عدة قصور وقرى من أهمَها "قصور أوقروت" و"قصور أجريفت" و"قصور تيميمون" وغيرها. أمًا منطقة توات الأصلية فيوجد بها "قصور بودى" و"قصور تامنطيط" و"قصور تيمي" و"قصور بو فادي" أو "أولاد الحاج".

"أمًا منطقة تديكليت فيوجد بها "قصر أولف" و"قصور اقبلي" و"قصور عين صالح" وغيرها. وقد ظلت تامنطيط أو تين ماطيط عاصمة إقليم توات عبر التاريخ الى القرن 17 ميلادي ثم أصبحت مدينة "أدرار" عاصمة إقليم توات وهي أكبر مدن مقاطعة تيمي.

"ويسود الإقليم مناخ صحراوي جاف يتميز بالحرارة الشديدة في فصل الصيف وبالبرودة في فصل الشتاء مع الجفاف طوال العام. ويتعرًض الى زوابع رملية قوية وهو نادر الخضرة باستثناء بعض النباتات الشوكية. وعلى الرغم من هذه الطبيعة القاسية عرف الإنسان كيف يستقر فيها لوجود الماء حيث توجد بالإقليم مياه جوفية هائلة تستغل عن طريق حفر الآبار السطحية والآبار العميقة فانتشرت بها تقنية الفقارات (يقال أيضا الفجارات) التي يبلغ عددها أحيانا المئات وتمتدٌ على عدة كيلومترات (تتمثل الفقارة في مجموعة من ألآبار المتصلة ببعضها بأنفاق وتصب مياهها في بئر مركزي واحد فتكون مياهه غزيرة ومتدفقة تصعد الى سطح الأرض فتسقي القرى والواحات).

ويقول المؤلفان على ضوء آراء بعض المختصين ان اسم "توات" يعني الواحات وأصله المقطع "وا" الذي يتركًب منه اسم "واحة" ويقال أيضا "واح" واستعير منه اسم "أوازيس" الذي يطلق على واحة النخيل في الفرنسية . ويقال ان كل هذه الأسماء أصلها اللغة المصرية القديمة والصحيح أن أصلها بعض اللهجات البربرية القديمة في هذه الربوع الصحراوية حيث ما زال يوجد الى اليوم إقليم اسمه "أوزو" بجنوب القطر الليبي.

قرية تلمين بالجزائر والقصور البربرية

وتحيط بمدينة تيميمون مجموعة من القرى منها قرية اسمها "تين ركوك" وأخرى اسمها "اوقروت" وقرية ثالثة اسمها "تلمين". كما تضُمٌ بلدية تيميمون العديد من القرى منها قرية "أغيات ماسين" وقرية

"تلالت" وقرية "تالا" وقرية "تين وامر" وقرية "تاروايا الاملال" وقرى "أمزغار" و"بني قنتور لحمر" و"حيحة" و"تلغمين".

كما اشتهرت قصور إقليم "توات" ومنطقة تيميمون بالذات بطابع مميز حيث أنها مشيدة بالتراب والطين الأحمر المتواجد بها ولعلً ذلك ما يفسر تسمية بعض هذه القصور البربرية القديمة باسم "القصر الأحمر". وتوجد قرية اسمها "بئر الأحمر" بجهة تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية.

وكان يوجد بمنطقة تيميمون نهر تحوًل الى سبخة.

فمثلما تقدًم ذكره تضُمٌ منطقة تيميمون بإقليم توات بالجزائر الكثير من القرى منها قرية اسمها "تلمين" مثل اسم قرية "تلمين" المحاذية لمدينة قبلي بمنطقة نفزاوة في الجنوب الغربي للبلاد التونسية. كما يوجد بها القرية التي اسمها "تلالت" مثل قرية "تلالت" بجهة تطاوين بالجنوب الغربي للبلاد التونسية وقرية "تلات" بجزيرة جربة الى جانب بلدات كثيرة بهذا الاسم في جبل نفوسة بالقطر الليبي منها بلدة "تلالت ن تادغيت" بناحية مدينة "يفرن" حتى أنً العالم الاباضي الشهير أحمد الشماخي من علماء جزيرة جربة في القرن السادس عشر للميلاد يقول في كتابه المُسمى "كتاب السير" ان جبل نفوسة بالقطر الليبي يقع بين تلالت غربا وتغريمن شرقا بمعنى بين قرية تلالت بجبل دمُر بجهة تطاوين وقرية "تغريمن" في شرق جبل نفوسة.

ويُشير اسم "قصور" في إقليم توات بالجزائر وفي بلدان شمال إفريقيا عموما الى نمط من البنايات خاص بهذه البلدان ويُسمي "قصر" بالعربية بينما يُسمى باسم "أغرم" باللغة البربرية وهو اسم مفرد ويجمع في صيغة "اغريمن" ويمكن أن يصغًر ويؤنث في صيغة "تغريمن" . ويتركًب القصر الواحد من بناية كبيرة ذات دورين أو أكثر بها مجموعة من الغرف الصغيرة الملتصقة ببعضها وتطل على ممر ودرب صغير

للولوج إليها وليس لها نوافذ وتستعمل لتخزين المواد الغذائية القابلة للتخزين والمعدات الفلاحية وغيرها ويمكن أن تبنى فوق المرتفعات أو على السهول. وتسمى أيضا باسم "قلعة" بالعربية وأحيانا باسم "الغرف" في الجمع و"الغرفة" في المفرد. وكان يوجد بقرية جمنة بمنطقة نفزاوة منذ حوالي 80 سنة بناية تعلوها غرفة واحدة ويسميها السكان باسم "الغرفة".

في هذا المعنى جاء في مقالة علمية عن قرى وبلدات جبل نفوسة بليبيا قديما وحديثا ما نصه :

" تنتشر المدن والقرى في جبل نفوسة بليبيا حول مصادر المياه كالوديان. فعلى ضفة وادي لالوت تقع مدينة "تيغيت" (أولاد محمود حاليا) والى الشمال من لالوت على بعد 20 كلم تقع بلدة "تاغرويت" المشهورة بعيونها وغزارة مياهها والى الجنوب منها تقع قرية "تكوت" المعروفة بكثرة نخلها (هناك منطقة اسمها "تكوت" في جبال الاوراس بالجزائر). والى الشرق من تغيت تنتشر مجموعة من القرى من أشهرها قديما قرية "تلالت" ومنها الى بلدة اسمها "التريشة" (اسم قبيلة بربرية وتوجد قرية بهذا الاسم قرب مدينة سليانة شمال تونس).

" أمّا وادي "اكرّاين" فهو وادي عميق ينحدر من الجنوب الى الشمال ثم يتفرع الى فرعين عند عين جارية تسمى عين الثرثارة بالقرب من مدينة "كاباو" وتقع على ضفافه مجموعة من القرى والمدن مثل مدينة "اينياين" و"القلعة" و"تلالت" و"نململ" و"بودير". وغير بعد من هذه القرى تقع مدينة "تمزين" (الشعير بالبربرية). والى الشرق من كاباو تقع مدينة "فرسطا" وفي شمالها تقع بلدة "قنطرار" (كانت هناك قرية بهذا الاسم قرب مدينة نفطة ببلاد الجريد جنوب تونس) وتسمى حاليا باسم "تيجي".

" وعلى ضفاف وادي شروس تقع أهم حواضر الجبل وهي مدينة "شروس". وتقع على الضفة الشرقية لهذا الوادي بلدة "الجزيرة" والى الغرب منها نجد مجموعة من القرى المشهورة في الجبل مثل "دركل" و"بغطورة" و"دجي" و"تنزغت" و" جريجن" و" ويغو" و"تمنكرت" و"زغرارة" . وغير بعيد عن "ويغو" تقع مدينة "تندميرة" والى الغرب منها تقع مدينة "تملوشيات". وتقع على وادي أمسين ووادي "أجلازن" (اجلاص بتونس) مجموعة من القرى منها "فسًاطو".

"وعلى ضفاف وادي الزرقاء تقع بلدة "الحمارى" و"تين دباس" و"مزغورة" و" ويفات" و"توكيت" المعروفة كذلك باسم "تمزدة" . وقرب أرجان والى الشمال منها تقع مدينة "جادو" .

"وتقع في أراضي "جادو" قرى كثيرة منها "اقناون" و"تموقيط" و"طرميسة" بالاضافة الى قرية "تاردية" و"سنتوت" و"ميرى" وبلدة "وذرف" (توجد قرية وذرف بالقرب من مدينة قابس في الجنوب التونسي) وقرية "تغرمين". وهناك بلدة "تلات ن تادغيت" بجوار قرية "يفرن" (توجد قرية تلات بجزيرة جربة بجنوب تونس) ومعناها "ثنية البطن" بالعربية وبلدة "أكوف" (خيال المآتى) بالإضافة الى قرية "سدادة" قرب مدينة سرت وموقع اسمه "جيمان" في غابة "ككلة" بجبل نفوسة (كانت توجد قرية اسمها "كيكل" بنفزاوة في جنوب تونس وهناك مدينة جيجل في الجزائر). وقد ظل سكان هذه البلدة يتكلمون البربرية حتى سنوات 1960. ويوجد بلدتان تحملان اسم" ايجمان" بناحية "يفرن". (انتهى ما جاء في المقالة).

لكن ما زال يوجد العديد من القصور البربرية التقليدية بجهة تطاوين ومدنين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية ويطلق عليها اسم "القصور البربرية". وكانت منطقة نفزاوة تضُمُّ أيضا بعض القصور والقلاع من هذا النوع اضمحلت وبقي اسمها فقط مثل بلدة مهجورة

اسمها "القصر الأحمر" بالقرب من قرية جمنة على الطريق الصحراوي بين مدينتي قبلي ودوز وقرية اسمها "القلعة" ما زالت قائمة وعامرة الى هذا اليوم بالقرب من مدينة دوز.

"زيرة" و"أغرم" و"اغيل"

ومثلما سبقت الإشارة إليه تدعى هذه القصور البربرية التقليدية باسم "أغرم" و"اغريمن" و"تغريمن" باللغة البربرية. ويتًخذ أحيانا صيغة "عرًام" بالعين المهملة غير المنقوطة وتوجد قرية اسمها "عرًام" بجهة قابس على الطريق الرابط بين مدينة قابس ومدينة مدنين بالجنوب الشرقي التونسي. وأصبح اسم "أغرم" يطلق على البلدة والقرية والحي والبلد دون تمييز.

غير أنً اسم "زيرة" هو الذي كان يغلب استعماله في منطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية لتسمية التجمعات السكنية المحيطة ببعض الواحات وغابات النخيل وهو اسم مفرد ويجمع في صيغة "زائر". وأصله بربري محض وله صلة وثيقة باسم "جزيرة" الذي يطلق في اللغة العربية على القطعة من الأرض التي يحيط بها ماء النهر أو ماء البحر من كل جانب. وأوضح المؤرخ اليوناني هيرودوت في سياق حديثه الطويل عن البربر الليبيين أنًهم يستعملون عبارة "زيرة" هكذا حرفيا بمعنى الربوة والهضبة في اليونانية. كما ذكر هيرودوت أن اسم "بتٌوس" (Battus) الذي كان يحمله أوًل ملك لمستعمرة قورينا (Cyrène) اليونانية بشرق ليبيا يعني الملك والحاكم في اللغة البربرية أو اللغة الليبية القديمة ولا شكً أنًه صيغة لفظية لاسم "باديس" المُستعمل الى هذا اليوم لتسمية الأشخاص في بلدان شمال إفريقيا وكان يحمله بعض الملوك من البربر.

وعلى ضوء التحاليل المتقدمة يُمكن القول بأنً اسم "زيرة" واسم "أغرم" هما اسمان متعادلان معنويا.

وتحدًث المؤرخ اليوناني هيرودوت عن واحة اسمها "أوجلة" وأخرى اسمها "جالو" بالقرب منها بجنوب مدينة بنغازي بشرق القطر الليبي وما زالت الواحتان موجدتين الى اليوم وتعتبران من أكبر الواحات الليبية.

فإن اسم "أوجلة" هو صيغة لفظية لاسم "أغيل" الذي يطلق في اللغة البربرية على الربوة والتل والهضبة وعلى الواحات القائمة حول روابي تجري من فوقها أو في سفحها بعض العيون الطبيعية بمعنى الربوة والتل الخالي أو التل الذي يكون عامرا وآهلا بالسكان. والملاحظ أنً جلً واحات منطقة نفزاوة والمناطق الصحراوية الأخرى بجنوب بلدان شمال إفريقيا تقع فوق بعض الروابي والتلال بحيث يمكن تسميتها باسم "أغيل" و"أغيلن" و"تاغيلت" وغيرها من الصيغ التي يتخذها اسم "أغيل". ومن هذا المنطلق فان اسم "أغرم" و"زيرة" و"أغيل" متعادلة معنويا.

ناحية القبلة والمعنى البعيد لاسم "قبلي"

في هذا السياق يُستعمل اسم "اقبلي"في معنى عين الماء في اللغة البربرية ويتًخذ صيغة "أغبالو" حيث ما زال يوجد مدينة اسمها "قبلاط" بناحية باجة بشمال البلاد التونسية وأصله "أغبالو" بمعنى عين الماء. وكان يوجد في مدينة قبلي بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية عيون جارية طبيعية تغذيها ينابيع سطحية على غرار كل مدن وقرى منطقة نفزاوة . وقد نضبت مياهها جميعها في هذا الوقت وغالبا ما يُسمى منبعها الرئيسي باسم "رأس العين" وما زال موقع "رأس

العين" موجودا بمدينة قبلي. ويقع على الطريق الصحراوي المؤدي الى مدينة دوز فوق الربوة التي تقع عليها مدينة قبلي حاليا.

غير أنَّ اسم "قبلي" هو اسم عريق وله أبعاد حضارية. فهو يًطلق على المناطق الصحراوية التابعة للصحراء الكبرى وعلى المناطق الصحراوية الجنوبية ببلدان شمال إفريقيا وتمتدُّ طبيعيا من المحيط الأطلسي غربا الى منطقة الواحات بمصر. وفي حقيقة الحال فإن الصحراء الكبرى تمتدُ الى صحاري الجزيرة العربية ومن ورائها الى إيران وبعدها الى الصين في أقصى القارًة الآسيوية . وأصلها وعنصرها هو الرمل وعروق الرمل ويُسمى أيضا باسم الهبير في اللغة العربية. وقد تفطًن العالم والجغرافي والرحالة العربي محمد بن حوقل من علماء القرن العاشر للميلاد الى هذه الحقيقة بمعنى امتداد الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي الى بلاد الصين وبسطها بالتفصيل في كتابه "صورة الأرض".

يقول ابن حوقل بهذا الخصوص :

"والرًمل المعروف بالهبير هو الرًمل الذي أصله بالشقوق إلى الأجفر عرضا وطوله من وراء جبلي طيء إلى أن يتصل بالبحر مشرَقا ويمضي من وراء جبلي طيء إلى أن يرد إلى الجفار من ديار مصر ثم يُساير النيل وجبل المقطم عن جانبي النيل الى بلد النوبة ويعبر من فوق الفيوم سواء فيتصل بالمغرب إلى نفزاوة وسجلماسة واودغشت الى البحر المحيط (أي المحيط الأطلسي) وله عرف يضرب به من القادسية الى البحرين ويعبر البحر فيمرٌ على مشارق خوزستان وفارس الى أن يرد الى سجستان ويعطف منه شيء على برَ فارس وخراسان الى الطبسين وقوهستان ويمضي مشرَقا الى مرو آخذا على جيحون الى برية خوارزم الى خوارزم ثم يعبر جيحون الى فراتكين ويأخذ في بلاد الخزلجيًة وبعض بلاد التبت الى بلاد الصين والبحر المحيط في جهة

الشرق. وهو متصل بالرمل على ما وصفته وسقته الذي على البحر المحيط (المحيط الأطلسي) في صحراء اودغشت ذاهبا الى غانة وكوغة راجعا الى ماسة وبعضه جبال عظيمة وبعضه أرض سهلة ينتقل من مكان الى مكان وبعضه لا تعرف له حركة فهو لا يزول عن مكانه وفيه أصفر لين اللمس وأحمر قاني وأزرق سماوي وأسود حالك وأبيض ناصع وبعضه يحكي الغبار وبعضه خشن جرش".

فتأكيدا لما سبقت الإشارة إليه بخصوص إطلاق اسم "قبلي" على الصحراء والمناطق الصحراوية عموما تدعى صحاري بلاد الحجاز بالجزيرة العربية باسم "قبلة". ويُستعمل اسم "قبلة" لتسمية مدينة مكّة بالحجاز ومسجدها الذي يحوي البيت العتيق المقدّس المُسمى "كعبة" وهو بيت صغير عبارة عن حجرة على شكل مكعب كان مقدّسا في القديم عند سائر العرب سكان الجزيرة العربية وظل محتفظا بطابعه المقدّس لدى المسلمين من بعدهم الى اليوم في سائر الأقطار. وكان هذا البيت العتيق المُسمى "كعبة" النواة الأولى لمدينة مكّة التي قامت حوله بالتدريج الى أن أصبحت مدينة عظيمة.

وكان يوجد بالجزيرة العربية بيوت مقدسة مماثلة اسمها "كعبة" ذكرها العالم محمد بن السائب الكلبي من علماء العراق المتوفى سنة 819 ميلادي في كتابه بعنوان "كتاب الأصنام" منها كعبة بناحية نجران جنوب مدينة مكة لقوم اسمهم "بنو الحارث بن كعب" وكعبة أخرى بموقع اسمه "سنداد" بين مدينتي الكوفة والبصرة بالعراق للقوم المعروفين باسم "إياد".

وما زال المصريون يستعملون الى اليوم كلمة "قابلة" و"قبلة" في معنى السيدة وينطقونها "أبلة". فتقول الأخت الصغيرة لأختها الكبيرة "يا قبلة" عندما تخاطبها بينما تقول لأخيها الكبير "يا أبي" بما يفيد أنّ كلمة "قبلة" تعني "الأم". وبالفعل تستعمل كلمة "قابلة" عموما في

المجتمعات العربية لتسمية المرأة التي تساعد المرأة الحامل على وضع مولودها الجديد وتستقبله في يديها عندما يخرج من بطن أمه فهي بمثابة أمَه. وظل الواحد من السكان في بعض قرى نفزاوة الى عهد قريب يقول للقابلة التي ولَّدته "يا أمي" عند مخاطبتها. وهو اسم مفرد ويجمع في صيغة "قوابل".

وبالفعل فإن اسم "مكّة" الذي تحمله مدينة مكة بالحجاز في الجزيرة العربية هو صيغة لفظية لاسم "أمَّك" بمعنى "أم" مع زيادة حرف الكاف بوصفه ضمير المخاطب وهي طريقة في التخاطب ما زالت قائمة الى اليوم في منطقة نفزاوة بحيث يقول الواحد من سكان نفزاوة أثناء حديثه "بوك فلان" بمعنى "أبوك فلان" وهو يقصد "الأب فلان" من باب التقدير وليس "أب الشخص" الذي يخاطبه.

فعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ اسم "اقبلي" يفيد معنى الأم ويُقصد به الآباء والأجداد والأسلاف عموما أي الناس الذين جاءوا وعاشوا قبل غيرهم. ومن هذا المنطلق فهو يعادل اسم "مكّة" مع الملاحظة أنّ أغلب أسماء الأماكن المعروفة على الأرض تحمل هذه المعاني باعتبار أن الذين حازوها وسكنوها في بداية الأمر هم الآباء والأجداد والأسلاف ولهذا السبب يكتسي العديد منها طابعا مقدّسا الى اليوم لأن الآباء والأجداد والأسلاف كانوا يحظون بالتعظيم مثلما هي الحال الى هذا اليوم من طرف أبنائهم وأحفادهم. فإن الآلهة الذين قدستهم وعظمتهم الشعوب الإنسانية في القديم يرمزون بدون استثناء الى آباء وأجداد وأسلاف الأسر والعائلات والأقوام البشرية الذين عمروا الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وقاموا بتعمير الأرض وتأسيس الأحياء البشرية الأولى التي تحوَّلت تدريجيا الى القرى والمدن والأوطان القائمة حاليا على وجه الأرض بينما تحوَّلت هذه الأسر والعائلات القديمة الى الشعوب والقبائل البشرية القائمة والمنقرضة.

مواضــع مماثلـــة

ويوجد الكثير من الأحياء البشرية القديمة التي اضمحلت وبقيت أسماؤها فقط مثل السماء والجنة وأشباهها من المواقع الغيبية فإنها كانت في الأصل الأصيل أحياء بشرية عادية تحمل اسم "سماء" و"جنة" وما شابهها.

كما كانت مدينة مكّة العربية تسمى أيضا "بكّة" وهو صيغة لفظية لاسم "أبوك" بمعنى "أب" مع زيادة ضمير المخاطب المتمثل في الحرف كاف. ويتّخذ هذا الاسم صيغة "تبوك" وهو اسم مدينة بشمال الجزيرة العربية. كما يتّخذ صيغة "طباقة" و"طبقة" . وكانت مدينة "دقة" بناحية باجة بشمال البلاد التونسية تسمى "تبوك". وفي حقيقة الحال فإن اسم "دقة" هو صيغة لفظية لاسم "داك" بمعنى "أبوك" حيث يتركّب من كلمة "دا" وتطلق على الأب في اللغة البربرية وكذلك في اللغة الانقليزية ومن الحرف كاف بوصفه ضمير المخاطب. ويقال للأب في تونس "سيد" بحيث أن الابن في منطقة نفزاوة يقول لأبيه "يا سيدي" عندما يخاطبه وبذلك فإن اسم "داك" يعادل اسم "سيدك" وكذلك اسم "سيك" الذي يتركّب من كلمة "سي" وتستعمل في معنى السيد في بلدان شمال إفريقيا ومن ضمير المخاطب. ومثلما سبقت الإشارة إليه فإن إضافة ضمير المخاطب في كلَ هذه العبارات هي طريقة في الكلام بحيث أن عبارة "سيك فلان" يُقصد منها عموما "سي فلان" و "السيد فلان" أو أيضا "سيدنا فلان".

ويوجد بالقرب من مدينة قبلي سلسلة جبلية تحمل اسم "طباقة" وهو صيغة لفظية لاسم "أبوك" و"تبوك". ويوجد بالقرب منها موقع يُسمى "الأصنام" وكان يُسمى باسم "تاسرة". وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت أنَّ شعوب "اقبلي" كانوا منتشرين في مجال ترابي يصل الى

المدينة الساحلية التي اسمها "تاسرة" (Tauchires) . كما يوجد قرية اسمها "تيسوراس" في غابة جحيش في محيط مدينة "ككلة" بجبل نفوسة غرب ليبيا . وكان يوجد في محيط قرية "تاسرة" بناحية جبال طباقة المذكورة مجموعة من الغيران الطبيعية كان سكان نفزاوة يسكنونها عندما يخرجون في فصل الربيع لتلك البراري ويسمونها الغيران بينما يُدعى الموقع باسم "الأكوان" وهو صيغة لفظية لاسم "غيوان" الذي يطلق في البربرية على الخيام وعلى النجع والدوار والنزلة باعتبارها مجموعة من الخيام.

"تونس" اسم شعب قديم

في ذات السياق أشار المؤرخ هيرودوت الى تعظيم الإلهة والربة "أثينا" من طرف الأقوام البربرية التي كانت تسكن حول بحيرة تريتونية وترمز هذه البحيرة الى شط الجريد بالبلاد التونسية في اعتقاد أغلب الدارسين. وكان البربر يُسمون هذه الإلهة باسم "تانيت" بحيث أن اسم "أثينا" هو صيغة لفظية لاسم "تانيت" والعكس صحيح. واشتركوا في عبادتها مع إخوانهم الكنعانيون المستقرين في شمال إفريقيا آنذاك سواء منذ غابر الزمان أو في سياق هجراتهم المتتالية من الجزيرة العربية وبلاد الشام الوطن التاريخي للكنعانيين الى شمال إفريقيا.

وكان شط الجريد عبارة عن بحيرة قبل أن يتحوًل الى سبخة مالحة وما زال أحيانا يستعيد هذه الخاصية عند نزول الأمطار بقوة وحدوث الفيضانات. وسبقت الإشارة إلى أنً النهر القديم بمنطقة "تيميمون" بالجزائر تحوًل مع مرور الزمن في هذا الوقت الى سبخة مالحة.

وذكر هيرودوت أن نهرا اسمه "تريتون" كان يصب في بحيرة تريتونية .

ولا شكَّ أنَّه كان هناك شبكة من الوديان الصغيرة بهذه الربوع الصحراوية الممتدة بين منطقة نفزاوة وبلاد الجريد في تونس ومنطقة وادي سوف وما جاورها بالجزائر فتتجمع لتصبح نهرا كبيرا يعبر المناطق المذكورة ويصب في شط الجريد. وما زال يوجد بمنطقة نفزاوة وادي يصب في شط الجريد يسمى "وادي المالح" يأتي من الشرق ويمُر بالقرب من قريتي جمنة والرحمات عبر الطريق الصحراوي بين مدينتي قبلي ودوز ويجري فقط في الفترات الممطرة مع العلم وأنَّ قرية جمنة ملتصقة بشط الجريد من ضفته الجنوبية بواسطة شريط صغير يُسمى محليا باسم "الشط" وكان السكان يتزودون منه بملح الطعام.

فقد ورد في الكتاب المعروف باسم "تاريخ العدواني " المنسوب للشيخ محمد العدواني من أهل وادي سوف بالجزائر في القرن السابع عشر الميلادي وفي كتاب " الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" للشيخ إبراهيم العوامر من علماء وادي سوف في القرن العشرين للميلاد (بين 1881 و1934) أنه كان يوجد بوادي سوف عدة غدران يُسميها العدواني باسم "غدر النيل" أي غدران من بقايا مرور نهر النيل سابقا بالمكان وهي التي سهَّلت استنبات واحات النخيل بوادي سوف. ويُعلق إبراهيم العوامر على ذلك فيقول "والأقرب عندي أنَّ غدر الماء المذكورة هي غدران من بقايا الوادي الذي كان يجري من جبل الدخان ثم يجتمع الماء بالقرب من قرية تاغزوت المسماة سابقا بالقرارات (جمع قرارة) وتصير واديا عظيما يأتي غربا من الموقع المسمى "مالح الغرب" ويقال له أيضا "مالح الدبيلة" ثم يمُر ذلك الوادي نحو الشط الشرقي ثم ينعطف شرقا نحو الصحراء. واستدل بالرحالة الورثلاني الذي قال "ان في الصحراء واديا يجري...".

في ذات السياق كانت الوديان التي تسقي واحات بلاد الجريد وفي مقدمتها مدينتا توزر ونفطة تسمى "أنهارا" في كتب بعض المؤرخين العرب والبربر من بلدان شمال إفريقيا ومن بينها الكتاب المعروف باسم "تاريخ العدواني" المنسوب الى الشيخ محمد بن محمد العدواني من أهل واد سوف بغرب الجزائر الذي تحده من جهة الشرق منطقة نفزاوة التونسية وشط الجريد . وهو كتاب في تاريخ واد سوف وقصور عدوان وظروف استقرار عرب طرود به في القرن الخامس عشر ميلادي بأسلوب خاص ومن وجهة نظر مخالفة للمألوف وترجم الى الفرنسية منذ القرن التاسع عشر ميلادي.

ففي هذا المعنى جاء في كتاب العدواني ما نصه : " لمّا أتى عاد الأصغر من العراق وقد طرده أبوه كنعان بلغ افريقية (البلاد التونسية) فنزل موضع قرط جنّة (قرطاج) فبنى قصرا . فلمّا كان بها تزوّج لؤية بنت زبيب فولدت له ولدين لوقا وشدّاد وبنتا سماها لخيبة. ففرّقهم في نواحي إفريقية فنزل لوقا بموضع توزر وحفر نهرها ونزل شدّاد بأرض نفطة وكانت تسمى شقنبار وحفر نهرها ونزلت لخيبة بأرض نفزاوة".

فبالنسبة لعبادة وتعظيم الربة والإلهة أثينا أو تانيت من طرف البربر القاطنين قديما بناحية نفزاوة وشط الجريد سبقت الإشارة الى أنّ الآلهة القدماء يرمزون إلى آباء وأجداد وأسلاف الشعوب التي قدّستهم وعظمتهم. وعلى هذا الأساس فإن الإلهة والربة "تانيت" أو "أثينا" التي كان يعظمها البربر المقيمون قديما حول شط الجريد أو بحيرة تريتونية مهما كان موضعها في شمال إفريقيا ترمز الى آباء وأجداد الأقوام الذين عبدوها ومن جملتهم أقوام البربر المذكورين. وكان اسم "تانيت" في الأصل الأصيل "تونس" حيث ما زالت العديد من المواقع تحمل اسمها في البلاد التونسية منها مدينة تونس عاصمة البلاد التونسية ومدينة "تينة" بالقرب من مدينة صفاقس على الساحل التونسي .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأنً اسم "تونس" هو اسم جماعة بربرية قديمة كانوا يقطنون بجهة الجريد ونفزاوة وقابس . وكان اسم "تونس" بمثابة لقب يطلق على كبار القوم من الرجال والنساء وخاصة من النساء حيث ما زال اسم "تونس" يُستعمل لتسمية النساء في البلاد التونسية. فقد ظل بعض الجماعات البربرية الى هذا اليوم ينتسبون عن طريق الأم وليس الأب بحيث أن العشيرة تنتسب الى الجدًة الأنثى وليس الى الجدَ الذكر. ويوجد الانتساب عبر الأم عند قبائل التوارق أو الطوارق من البربر سكان الصحراء الكبرى.

فقد ذكر محمد العدواني أنً مدينة نفطة ببلاد الجريد حول شط الجريد كانت تسمى "شقنبار" وهو الاسم الذي كان يطلق أيضا على مدينة الكاف بالشمال التونسي وأصله تحريف لاسم "أسكا فينيريا" أو "أزكا فينيريا" (secca veneria) بمعنى المعبد المقدس أو البيت المقدس ويتركًب من اللفظة البربرية "أسكا" أو "أزكا" وتفيد معنى المعبد بوصفه بيت مقدس ومن لفظة لاتينية "فينيريا" بمعنى المخصص لعبادة ربة شبيهة بتانيت وأثينا اسمها "فينوس" باللاتينية وتقابلها ربة اسمها "أفروديت" عند اليونانيين و"تانيت" عند البربر. وهناك موقع أو شيء من هذا القبيل اسمه "قرسال نفطة" ويوجد إله له بربري اسمه "قرسال" (Gursil) حسب الدارسين.

ثم إن البربر يستعملون لفظة "تين" بمثابة اسم علم لتسمية الأشخاص والأماكن كما في اسم "تين هنان" وهو اسم أميرة بربرية قديمة مقدًسة ينتسب إليها جماعة التوارق القاطنين بجبال الهقار جنوب الجزائر ويقولون إنها جدتهم وأنهم من سلالتها. ويعتبر المختصون في اللغة البربرية أن لفظة "تين" في الاستعمالات البربرية المذكورة تعادل وتقابل لفظة "ذو" و"ذوي" و"صاحب" و"أصحاب" في اللغة العربية بحيث أنً "تين هنان" معناها "ذات الخيام" و"صاحبة الخيام". فيمكن القول بأنً عبارة "تين" تعني الآل والأهل والمنزل والبلد والوطن مع

الملاحظة وأن كلمة "وطن" وكلمة" تين" و "تونس" تنتمي لفظيا الى حقل لغوي واحد. وما زال السكان في جهة تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية يُسمون القرية والناحية التي يعيشون فيها باسم "وطن".

كما كان يوجد بمدينة تونس عاصمة البلاد التونسية باب يُسمى "ن تجمي" والنون في بداية الاسم هي نون الإضافة في البربرية وقد حُذف المضاف إليه وبقي المضاف فقط وهو "تجمي" بحيث يمكن القول بأن اسم الباب كان في الأصل "تين تجمي" أو شيئا من هذا القبيل . وتفيد كلمة "تجمي" التي أصلها "جم" " و"آجم" معنى الدار والمنزل والبلد والعرش أي العشيرة في البربرية وهي أصل اسم "جمنة" الذي تحمله قرية جمنة على الطريق الصحراوي بين مدينتي قبلي ودوز بمنطقة نفزاوة.

الابشلاوية وقرية "ابشلي"

بالنسبة للجماعة الذين اسمهم "ابشلي" و"ابشلاوية" فإنهم تركوا آثارهم في قرية "ابشلي" التي تحمل اسمهم وفي اسم "بصلي" و"بسيلي" الذي ظل يحمله العديد من الأسر والعائلات في البلاد التونسية . وكان يوجد بمدينة تونس بعد استقلال البلاد التونسية سنة 1956 مقبرة اسمها "مقبرة البسيلي"نسبة الى برج قديم اسمه "برج البسيلي" وقد أزيل البرج والمقبرة في إطار التهيئة العمرانية لمدينة تونس وحلت محلهما مباني جديدة منها معهد للتعليم الثانوي.

واشتهر جماعة "ابشلي" و"ابسلي" قديما عند جيرانهم بمهاراتهم في ترويض الحيات والأفاعي وبمعرفتهم لسمومها والتوقَي منها حتى أنً بعضهم كان يقول إن لهم مناعة طبيعية ضد سم الأفاعي والحيات. وأشار المؤرخون القدماء من اليونان واللاتينيين الى هذه الخاصية لكن

ليس هناك ما يؤكد قطعيا هذه الأقوال. وكلّ ما في الأمر أن اسم "ابشلي" و"ابسلي" يُستعمل في صيغ متعددة لتسمية الأشياء التي تمتاز بطولها مثل الحيات والأفاعي والحبال والخضر التي اسمها "بصل" في اللغة العربية الى غير ذلك من هذه الأشياء التي تشترك في خاصية الطول.

فالي جانب إطلاق اسم "بشلي" على الحيات وعلى قوم "ابشلي" بوصفهم بارعين في ترويض الحيات والأفاعي ما زال سكان جهة القصرين بشمال البلاد التونسية يستعملون لفظة "بصلة" لتسمية الحبل المصنوع من وبر الجمال وشعر الماعز ويسميه سكان منطقة نفزاوة باسم "ري". ويُسمى الثدي في تونس باسم "بزّول" وهو عضو طويل خاصة ثدي المرأة. كما يُسمى ذكر الرجل باسم "بشُولة" و"بشلة" في منطقة نفزاوة وتونس عموما. وتستعمل كلمة "بسلا" لتسمية قرن الخضر التي اسمها جلبانة في تونس. وتستعمل كلمة "بازيليك" في اللغة الفرنسية في معنى عمود الرخام والسارية والمسلة وهي مشتقة من كلمة "بازيلوس" التي تطلق في اللغة اليونانية على الملك والأمير والحاكم والسلطان والسيد . ومن ذلك يُفهم استعمال سكان نفزاوة كلمة "ري" لتسمية الحبل من شعر الماعز الذي يسميه سكان جهة القصرين باسم "بصلة". فان كلمة "ري" تفيد معنى الملك والسلطان في بعض اللغات الأوروبية مثل الاسبانية والايطالية والفرنسية (rei, roi).

وعلى هذا الأساس فان اسم "ابشلي" و"ابسلي" يعني الملك والأمير والحاكم والسيد وهو بهذه الصورة يعادل اسم "اقبلي" حيث تقدًم القول بأن اسم "اقبلي" يعني السيد والكبير.

قريـة "تلميـن" وبنـو تلميـن

في ذات السياق سبقت الإشارة الى وجود قرية اسمها "تلمين" بإقليم "توات" بالجزائر تابعة لمدينة تيميمون مثل قرية "تلمين" المحاذية لمدينة قبلي بمنطقة نفزاوة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية.. وعلى هذا الأساس فان اسم"تلمين" هو أيضا اسم جماعة بشرية قديمة نقلوا اسمهم الى الأماكن التي استوطنوها.

وبالفعل وردت إشارات صريحة في هذا المعنى في بعض الكتب القديمة منها بالخصوص كتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" لإبراهيم العوامر نقلا عن تاريخ العلامة عبد الرحمان بن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة 1406 ميلادي وغيره.ممن تسنى له الاطلاع على كتبهم المخطوطة. وجاءت هذه الإشارات في إطار حديثه عن دخول قبائل بني هلال وبني سليم من العرب وأتباعهم للبلاد التونسية بداية من سنة 1050 ميلادي والحروب التي اندلعت بهذه المناسبة بينهم وبين القبائل البربرية المستقرة بهذه الربوع وخاصة منها قبيلة صنهاجة وقبيلة زناتة مع العلم وأنً أغلب سكان منطقة نفزاوة في ذلك الوقت هم من قبيلة زناتة وفروعها العديدة . وتعتبر قبيلة زناتة المنتمية الى قبيلة ضريسة البربرية من أكبر القبائل البربرية على الإطلاق.

وكان يحكم تونس آنذاك أسرة من قبيلة صنهاجة اسمهم بنو زيري وكانت مدينة القيروان وسط البلاد التونسية عاصمتهم فاستطاع العرب أن يحتلوها ويجلوا الأسرة الحاكمة منها ثم انقلبوا الى الضواحي بمعنى بقية البلاد التونسية وغرب الجزائر قصد احتلالها فتصدًت لهم قبيلة زناتة في الضواحي. وفي هذا الإطار جاء في كتاب "الصروف" ما نصه: "ثمَ حارب العربُ زناتة بعد صنهاجة على الضواحي

وغلبوهم واتصلت الفتنة بينهم وكانت رئاسة الضواحي لبني يفرن ومغراوة وبني صاند وبني تلمين من زناتة".

في هذا السياق قدَّم العديد من الدارسين والباحثين الفرنسيين خلال احتلال فرنسا لتونس ما بين 1881 و1956 ميلادي الكثير من الآراء والأفكار المغلوطة وغير الصحيحة على الإطلاق حول أصل قرية تلمين وأصل اسمها وأصل بعض القرى الأخرى بمنطقة نفزاوة لجهلهم بخصائص شمال إفريقيا ولأن اهتمامهم بدراسته وإن كان حسنا في حدَ ذاته من الناحية العلمية كانت تشوبه بعض الخلفيات الاستعمارية.

كما ورد اسم قرية "تلمين" بمنطقة نفزاوة في كتاب "تاريخ العدواني" المنسوب للشيخ محمد العدواني من أهل واد سوف بالجزائر في القرن السابع عشر للميلاد ويُسميها "تلمين الكبرى" وكانت منطقة سوف تسمى "قصور عدوان" بمعنى قصور الجماعة الذين اسمهم عدوان واليهم ينتسب العدواني المذكور. ويُفهم من حديثه أنَّ تلمين الكبرى كانت مقاطعة شبه مستقلة مع التبعية الضمنية لمملكة تونس في ذلك الوقت أي في القرن السادس عشر للميلاد قبيل نهاية الدولة الحفصية بتونس وقدوم الأتراك العثمانيين اليها سنة 1573 ميلادي وتأسيسهم لولاية تونس بوصفها ولاية تابعة للخلافة العثمانية بتركيا. وجاء الحديث عن تلمين باعتبارها الموطن الذي هرب منه أحد وجهائها واسمه العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي نحو منطقة سوف بالجزائر والاستقرار بها وأصله من جبل ريحان بغرب الجزائر وكان له عم اسمه حمرون.

فبدأ حديثه بقوله : "وكانت قرية من عمل نفزاوة يقال لها تلمين الكبرى فيها أمير اسمه إبراهيم بن كنعان الكربي وله وزير اسمه العش

فبعثه مرة في قضي حوائجه الى الأمير سعيد الشريف بالمحروسة تونس (السلطان الحفصي) وكان عنده أي العش سبعة أولاد".

أوفده سيده الى السلطان الحفصي ليُعزَز موقعه عنده فخان العش الأمانة ولمًا عاد الى تلمين افتضح أمره فهرب مع أبنائه السبعة طلبا للنجاة نحو وادي سوف. فأرسل أمير تلمين وراءه فرقة من 400 فارس للقبض عليه ولكن العش اختار طريقا آخر غير مألوف باتجاه الجنوب مرورا بقرية العوينة قرب دوز. وفي ذلك يقول العدواني :"فبعث وراءه فرقة من 400 فارس وأمًا العش فإنه قد عدل الى قرية يقال لها "عوينة" قريبة من تلمين". وتسمى عوينة دوز وهي الآن حي من أحياء هذه المدينة الصحراوية.

مساعدة الحركة الشابية

وأخيرا وصل العش الى واد سوف واستقر فيه مع عائلته . ثمً التقي هناك بالداعي الشابي محمد المسعود الشابي الذي قدم الى سوف باسم الحركة الشابية الإسلامية آنذاك التي جنًدها عمه العالم والولي المشهور عرفة بن أحمد بن مخلوف الشابي لمحاربة السلطان الحفصي. فوجد محمد المسعود الشابي سكان وادي سوف غير مهتمين بالدين ولا يقيمون له أدنى وزن في حياتهم بل إنهم كانوا يمارسون عادات شاذة مثل ممارسة اللواط العرفي وإقامة حفلات شعبية في ساحات القرى يرقصون فيها عرايا تماما ويفطرون في شهر رمضان. فساعده العش على نشر دعوته بينهم.

وقامت الحركة الشابية في ذلك الوقت بدعوى نصرة الإسلام ومكافحة الظلم والفساد في البلاد التونسية وغرب الجزائر وخاض أتباعها بقيادة عرفة الشابي وأفراد عائلته حروبا ومعارك عديدة ضد

حكام تونس وضد الأسبان المسيحيين الذين استنجد بهم آخر سلاطين بني حفص وكذلك ضد الأتراك وحققت بعض الانجازات مثل احتلال مدينة القيروان وجعلها عاصمة للشابية لفترة من الزمن قبل أن تنقرض بعد حوالي قرن من الوجود. وكان الأسبان المسيحيون ومؤرخوهم يصفون عرفة الشابي بالنبي بمعنى أن أتباعه في ظنهم يعتبرون أنه نبي ويناصرونه على هذا الأساس.

وثار عرفة الشابي (عاش بين 1473 و1542) على السلطان الحفصي في عهده وكان محمد المسعود الشابي من أهم دعاة الحركة فتنقل بين قرى وبلدات المناطق الصحراوية بنفزاوة وغرب الجزائر لبث أفكارها واستنفار سكانها.

أمًا في الأصل فإنً الحركة الشابية هي حركة طرُقيَة بمعنى أنها طريقة من الطرق الصوفية كالطريقة القادرية والعيساوية اتخذت أبعادا سياسية ودشًنت "تسييس" الطرق الصوفية في شمال إفريقيا وتشجيع الأولياء الصالحين والمنتمين الى الدين عموما على خوض غمار السياسة ومحاربة الظلم والفساد والأنشطة الاستعمارية بمختلف أشكالها وما زال هذا التوجُه قائما الى هذا اليوم في المجتمعات العربية والإسلامية وهناك المادح وهناك القادح كما يقال.

والذي أسسها هو أحمد بن مخلوف الشابي يرفع نسبه الى عبد الله بن مسعود صاحب النبي محمد بن عبد الله نبي الإسلام. ولد بقرية الشابة بالقرب من مدينة المهدية على الساحل التونسي سنة 1400 ميلادي وهو من أبناء الولي الصالح ناصر الدراعي من واد دراع له زاوية بتامجروت بالمغرب. عاصر الشيخ أحمد بن عروس الذي يقال انه توفي سنة 1463 حسب البعض واتصل به وعمل خادما لسيدي علي المحجوب من السادة المحاجيب بقصور الساف بالساحل التونسي ثم أعتقه وأرسله الى مدينة القيروان حيث أصبح مؤدبا وإماما ببعض

جوامعها وتزوج بأخت تلميذ له شبه أبله (كان يُنظر إلى البُله بأنَّهم أولياء صالحون بطبعهم) وصحب الولي سيدي عبد الوهاب الهندي. وعندما كان يؤدي فريضة الحج حلم بأن امرأته ولدت ولدا فسماه عرفة وهو عرفة الشابي الذي يُعتبر القائد التاريخي للحركة وأضفى على الحركة الشابية توجُّهها السياسي. ويوجد ضريح سيدي عرفة بمدينة القيروان به مجموعة من القبور منهم قبر لسيدي عرفة وقبر لأخيه الكبير محمد وقبر لأحمد بن عرفة وقبر لبنت الأخير اسمها خادم الله بنت أحمد وقبر لمحمد الزفزاف بن عرفة وثلاثة قبور لبعض تلاميذه.

بعد وفاة سيدي أحمد بن مخلوف قام مقامه على رأس الطريقة الشابية ابنه الكبير محمد لمدة ثلاث سنوات ثم تزعَّم الحركة عرفة الشابي. ومما ينقل عن الشابية أنَّهم أخفوا أموالهم وكنوزهم في مكان غير معروف يقول بعضهم ان اسمه "أرقو" قرية بين القيروان والمسيلة حسب العالم ابن حوقل أو بناحية مدينة تالة التونسية بجهة الكاف في محيط مقبرة اسمها "جبانة الرقود السبعة" وغيرها من المواضع المجهولة ان صحَّ أنَّ هناك كنزا بالفعل.

الولي القبلاوي سيدي احمد الغوث

واتصل حديث العدواني عن هذه الوقائع بالدور الذي قام به الولي الصالح سيدي احمد الغوث التباسي أو حمد الغوث جدُّ عشيرة التبابسة بمدينة قبلي بنفزاوة في نطاق مساعدته لأحد المغامرين اسمه الهادف على إنشاء إمارة شبه مستقلة في مدينة توزر ببلاد الجريد التي تقابل على الضفة الشمالية لشط الجريد منطقة نفزاوة الواقعة على ضفته الجنوبية مثلما تقدم شرحه . فكان للهادف ولحمد الغوث ما أرادا واقتسم ثمرات سعيهما أبناؤهما من بعدهما. وهذا الرجل الذي اسمه الهادف

حسب العدواني هو الهادف بن بالقاسم بن علي بن محمد بن مصطفى بن نصر بن كعب من ناحية فطناسة بإقليم الزاب غرب الجزائر بجهة بسكرة وغرداية وليست قرية 'فطناسة" بمنطقة نفزاوة. وكان حُسًاده يُسمونه "ابن العبراني" حيث استطاع بذكائه ودهائه أن يكسب ثقة العديد من الحكام في تلك الفترة وخاصة حكام تونس من الأتراك حتى مكًنوه من حكم توزر وبلاد الجريد وساعده احمد الغوث.

أمًا التبابسة فهم سلالة الولي الصالح سيدي سالم التباسي دفين قرية طبربة بشمال تونس غير بعيد عن العاصمة تونس. استوطنوا مدينة توزر ببلاد الجريد ثم مدينة قبلي بمنطقة نفزاوة وما زال يوجد بمدينة توزر حي اسمه حي التبابسة وعشيرة في مدينة قبلي اسمهم التبابسة. وكان سيدي سالم التباسي من أصحاب الصوفي الكبير سيدي أبو الحسن الشاذلي وتوفي سنة 1244 ميلادي بينما توفي أبو الحسن الشاذلي بصعيد مصر سنة 1258. ويوجد للتبابسة بمدينة قبلي زاوية مخصصة لجدهم المباشر سيدي علي بدر الدين التباسي والصحيح حسب العديد من العلماء هو "الدباسي" وليس "التباسي". وتقدًم أنًه يوجد قرية اسمها "تين دباس بجبل نفوسة بليبيا. وبزاوية التبابسة بمدينة قبلي ضريح سيدي علي بدرالدين وضريح منسوب لخادمة زنجية للأولياء التبابسة اسمها "للة السرولة" ويلقبها السكان بالزنجية. والولي علي بدر الدين هو بدر الدين بن محمد الصغير بن محمد الكبير بن احمد الغوث. وهذا الأخير هو أحمد الغوث بن محمد البزويش بن علي بن سالم التباسي.

وجاء في بعض الأخبار "أن سيدي حمد الغوث كان والده من أهل الثروة فلم يلتفت الى ذلك بل خرج عن ماله وبلاده وتوجه الى سيدي احمد بن مخلوف الشابي الهذلي القيرواني والد سيدي عرفة فخدمه واخذ عنه الطريق وكان سيدي أحمد بن مخلوف من أكابر الأولياء وفتح للشابي على يديه فلزم التباسي خدمته وصار من كبار

العارفين وكان يوجد معه من ضمن تلاميذ أحمد بن مخلوف سيدي أحمد المقنع الحناشي وكان ذلك بين سنتي 1473 و1474 ميلادي. وكانت وفاة التباسي (أي حمد الغوث التباسي) بنفزاوة أو بمدينة توزر سنة 932 هجري (1524 ميلادي) يوم الجمعة 13 محرًم عن سن ناهز 100 سنة. وهو شيخ (أستاذ) الولي الصالح سيد علي ميمون دفين قرية "مجدل معوش" بلبنان سكنها 5 أشهر وقبره لا زال لهذا اليوم متواجدا هناك بين جبل وعين ماء". وعلى ذلك كان سيدي أحمد الغوث مشهورا في الشام والمشرق العربي عموما.

وجدهم الأول سيدي سالم التباسي أو الدباسي يرفع نسبه الى أبو بكر الصديق صاحب النبي محمد بن عبد الله. له أخ أو عم اسمه عبد الله التباسي دفين قصر ياكو بناحية أدرار بالجزائر.

ويوجد عشائر عربية مشهورة يحملون لقب "الدباسي" في بلدان المشرق العربي نسبة الى "دباس" أو "دابس".

كما يوجد فرع للتبابسة بمصر مشهور في بني سويف ويُعرفون باسم أولاد التقي ومنهم يوسف الصديق أحد الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة 23 جويلية بمصر ضدً النظام الملكي. عاش بين 1910 و1975 ميلادي.

وبعد وفاة سيدي احمد الغوث وصاحبه الهادف استمرت أسرة الهادف في حكم مدينة توزر وبلاد الجريد بمساعدة ومساندة أسرة سيدي احمد الغوث التباسي . وورد في تاريخ العدواني ما يفيد أن صاحب تلمين سعى الى الانضمام الى هذا الحلف حيث جاء فيه أن صاحب تلمين أهدى الى علي بن الهادف أمة (جارية) اسمها شكرة فولدت له ولدا وهو المشهور باسم عمارة الصغير. وكان علي بن الهادف متزوجا بإحدى بنات على بن حمد الغوث فماتت وبقيت له الجارية شكرة.

والجدير بالملاحظة في هذا السياق كثرة إطلاق اسم "شكر" و"شاكر" و"شكرة" على العبيد والإيماء في هذه الربوع ولا يستبعد أنًه مستعار من اللغة الفارسية حيث يُطلق فيها على الخادم اسم "شاكر" و"جاكر".

سكًـــان نفـــزاوة

في ذات السياق ورد ذكر مدينة قبلي باسمها حرفيا في كتاب العدواني في مناسبة واحدة عند حديثه عن أصل اسم "نفزاوة" فقال ما نصه : " مرً رجل على عهد نبي النصارى عيسى بن مريم يقال له بلسان العوام "بو مخيبر" وكان من مصر وكان صاحب عقل وقياس فمرً بنفزاوة على عين ماء بأرض قبلي اليوم ليتوضآ فهربت دابته فقال لدابته : "تفزي عني (بمعنى تهربين وتتركينني من الفعل فزً يفز أي ينهض ويمشي عند التونسيين) فسُميت المنطقة باسم "نفزاوة".

أمًا الصحيح فان اسم نفزاوة هو اسم قبيلة بربرية مشهورة في التاريخ استوطنت المنطقة فنقلت اسمها إليها رغم ان بعض العلماء يقولون إنها عربية تبربرت لاختلاطها بالبربر ويرفعون نسبها الى نزار بن معد بن عدنان جدً عرب الحجاز والمناطق الوسطى والشمالية بالجزيرة العربية ومنهم قبيلة قريش صاحبة مدينة مكة بالحجاز.

غير أن أغلب الجماعات البربرية المستقرة في منطقة نفزاوة كانوا من قبيلة زناتة البربرية التي تنتمي الى قبيلة ضريسة أو بنو ضري بينما نفزاوة تنتمي الى قبيلة لواتة وهم أبناء عم ضريسة. وكان يوجد جماعات من لواتة بالذات في قرية "طرًة" القديمة التي كانت مركز العمران بمنطقة نفزاوة وحلًت محلًها اليوم قرية المنصورة في حين أن القرى المجاورة لها كان يسكنها بنو يزمرتن وبنو مرين وبنو

فاتن أو فطناسة وكلهم من قبيلة زناتة وكذلك بنو تلمين أصحاب قرية تلمين المجاورة فإنهم من زناتة الى جانب جماعة اسمهم "التناوتة" و "بنو تناوت" كانوا يقطنون ببعض قرى نفزاوة منها قرية اسمها "تين ازاج" وتكتب "تنزاج" انقرضت وبقرية أخرى اسمها "شطيان" انقرضت هي الأخرى وكانت محاذية لقرية جمنة. ويوجد جماعة اسمهم "بنو ازاج" من البربر وهي صيغة لاسم قبيلة "أزداجة" البربرية.

كما أنه يوجد بعض العلماء الذين يقولون ان زناتة من قبيلة حمير من القحطانيين عرب اليمن بجنوب الجزيرة العربية نقلا عن نسّابة زناتة أنفسهم. وهناك علماء آخرون يقولون ان بنو مرين الزناتيين هم عرب من ولد قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اختلطوا بالبربر فنسبوا إليهم.

وينتمي الى هؤلاء التناوتة العالم الاباضي المشهور أبو عمار عبد الكافي بن يعقوب التناوتي من أهل القرن السادس الهجري وهو من مدينة ورقلة بالجزائر وقبره ما زال موجودا هناك في قمة على شكل مخروطي بالقرب من مغارة اسمها مغارة الشيخ نسبة اليه وله كتاب يُسمى كذلك "السير" حول تاريخ انتشار المذهب الأباضي الخارجي ببلدان شمال إفريقيا. ومنهم جماعة مقيمون بناحية غدامس بالقطر الليبي.

وكان فرع من بنو يزمرتن وبنو مرين الزناتيين يسكنون قرية "زرسين" و"جرسين" بالقرب من قرية "طرّة" بمنطقة نفزاوة كانوا مشتهرين بإنتاج التمر فيأتيهم الناس من النواحي المجاورة مثل جزيرة جربة ليشتروا منهم التمر مثلما ذكره العالم الأباضي أحمد الدرجيني من علماء مدينة نفطة في القرن الثالث عشر ميلادي في كتابه "طبقات مشايخ المغرب" والعالم الأباضي أحمد الشماخي في كتابه المُسمى "كتاب السير". وأشار هذان العالمان أيضا في كتابيهما الى جماعة

التناوتة واستيطانهم لواحة شطيان بالقرب من قرية جمنة منذ القديم مع ذكر واحة شطيان حرفيا ووجودها بنفزاوة. وذكر الشماخي أنه يوجد قرية اسمها "شطيانة" بجبل نفوسة بليبيا بما قد يفيد أن "شطيان" اسم فرقة من "بنو تناوت" وليست اسم موقع.

ثم إن الرجل الذي اسمه "بو مخيبر" معروف في كتب التاريخ والسير وهو زياد بن عامر رائد القبائل العربية من بنو هلال وبنو سليم وأتباعهم الذين دخلوا شمال إفريقيا من صعيد مصر بداية من 1050 ميلادي وقد كان العامة يُسمونه بالفعل "بوم مخيبر". ويقال انه من قبيلة طرود العربية التي دخلت متأخرة في القرن الرابع عشر ميلادي الى شمال إفريقيا. وتحدَّث عن طرود بإسهاب كتاب العدواني ويكاد يكون مخصصا لهم باعتبار أنهم استقروا في نهاية أمرهم بواد سوف بقصور عدوان واختلطوا بقوم عدوان وأصبح الفريقان بمثابة جماعة واحدة. وبحسب العدواني فإنهم ينتسبون اسميا فقط إلى شيخ اسمه طرد بن دابس أو طرود بن دابس هو الذي ترأسهم في مسيرتهم منذ دخولهم نواحي برقة وطرابلس بالقطر الليبي الى استيطانهم لقصور عدوان بواد سوف بصفة دائمة الى هذا اليوم بينما هم أخلاط من عشائر متعددة.

أحمد الغوث في الذاكرة الشعبية

ويروي سكان مدينة قبلي حكاية تراثية عن ظروف وفاة سيدي حمد الغوث التباسي مفادها أنَّه توفي في مدينة قبلي ثم نقل جثمانه الى مدينة توزر حيث دفن في ضريحه المعروف الى هذا اليوم بحي التبابسة.

فقد نقل أحد العارفين من سكان مدينة قبلي أنَّ سيدي حمد الغوث كان يسكن مدينة قبلي وكان وليا مكرما مبجلا فلمَّا أحسَّ بقرب

منيته أوصى أهله أن يضعوا جثمانه في نعش فوق بغلة ويتركوها تسير حسب إرادتها وحيثما تقف يدفنونه. فكان كذلك. فانطلقت البغلة من بيته من مدينة قبلي وظلت سائرة حتى وصلت مدينة توزر ببلاد الجريد وجاءت الى بيت ووقفت في سقيفته حيث كانت امرأة تنسج على منسجها. ولمّا قصّوا عليها القصّة رفضت الأمر فأخذتها في الحال سنة من النوم واستيقظت في طور آخر فرحّبت بالجماعة ووضعت بيتها على ذمة الولي الصالح فدفن في السقيفة وأصبح البيت مقاما يأتيه الناس لزيارته من كل البلدان وأصبحت المرأة خادمة المقام ولعلّها هي التي يُسميها أهل مدينة قبلي للة السرولة الزنجية.

أبو داوود القبلي النفزاوي

وهناك ولي صالح آخر اسمه حمد الغوث هو جدٌ جماعة المرازيق القاطنين بمدينة دوز بصحراء نفزاوة ولهم جدٌ آخر اسمه عمر بن علي المحجوب اشتهر باسم عمر المحجوب ابن أخ حمد الغوث ينتسب اليه جماعة المرازيق القاطنين بحي العوينة التابع لمدينة دوز.

كما اشتهر من جماعة اقبلي في القديم عالم أباضي اسمه أبو داوود القبلي النفزاوي من أهل القرن الثاني للهجرة في فترة ظهور الإسلام وما بعده بقليل وكان أحد الرواد الخمسة الذين تعاونوا على نشر المذهب الأباضي الخارجي ببلدان شمال إفريقيا بعد أن درسوا مبادئه وقواعده في مدينة البصرة بجنوب العراق تحت إشراف أكبر علماء المذهب في ذلك الوقت المُسمى أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي من قبيلة تميم العربية. وهؤلاء الرواد الخمسة هم واحد عربي اسمه أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني من قبيلة حمير من اليمن بجنوب الجزيرة العربية وآخر فارسي من أحفاد الملك

الفارسي الشهير كسرى أنو شروان اسمه عبد الرحمان بن رستم كان آنذاك مقيما بمدينة القيروان بالبلاد التونسية وهو مؤسس إمارة تيهرت الأباضية بالجزائر والثلاثة الباقون بربر وهم أبو داوود القبلي النفزاوي من جماعة اقبلي بنفزاوة واسماعيل بن درار الغدامسي من تناوتة مدينة غدامس بليبيا وعاصم السدراتي من قبيلة سدراتة البربرية بجهة "ورقلة" أو "وارجلان" كما تسمى بالبربرية في الجزائر.

وأشار الشماخي في "كتاب السير" الى شيخ أباضي اسمه أبو طاهر اسماعيل بن علي النفزاوي من تناوتة قرية "طمبار" غير بعيد عن مدينة قبلي وأصل اسمها "تين مابر" كما ذكره الشماخي. قال عنه الشماخي انه سافر الى غانة بمعنى بلاد السودان الغربي ومدينة "اودغشت" بالذات المذكورة في كتب معظم الجغرافيين والرحالة العرب ومنهم البكري في شمال دولة مالي جنوب الجزائر. وأشار الشماخي الى شيخ اباضي آخر اسمه فلحون بن إسحاق قال انه سافر الى غانة طلبا للرزق فلمّا وصلها وجدهم عراة فلزم بيته (ظل الناس في تونس يتحدّثون عن "برً بن عريان"). وهناك آخرون مثلهما سافروا الى غانة لنشر الدين الإسلامي.

السكن في الحُفر الأرضية

في ذات السياق ذكر أحد العارفين أنّه ظهر بمدينة قبلي ولي آخر اسمه "بوقديمة" وما زال بها أسر تنتسب إليه. وهو ولي حديث العهد حسب هذا الراوي وكان معه أخ أصغر منه اختار الاستيطان في مدينة الزاوية غرب ليبيا بينما استوطن بوقديمة الكبير مدينة قبلي القديمة وكانت تقع في سفح الربوة التي يوجد بها منبع العين القديمة المُسمًى رأس العين. فتعرًض الولي بوقديمة الكبير للاستخفاف

والاستهتار من طرف سكان قبلي القديمة وقتل له أحدهم ابنه غدرا وكان أبله فترك بوقديمة بلدة قبلي وذهب الى قرية تلمين المجاورة فضايقه سكانها فرجع الى قبلي ونزل بمكان فوق الربوة غير بعيد عن رأس العين وحفر حفرة بجانب شجرة طرفاء وسكن فيها ثمً ظهرت كراماته فاعترف الناس له بالولاية.

والجدير بالاهتمام في سيرة هذا الولي قيامه بحفر حفرة بجانب شجرة طرفاء ليسكن فيها.

فقد كان هذا النمط من السكن في الحُفر الأرضية شائعا رغم أنً المشهور عند الدارسين هو أنً البشر تعوًدوا استعمال الكهوف والغيران الجبلية للسكن أو أنًهم كانوا يحفرون بيوتا في الجبال ليسكنوا فيها مثلما كان يفعل جماعة مطماطة في جبلهم بجهة قابس بجنوب البلاد التونسية ومثلما كان يفعل قوم النبي صالح المعروفون باسم "ثمود" في الجزيرة العربية حسبما أورده القرآن بشأنهم.

ففي هذا المعنى جاء في كتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" لصاحبه إبراهيم العوامر ما نصه نقلا عن القدماء : " وارتحل بنو سليم وغيرهم من الأعراب الذين معهم الى الزاب ووادي سوف وكان دخولهم الى سوف في حدود 1437 ميلادي. فنزلوا بنواحي الحجرة الآن ثم بنوا قريتين إحداهما المسماة الهنشير (الخربة) والأخرى بجبانة كوينين بمعنى مقبرة كوينين. وأكثرهم كان يجعل في زمن البرد حُفرا عميقة كالآبار يثقبونها في جهة ويسكنونها بدل البيوت ويخزنون فيها ما يحتاجون إليه بحيث إذا مرً أحد بتلك النواحي لا يرى إلا قليلا من الناس وأمًا إذا حدث حادث أو صاح صائح تراهم يخرجون من الأرض ويغطون البسيطة". فحالهم توحي بما جاء في الآية القرآنية الواردة في سورة يس حول نشور الموتى "ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث الى ربَهم ينسلون".

وتحدَّث الرحالة العربي محمد بن بطوطة من علماء المغرب في القرن الرابع عشر ميلادي في "رحلته" المُسماة "رحلة ابن بطوطة" عن جماعة من النساك الهنود من طائفة الجهانكية يحفرون حُفرا في الأرض ويقضون فيها حياتهم منقطعين تماما عن الدنيا والبشر.

على خطى الماضين

بخصوص الشعوب البربرية الأخرى غير شعبي اقبلي وابشلي الذين ذكرهم المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت فإن أعقاب الكثير منهم ما زالوا موجودين الى اليوم في بلدان شمال إفريقيا . كما أنَّ أسماءهم ما زالت مستعملة الى هذا اليوم لتسمية الأشخاص.

فمنهم "بنو تيدرمنت" (ادريمي). فقد أشار العالم العربي أبو عبيد البكري من علماء الأندلس العربية في القرن الحادي عشر للميلاد في كتابه "المسالك والممالك" الى وجود قبيلة بربرية اسمها حرفيا "بنو تيدرمنت" بمدينة جادو بجبل نفوسة بليبيا. وأشار العالم الاباضي الشماخي في "كتاب السير" الى وجود عدة مشايخ وأشخاص من البربر اسمهم "ادريمي".

كذلك الشأن بالنسبة للجماعة الذين اسمهم "مصالي" و"مزالي" فان هذا الاسم ما زال موجودا بكثرة في بلدان شمال إفريقيا لتسمية الاشخاص. واشتهر جماعة مصالي في تاريخ شمال إفريقيا قديما بتأسيسهم لبعض الممالك على التراب الجزائري وكان لهم ملوك مشهورون في التاريخ منهم ملك اسمه صفاقس مثل اسم مدينة صفاقس التونسية . وتوجد قبيلة بربرية اسمهم "آيت مزال" بالمغرب الأقصى. كما ظل البربر يستعملون اسم "ماكس" و"ماكسن" وأشار الشماخي الى عدة مشايخ أباضية يحملونه.

شعــب الامازيـــغ

أمّا الامازيغ فهم فرقة مشهورة من البربر حتى أن بعضهم يطلق اسم "أمازيغ" على كافة البربر استنادا الى ما ورد في كتب بعض المؤرخين العرب مثل العلامة ابن خلدون الذين يرفعون نسب البربر الى جدً واحد اسمه "مازيغ". لكنً هذا القول فيه نظر. والأرجح أنًهم فرقة من البربر مثلما يقول المؤرخ اليوناني هيرودوت حيث أنً هذا المؤرخ أشار أيضا الى وجود شعب بربري آخر اسمهم "زاوق" كان يعيش بجوار شعب الأمازيغ فضلا عن وجود شعب بربري آخر اسمهم "افريقن" ذكره مؤرخون يونانيون ولاتينيون قدماء ومؤرخون عرب أيضا ومنه اشتق اسم "افريقية" الذي كان يطلق على البلاد التونسية ثم أطلق على القارة الإفريقية.

فقد كانت البلاد التونسية في العصور الوسطى تعرف باسم" مزاق" نسبة للشعب المسمى "زاوق". وفي هذا المعنى يقول الفقيه الإسلامي المشهور عبد الرحمان بن زياد بن أنعم من علماء مدينة القيروان في القرن الثالث هجري هذه الأبيات وكان وقتها في العراق يدرس الفقه الإسلامي:

"ذكرت القيروان فهاج شوقي	وأين القيروان من العراق
مسافة أشهر للعيـــر نخًـــــا	وللخيل المسرجة العتـــاق
فبلغ أنعما وبنـــي بنيـــــــه	ومن يرجى لنا وله التلاقي
بأنً الله إن خـــلً سبيلـــــي	لجدً بنا المسير الى مزاق".

فان اسم "مزاق" في البيت الأخير يعني به البلاد التونسية.

ويقول بعض المختصين ان اسم "أمازيغ" يعني الأحمر مثل اسم "زواق" حيث أن كلمة "أزواغ" و"أزواق" تفيد معنى الأحمر في اللغة البربرية. كما ذكر بعض الدارسين أنً "زاوق" تطلق أيضا على خلخال يهديه العريس للعروس. وسبقت الإشارة الى عادة صبغ الجسم بالصبغة الحمراء عند بعض الأقوام من البربر رغم أن الكثيرين يعتبرون أن اسم "أمازيغ" يعني "الحر" و"الأحرار" دون سند صحيح. وإن ثبت أنًه يعني الأحمر فهو يعادل اسم "أوراس" و"أهراس" الذي يطلق على اللون الأحمر والأصفر الذهبي والأشقر في اللغة البربرية مثل لون البصل الأحمر فإن البصل الأحمر ما زال يُسمى "هاروس" في منطقة نفزاوة بالجنوب التونسي وغيرها من النواحي التونسية الأخرى بينما تسمى العقرب الصفراء فيها باسم "عروس" وأصله "هروس" و"أروس".

بالنسبة للشعب البربري المُسمى "جيزانت" فما زال يوجد الكثير من المواقع بهذا الاسم في بلدان شمال إفريقيا منها قرية اسمها "حومة غيزن" بمعنى "حارة غيزن" و"حي غيزن" في جزيرة جربة التونسية بالإضافة الى بئر في صحراء نفزاوة يُسمى "بئر غيزان". وما زال اسم "قيزاني" يستعمل بكثرة في البلاد التونسية.

شعـب الأطلــس

كما أشار المؤرخ هيرودوت الى الشعب البربري الذي اسمه "أطلنت" موضحا أنه اتخذ هذا الاسم نسبة الى اسم جبال أطلس بشمال إفريقيا أين كان مستوطنا وهي جبال تمتد في الواقع من المغرب الأقصى الى شمال البلاد التونسية مرورا بجبال الأوراس بالجزائر مع أن القسم الرئيسي من هذه الجبال موجود في المغرب الأقصى وتغطيه

من الجنوب الى الشمال وتسمى محليا باسم جبل "درن" وهذا الاسم هو صيغة الجمع لكلمة "أدرار" بمعنى الجبل باللغة البربرية (أدرار ن أدرارن بمعنى جبل الجبال كما يقال ملك الملوك).

غير أنّه توجد الواحة والمدينة الكبيرة التي اسمها "أدرار" بإقليم توات بالجزائر وقد مرّ ذكرها ولعلّها المقصودة باعتبار أن ذكر شعب "الأطلنت" في الموسوعة التاريخية للمؤرخ اليوناني القديم هيرودوت جاء في سياق استعراضه للواحات المنتشرة عبر الأقاليم الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا اعتبارا من جنوب البلاد المصرية الى نهاية هذه الأقاليم الصحراوية أي المحيط الأطلسي. كما قد تكون أيضا ناحية سجلماسة قديما أو تافيلالت حاليا جنوب المغرب الأقصى التي تقع بالفعل في سفح الجزء النهائي الجنوبي لجبال الأطلس بالمغرب وتنتشر فيها العديد من واحات النخيل.

والجدير بالذكر أنّ جبال أطلس بشمال إفريقيا سُميت بهذا الاسم نسبة الى بطل أسطوري بهذا الاسم تحدّثت عنه الأساطير اليونانية القديمة. ويُستفاد منها أنّه بطل محلي بربري مثل شيخ النهر تريتون سلطان بحيرة تريتونية حيث تذكر هذه الأساطير أنّه كان يقطن بالمغرب وكانت له ثلاثة بنات صبايا ويمتلك حديقة غناء وبستانا عجيبا زرع فيه أشجارا من التفاح تثمر تفاحا من ذهب. فكلف أطلس بناته الصبايا بحراستها وكنّ ثلاثة حسب بعض الروايات وسبعة في روايات أخرى بمساعدة مارد من المردة العظام. وكان اسمهن حرفيا "هسبيريد" باليونانية بمعنى "الغربيات" أو "سيدات الغرب". غير أن اسم "هسبيريد" يطلقه اليونانيون القدماء أيضا على نواحي مدينة بنغازي بشرق ليبيا وقد استعمله هيرودوت في هذا المعنى عند حديثه عن شعوب ليبيا القديمة بمعنى شمال إفريقيا.

فإن الأساطير القديمة هي أخبار تاريخية تروي وتنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض. وعلى هذا الأساس فإن البستان العجيب الذي على ملك البطل أطلس بالمغرب يرمز الى أسرة بشرية قديمة بينما ترمز أشجار التفاح الذهبي الى النساء والصبايا التابعات لهذه الأسرة. وكان أبوهن بمعنى صاحب الأسرة يحرسهن مثلما هي الحال الى هذا اليوم فإن الآباء يحرسون أبناءهم وبناتهم بصورة أو بأخرى. فما زال الناس في تونس يستعملون اسم "تفاحة" لتسمية البنات. ويمكن القول ان هؤلاء البنات الصبايا كنَّ شقراوات أو شيئا من هذا القبيل بمعنى أن شعور رؤوسهن كانت شقراء في لون الذهب الأصفر أو إنهن كنَّ جميلات جدا كالذهب الأصفر. ويستعمل اسم "أوراس" و"أهراس" في اللغة البربرية لتسمية اللون الأشقر والأصفر الذهبي بحيث يمكن القول ان بنات أطلس كنَّ "أوراسيات" وما زال اسم "أوراس" يطلق على سلسلة جبال أوراس في شرق الجزائر التي هي جزء من جبال الأطلس.

جماعــة "الأطـارانــت"

كما أشار المؤرخ هيرودوت الى الشعب الذي اسمه "أطرانت" بالراء ويمكن أن يكون صيغة لاسم "أطلنت" باعتبار أن حرف الراء يعوض حرف اللام والعكس صحيح في الكلام الإنساني . وسبقت الإشارة بهذا الخصوص عند الحديث عن قريتي "ابشلي" و"بشري" بمنطقة نفزاوة خاصة وأنَّ جماعة "أطارانت" كانوا يقطنون بالقرب من شعب أطلنت أو إن الشعبين كان تربطهما بعض الأواصر الدموية القديمة فافترقا واتخذ كل واحد منهما اسما يناسب لهجته في الكلام.

ففي هذا السياق ما زالت توجد مدينة اسمها "أطار" في دولة موريتانيا في عتبة الصحراء الكبرى وبالأحرى في وسطها.

كما كانت توجد القرية الشهيرة التي اسمها "طرًة" بمنطقة نفزاوة بالجنوب التونسي بالقرب من مدينة قبلي ومن قرية ابشلي وقرية بشري وكانت العاصمة المحلية لمنطقة نفزاوة في فترة من فترات التاريخ وحلًت محلًها هذا اليوم مدينة المنصورة. وذكرها العديد من المؤرخين البربر والعرب في القرون الوسطى منهم الشماخي في القرن السادس عشر ميلادي.

فقد أشار "كتاب السير" للشماخي الى شيخ اباضي اسمه أبو الربيع سليمان بن يخلف من مشايخ وهبية جربة في القرن الخامس هجري ملاحظا أن جماعة من العزابة الوهبية (الطلبة والعلماء المنقطعون لخدمة المذهب فقط بينما الوهبية هي الفرقة الهامة في الاباضية) فيهم سليمان بن الربيع اجتازوا بطُرًة بنفزاوة فإذا هم بمُقدمها (رئيسها) واسمه أبو علي فاستهزأ بهم. فلمًا رجعوا الى جربة اجتمعوا في مكان وظلوا يدعون عليه فأصاب الملعون (مُقدم طرًة) في تلك الساعة وجع وجعل يصيح من الوجع ويقول قتلني الأعور يعني أبا الربيع حتى مات.

والجدير بالملاحظة أنً اسم "طرًة" هو اسم بربري والأصل فيه اسم "تاوريت" ويطلق على الربوة والتلة والهضبة وعلى عين الماء التي تجري من فوق التلة وهو من هذه الناحية يعادل اسم "زيرة" واسم "ايغيل" وكذلك اسم "تالا" و"تالة" الذي يطلق على عين الماء في اللغة البربرية. وتوجد العديد من القرى والبلدات التي تحمل اسم "تالة" في بلدان شمال إفريقيا منها مدينة تالة التونسية في شمال البلاد التونسية. وكانت مدينة "توقرت" المعروفة بغرب الجزائر بناحية وادي ريغ

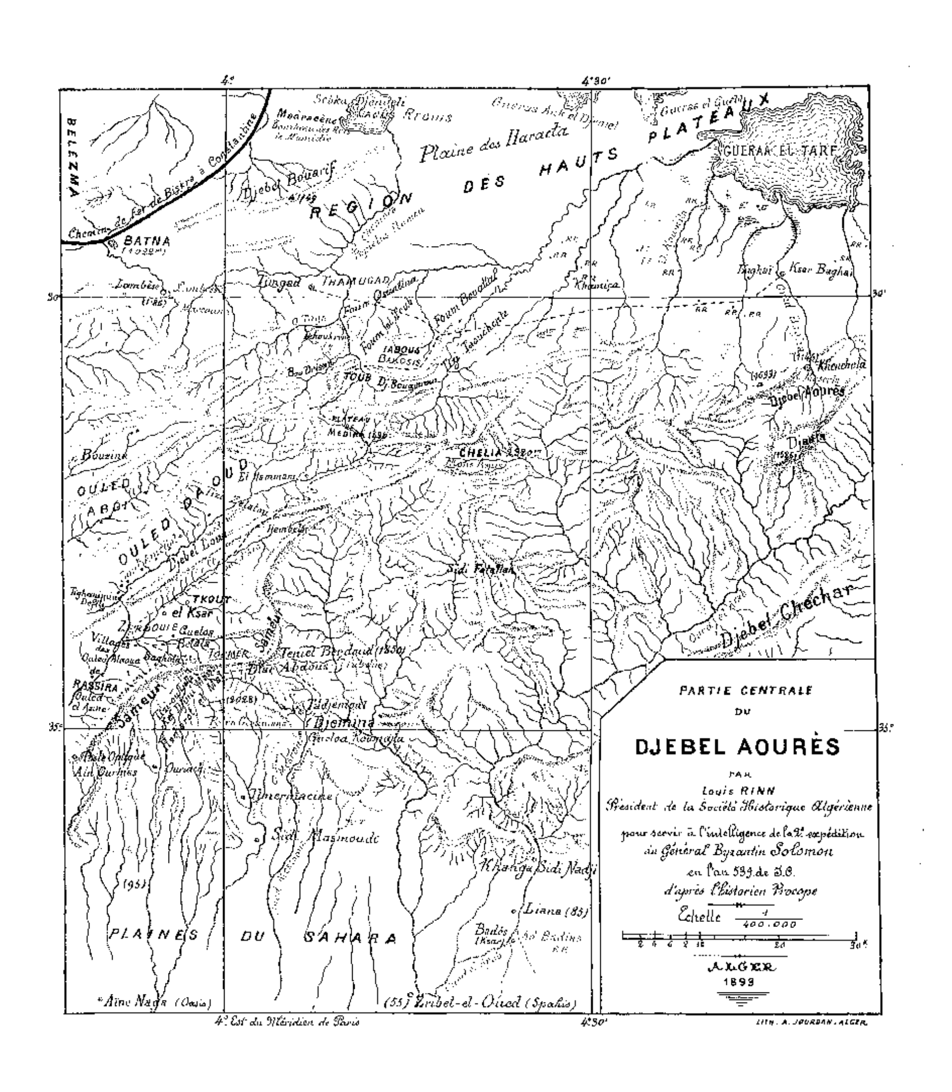
تدعى باسم "تالة" قديما وهي منطقة تنتشر فيها العديد من واحات النخيل التي تسقيها عيون الماء الجارية.

غير أن أسماء "زيرة" و"ايغيل" و"تالة" و"طرًة" تحمل في طياتها معنى الارتفاع والبروز والرفعة والسموٌ بحيث يمكن مقارنتها من هذه الناحية بأسماء "اقبلي" و"ابشلي" و"بشَري" بمنطقة نفزاوة بالجنوب التونسي التي تحمل هي الأخرى بين طياتها معني الأمير والملك والحاكم والكبير والسيِّد.

خريطة الجنوب التونسي



موقع جمنة في جبال الأوراس بالجزائر



الفهـــرس

الجزء الفرنسي

Salah Ben HAMADI

Aspects Folklore

Tunis 2020

Oniromancie tunisienne dans la région de Nefzaoua, et nature physique des rêves et des phénomènes mentaux

Les hommes sont portés naturellement à rêver, en voyant toutes sortes de choses au cours du sommeil, alors qu'ils dorment et ont les yeux fermés.

Le fait de rêver s'appelle « rêve » en français, et on dit que l'homme rêve ou il fait des rêves. Donc, les êtres humains ont la caractéristique naturelle de faire des rêves qui consistent à voir toutes sortes de choses au cours du sommeil, alors qu'on dort et qu'on a les yeux fermés. Les rêves sont donc un phénomène naturel, comme l'acte de manger et de boire.

Cependant, l'expérience de tous les jours et l'observation directe montrent que lorsqu'un homme a les yeux fermés, il ne voit pas, même à l'état de veille.

Ainsi, autant l'expérience de tous les jours et l'observation directe montrent que les hommes ne voient pas lorsqu'ils ont les yeux fermés, autant cette même expérience de tous les jours et l'observation directe montrent que les hommes sont portés naturellement à faire des rêves consistant à voir toutes sortes de choses, au cours du sommeil, alors qu'ils dorment et qu'ils ont les yeux fermés.

Comme il a été noté précédemment, ce fait de voir toutes sortes de choses les yeux fermés pendant le sommeil chez l’homme porte le nom de « rêves » en français et il porte, également en français, le nom de « songes », tandis qu’il est désigné par des termes aussi typiques dans les autres langues humaines.

En anglais, les rêves et les songes s’appellent « dream ». Dans la langue arabe, les rêves portent le nom de « holm » (en écriture arabe حلم) et « rouia » (en écriture arabe رؤيا). Ce dernier mot « rouia » dérive du mot « râa » et « yara » utilisé en arabe comme verbe au sens de voir.

En grec, le rêve s’appelle « oneiros », terme à la base du mot « onirique », utilisé en français comme adjectif pour exprimer ce qui est relatif au rêve, ou ce qui est inspiré par le rêve. Ce terme « oneiros » est également à la base du mot « oniromancie » utilisé en français au sens de divination par les rêves, soit la connaissance de ce que cache l’avenir à l’aide des rêves et des songes.

Cependant, les rêves et les songes chez l’homme sont constitués de visions figurant toutes sortes de situations et d’aventures vécues par le dormeur pendant le sommeil et apparentées aux scènes de la vie ordinaire de tous les jours mais un peu étranges. Toutefois, le rêveur croit vivre réellement ces situations et aventures qu’il voit en rêves quoique d’aspect étrange. Puis, outre l’étrangeté du contenu des rêves et des songes, le rêveur ne voit pas sa personne durant les rêves, c'est-à-dire qu’il n’y a pas de dédoublement de la personnalité du rêveur pendant le

rêve. Le dormeur ne sait pas qu'il rêve et a l'impression que les aventures qu'il vit en songes lui arrivent réellement. Aussi, le rêveur ne s'aperçoit du rêve que lorsqu'il se réveille, c'est-à-dire qu'il s'aperçoit qu'il n'a fait que rêver lorsqu'il se réveille.

Les rêves, forme de savoir

Or, beaucoup d'idées et de croyances populaires ont été associées aux rêves chez les sociétés humaines depuis les époques les plus reculées de l'histoire humaine, selon les données folkloriques et historiques léguées par les anciens auteurs de toutes les nationalités.

L'idée principale en est que les rêves et les songes sont une forme de savoir, c'est-à-dire que le contenu des rêves, ou ce qu'on voit en rêves, renseigne le rêveur sur quelque chose. Ainsi, les rêves et les songes seraient un moyen de communication et une sorte d'écriture ou de langage semblables aux écritures et au langage ordinaires de tous les jours dont les hommes se servent pour communiquer des renseignements et exprimer des idées et des sentiments.

Mais, pour saisir et connaitre ces renseignements et ces idées véhiculés à l'aide des rêves, il faut savoir déchiffrer l'écriture et le langage oniriques, ce qui a donné naissance, dans les diverses sociétés humaines, à une sorte de science des rêves spécialisée dans l'explication et l'interprétation des rêves, ou du contenu des rêves, à

travers la recherche du sens et de la signification des rêves au moyen de certaines clefs et de certains codes de déchiffrement.

Ainsi, dans l'un des plus anciens traités arabes sur l'interprétation des rêves, attribué à un certain Mohamed ou Ahmed Ibn Sirine, il est rapporté que rêver d'une femme pendant le sommeil peut désigner pour un prisonnier sa prochaine libération, en se fondant sur le fait que le vagin de la femme et la libération ou la délivrance portent le même nom en arabe, savoir le mot « farj »(en écriture arabe فرج) . Des auteurs arabes croient affirmer que l'auteur présumé de ce livre, savoir Mohamed ou Ahmed Ibn Sirine, n'est pas, en tous les cas, Mohamed Ibn Sirine, le grand savant arabe des traditions islamiques, du premier siècle de l'hégire (7ème et 8ème siècles de l'ère chrétienne).

Dans ce même traité attribué à Ibn Sirine, le songe d'un homme ayant vu, en rêves, des fruits appelés coings a été interprété comme étant le signe d'un départ et d'une évacuation imminente du lieu où il résidait, en se basant sur le fait que le fruit appelé coing porte en arabe le nom de « safarjala », composé du vocable « safar » qui signifie « départ » en arabe et du vocable « jala » qui signifie « évacuation » en arabe.

En rapportant cette histoire, certains auteurs arabes de l'âge classique signalent qu'il en fut réellement ainsi et que la ville où demeurait le rêveur avait été attaquée par une armée ennemie, ce qui obligea ses habitants dont le rêveur à partir ailleurs et à évacuer la ville.

Mais d'après ce traité arabe sur l'interprétation des rêves, une même chose, comme la femme, vue en rêves, peut comporter plusieurs sens, à l'instar des mots en usage dans une langue humaine. Chaque mot peut avoir plusieurs sens en fonction du contexte, tel le mot « écume » en français. Selon le dictionnaire Larousse de la langue française, le mot « écume » peut désigner, en français, la mousse blanchâtre qui se forme sur un liquide agité ou chauffé comme la mer agitée qui laisse son écume sur la plage, la bave mousseuse produite par l'échauffement et la colère qui s'accumule sur les coins des lèvres, la partie vile et méprisable d'une population, le rebut, la sueur du cheval.

Croyances tunisiennes sur les rêves

Les tunisiens, peuple arabe habitant la Tunisie en Afrique du Nord, prônent diverses idées et croyances associées aux rêves et aux songes en tant que moyens de communication et de transmission de savoir.

D'après les tunisiens, les saints, quoique morts depuis longtemps, se servent souvent des rêves et des songes pour communiquer aux hommes vivants leurs volontés et autres renseignements, comme le rapportent les habitants de la localité de Sakiet Sidi Youssef au Nord ouest de la Tunisie, sur les frontières avec l'Algérie, à propos d'une sainte locale appelée Hajja Khadija (le terme haj et son féminin en arabe hajja sont utilisés, par les

peuples arabes et islamiques comme titres honorifiques attribués à ceux qui ont fait le pèlerinage du sanctuaire de la Kâaba, dans la sainte ville islamique de la Mecque en Arabie).

L'histoire indique qu'un certain voleur eut l'idée de dérober l'argent et les objets de valeur offerts par la population au mausolée de Hajja Khadija en vertu de vœux. Pour accomplir son forfait, il s'enduit d'excréments et autres ordures repoussantes afin de devenir un impur et se protéger ainsi de la réaction violente de la sainte qui ne peut pas s'approcher des impurs, étant de nature pure, puis, il s'introduisit dans le mausolée, vola tout ce qu'il y trouva comme argent et objets de valeur et sortit sain et sauf.

La sainte apparut en rêves à l'un de ses descendants vivants, le mit au courant du vol de son mausolée, lui demandant de chercher à connaitre l'identité du voleur et de l'en informer à l'aide de signes convenus, ce que son petit fils fit.

Un jour que le voleur était en train d'écouler les objets dérobés au marché hebdomadaire de la localité voisine de Tajerouine, il sentit comme un poignard qui lui perçait le flanc et s'écroula raide mort sur terre.

Les habitants de la localité de Jemna, sur la route saharienne entre la ville de Kébili et celle de Douz, au Sud ouest de la Tunisie, dans la région appelée Nefzaoua, racontent une histoire semblable à propos de l'un de leurs saints locaux appelé Sidi Azaiez, fils du saint et savant

religieux, Cheikh Abdallah El Haj, l'ancêtre des habitants de Jemna, nommés Jemminins.

Ces derniers voulurent bâtir un beau mausolée autour du tombeau de Sidi Azaiez, comme le mausolée édifié autour du tombeau de son père Cheikh Abdallah El Haj. Mais, à leur grande surprise, ils constataient que ce qu'ils construisaient la veille était mystérieusement démoli pendant la nuit et ceci dura trois jours. Au troisième jour, Sidi Azaiez apparut en rêves à un habitant et lui dit de faire savoir aux Jemminins de renoncer à leur projet, car il ne veut pas être l'égal de son père et posséder un beau mausolée comme le sien.

Incubation et pierres gemmes

Les tunisiens pratiquaient également, jusqu'à une époque récente, l'incubation, en dormant dans un sanctuaire dédié à un saint pour recevoir de lui en rêves les conseils sur la manière de se comporter dans certaines situations particulières, ou encore pour guérir des maladies.

Ainsi, un groupe habitant la localité de Jemna déjà signalée et descendant d'un autre saint appelé Sidi Mhmmed ben Belgacem raconte que le petit fils de ce dernier, appelé Hmida, perdit la vue pour avoir profané la tombe de son grand père et la retrouva en dormant trois nuits dans son mausolée.

Les tunisiens pratiquaient aussi jusqu'à une époque récente, la provocation des rêves pour obtenir quelques renseignements et des inspirations utiles, à l'aide des pierres gemmes, c'est-à-dire les pierres précieuses et autres pierres transparentes et d'un éclat particulier appelées en arabe « kharz » (خرز). Cette pratique était répandue dans de nombreuses localités tunisiennes du Sud tunisien, au Nefzaoua, dans la région du Jérid, à Tozeur, Nefta et les villages environnants, à Gafsa, Gabès, ainsi que dans les localités de la région du sahel tunisien, sur la côte méditerranéenne, à la ville de Sousse et les villages environnants.

Les femmes de ces régions ramassaient autrefois des pierres gemmes rondes et polies qu'elles placent sous leurs têtes à l'heure du sommeil et prennent avis des songes qu'elles inspirent.

Si une kherza leur donne de bons rêves ou conformes à leurs désirs, elles la gardent parmi leurs bijoux et accessoires de beauté.

Lorsqu'une femme du Jérid, du Nefzaoua, ou de Gafsa rencontre un caillou de forme ou de couleur inaccoutumée, dont les lignes et les tâches suggèrent le mystère et montrent des signes, elle porte cette pierre à une voyante de son village apte à interpréter les présages.

Après s'être baignée et purifiée, avoir revêtu ses meilleurs habits, la voyante lave la pierre, l'habille d'un linge neuf, la parfume et l'introduit dans l'oreiller où elle va poser sa tête pour la nuit. Par le truchement de l'esprit ou

djinn qui habite la pierre, celle-ci lui raconte d'abord son histoire, puis l'enseigne sur les liens et les circonstances qui associent cette pierre à la vie de la consultante, quel sera l'avenir des vœux qu'elle a formés et son destin caché.

Quand l'une de ces bédouines tunisiennes d'antan rencontrait plusieurs fois la même pierre gemme, c'était un signe que cette pierre lui était destinée. Elle la cueille et la porte à un maître en interprétation des présages qui met la kherza sous son coussin et répétera à l'intéressée ce qu'il avait vu en rêves. Si le rêve s'avérait favorable, la femme conservait la pierre parmi ses bijoux ou la met dans un collier, en tant qu'amulette et porte-bonheur.

Ces pierres gemmes ou kherzas présumés posséder un pouvoir extraordinaire et magique passaient de mère à fille.

De la même façon, jusqu'à une époque récente, les Touarègues, peuples berbères habitant les régions du Grand Sahara nord africain, avaient appris à provoquer les rêves par l'intermédiaire des lézards pour se renseigner sur la manière de se conduire dans certaines circonstances. La femme ou la jeune fille targuie attrape un lézard, le pare, le parfume et le met dans une boite, puis, elle se baigne à son tour, se purifie, se parfume et met ses jolies vêtements, avant de s'isoler avec le lézard, loin des regards, pendant une nuit. A travers les rêves et les songes qu'elle fait cette nuit, l'esprit du lézard l'inspire et la renseigne sur la conduite à suivre face à certaines situations en particulier.

Les anciens chroniqueurs grecs de l'antiquité grecque signalent dans leurs traités que des coutumes similaires étaient pratiquées par les ancêtres des peuples berbères que ces anciens chroniqueurs grecs appelaient « libyens ».

Selon leurs témoignages, quand un libyen, c'est-à-dire un berbère, forme un projet, il dort une nuit près de la tombe d'un ancêtre et il s'inspire de ce qu'il voit en rêves, cette nuit, en ce qui concerne son projet.

Jusqu'à présent en Tunisie, quand une personne éprouve, tôt le matin, un désir marqué à faire quelques choses, on lui dit : c'est quoi, tu en as rêvé, la nuit. On le dit également à quelqu'un qui fait quelque chose après le temps ordinaire qui lui est consacré. Il arrive que des arbres fruitiers fleurissent avant l'heure, on dit alors que tel arbre rêve.

Métaphores

Les idées prônées par la Science moderne concernant les rêves et les songes s'apparentent à ces anciennes conceptions de sorte que dans tous les cas, les rêves et les songes sont conçus comme étant des allégories et des métaphores de la même espèce que les allégories et les métaphores que les hommes emploient dans le langage ordinaire de tous les jours pour communiquer et exprimer leurs sentiments. Il s'agit essentiellement des métaphores consacrées par l'usage

et constituant un fonds commun d'expressions toutes faites héritées du passé, et non pas des images et figures de style forgées à l'occasion par les personnes et les individus en particulier.

Le dictionnaire Larousse de la langue française signale que « la métaphore est un procédé par lequel on utilise un mot dans un contexte qui ne convient pas à son sens propre, en lui donnant un sens qui repose sur une comparaison sous-tendue (exemples : « la lumière de l'esprit », « la fleur de l'âge, « brûler de désir »).

Ainsi, les tunisiens emploient encore fréquemment dans leur arabe parlé, une métaphore comparant la belle femme à la lune et à la biche, car, comme il a été mentionné précédemment, les métaphores sont des comparaisons entre des choses n'ayant pas en apparence de rapports visibles entre elles. Ils disent que telle femme est une lune ou une biche pour dire qu'elle est belle. Les tunisiens comparent aussi l'amour à un feu dévorant. Les français dont la langue nationale s'appelle le français comparent, aussi, dans leur langue l'amour à une flamme et la belle femme à la biche des bois.

Les français disent aussi dans leur langue « le soleil se lève et le soleil se couche » pour désigner l'apparition du soleil à l'est tous les matins, et sa disparition, à l'ouest, tous les soirs, dans le ciel. Cette expression est une métaphore, car le soleil qui est un astre de nature physique y est comparé à un personnage humain qui se lève le matin et se couche le soir.

Les expressions de ce genre semblent personnifier la nature et les phénomènes naturels, en traitant la nature et les phénomènes naturels comme étant des personnes et des êtres humains. Aussi, les études spécialisées les désignent comme étant des personnifications de la nature.

Mythes et contes populaires

Dans ce même ordre d'idées, les récits d'origine populaire appelés en français « mythes », « légendes » et «contes populaires » sont aussi expliqués, par les savants spécialistes du domaine, comme étant des personnifications de la nature et des phénomènes naturels.

Les mythes sont spécialement des récits que les anciens peuples de la terre racontaient jadis à propos des dieux que ces peuples adoraient. Or, les savants spécialisés en mythologie et études scientifiques des mythes soutiennent faussement que les dieux sont des allégories et des représentations symboliques de la nature et des phénomènes naturels, tels que les astres, l'éclair, la foudre, la pluie, la végétation.

Ainsi, les peuples berbères des pays d'Afrique du Nord dont la Tunisie adoraient, autrefois, de nombreux dieux dont un dieu appelé Anzar qui serait, selon les spécialistes, une représentation symbolique de la pluie. Son nom désigne la pluie, tandis que des pratiques et des croyances populaires associées à la pluie et aux

eaux, encore en vigueur chez les habitants berbères de la grande Kabylie en Algérie, appelés Kabyles, sont regardées comme étant des survivances du culte rendu, jadis, à ce dieu Anzar de la pluie.

Durant les périodes de sècheresse, les populations kabyles invoquent encore le dieu Anzar pour qu'il leur donne de la pluie, en organisant une cérémonie haute en couleurs au cours de laquelle les participants, hommes, femmes et enfants, répètent en chœur : anzar, anzar, ô Dieu, casse la sécheresse (soit en langue berbère « anzar, anzar a rebbi rzedh aghurar »).

Les kabyles racontent à ce propos une légende selon laquelle ce dieu Anzar tomba follement amoureux d'une jeune jolie fille de race humaine qui fréquentait les sources et les fontaines, passant le plus clair de son temps à se baigner dans leurs eaux limpides. Anzar demanda sa main, mais elle refusa ; alors Anzar ordonna à la pluie de ne plus tomber et arroser la terre. Les sources se desséchèrent et la jeune fille ne trouva plus où se baigner, puis lorsque la menace d'une sécheresse prolongée mit en danger les gens de son village, elle céda au désir d'Anzar, et fut depuis appelée la fiancée d'Anzar (tislit n Anzar, en langue berbère).

Ces kabyles assimilent la concomitance du soleil et de la pluie, avec apparition de l'arc-en-ciel, à la célébration de ces noces d'Anzar, encore que ce phénomène de concomitance soit désigné, généralement, dans les pays d'Afrique du Nord, y compris en Tunisie, par « les noces du chacal » ou « les noces du loup » (en

langue berbère «tameghra n ouchen » et en langue arabe « ourse el dhib, soit en écriture arabe عرس الذيب).

Un autre ancien dieu appelé Bâal, adoré autrefois par les anciens peuples de Syrie, Liban et Palestine dont les cananéens et les phéniciens est considéré par les spécialistes comme étant une représentation symbolique de la pluie et de l'eau.

Jusqu'à nos jours, les habitants de la Tunisie, du Sud au Nord, dont les ancêtres furent en contact étroit, pendant très longtemps, avec les phéniciens de la Cité connue de Carthage, en Tunisie, regardent les herbes et autres végétaux poussant à la faveur de la simple pluie (sans irrigation humaine) comme étant des produits de Bâal et les appellent « produits de Bâal », soit « bâali », dans l'arabe parlé des tunisiens (en écriture arabe بعلي).

Les spécialistes des études mythologiques estiment aussi faussement que les contes populaires et les personnages que ces contes mettent en scène sont des allégories et des représentations symboliques de quelques phénomènes naturels.

Le conte populaire connu sous le nom de « la Belle au bois dormant » est ainsi interprété comme étant une métaphore représentant certains phénomènes naturels, comme le réveil printanier de la terre après le long sommeil de l'hiver, ou encore l'aurore et le jour. Le conte met en scène une princesse qui tomba, magiquement, dans un long sommeil de cent ans et fut réveillé par la

vertu d'un prince charmant qui la trouva, ainsi, dans un château perdu au milieu d'une forêt sauvage.

La version française de ce conte, raconté justement, depuis très longtemps, par divers peuples de la terre, dit que l'héroïne, une princesse surnommée la Belle au bois dormant, donna naissance, après son mariage avec le prince qui l'a réveillé de son long sommeil de cent ans, à deux enfants, une fille appelée Aurore et un garçon appelé Jour.

Une autre version dit que la princesse endormie s'appelait Thalia, qu'elle avait été rendue enceinte pendant son long sommeil par un roi, et donna naissance, tout en étant encore endormie, à deux enfants jumeaux appelés Soleil et Lune.

Signification réelle des mythes

Or, contrairement à ces interprétations allégoriques, les mythes et les contes populaires sont d'anciens récits historiques qui relatent des évènements ayant eu effectivement lieu autrefois et dont les protagonistes sont des personnages et des hommes réels ayant existé, jadis, sur terre. Les dieux qui sont les principaux héros des récits mythiques correspondent à des personnages humains qui avaient réellement existé autrefois et qui avaient rempli des rôles importants dans la vie des ancêtres des groupes humains qui les avaient adorés de sorte que ces ancêtres les adorèrent et apprirent à leurs

descendants à les adorer. Certains dieux sont les pères des premières familles dont sont issus les peuples qui les avaient adorés, tandis que d'autres dieux sont des rois et des grands réformateurs qui avaient commandé aux ancêtres des peuples qui les avaient adorés. Mais, les dieux sont le plus souvent des pères et des grands. Ainsi, le culte des dieux se ramène aux sentiments d'estime, de considération, de respect et de crainte que les hommes nourrissent et vouent à l'égard de leurs pères et aux grands en général.

Il en va de même concernant les autres êtres en apparence surnaturels qui remplissent des rôles dans les mythes et les contes populaires comme les anges, les esprits, les génies, les démons, les satyres, les elfes, les ogres ou encore les animaux parlants. Les hommes ont porté et portent encore des noms d'animaux, de végétaux et d'objets inanimés ou encore les noms des astres et des divisions du temps (jour, nuit, mois, saisons).

En Tunisie, il existe des hommes qui s'appellent Vendredi (Jomâa en arabe) ou encore Tamis et Sas (Ghorbal en arabe), ou encore Lune (Kamar en arabe), Vénus (Zohra en arabe), Soleil (Chams en arabe), Printemps (Rabiî en arabe).

Les dieux adorés sous le nom de quelques astres comme le Soleil représentent quelques grands personnages ayant vécu par le passé et qui portaient au cours de leur existence sur terre les noms de ces astres. Les anciens arabes d'Arabie adoraient un dieu qui s'appelait Chams, soit Soleil en arabe. Les Berbères

d’autrefois avaient un dieu qui s’appelait Aggour ou Ayour, soit Lune ou encore Mois en berbère.

D’une manière générale, les mythes et les contes populaires sont d’anciens récits historiques qui relatent les circonstances réelles ayant entouré la fondation et la création des premières familles humaines ayant peuplé la terre au début de l’histoire humaine et dont sont issus progressivement les divers groupes humains et les divers peuples de la Terre. Aussi, les mythes et les contes populaires sont des récits historiques se rapportant à ce qui s’était passé réellement aux groupes humains des premières époques de l’histoire humaine.

Les dieux, anges, génies, esprits, démons, ogres, animaux parlants représentent, ainsi, les ancêtres des premières familles humaines et des premiers groupes humains ayant peuplé la terre aux premières époques de l’histoire humaine et dont avaient émané, progressivement, les divers peuples de la terre.

Sens réel des métaphores

Dans ce même ordre d’idées et contrairement à ce que les grammairiens affirment, les métaphores consacrées par l’usage dans les langues humaines, à l’instar des métaphores mentionnées précédemment, expriment des faits réels et ne sont pas de simples figures de style et des comparaisons façonnées par l’esprit humain. La notion de métaphore et d’allégorie est un pur

concept abstrait forgé par les grammairiens pour expliquer à leur façon ces expressions qu'ils ont appelées par le nom de métaphore et d'allégorie. Ainsi, il n'y a pas de sens propre et de sens figuré des mots, mais seulement un sens propre de sorte que les métaphores et les expressions similaires doivent être toujours comprises au sens propre.

Quand on dit en français « le soleil se lève ou le soleil se couche », il faut entendre cette expression au sens propre, car, à l'origine, cette expression se rapporte non pas à l'astre du soleil dans le ciel, mais à un ancien personnage ayant réellement existé autrefois et qui s'appelait Soleil, au cours de sa vie, soit l'un de ces dieux adorés autrefois sous le nom de Soleil. Les dieux étaient des seigneurs et des rois des temps anciens, dont les actes, même les plus simples, à l'image des actes des rois des temps plus récents, étaient des évènements marquants se déroulant au milieu du battement des tambours et autres manifestations bruyantes.

La Lune à laquelle on compare les belles femmes, dans les sociétés arabes, représente une ancienne femme portant le nom de Lune. Il en va de même de Zohra, nom arabe de Vénus, porté par beaucoup de femmes en Tunisie et autres pays arabes. Il s'agit, en fait, dans tous les cas, d'anciennes femmes ainsi nommées.

En français, un époux exprime son attachement à sa femme en lui disant « ma chère ». La femme peut dire aussi à son époux « mon cher » pour lui exprimer l'amour qu'elle lui porte. Or, il faut comprendre ce qualificatif de

« cher » au sens propre, c'est-à-dire la marque de quelque objet d'un prix élevé au sens matériel et physique. Ce qualificatif se rapporte, justement, à des faits matériels et physiques représentés par la dot et les présents de toutes sortes que le fiancé était astreint, et est encore astreint de donner à ses beaux parents et au père de sa fiancée, en particulier, avant de l'épouser. Outre ces donations, le fiancé ou prétendant subissait autrefois diverses épreuves physiques comme le fait d'être tatoué et brûlé par le feu avant d'être admis par la famille de sa fiancée comme fils adoptif et autoriser à épouser sa fiancée.

La fatalité et le destin tracé à l'avance d'une personne humaine, selon certaines croyances populaires, est désigné en arabe par le mot « quadr » employé aussi au sens de considération et d'estime porté aux grands personnages.

Or, les grands, c'est-à-dire les pères et les commandants des groupes humains, avaient autrefois et jusqu'à une époque très récente, droit de vie et de mort sur leurs subalternes et les personnes placées sous leur tutelle, notamment leurs esclaves, de sorte que dans certaines sociétés, le guerrier qui arrive à capturer un ennemi, fait de lui son esclave et fixe d'avance, par divers moyens matériels, le nombre des mois, ou des saisons qu'il lui permettra de demeurer en vie avant d'être rituellement exécuté et mis à mort tandis que sa chair sert à confectionner un banquet collectif auquel tout le groupe du maître était invité.

Ce terme de « quadr » revêt aussi le sens de marmite en arabe ainsi que le sens de prix et de grandeur physique en général, comme la contenance d'un récipient de sorte que l'estime était appréciée à l'aune de la contenance physique, soit les moyens matériels dont dispose la personne, comme de nos jours d'ailleurs. On peut même le rapprocher du terme « khothar », nom d'un ancien dieu sémitique dont le culte a survécu, jusqu'à nos jours, dans les divers pays arabes dont la Tunisie, à travers les croyances populaires et officielles à un certain personnage extraordinaire appelé Al Khedher (en écriture arabe الخضر) qui passe pour avoir bu de la source de la vie et obtenu la faveur de ne pas mourir, consacrant son existence, selon la volonté de Dieu, à secourir les nécessiteux où qu'ils se trouvent.

Originelle réelle de la notion de bassesse

L'ignominie et l'infamie sont aussi désignées, en français, par le mot ou terme « bassesse » dérivant du mot « bas » employé en français, comme adjectif et nom, pour désigner ce qui est, physiquement, peu élevé, et qui a une faible hauteur, et par extension le sol ; mais ce mot « bas » sert également, en français, à qualifier les individus et les actes ignominieux et honteux, contraires à la morale et aux convenances sociales. En arabe également, la personne ignominieuse portée à se comporter de manière honteuse, immorale et contraire

aux convenances sociales est qualifiée de basse, soit en arabe « safel » (en écriture arabe سافل).

Par contre, tant en français qu'en arabe, l'élevé se confond avec ce qui est bien et bon.

Or, toutes ces représentations d'ordre moral et intellectuel correspondent, à l'origine, à des faits d'ordre matériel et physique.

Dans les anciens mythes, les dieux, en tant qu'incarnations de tout ce qui est bien et bon, séjournent dans les cieux et les lieux élevés tandis que les hommes et les êtres surnaturels méchants comme les démons et les mauvais esprits ou « djinn » en arabe, habitent la terre et les lieux bas et souterrains.

Dans la mythologie des anciens peuples sémitiques, l'expulsion du premier homme appelé Adam du Paradis divin, représentant le plus beau endroit qui soit, par Dieu, a été appelé « chute » de l'homme, c'est-à-dire que cette expulsion du Paradis constitue une chute d'en haut vers le bas.

Or, comme il a été noté précédemment, les dieux représentent les pères, les chefs et les grands des premières familles humaines ayant peuplé la terre, au début de l'histoire humaine, tandis que les hommes représentent leurs progénitures et leurs descendances.

Dans les récits mythiques sémitiques, l'homme a été renvoyé du Paradis de Dieu parce qu'il avait mangé d'un arbre de ce Paradis qui lui était défendu.

En réalité, toute cette histoire se rapporte à une ancienne famille humaine des premières époques de l'histoire humaine, qui vivait sur les arbres, comme les singes, dans une forêt. Le mot arabe « Jenna » qui désigne le Paradis, sert aussi à désigner les jardins sans distinction. Chaque membre de la famille signalée avait son arbre propre sur lequel il vivait et dormait la nuit, mais le chef, ou père de la famille, disposait d'autant d'arbres qu'il avait de femmes ou femelles. Cette répartition des arbres était une règle à respecter absolument. Le jeune homme appelé Adam a été autorisé à avoir une femelle propre à lui et à vivre avec elle sur un arbre particulier, mais, d'après les récits mythiques sémitiques concernant ces évènements, le jeune homme appelé Adam a cherché à transgresser cette règle de la répartition des arbres, pour une raison ou une autre, et alors, le chef de la famille l'a chassé avec son épouse de la forêt ou Jenna et ainsi, le premier couple humain avait été obligé de quitter la vie sur les arbres, en haut, et d'aller vivre au voisinage, en dormant, en bas, à même le sol. L'homme a ainsi physiquement chuté, et comme la chute avait pour motif une insoumission au sens physique du terme (transgression de la propriété des arbres), la chute ou la bassesse au sens physique a été assimilée aux actes contraires aux convenances sociales.

Nature physique du sentiment de l'amour

De la même façon, les hommes, à l'instar des tunisiens et des français, ont assimilé l'amour à une flamme ou à un feu dévorant, non pas à titre de simple comparaison et de figure de style, mais parce que l'amour est réellement une flamme et un feu dévorant au sens physique du terme.

Le désir est aussi assimilé à un feu, comme le prouve l'expression française « le feu du désir ». Or, l'amour et le désir sont une seule et même chose, car l'amour entre un homme et une femme se confond avec le désir sexuel et s'exprime à travers la satisfaction du désir sexuel au moyen de l'accouplement.

Or, lorsqu'une personne humaine, homme ou femme, est brûlée par le feu physique, en touchant une braise par sa main, elle a mal et sent de la douleur. Elle crie tandis que son corps s'agite. En criant, elle émet spontanément et de façon automatique les interjections « aïe », « o », «oh », « ou » et «ah» (en écriture arabe أح) dont l'émission par l'homme accompagne spontanément la sensation de douleur. Justement, durant les rapports sexuels engagés sous l'effet du désir sexuel, l'homme et la femme, participant à ces rapports, émettent spontanément ces interjections « aïe », «o», «oh», «ou», « ah » exprimant la douleur et la souffrance senties par le

corps humain à diverses occasions, comme dans le cas du contact directe avec le feu.

On dit aussi en français que telle personne hurle de douleur et aussi qu'elle hurle de plaisir, notamment quand il s'agit de plaisir sexuel chez la femme.

En Tunisie, les habitants comparent l'assouvissement de l'intense désir sexuel éprouvé longtemps envers une femme par un homme sous forme d'amour, à une braise ardente sur laquelle a été versé un seau d'eau.

La disposition naturelle aux rapports sexuels chez la femme dans les sociétés humaines ainsi que chez les femelles des mammifères en général s'exprime par une augmentation sensible de la chaleur ou température interne de leurs organes sexuels ou vagins.

En Tunisie, le vagin de la femme porte plusieurs noms dont le nom de « terma ». Or, ce mot désigne la chaleur dans la langue grecque sous forme de « thermos » et il est à la base des termes scientifiques et industriels désignant tout ce qui a rapport à la chaleur et au chaud, par opposition au froid. On dit une centrale thermique, ou encore thermodynamique tandis que le mot « thermes » sert à désigner les établissements publics de bain chaud.

Le vagin porte plusieurs noms dans la langue arabe commune dont le nom « her » (en écriture arabe حر), employé également, en arabe, au sens de chaleur.

L’assimilation de l’amour à un feu dévorant est, en outre, un thème récurrent de la poésie et des chants arabes de tous les temps, et ce feu amoureux ne peut être éteint que par l’union avec la personne aimée. Pour cette raison, les poètes arabes, de tous les temps, disent, souvent, dans leurs poèmes que l’amour est une flamme, et une torture continuelle que seule, l’union sexuelle avec la personne aimée peut apaiser et éteindre. Un ancien poète arabe dit, dans des vers célèbres en la matière, en s’adressant à sa bien aimée « j’ai comme preuve de mon amour pour toi quatre témoins, là où il n’en faut que deux : le battement de mon cœur, le tremblement de mes membres, la maigreur de mon corps et la paralysie (littéralement lien) de ma langue.

Toutes ces marques de l’amour énuméré par ledit poète et qui sont de réelles manifestations de l’état amoureux, en général, sont d’ordre physique de sorte que le sentiment de l’amour est un phénomène purement physique et relève davantage de la chaleur et de ses effets, au sens physique du terme.

Les français disent, dans leur langue française, de la femelle des mammifères disposée à s’accoupler avec le mâle de son espèce qu’elle est en chaleur ; et on désigne par le mot « chaleurs », en français, la période où les femelles des mammifères sont en chaleur ou en rut quoique le rut s’applique aussi aux mâles et à la période de l’activité sexuelle des mammifères en général.

Nature physique des sensations

En effet, l'amour ou le désir sexuel dont il est l'essence est une excitation. L'homme en proie au désir sexuel et l'animal en rut, comme le chameau par exemple, sont excités de sorte que le désir sexuel qui les anime est une réaction à une excitation subie par leur corps, et cette réaction s'exprime par une agitation générale et un trouble général de type physique de leur corps, sous forme de mouvements et de tremblements. Lorsque le corps est excité, il s'agite, se trouble, tremble, s'ébranle, fait des mouvements, émet des sons et des cris, secrète des substances, se déplace, tourne en rond. Le visage de l'homme excité, comme un homme en proie à la colère ou à une autre émotion du genre, rougit ou pâlit. Toutes ces manifestations exprimant l'action des excitations sur le corps humain sont de nature physique.

Tous ces phénomènes se rencontrent chez le chameau en rut qui devient particulièrement agressif de sorte que l'excitation sexuelle est analogue aux excitations induisant la colère qui est une des principales émotions humaines, comme la douleur qui est la principale sensation humaine en réaction aux excitations provenant du milieu extérieur ou issues du corps lui-même (maladie, faim, soif, entre autres).

En effet, contrairement aux idées reçues, l'excitation et la réaction qui l'exprime sont une seule et même chose, c'est-à-dire que l'excitation, ou la sensation, telle que la sensation de douleur, se ramène à la réaction d'ordre physique qu'elle induit, comme les cris sous l'effet

d’une brûlure causée par le contact direct avec le feu, le tremblement des membres sous l’effet du froid, ou encore le rougissement du visage d’une personne en proie à la colère qui sont, tous, des phénomènes purement physiques. Il n’existe aucun contenu mental ou psychologique dans la sensation, l’émotion et le sentiment à l’instar du sentiment de l’amour qui se ramène aux marques et manifestations d’ordre physique mentionnées précédemment. On ne sent pas puis on réagit, mais, la sensation se confond absolument avec la réaction de nature physique qu’elle induit, de sorte que dans le cas de la brûlure par le feu par exemple, la sensation c’est la réaction sous forme de cris et d’émission des interjections « aïe », « ou » et « ah », entre autres. La douleur consiste à émettre les sons et les interjections «aïe », « o », « oh », « ou », « ah », outre l’agitation et le tremblement d’ordre physique du corps.

L’excitation ou la sensation est une pression d’ordre purement physique qui s’exerce sur le corps humain comme la pression que le vent, en soufflant, exerce sur les objets rencontrés sur son chemin. Il les déplace et peut les déformer. Le vent déracine les arbres. De la même manière, le corps humain, en proie à une excitation de quelque nature que ce soit, telle qu’une injure induisant la colère, s’agite, tremble, se déplace, mais la pression s’étend aussi aux substances subtiles contenues dans le corps excité qui sont notamment l’eau, le sang , la salive, l’air, les spermes, le lait de sorte que ces substances, poussées d’un endroit à un autre par la pression, se déplacent à l’intérieur du corps, s’accumulant dans

certains endroits et se raréfiant dans d'autres. Lorsque ces substances trouvent devant elles des fentes et des orifices, soit les orifices du corps, comme la bouche, elles se déversent à l'extérieur du corps à travers ces orifices.

La pression induite par l'excitation sensorielle ou sensation met le corps humain ou encore le corps animal et même les végétaux sous tension physique de sorte que la réaction qui en est le prolongement peut être assimilée à une suite de contractions et de décontractions corporelles. La tension se résout et se résorbe en cette suite de contractions et de décontractions corporelles d'ordre purement physique, à l'instar des nuages abondants qui se résorbent et se résolvent en pluie. Les gens, notamment de nos jours, parlent de stress, contraintes et pressions pour expliquer les malaises diffus qu'ils ressentent continuellement, à longueur de journée, face aux soucis de la vie, sans savoir que ces malaises se confondent justement avec ces pressions d'ordre purement physique et qu'il ne s'agit nullement d'une affaire de cause et d'effet.

Ainsi donc, le visage du corps de l'homme en proie à la colère rougit parce que le sang, en se déplaçant à l'intérieur du corps sous l'effet de la pression ou de l'excitation provoquant la colère, s'y est accumulé anormalement. L'homme en colère secrète aussi la salive à travers l'orifice de la bouche, ou le sang sortant par l'orifice du nez sous forme d'hémorragies. L'air des poumons, en se déplaçant à l'intérieur du corps, s'accumule, anormalement dans les poumons, et se déverse à l'extérieur à travers l'orifice de la bouche,

troublant et agitant, sur son passage, l'air ambiant, et c'est cette agitation physique de l'air ambiant qui est perçue sous forme de sons et de cris par les oreilles, en tant qu'organes naturels de l'ouïe, situées à proximité.

Outre les cris et les vociférations, et comme il a été précédemment mentionné, le corps d'un homme en proie à la colère secrète la salive qui s'accumule aux coins des lèvres comme l'écume ou la mousse blanchâtre de la mer qui s'accumule sur la plage, lorsque la mer est agitée. Or, l'écume se forme aussi sur un liquide chauffé ou agité, comme l'eau chauffée de sorte que l'agitation est synonyme de chaleur et par voie de conséquence, l'agitation sexuelle est une sorte de chaleur et ressemble à la fièvre provoquée par les maladies infectieuses, entre autres.

En été, sous l'effet de la chaleur, le corps humain secrète de la sueur, tandis que l'acte sexuel entre l'homme et la femme s'achève par la sécrétion du liquide appelé « spermes », par l'homme à travers son pénis et son déversement dans le vagin de la femme.

La sécrétion de la salive, celle de la sueur et celle des spermes sont un seul et même phénomène physique, ayant la même cause, de sorte qu'il n'y a aucune intention ni aucune fonction dans l'acte sexuel chez l'homme et chez les animaux, ou encore chez les végétaux. Il s'agit de phénomènes purement physiques se situant dans le cadre d'un trouble et d'une agitation d'ordre purement physique. L'eau peut être troublée, agitée et produire une écume lorsqu'on y lance une pierre ou en la chauffant.

D'où il s'ensuit que la colère et l'acte sexuel sont un seul et même phénomène, de sorte que l'acte sexuel est l'effet d'une agression et constitue une agression. L'homme en colère sous l'effet d'une injure réagit en injuriant à son tour celui qui l'a injurié et causé ainsi sa colère. Il réagit à une agression par une agression analogue. De la même manière, et dans les conditions naturelles, un homme couche avec une femme parce qu'elle l'a excité physiquement, c'est-à-dire qu'elle l'a agressé et soumis à une pression et une tension d'ordre purement physique, de sorte qu'il n'y a aucune fonction, ni aucun contenu psychologique ou mental à l'acte sexuel.

Il en va de même concernant l'acte de manger qui fait aussi partie de l'excitation provoquée par la faim, de sorte que, dans les conditions naturelles, manger n'a pas pour fonction d'apaiser la faim, mais l'acte de manger se situe dans le prolongement de l'excitation provoquée par la faim et s'exprimant par l'agitation générale du corps, le tremblement de ses membres qui peuvent saisir au passage les fruits d'un arbre proche, les mettre dans la bouche qui les broie parce qu'elle tremble automatiquement, s'ouvrant et se refermant sans cesse et les laisse passer dans l'estomac, à moins d'être amers, et alors l'amertume provoque des excitations locales s'exprimant par des réactions de rejet de ces fruits à demi broyés avec un doublement de l'excitation primaire.

En effet, la personne qui avale quelque chose d'amer, le rejette automatiquement, enrobé de salive, tout en émettant certains sons typiques comme le son « agh »,

ou « r » à la manière grasseyée en français (soit en écriture arabe أغ).

Nature physique des rêves

Or, dans les conditions naturelles, le fait de voir, ou la vue ou encore la vision des choses est une excitation provoquée par la lumière agissant sur l'ensemble du corps de celui qui voit. En effet, on ne peut pas voir dans l'obscurité mais on peut entendre les bruits, toucher les objets, goûter les aliments et sentir les odeurs, de sorte qu'il y a un lien très étroit entre le fait de voir et la lumière. Puis, les yeux qui sont les organes naturels de la vue, à l'aide de la lumière du jour, sont très sensibles à l'intensité de la lumière qui peut les aveugler si elle est trop forte, de sorte que l'action de la lumière sur le corps humain, ainsi que sur les corps des animaux et des végétaux, constitue, dans tous les cas, une excitation douloureuse et une agression, quelle que soit son intensité.

Sous l'effet de cette excitation lumineuse, tout le corps humain est en proie à un trouble général et à une agitation générale, s'exprimant par des tremblements et des mouvements d'ordre physique. Cette agitation affecte notamment les deux orifices du corps appelés « yeux » (œil au singulier), de nature particulièrement sensibles à la pression exercée par la lumière sur le corps, car, comme il a été mentionné précédemment, les excitations sont des pressions d'ordre physique. Donc, au cours de la vue, les yeux sont troublés et, comme le reste du corps, ils sont en

proie à divers mouvements, tremblements et ébranlements d'ordre physique. Cependant, les mouvements imprimés aux yeux sous l'effet des excitations lumineuses revêtent la forme des objets illuminés, sources de ces excitations lumineuses, comme le vent qui imprime la forme de son mouvement aux objets rencontrés sur son chemin. Un vent soufflant sous la forme d'un tourbillon imprime à l'objet rencontré sur son chemin un mouvement de la forme d'un tourbillon.

Aussi, lorsque les yeux sont affectés par des mouvements de la forme des mouvements imprimés par la vue d'un objet quelconque, ils voient cet objet qu'il soit présent ou absent et que les yeux soient ouverts ou fermés, à l'état de veille ou pendant le sommeil, et c'est là l'essence de la vue, des rêves et des songes. Donc, les rêves et les songes sont le résultat de mouvements agitant principalement les yeux du rêveur pendant le sommeil et s'exprimant par la vision d'autant d'objets en fonction des formes de ces mouvements. La vision se ramène exclusivement à ces mouvements oculaires de sorte que les mouvements oculaires, dans l'état de veille, se résorbent par la vue ordinaire des objets tandis que lors du le sommeil, ces mouvements oculaires s'expriment en visions oniriques, comme les nuages qui se résorbent et se résolvent en pluie.

La représentation graphique des objets et des choses en général sous forme de dessins reproduisant leur forme naturelle illustre ce mécanisme, car dessiner une chose consiste en un ensemble de mouvements corporels et physiques qui affectent la main du

dessinateur, en fonction de la forme de cette chose, en la regardant directement ou en l'évoquant. L'évocation est absolument analogue aux rêves et s'effectue selon le même mécanisme.

L'idée commune, y compris dans les études scientifiques, est que le rêve est un phénomène d'ordre psychologique et mental. Ainsi, le dictionnaire Larousse de la langue française signale que « le rêve est une production psychique survenant pendant le sommeil et pouvant être partiellement mémorisé ». Mais, les analyses précédentes ont montré que le psychisme n'existe pas et n'a aucun sens, et qu'il s'agit d'un simple concept abstrait ne correspondant à rien de réel et de concret.

Les analyses précédentes montrent aussi qu'il n'existe aucune différence de nature entre l'état du corps pendant le sommeil et son état quand il est éveillé, c'est-à-dire qu'il n'y a pas de différence entre le rêve et la réalité. Il n'existe aucune différence entre la vue d'une fleur, en rêves, pendant le sommeil et sa vue à l'état de veille, ou dans la réalité, et inversement.

L'observation de tous les jours confirme ce fait, à l'instar du cas d'un homme rêvant qu'il couche avec une femme ; il bande, comme on dit, c'est-à-dire que son organe sexuel ou pénis se tend effectivement pendant le sommeil et l'homme l'introduit dans le vagin de la femme vue en rêves et accomplit l'acte sexuel comme dans la réalité, jusqu'au coït et l'éjaculation ou sécrétion des spermes appelés aussi liquide séminal.

Identification

Le rêve ressemble à ce qui est désigné communément par l'identification, c'est-à-dire l'incarnation spontanée de la personnalité d'un autre et l'imitation ou reproduction mécanique de ses mouvements, comme dans les spectacles et les combats de boxe. Il arrive que le spectateur complètement absorbé par le déroulement du combat, se mette à reproduire et à imiter automatiquement et de façon mécanique les mouvements de l'un des boxeurs et donne dans l'air des coups de poing.

Le passage de l'état de sommeil à l'état de veille ou « réalité » est appelé en français « réveil », mot qui dériverait du mot « éveil » et signifierait retour à l'état de veille, selon le dictionnaire Larousse de la langue française, de sorte qu'on ne peut pas savoir, dans l'absolu, lequel des deux états, celui de veille ou l'état de sommeil, est premier.

Certains rêveurs, en se réveillant au milieu d'un rêve, s'aperçoivent qu'ils ébauchent des mouvements dans le sens des évènements vécus en rêve, comme l'ébauche du jet d'une pierre, si le rêve comporte pareil mouvement. Il faut aussi remarquer que les excitations provoquant les rêves peuvent provenir de l'extérieur comme de l'intérieur du corps du rêveur. Une personne souffrant de difficultés respiratoires est portée à voir en rêves des scènes en rapport avec ces difficultés, comme le fait d'escalader péniblement des escaliers. Un mal en

rapport avec une maladie des reins par exemple peut provoquer un rêve où le rêveur voit que le coté de son corps souffrant est comme tranché.

Il est remarquable que le mot « rêve » existe en arabe sous la forme du mot « ref » (en écriture arabe رف) et il désigne le mouvement spontané des muscles de l'œil à l'état de veille sans raison apparente. Dans l'arabe parlé par quelques peuples arabes, le mot « ref » est employé au sens de l'œil et du liquide qu'il renferme. A cet égard, les tunisiens et autres peuples arabes croient que ce mouvement spontané des muscles de l'œil ou « ref » en arabe, pendant l'état de veille, annonce quelques évènements particuliers, fastes ou néfastes, à venir.

Dans ce contexte, il faut noter que la Science moderne officielle a trouvé une corrélation entre les rêves et les mouvements oculaires rapides, c'est-à-dire que la Science moderne officielle a trouvé qu'au cours des rêves lors du sommeil, les yeux du rêveur sont en proie à des mouvements rapides. Cependant, ni la Science, ni les hommes en général n'ont pas encore conscience que l'essence des rêves est de voir les choses en l'absence des choses, les yeux fermés, pendant le sommeil de sorte que cette constatation faite par la Science concernant la liaison entre rêves et mouvements oculaires rapides est restée sans aucune suite significative. Il fallait y ajouter que les rêves et la vue des choses se ramènent absolument et exclusivement à ces mouvements oculaires, en liaison avec la forme prise par ces mouvements, en fonction de celle des objets illuminés rencontrés à diverses occasions de la vie d'un homme.

Excitations auditives

Outre le sens de la vue, les autres sens, l'ouïe, le toucher, l'odorat et le goût suivent le même mécanisme, c'est-à-dire que le même mécanisme est à l'œuvre autant dans les excitations lumineuses et la vue que dans les excitations auditives, tactiles, olfactives et gustatives.

L'ouïe est particulièrement instructive. Il a été signalé que lorsqu'un homme se brûle, il sent de la douleur et émet spontanément certains sons et certaines interjections exprimant spontanément la douleur, dont les sons « aïe » « ou » et « ah » (en écriture arabe أح). La sensation de douleur se ramène à la réaction consistant à émettre, entre autres, ces sons « aïe », « ou » et « ah » de sorte que l'émission de ces sons et cris expriment la sensation de douleur, ou une douleur sentie par le corps qui les émet.

Or, les hommes, y compris les scientifiques et les penseurs en général, ont cru, depuis longtemps, et croient encore, faussement, que les cris et les sons comme les sons « aïe », « ou », et « ah », signalés précédemment, sont produits et formulés de cette façon par celui qui les émet ou la personne qui crie.

En effet, contrairement à l'opinion commune, les sons relèvent de l'audition et de l'ouïe, c'est-à-dire que les sons tirent leur existence de l'audition et de l'ouïe, car les sons n'existent que par l'audition, tandis que celui qui les émet ne fait que bouger les lèvres et ouvrir la bouche sous

l'effet de la pression exercée par l'air du corps se déversant à l'extérieur, suite à l'action d'une excitation extérieure ou intérieure. Cet air intérieur en sortant sous forme d'un courant trouble et agite l'air ambiant et c'est cette agitation ou ce mouvement de l'air ambiant qui excite les oreilles situées au passage et provoque l'audition des sons et des cris.

En conformité avec les analyses précédentes, un homme qui crie sous l'effet de la colère, dans un endroit en plein air, ressemble à un homme qui se noie dans la mer, la tête immergée, s'agitant et tremblant de tout son corps. Un homme situé à proximité des deux personnes, entend des cris semblant provenir de la personne en colère, mais il peut voir l'homme se noyer, et s'agiter, la tête immergée, et cependant, il n'entend rien venir de son côté, parce que rien n'est parvenu à ses oreilles.

Aussi, le langage humain, représenté par les différentes langues humaines parlées par les divers peuples de la terre, dépend de l'ouïe et de l'audition, car il est constitué de sons, et il ne dépend pas des mouvements de la bouche que fait celui qui parle.

En Tunisie, lorsqu'une femme dit à une autre femme que leur amie commune a été victime d'un accident, cette dernière émet spontanément et automatiquement les sons « aïe », « ah », et « ou » exprimant la sensation de douleur. Mais, cette même femme se comporte de la même façon en voyant une personne absolument étrangère à elle, tomber et se blesser, ou en entendant le récit d'une telle chute.

Comme il a été signalé précédemment, l'audition des sons, cris et bruits est causée par une agitation de l'air ambiant. La parole et le langage relèvent totalement de l'audition des sons composant les mots des langues humaines. Celui qui parle ne fait que bouger les lèvres et ouvrir automatiquement la bouche, laissant ainsi l'air contenu dans son corps sortir à l'extérieur et troubler le milieu ambiant et c'est ce trouble et cette agitation du milieu ambiant ou plutôt de l'air contenu dans le milieu ambiant qui est entendu sous forme de sons et de mots par toute oreille humaine assez proche de celui qui parle.

Cependant, le trouble ou l'agitation de l'air à l'origine de l'audition des sons composant les mots des différentes langues humaines, et des cris de toutes sortes, revêt des formes différentes en fonction de l'anatomie des personnes qui parlent et de la nature des mots et des sons qui composent la langue parlée. La forme que prend l'agitation de l'air provoquée par l'émission du son « aïe » diffère de celle que prend l'agitation provoquée par le son « ou ». Les membres d'une même famille qui ont la même anatomie prononcent les mots de la même manière. Cette manière de parler est ce qu'on désigne en français par les mots «intonation », « accent » et «timbre ». Un français de naissance et un étranger maitrisant la langue française parlent le français avec des accents différents ou des intonations différentes. Dans un même pays, comme la Tunisie, cet accent ou intonation inhérente à la prononciation des mots de la langue varie selon les régions et les communautés. La manière de parler diffère

aussi selon les sexes. L'accent des femmes et des enfants diffère de celui des hommes adultes.

Equivalence des excitations

Sur un autre plan, toutes les excitations affectant le corps humain se ramènent à la sensation de douleur, quelle que soit leur nature, et quel que soit le sens qui les véhiculent, vue, toucher, goût, odorat, ouïe.

En effet, les excitations sont des pressions et des agressions à caractère physique affectant le corps humain et de cette façon, elles sont une source de douleur pour le corps de sorte que la seule sensation qui existe est la sensation de douleur, y compris les sensations de plaisir. Il a été noté précédemment que l'homme et la femme, lors des rapports sexuels vus comme étant une source de plaisir, émettent les sons exprimant la douleur, comme celle sentie sous l'effet du contact direct avec le feu, soit les sons et cris « aïe », « o », « oh », « ah ».

Aussi, toutes les excitations sont équivalentes et peuvent se substituer les unes aux autres, et s'interférer, notamment dans les rêves et les songes. Cette équivalence naturelle peut être renforcée par leur concomitance durant la vie ordinaire. En vivant une situation quelconque, un homme voit des choses, entend des mots et des propos, sent des odeurs, touche des objets et goûte d'autres, en même temps. Donc, en vertu de l'équivalence des sensations, les pressions visuelles

ou impressions visuelles peuvent interférer avec les impressions auditives et inversement. Une douleur peut être vue en rêve sous la forme de la brûlure par le feu ou d'une piqûre de scorpion ou d'une blessure, ou encore d'une injure.

Ces divers aspects du phénomène des rêves et des songes chez l'homme peuvent justifier, dans une certaine mesure, les croyances populaires et communes associées aux rêves, qui ont été passées en revue, précédemment, car ces croyances se fondent sur certaines équivalences, comme celle inhérente à l'identité des choses portant le même nom. On a vu que des anciens interprètes arabes des rêves assimilent le fait de voir le vagin de la femme dans un rêve par un prisonnier à sa libération prochaine, en se fondant sur le fait que le vagin de la femme et la libération portent le même nom en arabe soit le mot « farj » (en écriture arabe فرج).

Les rêves peuvent aussi présager de l'avenir, comme les nuages abondants peuvent présager la pluie. En effet, une douleur récurrente sentie spécialement lors du sommeil et induite par une maladie qui couve, peut provoquer des visions oniriques révélatrices dans lesquelles un bon interprète sait déceler des symptômes annonciateurs de ladite maladie. D'ailleurs, il existe un ancien courant de pensée qui estime que les rêves expriment à leur manière les maladies du corps.

Contrairement aux idées reçues, les maladies se ramènent exclusivement, pour le corps humain, aux douleurs et symptômes d'ordre physique qui les

expriment, et de cette façon, les maladies peuvent provoquer, en effet, les rêves. Cependant, il n'y a pas que les maladies qui induisent les rêves et les songes. Toutes les excitations de quelque nature que ce soit affectant le corps, pendant le sommeil, provoquent des rêves.

Les partisans du courant psychologique moderne appelé « psychanalyse » disent que les rêves sont la satisfaction symbolique de désirs sexuels refoulés, reprenant à leur manière, dans le cadre de la Science moderne, les anciennes explications métaphoriques et allégoriques des rêves, mentionnées précédemment.

Or, à l'instar de toutes les excitations s'exerçant sur le corps humain, les désirs s'expriment par des agitations et des troubles corporels d'ordre physique, induits par quelques excitations particulières et pouvant se résorber dans l'état de veille comme dans les rêves, selon les circonstances, sous forme de toutes sortes d'actes et de visions, dont les rapports et actes sexuels, comme les nuages qui se résolvent en pluie. On a vu qu'un homme peut rêver qu'il couche avec une femme, et que son pénis bande et se tend réellement, et l'homme se voit en rêves introduire son pénis dans le vagin de la femme et assouvir son désir sexuel jusqu'au coït et l'éjaculation réelle de spermes.

Toutefois, dans les rêves, ce sont généralement des excitations issues du corps lui-même qui sont à l'œuvre. Aussi, les rêves donnent un panorama de l'état du corps pendant le sommeil et constituent une sorte de voyage que le rêveur effectue à travers son corps. Aussi,

on peut dire que le corps se voit, au sens propre du terme, pendant le sommeil. Ainsi, le corps d'un homme très fatigué et délabré par la fatigue et les problèmes de la vie peut se voir en rêves, lors du sommeil, sous forme d'un quartier de maisons en ruines à travers lesquelles cet homme se promène.

Caractère physique de la pensée

L'acte de penser, ou pensée, est aussi un acte de nature purement physique et se ramène à des mouvements et à des ébranlements corporels d'ordre mécanique et automatique induits par des excitations extérieures ou intérieures, à l'instar des autres phénomènes mentaux analysés précédemment, comme les rêves. D'ailleurs, en français, les mots « penser » et « songer » sont synonymes, et expriment les mêmes sens.

Puis, la pensée, à l'instar du rêve, consiste à voir les choses en l'absence des choses, à travers l'évocation.

Ainsi, lorsqu'une personne humaine fait face à des problèmes et à des soucis, elle est absorbée par la pensée à ces problèmes et se met à tracer machinalement des figures et des dessins sur le sol par sa main, ou sur un papier à l'aide d'un stylo. En fait, sa pensée s'exprime à travers un trouble et une agitation générale de son corps, sous l'effet des soucis qui l'assaillent de sorte que cette agitation affecte la main qui,

en tremblant, trace les figures et les dessins sur le sol ou sur le papier. La pensée, appelée aussi réflexion, se ramène exclusivement à cette agitation générale du corps d'ordre physique sous l'effet de quelques excitations extérieures ou intérieures, et ainsi la pensée et le rêve peuvent être considérés comme un même phénomène.

Aussi, autant il n'existe aucun contenu psychologique aux sensations, émotions et sentiments, autant il n'y a aucun contenu mental à l'acte de penser et de réfléchir. Il en va de même pour l'esprit confondu avec la pensée et la réflexion.

D'ailleurs, ce caractère mécanique et automatique de la pensée est attesté par la représentation des idées et des pensées agitant les hommes, sous forme graphique, à l'aide des systèmes de figures et de dessins appelés « écritures ». En effet, l'écriture est un acte mécanique consistant à tracer les lettres, sorte de figures et de dessins, à l'aide de la main. Elle est le prolongement et l'expression du tremblement et de l'agitation corporelle induite par la pensée et la réflexion.

A cet égard, à l'instar des dessins et figures tracés automatiquement par la main de la personne plongée dans ses pensées, sous l'effet du tremblement général affectant son corps, en tant qu'expression de ses pensées, on a vu que l'acte de manger constitue également un prolongement de l'agitation physique du corps, provoquée par la faim. Dans les analyses précédentes, on a démontré que l'acte de manger est le prolongement de la faim et que le fait de saisir la

nourriture, de l’avaler et de la broyer constituant l’acte de manger n’est que le prolongement de l’agitation corporelle provoquée par la faim en tant qu’excitation et agression physique qui pousse le corps à s’agiter, à trembler, saisissant de manière mécanique les herbes et fruits à portée de son corps, par la bouche qui s’ouvre et se ferme sous l’effet du tremblement général du corps, et les broyant par ses dents, tandis qu’une partie de la quantité broyée est avalée et arrive à l’estomac.

Le langage, un simple courant d’air

Dans ce même contexte, on se sert souvent du langage humain et de la faculté de l’homme de parler pour soutenir la thèse prônant l’existence autonome des idées, des sentiments et des phénomènes psychologiques et mentaux en général, et par voie de conséquence de l’esprit, de l’abstrait et de l’incorporel.

Or, comme il a été noté précédemment, le langage humain illustré par les différentes langues humaines parlées par les hommes, représente, sans doute la preuve essentielle du contraire et de l’inexistence du mental et de l’abstrait.

En effet, les sons composant les mots des différentes langues humaines dérivent de sons naturels émis de façon mécanique et automatique par l’homme dans les situations embarrassantes et gênantes, c'est-à-dire dans les situations constituant des agressions et des

excitations douloureuses pour le corps humain. Ces sons se ramènent aux sons représentés par les lettres de l'alphabet des divers peuples de la terre, comme les 26 lettres de l'alphabet français ou encore les 28 lettres de l'alphabet arabe.

Ainsi, le son « ès » représenté par la lettre « s » en français et son homologue en arabe «س » dérive du son « és », « ès » et « oust » que l'homme émet de façon mécanique ou plutôt que le corps humain est porté naturellement à émettre quand il est dérangé. Ainsi, lorsqu'un tunisien est dérangé par le tapage provoqué par un autre, il lui dit « és ». Un français dit « assez » qui est une forme de prononciation du son « és ». Le même français dira aussi « oust » comme pour chasser la source du dérangement.

On trouve ce son « és » dans le mot français « sentir » par exemple et le mot arabe « assasse » (أساس) signifiant « fondement ».

Le son « che » ainsi représenté en français mais illustré par une lettre autonome en arabe, soit « ش», est une autre forme de prononciation du son « és ». Les tunisiens se servent encore de ce son « che » pour chasser les mouches, et les oiseaux ou encore pour sommer les ânes de s'arrêter sous forme de « èche », « icht », comme on somme quelqu'un d'arrêter de faire du bruit en lui disant « és ».

En réalité, dans les situations embarrassantes et gênantes, le corps humain émet automatiquement ces

sons ou interjections à l'origine des sons du langage humain, sans intention, ni but, mais sous l'effet de la pression exercée par la situation embarrassante qui le pousse à dégager et à faire sortir l'air de ses poumons avec force, puis ce courant d'air s'élançant de l'intérieur du corps perturbe l'environnement ambiant du corps et imprime toutes sortes de mouvements à l'air ambiant et ce sont ces mouvements imprimés à l'air ambiant qui sont entendus sous forme de sons, de cris et d'interjections par les oreilles situées à proximité, en tant qu'organes naturels de l'ouïe.

C'est ce courant d'air émanant de l'intérieur du corps qui agit sur les choses situées dans son environnement extérieur immédiat, comme les mouches, les hommes et les ânes des exemples cités précédemment, à travers les perturbations et ébranlements d'ordre physique qu'il imprime à l'environnement extérieur et tout ce qui y existe.

Ainsi, l'action réelle du langage humain est analogue à l'action du vent qui est un courant d'air. En effet, le vent, en soufflant, agit sur les choses rencontrées sur son chemin, en tant que courant d'air.

Homonymes et analogies entre les choses

Justement, les hommes avaient appris naturellement et spontanément, depuis très longtemps, à établir des rapports intimes et des analogies entre les

choses naturelles qui présentent des points communs entre elles, en les désignant par le même nom. Ce phénomène est à la base de celui des homonymes dans les langues humaines.

Le dictionnaire Larousse de la langue française précise que « le terme homonyme se dit d'un mot qui présente la même forme graphique, ou phonique qu'un autre mais qui en diffère par le sens, comme les mots « sceau », « seau » et « sot ».

Mais, cette définition est très abstraite et n'explique rien.

En effet, on trouve dans les langues humaines des mots qui se prononcent de la même façon ou de façon proche, que les grammairiens appellent « homonymes ».

Or, contrairement aux idées reçues, les mots qui se prononcent de la même façon ou de façon proche, dans une même langue ou dans des langues différentes, et appelés pour cette raison « homonymes », sont, à l'origine, un seul et même mot ayant revêtu ces diverses formes de prononciation, et des sens en apparence différents mais qui ont un rapport naturel très étroit entre eux.

Ainsi, en français, on se sert du mot « chat » et « chatte » pour désigner le petit félin domestique connu sous ce nom. Or, ce mot « chatte » existe aussi en arabe et sert à désigner dans la langue arabe les moutons et les chèvres, notamment les ovins. On le prononce en arabe

sous forme de « chate » ainsi que sous forme de « chah ».

Ce mot « chat », prononcé en français sous forme de « cha », ou « chate » comme en arabe, dérive, en fait, du cri humain ou de l'interjection humaine « chut » employé sous diverses formes par divers peuples de la terre pour chasser et faire éloigner les agresseurs, gêneurs et rodeurs de toutes les espèces. Ainsi, en Tunisie, les habitants l'emploient encore sous la forme de « ichte » et « ouchte » pour chasser les oiseaux et les mouches. Le mot « chut » est utilisé en français pour demander de faire silence mais, en réalité, il s'agit d'un cri émis spontanément et naturellement par le corps humain sous l'effet des agressions de toutes sortes, comme le tapage et le bruit forts, ou encore le bavardage et même le fait de parler tout court. Dans une situation exigeant le silence absolu, comme la situation d'espionnage et de guet, le fait de parler constitue une agression.

Comme il a été signalé précédemment, au début de l'histoire humaine, les hommes utilisaient spontanément divers cris et diverses interjections pour chasser et faire éloigner les agresseurs, intrus et rodeurs de tous les genres, tels que les hommes étrangers au campement et les animaux sans distinction qui étaient source de gêne et d'embarras, avant la domestication de quelques uns d'entre eux. Le mot « chut » et ses différentes formes font partie de ces cris ou sons naturels qui constituent les sons dont sont composés les mots des différentes langues humaines actuelles, comme le son « a » ou « ah » devenu

la lettre « a » dans la plupart des langues humaines dont le français et l'arabe (en arabe le son « a » s'écrit أ).

Ces cris ou sons naturels servant à chasser et à éloigner les agresseurs et les rodeurs étaient émis spontanément et de façon mécanique par les différents membres du groupe humain agressé, notamment ses chefs et ses grands. Leur émission est automatique et n'est pas intentionnelle, mais ils perturbent et agitent l'environnement et le milieu ambiant y compris les agresseurs qui s'y trouvent, comme le vent qui, en soufflant fortement, perturbe tout homme se trouvant dans son rayon d'action. Les agresseurs décampent comme on décampe sous l'effet du vent.

Or, le mot « chat » existe en langue persane et sert à désigner les chefs, les grands et les rois, et il s'écrit, alors, « chah ».

Mais, les grands et les chefs portent dans la langue allemande le nom de « herr ». Or, l'animal appelé « chat » en français porte le nom de « herr » en langue arabe (en écriture arabe هر). On désigne aussi en arabe le chat par le nom de « sénior » (سنور) qui est utilisé dans plusieurs langues européennes comme le français au sens de grands et chefs.

Cependant, le chat s'appelle aussi en arabe « cat » (en écriture arabe قط) , ou encore « guat », et « got »v selon certaines prononciations . En anglais également, le chat porte le nom de « cat » qui est une forme phonique du mot « chat ». En Tunisie, ce mot est prononcé sous la

forme de « cattousse » ou encore «gattousse » tandis qu'un peu plus loin mais toujours, dans le continent africain, en Ethiopie et en Nubie, au sud de l'Egypte, le chat s'appelle « quaddisse », mot désignant en arabe les saints et ce qui est sain et consacré par la religion et les tabous sociaux.

Justement, ce mot « chat » ou « cat » sert à désigner Dieu et les dieux en anglais sous la forme de « god » et en allemand sous la forme de « got ».

Comme il a été expliqué précédemment, les dieux adorés jadis par les divers peuples de la terre représentent les chefs, les grands et les pères dans les premières familles humaines ayant peuplé la terre aux premières époques de l'histoire humaine.

Données folkloriques

Dans l'ancienne religion iranienne ou persane, les deux principaux dieux, c'est-à-dire les deux premiers chahs de l'histoire persane ou les deux premiers « gots », portaient le nom de Ahura Mozda et Ahriman. Des auteurs arabes de l'âge classique comme Al Jahidh, au 9ème siècle grégorien, donnent au premier dieu iranien le nom de Horrmouzan (en écriture arabe هرمزان).

Des étymologies et significations fantaisistes ont été données aux noms de ces deux anciens dieux iraniens alors qu'il s'agit d'anciens grands personnages ou d'anciens seigneurs et maitres portant le titre honorifique

de « Herr », c'est-à-dire « grands » comme en allemand où le mot « herr » est employé comme titre honorifique au sens de « grand », « monsieur », « seigneur ». Ce titre de « herr » est semblable à celui de « Sire » ou encore au titre de « Monseigneur » donné autrefois aux rois et aux grands en France. Le titre honorifique « Sir » est employé également par les anglais, habitants de l'Angleterre, au Nord de l'Europe.

Il faut noter que la langue iranienne ou persane appartient au groupe des langues indo- européennes, comme le sanscrit, une des anciennes langues des habitants de l'Inde, le grec, le latin et autres langues européennes. La langue arabe appartient au groupe des langues sémitiques.

Donc, les deux anciens dieux persans ou premiers rois persans portaient l'un le nom de Herr Mazd , c'est-à-dire Sire Mazd , ou Monsieur Mazd et l'autre le nom de Herr Man, c'est-à-dire Sire Man, ou Monsieur Man. Le mot « mazd » signifierait « mage », ou encore « chaman » tandis que le mot « man » est un mot très employé dans les langues indo européennes et signifie « homme » comme en anglais et en allemand sous forme de « man » justement, ou encore « lune », comme le prouve le mot « moon » en anglais qui sert à désigner la lune, ou encore « pierre », car le mot « men » porte le sens de pierre dans certaines langues indo-européennes, comme dans le mot breton « menhir » donné, en français, aux anciens tombeaux formés par des blocs de pierres longues posées verticalement et qui est constitué du mot « men », c'est-à-dire « pierre » et du mot « hir », c'est-à-dire « long ». On

peut considérer le mot « menhir » comme l'inverse du nom « Herrman », c'est-à-dire le mot « herrman » inversé. Les anciens dieux correspondaient aux ancêtres, de sorte que leurs tombeaux étaient vénérés.

Les génies et les esprits considérés comme des dieux et appelés « dieux » (dévas) dans les anciennes religions iraniennes ou persanes portent, dans la langue berbère de certaines populations des pays d'Afrique du Nord, le nom de « herr- gattousse », soit un mot composé des deux mots servant à désigner le chat, comme il a été expliqué précédemment.

Dans ce contexte, en remplaçant le terme « herr » dans le nom « Ahriman » par son synonyme « chat », on obtient « chaman », de sorte qu'à l'image d'Ahura Mazda, l'autre dieu persan Ahriman était aussi un mage, un prêtre et un chaman. D'ailleurs, la mythologie persane dit qu'ils sont deux jumeaux.

Il est à signaler également que les hommes portent encore le nom de « Herman » chez les peuples européens qui sont des indo-européens comme les iraniens et les persans, ce qui prouve que cet Ahriman correspond à un ancien personnage humain.

Identité des choses semblables

Ainsi donc, les choses naturelles qui portent le même nom présentent des liens et des rapports naturels très étroits entre elles, car, ces noms constituent des

réactions organiques sous forme de sons. Lorsque le corps humain est agressé à la suite de ses contacts avec les choses du monde extérieur, il émet spontanément des sons et des interjections exprimant la douleur ressentie sous l'effet de ces agressions, comme le son « aïe » et le son « o » et « ou ». Or, ces sons naturels constituent les sons composant les mots des différentes langues humaines, soit les noms données par les hommes aux diverses choses et entités qu'ils ont pu identifier d'une façon ou d'une autre, comme le mot anglais « eye » qui se prononce « aïe » et sert à désigner en anglais l'organe de la vue appelé « œil » en français. Ce même son « aïe » est employé en anglais comme pronom personnel de la première personne du singulier et s'écrit alors sous forme de « J », soit « je » en français.

On peut donc dire, sans se tromper, que les choses naturelles qui se ressemblent par quelque aspect sont une seule et même chose pour le corps humain. Cette ressemblance ou cette analogie est souvent exprimée par la désignation des choses naturelles semblables à l'aide du même nom.

C'est dans ce sens que peut se justifier et s'expliquer l'assimilation du vagin de la femme vu en rêves par un homme parlant la langue arabe à la libération prochaine d'une peine quelconque, dans la mesure où le vagin et la libération portent le même nom en arabe soit « farj » (en écriture arabe فرج).

Les analogies naturelles et physiques, établies par le corps humain entre les choses naturelles sur la base de

la similitude des excitations et réactions qu'elles suscitent sont d'ordre visuel, auditif, olfactif, digital, et gustatif, et elles se reconnaissent, principalement, comme il a été signalé précédemment, par la désignation des choses naturelles semblables et analogues au moyen du même nom.

Ainsi, les pères des familles et les dieux adorés autrefois par les hommes portent le même nom, soit le nom de « dieu ». En effet, le père de famille s'appelle « da » en langue berbère, et « dad » ou « daddy » en anglais. Les pères sont des chefs de familles. Aussi, le mot « dey » est employé dans la langue turque pour désigner les chefs, les maîtres et les rois. On emploie aussi en Tunisie et dans les pays arabes le mot « daya » et « dada » pour désigner les grandes personnes et les gouvernantes des enfants. Le mot « duc » qui sert à désigner, autrefois, une catégorie de nobles en France, appartient à ce même champ lexique. D'ailleurs, le mot « da » servant à désigner le père en berbère est prononcé, parfois, sous la forme de « dac » en Tunisie, entre autres. Les mots « dieu », « da », « dad », « dey », « duc » et « dac » sont des homonymes.

On peut déduire de ces analyses, sans se tromper, que les dieux étaient des pères de familles, des grands et des chefs dans les groupes humains d'autrefois.

Coutumes populaires

Le fait de réserver le même traitement aux choses de la part de l'homme exprime aussi leur identité. Ce trait se manifeste notamment dans les habitudes et coutumes populaires.

Ainsi, certains peuples ne mangent pas la viande du cochon, sous prétexte que cet animal est impur pour diverses raisons, comme jadis les anciens égyptiens des époques pharaoniques ou encore les peuples arabes musulmans de nos jours. Or, cette répulsion à l'égard de la viande du cochon s'explique, en réalité, par le fait que l'un des noms du cochon en langue arabe, entre autres, désigne « l'allié », soit « hallouf » (en écriture arabe حلوف) tandis que l'allié porte le nom de « halif » en arabe (en écriture arabe حليف).

Autrefois, les ennemis capturés et faits prisonniers durant une bataille deviennent les esclaves des vainqueurs, et dans certains groupes humains, après avoir passé un certain temps en servitude, ils sont mis à mort, rituellement, et leur chair sert à confectionner un banquet collectif auquel sont invités les membres du groupe des vainqueurs. Mais, les alliés sont épargnés et échappent à ce sort.

Les tunisiens et autres peuples arabes éprouvent également une répulsion envers la consommation de la viande de l'âne, et en donnent diverses raisons. Mais, la cause en est que cet animal porte justement le nom de

« âne » et « ânesse », comme en français. En effet, ces mots « âne » et « ânesse », et plus particulièrement le mot « ânesse », désigne l'homme et les hommes en langue arabe (en écriture arabe انس). Le cannibalisme, pratique plutôt rituelle, n'était pas une règle générale.

La neige tombant du ciel porte le nom de « gel » en français. Or, les spermes secrétés par les mâles chez l'espèce humaine et autres espèces animales, sont désignés par le mot « zel », en arabe, notamment dans le Sud de la Tunisie. Les excréments et déjections de l'homme sont désignés par le mot « chel » en arabe également, comme en Tunisie. Les déjections des animaux, comme celles des moutons et des chameaux sont appelés « gel », en arabe, par les tunisiens entre autres, Or, les mots « gel », « zel » et « chel » sont des homonymes de sorte que pour le corps humain, tous ces phénomènes, le gel, les spermes, les matières fécales sont une seule et même chose, parce qu'ils présentent quelques points communs entre eux, justifiant leur désignation par le même mot. La neige et les spermes sont des substances liquides de couleur blanche, tandis que la chute de la neige ressemble à la sécrétion des spermes et des excréments. Les matières fécales dont fait partie l'urine et les spermes sont des secrétions humaines et animales très liées.

Vaste champ des analogies

Les exemples de ce genre sont très nombreux tandis que la nature des analogies et des similitudes est aussi très diverse et parfois très difficile à saisir. Aussi, le champ des analogies est vaste.

Ainsi, la corde faite à partir du poil des chameaux s'appelle « basla », en Tunisie, notamment dans la région du Nord ouest. Ce mot « basla » sert aussi à désigner, en arabe, comme en Tunisie, l'oignon. Le mot « psyllé » désigne les serpents, ainsi que les charmeurs de serpents. Un ancien peuple de race berbère vivant jadis au Sud ouest de la Tunisie portait le nom de « Psyllé » et il campait notamment dans un village qui existe encore, dans cette région, et porte le nom de « Béchilli ». Cet ancien peuple berbère avait la réputation de dresser les serpents à des fins thérapeutiques. Le roi est désigné par le mot « basileus » en grec. Le sein de la femme porte le nom de « bazoule », en Tunisie, tandis que l'organe sexuel de l'homme ou pénis est appelé « bachoula », en Tunisie également.

Or, les mots « basla », « psyllé », « basileus », « bazoule » et « bachoula » sont des homonymes, c'est-à-dire qu'ils sont, à l'origine, un seul et même mot ayant revêtu toutes ces formes de prononciation. Ce mot a servi à désigner la corde, l'oignon, le basilic, les serpents et par extension leurs charmeurs, le sein de la femme et le pénis de l'homme parce que tous ces éléments qu'ils soient

objets, plantes ou organes, ont la caractéristique d'être allongés et de forme allongée.

S'agissant du lien avec la royauté et les rois, il faut signaler justement qu'un des principaux rôles des chefs et des grands comme les rois consistait et consiste encore à attraper, à lier, à entraver et à capturer les hors la loi et les ennemis. Tous ces actes étaient autrefois accomplis et sont encore accomplis, de nos jours, au moyen des cordes. En arabe, on appelle les chefs et les maitres par l'expression « ceux qui lient et délient ».

D'ailleurs, la corde faite à partir du poil des chameaux et des chèvres est appelé « rey », dans d'autres régions de la Tunisie. Or, ce mot « rey » sert à désigner les rois dans certaines langues européennes, tandis que le mot français « roi » est un homonyme du mot « rey ».

Le mot « basilic » qui appartient à ce même champ lexique, sert à appeler en français, et autres langues européennes, la plante aromatique connue sous ce nom, pour signaler qu'elle est une plante royale.

De cette façon, on peut dire, sans se tromper, que les analogies entre les choses naturelles établies par le corps humain reflètent et expriment la similitude et l'identité physiques de ces choses, c'est-à-dire que les choses naturelles qui se ressemblent et présentent quelques points communs entre elles peuvent être considérées comme étant une seule et même chose.

Plaies, vagin et noyaux

Dans ce cadre, certains chants populaires libertins du Sud ouest de la Tunisie, dans la région de Néfzaoua, comparent le vagin de la femme à une plaie qui démange constamment la femme sexuellement excitée.

Or, il existe effectivement une analogie entre la plaie ou blessure cicatrisée, faite par un couteau sur le corps humain, par exemple, et le vagin de la femme sur le plan de la forme. Le vagin de la femme ressemble parfaitement à une plaie cicatrisée, sur le plan de la forme.

Justement, contrairement aux idées scientifiques prônées à ce sujet, le vagin de la femme est, à l’origine, une plaie cicatrisée. En effet, la plaie ou la blessure cicatrisée se ravive et devient, parfois, une source de démangeaison et d’excitation, poussant la personne qui la porte à la gratter et à la frotter pour faire cesser la démangeaison, tandis que ce frottement augmente la démangeaison et le désir de davantage de frottement. Réciproquement, on peut dire que, dans les conditions naturelles, le frottement exprime une réaction à une certaine démangeaison ou excitation.

L’acte sexuel censé apporter le plaisir et la jouissance pour l’homme et la femme qui l’accomplissent se ramène principalement à un frottement des parois du vagin de la femme par le pénis de l’homme. Or, ce frottement semble procurer du plaisir alors qu’il est une source de douleur, car le frottement déchire les choses

qu'on frotte et il produit de la chaleur qui brûle. L'acte sexuel ressemble au cas d'un homme souffrant d'une plaie réelle remplie de pus. Cette plaie le démange et exerce sur lui des excitations douloureuses. Son corps se trouble et s'agite, autant que ses membres dont les mains qui tremblent et se mettent à gratter et à frotter la plaie. L'homme croit ressentir du plaisir, en grattant et en frottant la plaie, alors qu'il s'agit de douleur puisqu'il émet, dans le sillage, les sons exprimant la douleur comme le son « o » et « ou ». Le frottement s'accroit à mesure qu'il se déroule, dans la mesure où le frottement, en déchirant davantage la peau et en produisant davantage de la chaleur, lors de son déroulement, augmente la sensation de douleur, et par voie de conséquence fait redoubler l'agitation et le trouble général du corps de sorte qu'on peut dire que le frottement produit davantage de frottement et ainsi de suite jusqu'à ce que la plaie s'ouvre et que le pus qui s'y trouve, et qui est la source de démangeaison, se déverse à l'extérieur.

Il en va de même en ce qui concerne l'acte sexuel entre l'homme et la femme sexuellement excités, qui se ramène au frottement des parois du vagin de la femme par le pénis de l'homme. Ce frottement redouble à mesure qu'il se déroule, en faisant redoubler l'agitation générale du corps et ainsi de suite jusqu'à l'éjaculation et l'éjection des spermes de l'homme qui sont une des causes de l'excitation sexuelle. Les spermes ou liquide séminal est déversé dans le vagin de la femme à travers le pénis, suite à la pression exercée par le biais de l'excitation

sexuelle sur le corps excité, tel qu'il a été expliqué précédemment.

Mais, dans l'acte sexuel à l'échelle humaine, lorsque l'homme excité sexuellement, sous l'effet de l'accumulation des spermes dans son corps, entre autres, procède au frottement des parois du vagin de la femme par son pénis, il ravive la sensibilité du vagin qui est une ancienne plaie cicatrisée. Lorsque l'homme se met à frotter la paroi du vagin par son pénis, le vagin, ainsi frotté, s'anime de nouveau et devient, comme toutes les plaies frottées, une cause de douleur et provoque l'excitation du corps de la femme. Alors la femme, ainsi excitée, est prise d'une agitation physique générale et participe, à son tour, à l'action de frottement. La fréquence et le rythme de ce double frottement augmentent avec le déroulement du frottement, en tant que cause de douleur, jusqu'à l'éjaculation des spermes, source de démangeaison chez l'homme.

D'ailleurs, les spermes ressemblent parfaitement au pus des plaies infectées et ils sont de la nature des pus des plaies et constituent des sources de démangeaison, que l'homme excité cherche à apaiser à travers le frottement.

Sur un autre plan, les populations dans la région de Nefzaoua, au Sud ouest de la Tunisie, désignent le vagin de la femme et le noyau des dattes par le même nom, soit en arabe « alfa » (en écriture arabe علفة). Ce mot « alfa » est donné particulièrement aux lèvres du vagin et au clitoris. Le noyau de la datte est aussi appelé dans cette

région « nouat », d'après son nom dans la langue arabe commune, mot homonyme du mot français « noyau ». Ce mot « nouat » est également donné au clitoris et au vagin de la femme en général, et il est prononcé sous la forme de « nouna » (en écriture arabe نونة).

En effet, le vagin de la femme vu de l'extérieur et le noyau de la datte vu de l'extérieur se ressemblent, sur le plan de la forme. Le vagin vu de l'extérieur est une fissure et une fente, ou encore, dans plusieurs cas, une protubérance fendue et fissurée. Le noyau de la datte vu de l'extérieur présente une fente et un enfoncement en forme d'arc.

Justement, outre cette ressemblance entre le vagin de la femme et le noyau de la datte, sur le plan de la forme, il existe entre le vagin de la femme et le noyau de la datte et des fruits en général une similitude d'ordre naturel et physique, en matière de reproduction et procréation. Ils forment tous les deux des supports pour la reproduction et la procréation de nouveaux êtres vivants. En effet, au cours de l'acte sexuel, le vagin de la femme est le réceptacle qui recueille les spermes qui y sont déversés à travers le pénis de l'homme et qui fécondent l'œuf ou l'ovule pondu par la femme et devant donner un nouvel être humain, après un certain temps de gestation. De la même manière, le noyau renferme la graine qui constitue la semence au niveau des végétaux, car c'est la graine, qualifiée par les naturalistes d'organe dormant, qui, en germant, devient, après gestation, un nouveau végétal de l'espèce de l'arbre qui a produit le noyau du fruit où il était enfermé.

Origine réelle des organes des sens

Donc, le vagin de la femme est, à l'origine, une déchirure et une fissure. En effet, le corps d'un homme et celui d'une femme placés face à face sont symétriques de sorte que l'un des deux corps est l'image parfaite de l'autre corps, au sens physique et même mathématique du terme. Les deux corps possèdent, chacun, à la même place, deux yeux, deux oreilles, deux narines, une poitrine munie de deux seins, un ventre, deux jambes et deux pieds également symétriques et situés au même endroit. Seulement, l'homme possède entre les jambes un petit membre extérieur érectile, le pénis, tandis que la femme possède une fente, le vagin, à cet endroit. Tous les grands animaux pratiquement présentent cette symétrie corporelle qui ne peut pas être fortuite.

On peut déduire de la symétrie corporelle entre l'homme et la femme placés face à face, que les corps actuels sont le résultat d'une dislocation d'un ancien corps double ou multiple tandis que le pénis et le vagin sont le résultat du déchirement d'un canal ou d'un conduit interne constitutif de cet ancien corps double ou multiple. Le pénis formait ce canal ou ce conduit alors que le vagin est le creux et l'enfoncement laissé par le pénis en se retirant. En effet, en y pénétrant, le pénis comble parfaitement le vagin et leur union reproduit l'ancien canal ou conduit déchiré.

Un homme et une femme, soudés ou accomplissant, face à face, l'acte sexuel, reproduisent

l’ancien corps double qu’on peut comparer à une fève alors que l’homme et la femme sont les deux parties superposées l’une sur l’autre de la fève.

Cet ancien corps double ou multiple (il a pu être constitué de l’assemblage de plusieurs parties similaires soudées) s’est disloqué, à un certain moment, donnant naissance aux corps actuels qui sont des demi-corps, ou des demi- hommes, s’agissant de l’espèce humaine en particulier.

Le résultat de cette dislocation a été l’apparition des organes des cinq sens qui sont des orifices, soit les yeux, les oreilles, les narines du nez et la bouche, car ces organes des sens formaient dans l’ancien corps double des canaux et des conduits internes. Le pénis et le vagin qui formaient ensemble un canal interne, dans le corps double primitif, sont aussi apparus suite à cette dislocation, comme il a été mentionné précédemment. Les seins sont aussi apparus suite à cette dislocation.

Spermes, pus et crachats

Comme il a été mentionné précédemment, Il existe une analogie entre les spermes secrétés par les mâles des mammifères, comme les mâles de l’espèce humaine, et la substance appelée « pus » remplissant les plaies et les abcès infectés chez les hommes et les animaux. Les spermes et la substance appelée « pus » ressemblent également aux crachats des hommes, notamment les

crachats secrétés par les fumeurs en toussant, après leur réveil, le matin, ou encore les crachats des malades des poumons. Ces trois substances sont des liquides, elles sont, en outre, blanches et visqueuses.

On peut donc dire, sans se tromper, sur la base des analyses précédentes, que les spermes, le pus et les crachats sont, physiquement, une seule et même chose.

Les excitations sexuelles sont, donc, de même nature que les excitations générées par les pus des plaies et des blessures infectées. La Science moderne officielle estime que les spermes sont formés d'animalcules qu'elle appelle spermatozoïdes, soit littéralement les animaux de la semence, ou la semence de la vie, car ce mot est composé du mot « spermes » qui désigne « la semence » en grec et du mot « zoïde » qui signifie « animal » au sens « d'être vivant », en grec également, comme on dit en français « androïde » pour désigner les humanoïdes, c'est-à-dire les semblables à l'homme par certains aspects, car le mot « androïde » dérive du mot « anthropos » qui sert à désigner l'homme en grec. On emploie aussi, dans ce sens, le terme « hominidés ».

La même Science moderne affirme que les pus accumulés dans les plaies infectées sont des déchets de cellules vivantes détruites ou tuées ou plutôt des animalcules tués appelés « microbes ».

Il en serait de même concernant les crachats des malades souffrant de maladies pulmonaires, selon la Science. En suivant une telle thèse, on pourrait dire que

les spermatozoïdes seraient des animalcules tués ou inhibés, à l'instar des germes inhibés servant à fabriquer les vaccins contre les maladies.

Justement, quoique la Science moderne officielle considère tacitement que les spermatozoïdes sont de pures cellules vivantes, de la même espèce que toutes les autres cellules vivantes constituant le corps humain, à l'instar de l'œuf ou l'ovule de la femme ou encore des cellules formant le tissu du foie, et qu'ils ne sont donc pas des êtres vivants accomplis, les hommes, y compris les scientifiques, ont tendance à les regarder comme étant des animalcules.

Cependant, abstraction faite de ces considérations de la Science moderne, à connotation animiste, on peut dire, sans se tromper, qu'au même titre que les substances formant les pus des plaies infectées et les crachats secrétés par les hommes souffrant de maladies pulmonaires, les spermes secrétés par les mâles de l'espèce humaine et d'autres espèces animales, sont des déchets « organiques », à l'instar de toutes les secrétions humaines dites hormonales, tels que la salive, la sueur ou encore le lait de la mère sucé par le nourrisson.

Ces analyses s'appliquent également aux grains de pollen qui, à l'échelle végétale, correspondent aux spermes à l'échelle animale. Ils constituent aussi des déchets « organiques ».

Il importe de noter, à cet égard, que l'odeur des spermes de l'homme est identique à l'odeur des grains de pollen des palmiers dattiers mâles.

Terre, œuf et fruits

De nombreuses analogies existent également entre la planète terre, les œufs des poules, et les fruits des arbres et des végétaux en général. La terre est une planète de forme ronde et ovale, comme les œufs des poules. Il y a donc une analogie entre la forme de la terre et celle des œufs, d'où, on peut affirmer qu'il y a un rapport naturel très étroit entre la terre en tant que planète et les œufs des poules et autres animaux. D'après quelques savants modernes, au cours de sa sortie et son éjection, l'œuf de la poule amorce une certaine révolution, à l'image de la révolution de la terre autour d'elle-même et du soleil.

Justement, contrairement aux idées reçues, la planète terre est une sphère de gaz au milieu de laquelle nage une masse de rochers dans une étendue d'eau. Les gens, y compris les scientifiques, ont tendance à réduire le globe terrestre à la masse de rochers entourée d'une étendue d'eau, en occultant le gaz qui l'enveloppe, regardé comme étant une simple atmosphère secondaire. Or, ce qui donne sa forme ronde à la terre c'est son enveloppe gazeuse.

Ainsi, vue comme étant une sphère de gaz au milieu de laquelle nage une masse de rochers dans une étendue d'eau, la planète terre ressemble parfaitement à l'œuf de la poule composée d'une enveloppe calcaire ou coquille de forme sphérique au milieu de laquelle nage une substance jaune dans un liquide blanc.

En se basant sur cette analogie, on peut dire que la terre avait été, à un certain moment, entièrement couverte de neige ou glace, et était, ainsi, aussi blanche que l'œuf de la poule.

Les fruits des arbres et des plantes en général, qui correspondent aux œufs des animaux, sont de forme ronde comme la terre, à l'instar des oranges, des grenades, des pommes. Il en existe qui ont la forme d'une ellipse, comme les pastèques, les poires et certaines variétés de dattes. La terre décrit une ellipse au cours de sa révolution autour du soleil, selon les astronomes.

Comme il a été signalé précédemment, étant l'expression des réactions du corps humain aux excitations extérieures, les analogies établies par les hommes entre les choses naturelles ne trompent pas, comme les impressions éprouvées par les cinq sens. Une personne ne peut pas douter de ce qu'elle a vu de ses propres yeux.

Les auteurs arabes de l'âge classique ont rapporté dans leurs livres une masse considérable d'analogies et de faits de divers ordres, restées au rang de pures observations à défaut d'un cadre explicatif approprié.

Ainsi, dans son traité intitulé « Les animaux » (en arabe « Al hayawan »), l'auteur encyclopédique arabe Al Jahidh, au 9ème siècle grégorien, mentionne plusieurs analogies d'origine naturelle comme l'analogie entre la tête des reptiles, spécialement les serpents, et plus particulièrement les vipères et celle des oiseaux, notamment les passereaux, comme les moineaux.

La Science moderne officielle prône l'idée de l'évolution des espèces animales et la communauté de leur descendance, c'est-à-dire qu'elle estime que les espèces animales qui présentent des analogies et des ressemblances morphologiques entre elles, descendent d'un ancêtre commun et ont donc un lien de parenté entre elles, comme l'espèce humaine et les singes supérieurs appelés primates. Dans ce cadre, la Science moderne affirme que les reptiles comme les vipères, et les oiseaux comme les moineaux ont une lointaine origine commune et un ancêtre commun, illustrés notamment par les anciens animaux disparus appelés dinosaures qui étaient des reptiles et des oiseaux à la fois, ce qui expliquerait l'analogie et la similitude entre la tête des moineaux et celle des vipères, mentionnée par le savant arabe Al Jahidh, au 9ème siècle grégorien.

Or, s'agissant des liens entre les phénomènes astronomiques et ceux de la vie, quelques savants de l'époque moderne ont cru pouvoir expliquer certains phénomènes de la vie par des causes d'ordre astronomique. Ainsi, dans son livre intitulé « la Descendance de l'homme », le savant naturaliste anglais Charles Darwin, au 19ème siècle, écrit en substance que

« l'homme est, comme d'autres animaux, mammifères, oiseaux, insectes même, soumis à cette loi mystérieuse en vertu de laquelle certains phénomènes normaux, tels que la gestation, ainsi que la maturation et la durée de diverses maladies suivent les phases de la lune ».

Ce même naturaliste estime que l'ancêtre lointain ou premier ancêtre de la race humaine est un animal marin (une sorte de poisson primitif) en se basant, entre autres, sur le cycle menstruel de la femme chez l'espèce humaine, qui porte, selon lui, à travers son rythme et sa périodicité (quatre semaines constitués de quatre stades distincts) la marque d'une influence lointaine de la lune, et du cycle lunaire (la révolution de la lune autour de la terre) qui dure aussi quatre semaines formées de quatre stades distincts. Cette influence lunaire s'est faite, selon Darwin, par le biais des marées maritimes et océaniques. En effet, d'après la Science moderne, les marées sont induites par l'action ou attraction de la lune et du soleil sur la terre, en particulier la lune. En se basant sur ce parallélisme, Darwin a cru pouvoir affirmer que l'ancêtre lointain de la race humaine devait être un animal marin ou un poisson primitif ayant vécu longtemps dans une baie de la mer baignée par les marées.

Science et Croyances astrologiques

Ces idées scientifiques s'apparentent aux anciennes croyances humaines d'ordre astrologique concernant l'influence des astres et des phénomènes

astronomiques sur le cours de la nature et de l'existence humaine, comme les croyances encore en vigueur concernant les rapports entre les conjonctions astrales inventoriés à travers le système des signes du zodiaque et la période ou date de naissance des personnes.

Dans sa course apparente à travers le ciel, durant une année de quelques 365 jours, le soleil traverse 12 constellations d'étoiles figurées par les signes du zodiaque, et appelées pour cette raison « constellations zodiacales », passant une période d'un mois ou 30 jours, dans chacune d'elles. Les gens ont cru et croient encore à l'existence de rapports étroits entre ce voyage solaire annuel à travers les constellations zodiacales et ce qui arrive à chaque personne humaine, au cours de sa vie quotidienne, en fonction de la date de sa naissance et de la position du soleil dans le ciel à cette date. C'est ce qu'on désigne en français par le terme « horoscope ». Chaque personne a ainsi un horoscope en fonction de sa date de naissance.

Par exemple, une de ces conjonctions astrales est le passage du soleil, au cours de sa révolution annuelle apparente, par la constellation des étoiles, dite « constellation de la vierge », entre le 23 août et le 22 septembre. Les personnes nées durant cette période sont exposées à certains évènements en particulier, sous l'influence de cette conjonction, d'après ces croyances astrologiques.

Avant l'Islam, les anciennes tribus arabes qui peuplaient l'Arabie, avaient élaboré tout un système de

prévisions météorologiques, notamment en ce qui concerne les chutes de pluie, sur la base de certaines conjonctions astrales et d'apparition et disparition concomitantes de certaines étoiles en particulier, dans le ciel au cours de l'année. Ils croyaient que ces étoiles en particulier, par leur apparition ou disparition dans le ciel, provoquaient les chutes de pluie étalées sur l'année et elles les désignaient par le terme arabe de « naw » au singulier et « anwa » au pluriel (en écriture arabe نوء et أنواء).

Ainsi, la pluie qui tombe en décembre est attribuée à l'influence particulière de la constellation des étoiles appelée « les Pléiades » en français et Thuraya en arabe (en écriture arabe الثريا).

Jusqu'à présent dans certaines régions de la Tunisie, comme la région de Gafsa, au Sud, la pluie est désignée par ce mot « naw », de sorte que la cause présumée est confondue avec son effet présumé et inversement.

En réalité, ces croyances populaires relatives à l'influence des astres et des étoiles sur le cours de la nature et de l'existence humaine ne se rapportent pas aux véritables astres et étoiles peuplant le ciel mais à des anciens personnages et à des groupes humains qui avaient vécu, autrefois, sur terre et qui portaient au cours de leur existence sur terre les noms des astres e des étoiles concernées.

Jusqu'à présent, en Tunisie et autres pays arabes, les noms des astres et des étoiles sont donnés également aux hommes des deux sexes. Plusieurs femmes en Tunisie et autres pays arabes sont appelés « Qamar », nom arabe de la Lune, ou « Chemsa », nom arabe du Soleil, ou encore « Zohra », nom arabe de Vénus, et Thuraya, nom arabe de la constellation des Pléiades. Des hommes, c'est-à-dire des mâles, sont appelés Souhayel, nom arabe de l'étoile Canopus.

Les constellations qui portaient les noms d'animaux comme la constellation de l'Ours représentent, à l'origine, des établissements et des villages humains habités par des groupes portant le nom de ces animaux comme il est encore d'usage, de nos jours. D'ailleurs, les constellations zodiacales par lesquelles passe le soleil porte, en arabe, le nom de « borj », (en écriture arabe برج),qui signifie « tour », « forteresse », « bastion », « village », au même titre que son homonyme en français, le mot « bourg ». Les constellations traversées par la lune sont appelées en arabe « les maisons de la lune »(en arabeمنازل القمر).

Les dieux de plusieurs anciens peuples portaient le nom des astres et des étoiles. Les arabes avaient vénéré un Dieu appelé « Chems », nom arabe du Soleil. Certains dieux adorés par les anciens grecs, en Grèce, au Sud- est de l'Europe, et les anciens habitants de Rome, en Italie, au Sud- ouest de l'Europe, portaient des noms d'astres et d'étoiles ou étaient associés à des astres et à des étoiles. On en signale, entre autres, la déesse de la beauté et de l'amour chez les anciens habitants de Rome, dits les romains, qui portait le nom de Vénus, comme la planète

Vénus. Les membres de la famille d'un ancien maitre de Rome, appelé César, il y a quelques 2050 ans, au dernier siècle avant notre ère, disaient qu'ils descendaient de cette déesse.

Jusqu'à nos jours, les habitants du Japon, à l'extrême Est de la Terre, adoraient une déesse associée au Soleil nommée « Amatérasu », de sorte que les empereurs de ce pays censés en être les possesseurs disent qu'ils descendent de cette déesse du Soleil. Elle avait un frère, le dieu de la lune, appelé « Tsukuyomi ».

Or, comme il a été signalé précédemment, les dieux adorés par les divers peuples de la terre représentent les pères et les grands personnages dans les premières familles humaines ayant peuplé la terre aux premières époques de l'histoire humaine. Les pères étaient et sont encore les maitres de leurs familles et avaient et ont encore une influence sur leurs enfants et leurs épouses. Au moyen de l'éducation, ils façonnaient et façonnent encore la personnalité de leurs enfants de sorte qu'ils commandent le cours de l'existence des membres de leurs familles.

Ainsi, les croyances aux influences astrales se rapportent, à l'origine, à cette influence parentale et à l'influence des grands personnages sur leur entourage humain, comme l'influence d'un savant sur ses disciples et sur tous ceux qui partagent ses idées.

Les thèses à caractère scientifique concernant les influences astrales comme celles du naturaliste anglais

Charles Darwin, évoquées précédemment, sont une reformulation des croyances populaires à ce sujet, que leurs auteurs ont eu l'occasion de connaitre et d'assimiler à travers l'éducation, les livres et la culture. Puis, ces reformulations scientifiques modernes des anciennes croyances populaires relatives aux influences astrales sur le cours de la nature et de l'existence humaine ont été favorisées, de nos jours, par les thèses à caractère scientifique concernant l'attraction universelle et les influences réciproques que le soleil, les planètes dont la terre exercent les uns sur les autres, comme dans le système scientifique d'explication du monde conçu par le savant anglais Isaac Newton, aux 17ème et 18ème siècles grégoriens.

Révolution lumineuse

Cependant, au-delà de ces idées scientifiques officielles dont on peut aisément montrer les limites et les incohérences, les analogies et les rapports relevés précédemment entre certains phénomènes de la vie et des phénomènes purement physiques, comme la symétrie corporelle, le rapport entre l'amour et la chaleur, l'analogie entre la planète terre et les œufs des poules, celle entre le vagin et les plaies, et entre le vagin et les noyaux des dattes gardent toute leur valeur intrinsèque et constituent des faits réels et irréfutables.

Justement, outre ces rapports, les fruits des arbres et les petits des animaux décrivent, au cours de leur

maturation, une révolution lumineuse illustrée par le passage obligé et graduel des fruits des arbres et des petits des animaux, au cours de leur maturation, par les couleurs du spectre de la lumière visible telles qu'elles se succèdent dans l'arc en ciel, en commençant par le blanc et en finissant par le rouge, après le passage par le vert, le bleu, le violet, le jaune et l'oranger.

Ainsi, les fruits des palmiers dattiers appelés « dattes » sont blancs, au début de leur maturation, s'agissant de grains de pollen blancs s'introduisant dans les ovules blanches des fleurs femelles, puis, en devenant une petite datte, le fruit devient vert, c'est-à-dire son enveloppe devient verte; ensuite, il vire au jaune, ou encore à l'oranger et au rouge. Certaines variétés passent par le violet. Enfin, la datte mûrit, devient tendre et perd sa couleur jaune ou rouge. Son enveloppe devient noire, ou brune ou encore dorée. Elle se dessèche et finit par tomber à terre.

L'œuf de la poule dont la coquille est le plus souvent blanche, est formé, à l'intérieur, d'une substance composée d'un élément blanc, et d'un élément jaune. Lorsqu'il est fécondé, il s'y ajoute un troisième élément de couleur rouge, composé de sang. Ainsi, il y a un passage du blanc, au jaune et ensuite au rouge.

Il en va de même concernant le petit des hommes. Il commence par un mélange blanc des spermes du mâle et de l'ovule de la femelle, puis revêt diverses couleurs apparentées au rouge foncé et dégradé, aux premiers stades de son développement dans le ventre de sa mère,

avant de revêtir la couleur de la peau de ses parents, c'est-à-dire une des couleurs connues des « races » humaines, qui se ramènent en réalité à deux ou trois couleurs, le noir, le doré ou encore brun, soit les couleurs de la datte mûre qu'on peut confondre avec la perte de couleur.

Dans le cas des poules et des hommes, il y a eu abréviation de la révolution lumineuse, mais dans la plupart des cas, notamment au niveau des fruits, elle commence par le blanc, puis le vert, ensuite, le violet, l'orange, le jaune et enfin le rouge. Les fleurs qui revêtent toutes les couleurs de l'arc-en- ciel illustrent parfaitement cette révolution lumineuse, car elles constituent, chez les végétaux, le stade principal de la reproduction des nouveaux êtres vivants.

Sur ce plan, les arbres formant par leurs groupements et leurs rassemblements, des bois et des forêts portent en arabe le nom de « châara » (en arabe شعراء), soit le même nom servant à désigner les cheveux et les poils en arabe, aussi (en écriture arabe شعر).

Les épines des épis des blés sont appelées en arabe « safa » (en écriture arabe سفا), mot homonyme du mot « cheveu », en français. La laine s'appelle en arabe « souf » (en écriture arabe صوف), mot appartenant au même champ lexique que « safa » et « cheveu ».

A cet égard, on peut constater que les fruits et les légumes avariés comme les tomates se recouvrent de fibres végétales blanches semblables à de la laine. Pour

décrire ce phénomène, les tunisiens disent que les tomates « se recouvrent de laine », « téssaouef », soit en arabe تصوف. Le coton recouvrant les graines du cotonnier ressemble à la laine des moutons, de sorte qu'il y a un rapport naturel entre le couvert végétal et le couvert animal, comme la laine et les poils et les cheveux.

Or, la terre est couverte d'arbres alors que les animaux et les hommes sont couverts de poils et de cheveux. Le couvert végétal de la terre a été plus épais et plus dense, dans le passé, avant d'être détruit, en grande partie, de nos jours, sous l'effet de l'action humaine, plus particulièrement.

Peuplée des parasites appelés « poux », la tête d'un homme ressemble, par ses cheveux, à une forêt ou un bois habités par quelques animaux, notamment pour les poux qui l'habitent et qui vivent sur le sang de leur hôte qu'ils sucent comme les arbres qui vivent et se nourrissent en suçant l'eau et les sels minéraux de la partie du sol terrestre sur laquelle ils reposent.

Il y a ainsi, sur ce plan, une analogie parfaite entre les êtres vivants, notamment les animaux, pris individuellement, et la terre dans son ensemble. On dirait que les êtres vivants, pris individuellement, sont des reproductions miniaturisées de la terre dans son ensemble, des miniatures de la terre en quelque sorte.

Ainsi, les êtres vivants sont essentiellement des parasites qui vivent sur la terre physique. Les végétaux parasitent le sol tandis que les animaux herbivores

parasitent les végétaux et que les animaux carnivores parasitent les animaux herbivores. Les êtres vivants parasitent la terre physique dans son ensemble, en tant que leur «hôte », comme le corps humain qui constitue un hôte à certains parasites, tels que les poux et les vers de la gale, ou encore comme les cellules vivantes des corps des êtres vivants qui servent d'hôtes aux plus petites entités vivantes appelées « virus », selon les thèses de la Science moderne.

D'après les thèses de la Science moderne, Il existerait de très petites entités vivantes qu'elle appelle « virus », qui s'introduisent dans les cellules vivantes et les parasitent, en empruntant et en volant leur manière et leurs moyens de vivre et de se multiplier. Ils continuent ensuite de vivre, dans le corps agressé, en prenant la place des cellules vivantes parasitées et détruites au passage. Il y a, aussi, selon la Science moderne, d'autres petites entités vivantes appelées « microbes » qui s'introduisent dans le corps humain et vivent en parasites sur les substances et les tissus qui le composent.

La Science moderne affirme que le corps humain dans son entier ressemble à une mare de liquides ou d'eau chargée de substances diverses dans laquelle des associations de cellules vivantes (assemblées autour de cette mare), puisent ces substances, les absorbant puis les rejetant sans cesse dans la mare, à la manière des plantations de roseaux poussant autour des mares d'eau et puisant l'eau et les sels minéraux du sol sur lequel ils reposent.

Le corps humain se ramène, ainsi, à des ramifications de conduites à travers lesquelles coulent les liquides signalés, chargés de diverses substances que les cellules vivantes rassemblées autour de ces conduites sucent sans cesse.

Respiration, poumons et combustion

Le sang rouge des hommes constitue l'essentiel de ces liquides. Or, comme il a été noté précédemment, le rougissement d'une substance ou d'un élément quelconque comme le fer est le signe de l'échauffement. Quand le fer est chauffé, il rougit. En vertu de l'identité des choses similaires, on peut dire, sans se tromper, que le sang est un liquide chauffé ; et comme il conserve constamment sa couleur rouge, tant que le corps humain est en vie, on peut dire que le sang est un liquide constamment chauffé, ou plutôt un mélange de substances constamment chauffées, ou un mélange de substance en feu, ou encore un mélange de substances qui brûlent. Le sang est ainsi un liquide en combustion. Toutefois, le feu et la combustion ont besoin d'air, ou plutôt de l'élément appelé oxygène, pour se produire et se maintenir.

Justement, l'environnement et l'entourage extérieurs de l'homme sont chargés naturellement d'air et d'oxygène qui, étant des gaz et des corps volatils, entrent, de façon mécanique et automatique, dans le corps humain, à travers sa bouche et les narines de son nez qui

sont des orifices donnant sur cet environnement extérieur. Les liquides comme l'eau et les gaz comme l'oxygène entrent automatiquement dans les orifices rencontrés sur leur chemin.

Cette entrée automatique et mécanique de l'air et de l'oxygène dans le corps humain est appelée « respiration ». Ainsi, on peut assimiler la respiration à une opération mécanique d'aération du sang en feu ou plutôt du feu sanguin, tandis que les organes appelés « poumons » par lesquels passent l'air et l'oxygène pour pénétrer profondément dans le corps après leur entrée par la bouche et les narines, peuvent être assimilés au soufflet du forgeron dont ce dernier se sert pour produire le courant d'air et d'oxygène nécessaires à l'entretien du feu de son fourneau.

On peut aussi comparer le sang rouge de l'homme à la lave rouge, un mélange liquide et fluide de substances diverses en feu, qui sort des entrailles de la terre par les orifices des volcans en activité. Cette analogie, ajoutée à celle relative à la forme ronde de la terre, des œufs et des fruits, confirme le rapport intime entre ces divers éléments naturels.

D'ailleurs quelques savants français, au $18^{ème}$ siècle, ont comparé la respiration humaine à une combustion, mais cette constatation est restée sans suite significative et a été plutôt déformée et vidée de son sens.

Inflammations et nature physique de la vie

Mais, quoiqu'il en soit de ces ratages scientifiques, et ils sont très nombreux, les analyses précédentes concernant les analogies, l'identité des choses similaires, ainsi que plusieurs autres données et faits irréfutables montrent que la vie, dans toutes ses manifestations, est un phénomène purement physique.

Il a été montré que l'amour ou le désir sexuel qui est à la base de la reproduction et de la multiplication des êtres vivants est un phénomène physique et se ramène à la chaleur au sens physique du terme.

Sur un autre plan, il a été montré que les spermes des mâles qui fécondent les œufs des femelles sont analogues aux pus des plaies infectées et aux crachats des malades des poumons.

Justement, les plaies sont des infections et des inflammations. Or, les sites des infections et des inflammations sur les corps affectés sont rouges ou plus exactement ces sites, après leur infection, rougissent, comme le fer qui rougit sous l'effet de la chaleur.

En français, les infections et les inflammations de la peau sont appelées parfois « bouton », comme les boutons ou pustules des acnés juvéniles qui infectent le visage des pubères et adolescents de l'espèce humaine. Ces boutons sont rouges et remplis de pus.

Dans le monde végétal, le premier stade de développement des nouveaux végétaux se déroule dans les parties ou pièces des végétaux appelées justement en français « boutons » et « bourgeons », car, elles ont la forme et l'aspect des boutons et des pustules remplis de pus, infectant les corps des animaux et de l'homme. En effet, les fleurs qui renferment les spermes et les ovules dans les végétaux naissent dans des bourgeons appelés pour cette raison « boutons ». Lorsque les boutons s'ouvrent et éclosent, ils laissent apparaitre les fleurs où a lieu l'accouplement entre les spermes des mâles ou grains de pollen fécondateurs et les ovules femelles. Puis, grâce à cet accouplement se forment et naissent graduellement les nouveaux végétaux.

Ainsi donc, que ce soit chez les animaux y compris l'espèce humaine, ou chez les végétaux, la reproduction des nouveaux êtres vivants démarre par une inflammation et un rougissement de la nature du rougissement du fer chauffé, alors qu'au cours des divers cycles de leur maturation, les nouveaux êtres vivants décrivent une révolution lumineuse, en passant graduellement par les couleurs de la lumière visible, telles qu'elles se succèdent dans l'arc-en-ciel, du blanc au rouge, en passant obligatoirement par le vert après le blanc chez les végétaux, avant de virer au noir marquant la perte de toute couleur, et donc de la vie.

Les cheveux chez les hommes deviennent blancs, ou plutôt cendrés, à la vieillesse, donc ils prennent la couleur des cendres qui pourrait être considérés comme étant la marque de la fin de la vie, comme les cendres

laissées par le feu éteint. Mais, la couleur blanche est la marque du démarrage de la maturation, comme il a été noté précédemment de sorte que dans ce cycle, on ne sait pas où se trouve le commencement ni où se trouve la fin.

Ce qu'on peut affirmer c'est que le nouvel être vivant, qu'il soit animal ou végétal, est le prolongement de ses parents et plus particulièrement de sa mère, au sens physique et matériel du terme.

La branche d'un arbre est, en réalité, un arbre soudé matériellement à son arbre mère, puisque la branche donne des bourgeons, des fleurs, des fruits et se ramifie en d'autres branches. Il en va de même du petit homme sortant du ventre de sa mère. Il était soudé matériellement à sa mère par le cordon ombilical.

A l'origine, la mère donne naissance à plusieurs petits qui sont liés ensemble et attachés en même temps au corps maternel par le cordon ombilical. La mère avec ses petits liés ensemble et attachés à son corps, ressemble à un arbre avec ses branches. En réalité, les petits, à la naissance, devraient restés attachés à la mère, comme les nouvelles branches de l'arbre, et ainsi de suite à l'infini.

Un arbre devrait aussi, en réalité, se ramifier à l'infini, et il en est ainsi, car, dans les conditions naturelles, les petits du palmier dattier, même séparés, restent attachés à leur mère en formant une ceinture autour d'elle. L'accroissement peut donc être concentrique, c'est-à-dire sous forme de cercles concentriques.

Or, chez les hommes, les contes populaires et les données folkloriques signalent qu'autrefois, la mère et ses filles notamment habitaient dans des huttes placées en forme de cercles concentriques. La mère habite une hutte centrale, tandis que ses filles habitent des huttes entourant la hutte maternelle comme une ceinture. Des formes d'habitat en cercles concentriques étaient pratiquées dans les pays africains jusqu'à une époque très récente. Le père, en tant que chef absolu de la famille, habite une case située au centre de la grande maison familiale, avec ses épouses et ses filles célibataires, entourée des cases réservées à ses fils mâles, puis vient le cercle de la case des serviteurs et des esclaves et enfin, le cercle des cases réservées au bétail, à la meule et aux autres accessoires de la maison.

La reproduction chez certains animaux s'effectue au moyen de la scissiparité, consistant à doubler en longueur puis à se partager en deux êtres ou cellules identiques qui peuvent se séparer, comme chez de nombreuses bactéries.

La symétrie corporelle chez les hommes signalée précédemment est la survivance morphologique de cet ancien mode de reproduction.

Or, contrairement aux idées reçues, la séparation spatiale ne veut pas dire autonomisation et séparation matérielle. Les membres d'une famille humaine forment un tout, bien qu'ils soient séparés spatialement. Une famille humaine, par rapport à ses membres, est analogue

à un arbre dont les branches sont aussi des arbres, comme il a été noté précédemment.

En effet, la séparation spatiale des membres d'une famille humaine n'est qu'apparente, car, dans les conditions naturelles d'autrefois, ils continuent de manger ensemble, la même nourriture, dans le même plat et au même moment, de boire ensemble dans le même récipient, la même eau puisée dans la même mare voisine, et de communiquer entre aux au moyen du langage qui se ramène à des sons générés par des courants d'air sortant des poumons, donc un lien des plus physiques. Enfin, l'espace commun dans lequel ils évoluent est la meilleure marque de leur union physique et matérielle.

Ces vérités s'appliquent au clan qui est une association de familles, à la tribu en tant qu'association de clans, au peuple en tant qu'association de tribu, et enfin l'humanité en tant qu'association de peuples.

Ainsi, on peut affirmer que les êtres vivants, depuis leur apparition, forment et constitue un seul et même être vivant, toujours identique à lui-même.

Cependant, les analyses précédentes ont montré que toutes les propriétés convenues de la vie sont de nature purement physique de sorte que ce qui reste de palpable et de « matériel » dans les êtres vivants c'est leur substance organique, et l'élément organique dont ils sont constitués et qu'on peut appeler l'élément vivant, à l'instar

de l’hydrogène, de l’oxygène, du fer, de l’or, du cuivre et autres éléments matériels.

La vie se ramène donc aux manifestations et propriétés physiques de cet élément organique ou élément vivant, comme c’est le cas pour tous les autres éléments dits inorganiques tels le fer, l’or, l’hydrogène, ou le calcium qui ont, chacun, leurs propriétés physiques propres, comme le fait de bouillir à une certaine température, d’être inodore, sans saveur.

Origine de l'idolâtrie selon les contes populaires des oasis sahariennes de Nefzaoua

Les populations des oasis sahariennes de Nefzaoua, dans le gouvernorat de Kébili, au Sud ouest de la Tunisie, des arabes à l'instar de l'ensemble des tunisiens, racontent quelques contes populaires comportant des scènes où leurs héros procèdent à la fabrication de statues et de mannequins d'apparence humaine, grandeur nature, et s'en servent comme des marionnettes, et des pièges afin de leurrer et de tromper des adversaires méchants.

Or, les dieux adorés et vénérés autrefois par les anciens peuples de la Terre étaient représentés par des statues et des mannequins en bois, ivoire, or, argent, pierre, marbre, argile, de forme humaine, grandeur nature. Ces statues et figures sacrées s'appellent, en français, « idoles », mot dérivant du mot « eidus » qui signifie « forme » en grec.

Aussi, la vénération de ces anciens dieux à travers leurs idoles s'appelle « idolâtrie », en français. Cette vénération des idoles et des dieux qu'elles représentaient se nomment aussi en français « culte ».

Un de ces contes populaires racontés par les habitants de Nefzaoua relate l'histoire d'une jeune fille qui était belle, intelligente et courageuse. Elle s'appellait « Fahla », un mot arabe qui signifie, entre autres, « courageuse » et s'écrit en caractères arabes فحلى. Elle vivait avec ses parents dans un village asservi par une méchante ogresse déguisée en femme, du genre de ces êtres connus aussi sous le nom de « goule » ou « ghoula » en arabe (en écriture arabe غولة). Cette ogresse nourrissait les habitants du village avec les ossements des morts et de la terre. Un jour, elle leur demanda de laisser les filles du village aller avec elle à son château pour l'aider à filer la laine. Les habitants du village devinèrent que la femme était une méchante ogresse et qu'elle avait conçu cette ruse pour s'isoler avec les filles et les dévorer. Ils refusèrent puis craignant sa colère, ils acceptèrent.

Elle emmena donc les filles du village dans son château, les installa dans une pièce et leur apporta de la laine pour la filer, puis elle alla s'isoler dans une autre pièce. Fahla se trouvait parmi les filles, ainsi que sa cousine. Prudente de nature, Fahla avait apporté avec elle sa chatte qu'elle envoya espionner l'ogresse et voir ce qu'elle faisait, car elle avait soupçonné qu'elle leur préparait un mauvais tour. La chatte vit que l'ogresse remuait le lait dans un pot et prononçait des formules magiques pour qu'il entrave les mouvements de celui qui en boit. Fahla, avertie par sa chatte, mit en garde les filles du danger qui les guettait en buvant du lait de l'ogresse, mais lorsque l'ogresse leur apporta du lait et des dattes

pour manger, les filles ne firent pas attention aux avertissements de Fahla et burent le lait enchanté tandis que Fahla, sa cousine et sa chatte n'en burent pas.

Puis, les filles réalisèrent le danger qui les menaçait, et sur le conseil de Fahla, elles décidèrent de s'enfuir. Pour tromper la vigilance de l'ogresse, Fahla lui demanda d'aller à la source leur apporter de l'eau à boire, en remplissant la jarre à l'aide d'un crible. Or, le crible ne retient pas l'eau ; et alors que l'ogresse se démenait pour remplir la jarre avec le crible, les filles s'enfuirent. Cependant, un corbeau qui passait par là, vit l'ogresse se démener avec son crible à la main. Il l'avertit de la fuite des filles. Elle prit alors son véritable aspect d'ogresse et se mit à leur poursuite. Les filles qui avaient bu le lait enchanté furent vite rattrapées et saisies, tandis que Fahla, sa cousine et sa chatte purent échapper et continuer leur route sans dommage.

Chemin faisant, elles trouvèrent une tente dressée en plein désert et à proximité une femme attachée par des cordes. Cette femme leur dit de s'éloigner et de se cacher, leur apprenant que la tente appartenait à un ogre sauvage qui mangeait les hommes. Elles se cachèrent, après avoir creusé un grand trou à l'entrée de la tente, l'avoir rempli de bois, mis le feu au bois, et couvert le tout avec de la terre et de l'herbe desséchée. Arriva alors un ogre sauvage qui, sans crier gare, asséna à la pauvre femme attachée un terrible coup de bâton qu'il avait à la main. La femme mourut sur le champ, alors que l'ogre, voulant entrer dans la tente, tomba dans le trou plein de bois en feu et mourut, brûlé vif.

Fahla, sa cousine et sa chatte sortirent de leur cachette, cherchèrent dans les effets de l'ogre et prirent tous les objets de valeur. Elles trouvèrent aussi des vêtements d'hommes que Fahla et sa cousine mirent à la place de leurs vêtements féminins pour se déguiser en jeunes hommes. Elles prirent la route de leur village et trouvèrent sur leur chemin une autre tente habitée par un jeune homme et sa mère qui leur accordèrent l'hospitalité. Le jeune homme pensa à leur allure qu'il s'agit de filles déguisées et fit part de ses pensées à sa mère, la priant même de lui demander la main de Fahla dont la beauté le frappa plus particulièrement. Sa mère le réprimanda et lui dit de se montrer plus respectueux à l'égard d'hôtes aussi distingués.

Il proposa alors à sa mère de leur fournir la nuit des oreillers et des burnous pour voir ce que les hôtes vont choisir pour y poser leur tête en dormant ; s'ils choisissent les oreillers, c'est qu'ils sont des filles, si, au contraire, ils choisissent les burnous c'est qu'ils sont des jeunes hommes. La chatte de Fahla entendit les propos du jeune homme et les rapporta à Fahla. Aussi, elle et sa cousine, avertie entre temps, se servirent des burnous pour poser leur tête, et d'un commun accord, elles s'enfuirent à l'aube, avec la chatte. Fahla prit soin de laisser sur un oreiller, à l'intention du jeune homme, un petit papier où elle avait écrit en substance « il n'y a pas de plus bête que celui qui ne sait pas distinguer entre un homme et une femme ».

Le lendemain, en trouvant le mot de Fahla, le jeune homme comprit qu'elles étaient des filles déguisées, s'en

prit à sa mère qu’il tua par dépit, et alla à la recherche de la jeune fille pour se venger d’elle en la tuant.

Entre temps, Fahla, sa cousine et sa chatte arrivèrent à leur village et apprirent aux habitants ce qui était arrivé aux filles avec l’ogresse.

A son tour, le jeune homme, déterminé plus que jamais à se venger de l’offense de Fahla, arriva au village, et en se renseignant auprès de quelques passants, il sut que la famille de Fahla y habitait. Il contacta son père et lui offrit ses services, en tant qu’esclave pour une période déterminée, en échange de la main de Fahla, comme c’était jadis la coutume. Le père accepta et l’engagea comme berger chargé de garder ses poules.

Le jour du mariage arriva, enfin. Fahla se procura une outre, soit une peau de bouc cousue en forme de sac, la remplit de sirop de dattes, et avec l’aide des filles du village, elle l’apprêta lui donnant l’apparence d’une femme. Elle la munit d’un système d’articulations à des endroits appropriés comme les marionnettes et y attacha des ficelles et des fils pour la faire mouvoir à sa guise. Ensuite, elle habilla l’outre d’une robe de mariée, la posa dans un coin de la tente nuptiale, et sortit se placer derrière la tente, en tenant, à ses mains, les fils et les ficelles de l’outre.

Le soir, après la cérémonie coutumière, le jeune homme, paré comme les jeunes mariés, entra dans la tente, pour consommer le mariage, et voyant l’outre qu’il prit pour Fahla, au coin de la tente, il commença à

l'injurier, en criant « je te tiens, enfin, maudite orgueilleuse, et je vais te montrer qui est celui qui ne distingue pas entre un homme et une femme ». Fahla, de derrière la tente, manipulait l'outre avec les ficelles, lui imprimant divers mouvements en rapport avec la circonstance. Puis le jeune homme attaqua l'outre et la perça avec son couteau, croyant percer le ventre de Fahla. Le sirop de dattes très sucré jaillit de l'outre lui empreignant le visage et les lèvres. Il le prenait pour le sang de Fahla. Il en recueillit un peu dans le creux de sa main et le but, pour accomplir sa vengeance, car, l'offensé ne se sent vengé que lorsqu'il boit le sang de son offenseur. Le trouvant sucré et doux, il ne put s'empêcher de crier « qu'il est bon, son sang ».

Alors, Fahla lui apparut de derrière la tente, et lui dit « détrompes toi, ce n'était que du sirop de dattes ». A ces paroles et à la vue de Fahla, vivante, en chair et en os, alors qu'il croyait l'avoir tuée, le jeune homme tomba raide mort.

La fille aux basilics

Des versions de ce conte populaire existent dans d'autres régions de la Tunisie dont une version citadine où l'héroïne est la fille d'un pêcheur aisé. Elle s'appelait Aïcha tandis que le jeune homme qui la poursuit de ses assiduités est un jeune prince, fils du roi du pays ou plus exactement fils du sultan du pays comme le signale le

conte populaire. Contrairement au conte populaire précédent, sa fin est plus heureuse.

La jeune fille cultivait avec un soin particulier quelques plantes aromatiques de l'espèce appelée en français « basilic » sur le toit de sa maison. Le jeune prince venait la voir et la taquinait en lui disant « Eh, toi qui élèves les basilics, va compter combien ils ont de feuilles ». Aïcha lui répondait d'un ton hautain « Eh, toi qui te prends pour un savant, va compter combien il y a d'étoiles dans le ciel et combien il y a de cheveux dans la barbe de ton père ». Le jeune prince se taisait et ne pouvait quoi répondre.

Outre son air hautain et son esprit indépendant, Aïcha joua au jeune prince quelques mauvais tours qui le montèrent contre elle. Il demanda sa main à son père. Elle consentit à la condition que le jeune prince lui offre comme dot son pesant d'or, ce qu'il accepta. On entama, aussitôt, les préparatifs du mariage. Le jeune prince fut particulièrement dépité quand Aïcha donna des contre ordres à des ordres que le jeune prince avait donnés concernant la préparation de son trousseau de mariage à lui.

Le jour du mariage arriva enfin. Aïcha, pressentant une réaction violente de la part du jeune prince, se procura une outre qu'elle remplit de miel, l'apprêta en lui donnant l'apparence d'une femme et après l'avoir munie de fils, elle la para d'une robe de mariée et la mit dans un coin de la chambre nuptiale, puis, tenant les fils de l'outre à la main, elle se cacha derrière un rideau. Le soir, après

la cérémonie coutumière, en entrant dans la chambre, le jeune prince s'adressa à l'outre qu'il prit pour Aïcha et se mit à l'injurier tandis que la jeune fille, cachée derrière le rideau, manipulait l'outre avec les fils et la faisait bouger à droite et à gauche. Alors le jeune prince sortit son poignard, s'avança vers l'outre et la perça par son poignard, croyant percer le ventre de Aïcha. Le miel se déversa. Il en recueillit un peu dans le creux de sa main et le but. Mais regrettant aussitôt son acte, car il aimait la jeune fille, il tourna le poignard contre sa poitrine et voulut l'y plonger et se tuer, lorsque Aïcha sortit de sa cachette et l'en empêcha, lui déclarant à son tour son amour. Et ainsi, ils passèrent la nuit mari et femme.

L'usage des marionnettes par les héros des contes populaires tunisiens précités ressemble parfaitement, dans son esprit, à l'usage des épouvantails dont les jardiniers se servent pour effrayer les oiseaux.

Le dictionnaire Larousse de la langue française rapporte, à ce sujet, que l'épouvantail est un mannequin grossier recouvert de haillons flottants qui est placé dans un champ ou un jardin pour effrayer les oiseaux.

Selon le même dictionnaire, le mannequin est une forme humaine sur laquelle les couturiers et les couturières essaient ou composent en partie les modèles (pièces de vêtements taillées) ou qui sert à exposer ceux-ci dans les étalages.

En ce qui concerne les marionnettes, le même dictionnaire indique que la marionnette est une petite

figure de bois ou de carton qu'une personne cachée fait mouvoir avec la main ou grâce à des fils, et c'est ainsi qu'on a pris l'habitude de figurer et de mettre en scène toutes sortes d'histoires et d'anecdotes à l'aide de ces marionnettes et les présenter au grand public, dans les places des villes et villages, tandis que ces présentations et ces figurations s'appellent « spectacles de marionnettes ».

La bru volage

Un autre conte populaire raconté également par les villageois de Nefzaoua relate l'histoire d'un homme marié à une femme. Sa mère vivait aussi avec lui dans la même maison. L'épouse était de mœurs légères et se chamaillait souvent avec sa belle mère quand, profitant de l'absence de son mari parti, au loin, effectuer le pèlerinage d'un sanctuaire sacré, elle donna libre cours à ses caprices, et se mit à recevoir chez elle ses amoureux. Ils étaient deux, mais par malheur, ils se battirent un jour, et se tuèrent. La femme plaça leurs corps dans une peau d'âne et obligea sa belle mère à aller les jeter dehors. A l'approche du retour de son mari, elle donna à manger à sa belle mère quelques mets succulents de la cuisine bédouine au point que la belle mère en dansa de plaisir. L'époux revint enfin. Sa femme lui dit que sa mère avait perdu la tête lui mentionnant ses transports de joie inhabituels alors que sa mère lui dit que sa femme le trompait, lui racontant sa mésaventure avec les deux cadavres dans la peau d'âne.

L'homme ne sut que faire. Il répudia sa femme. Sa mère mourut à son tour. Il façonna une statue à son effigie, la plaça dans le salon de la maison et se remaria avec son ex femme qui prit la statue pour sa vraie belle mère, ignorant qu'elle avait décédé. Lorsque le mari rentra le soir, sa femme lui dit que sa mère l'avait injurié. Il comprit alors qu'elle n'avait fait que lui mentir tout le temps et la répudia.

Dans un autre conte populaire de cette même région de Nefzaoua relatant les aventures de deux frères, l'un raisonnable et l'autre sot, il est dit que fuyant, un jour, une ogresse aveugle qui les avait pris en chasse pour avoir tué ses moutons, les deux frères firent halte près d'une source pour se désaltérer. Le frère raisonnable se servit de ses mains pour recueillir l'eau et boire tandis que le sot, trouvant de l'argile autour de la source, se mit dans la tête de confectionner un pot ou un crible en argile, et de s'en servir pour boire, en dépit des supplications de son frère raisonnable et ses avertissements concernant l'ogresse. En effet, celle-ci les rattrapa et attaqua le frère raisonnable, tandis que le frère sot, au lieu de secourir son frère, ne prêta aucune attention au danger, et alors que la lutte entre l'ogresse et son frère faisait rage, il s'absorba dans la confection de son pot ou crible en argile, tout en avertissant, de temps à autre, l'ogresse de tous les maux si elle foule de ses pieds son ouvrage. Son frère poussa exprès l'ogresse et la fit marcher sur l'ouvrage qui se brisa. Le frère sot se fâcha alors, prit une grande boule d'argile et la lança, de toute ses forces, sur l'ogresse qui s'écroula et mourut.

Tradition arabe

Concernant l'origine de l'idolâtrie, les auteurs arabes de l'âge classique rapportent à ce sujet de nombreuses histoires à propos des idoles des dieux vénérés par les anciens arabes, en Arabie, avant l'avènement de l'Islam vers 610 du calendrier grégorien.

Dans son livre intitulé justement « les idoles », soit « el asnam » en arabe (en écriture arabe الأصنام), le savant et chroniqueur arabe Hichem Ibn Essayeb Al Kalbi, mort en 204 de l'hégire, 819 du calendrier grégorien en Irak, rapporte une histoire expliquant notamment l'origine de la vénération de deux divinités arabes, l'une mâle appelé Oussaf et l'autre femelle appelée Nayla, à travers deux idoles ou statues en pierre, de forme humaine, grandeur nature, qui leur étaient dédiées et qui étaient placées dans l'enceinte sacrée du saint sanctuaire de la Kâaba, dans la ville de la Mecque, en Arabie, parmi les idoles des nombreuses autres divinités arabes préislamiques.

Il indique que ce nommé Oussaf était, en réalité, un homme de l'ancienne tribu arabe de Jorhoum et il s'appelait Oussaf Ben Yâala, tandis que Nayla était également une femme de la même tribu de Jorhoum et elle s'appelait Nayla Bent Zayed. Ils s'aimaient alors que leur tribu vivait encore au Yémen, au Sud de l'Arabie, avant sa migration dans le Hijaz, dans la région de la Mecque.

Or, les anciens arabes de toutes les régions de l'Arabie, du Nord au Sud, avaient pris l'habitude, depuis très longtemps, avant même la venue de l'Islam, de faire le pèlerinage annuel du sanctuaire sacré de la Kâaba, dans la ville de la Mecque pour adorer les dieux arabes à travers leurs idoles et statues placées dans l'enceinte consacrée de la Kâaba.

Oussaf et Nayla vinrent, une année, ensemble, du Yémen, faire le pèlerinage de la Kâaba, dans la ville de la Mecque, au Hijaz, et voyant les autres pèlerins absorbés dans l'accomplissement des rites du pèlerinage, ils s'isolèrent dans un coin du lieu saint et y firent l'amour. Fâchés, les dieux les changèrent en statues de pierre .Cependant, avec le temps, les jeunes générations oublièrent l'histoire de leur sacrilège, les prirent pour des divinités et les adorèrent avec les autres dieux arabes.

Anciens dieux arabes

Ibn Al Kalbi a rapporté aussi quelques histoires sur l'origine de la vénération et de la confection des idoles des cinq plus anciens dieux arabes, mentionnés dans le Coran, le livre sacré de l'Islam, dans la sourate de Noé, à savoir les dieux « Oued », « Souaâ », « Yaâouk », « Yaghouth » et « Nisr » (en écriture arabe "ود". "سواع". "يعوق". "يغوث"."نسر".).

Selon cet auteur qui cite une lointaine tradition arabe à ce sujet, ces cinq dieux arabes étaient des grands

personnages de haut rang dans leur Cité et des bons sages écoutés et respectés de leurs concitoyens. Quand ils moururent, leurs concitoyens eurent beaucoup de mal et regrettèrent leur perte.

Les hommes vivant alors sur la terre étaient divisés en deux blocs, les monothéistes qui ne croyaient qu'à Dieu le très haut et ceux qui prônaient le polythéisme et adoraient plusieurs divinités à la fois et qui étaient considérés comme des mécréants par le premier bloc.

Ces cinq bons sages et leurs concitoyens étaient des monothéistes. A la mort des cinq bons sages, un cynique chef du bloc « des mécréants » vint voir leurs concitoyens et leur proposa de leur modeler des statues à l'effigie des cinq bons sages afin de garder vivace leur souvenir parmi eux. Ils consentirent mais avec le temps, les nouvelles générations oublièrent leur vraie histoire et les vénérèrent à l'image des dieux, voyant les vieilles générations leur vouer la plus grande considération.

Les fils d'Adam

Le même Ibn Al Kalbi a rapporté, en outre, une autre histoire sur l'origine d'un culte dédié au premier homme, Adam, selon les traditions des anciens peuples sémitiques dont les arabes, les hébreux et les cananéens.

Il signale, à ce sujet, qu'après avoir été expulsé par Dieu du Paradis divin où il vivait avec sa femme, Eve, depuis leur création, pour avoir commis un péché grave,

le premier homme, Adam, vint sur terre, et y vécut longtemps avant de mourir, laissant, après sa mort, plusieurs fils et filles. Ces derniers se marièrent entre eux et fondèrent les premières familles humaines dont sont issus les différents peuples de la terre. Mais, les fils et filles d'Adam s'étaient séparés, après sa mort, en deux grands clans, l'un resta fidèle à sa tradition dont l'adoration de Dieu le très haut, en tant qu'unique Dieu, car Dieu avait pardonné, entre temps, à Adam, son péché et accepté son repentir. L'autre clan avait fait alliance avec le diable, l'ennemi juré de Dieu et d'Adam.

Donc, lorsque Adam mourut, ses fils restés fidèles à sa tradition l'inhumèrent dans une grotte sise dans la montagne où il était descendu, après son expulsion du Paradis et qui se trouverait en Inde et s'appelait la montagne de Nodh (en écriture arabe نوذ). Par respect pour leur ancêtre, les fils et petits fils restés fidèles à la tradition d'Adam, venaient, à intervalles réguliers, visiter la grotte où il était enterré et accomplissaient des circonvolutions et des danses rondes autour du corps d'Adam , manière de vénérer sa mémoire.

Un cynique chef du clan allié au diable vint un jour proposer aux autres membres de son clan, de leur sculpter une statue sacrée de forme humaine pour la vénérer à la manière de la vénération d'Adam, par ses fils et petits fils qui lui étaient restés fidèles. Sa proposition fut acceptée, et ainsi, est apparue, selon cette tradition rapportée par Ibn Al Kalbi, l'adoration des idoles dans les sociétés humaines.

Parmi les idoles arabes sacrées placées dans l’enceinte de la Kâaba figurait également une statue de forme humaine dédiée au grand dieu arabe appelé Houbal qui était vénéré particulièrement par l’ancienne tribu de Koreich ou Koreichites, habitants de la ville de la Mecque, auxquels appartenait le prophète Mohamed Ben Abdallah, prophète de l’Islam. La statue avait une main brisée que les Koreichites remplacèrent par une main en or.

Selon le même auteur, l’ancien dieu arabe Oued signalé précédemment était représenté aussi par la statue d’un homme particulièrement grand portant une lance et un arc.

Les mêmes chroniqueurs arabes de l’âge classique dont El Békri, qui vécut au 11ème siècle grégorien, en Andalousie arabe, en Espagne, ont rapporté que les peuples berbères, habitants des pays d’Afrique du Nord, Libye, Tunisie, Algérie, Maroc, Mauritanie, le grand Sahara et les îles Canaries, avaient adoré, avant l’Islam, plusieurs dieux représentés par des idoles, dont un groupe vivant au Sud de la Libye qui, selon El Békri, vénérait, jusqu’à son époque, une idole dédiée à un dieu appelé Korza.

Cependant, les idoles des dieux peuvent être tout simplement des pierres rondes ou plates comme la déesse arabe Manat qui était représentée par une pierre plate sur laquelle étaient égorgées les victimes propitiatoires.

Nature humaine des dieux

Justement, les dieux adorés jadis par les anciens peuples de la terre étaient, effectivement, des hommes qui avaient vécu au début de l'histoire humaine et qui étaient des personnages distingués dans leurs sociétés et les groupes humains auxquels ils appartenaient, car au début de leur histoire, les hommes vivaient en petits groupes séparés. D'une façon générale, les dieux représentaient les pères et les ancêtres des premières familles humaines ayant peuplé la terre aux premières époques de l'histoire humaine et dont descendirent, progressivement, les divers peuples de la terre. Outre leur statut naturel de géniteurs, les pères étaient, alors, les chefs, les commandants, les guides et les maitres dans leurs familles respectives.

Le mot « dieu » qui sert à désigner, en langue française, les divinités vénérées par les hommes, dérive du mot « da » encore employé en langue berbère au sens de père. Le mot « dad » qui consiste à répéter deux fois le mot « da » est employé également au sens de père en anglais. Le mot « dey » signifie « chef » en langue turque. Le mot « dac » qui est une forme de prononciation du mot « da » est employé au sens de père et de monsieur en Tunisie. Le mot « daya », forme féminine du mot « da » sert à désigner la mère, la grand-mère et la gouvernante des enfants en Tunisie et dans d'autres pays arabes. On emploie aussi dans ce but le mot « dada » qui consiste à répéter deux fois le mot « daya ».

Le mot « da » peut prendre la forme de « dac » en Tunisie de sorte que le mot français « duc » signifiant « seigneur » et « grand noble » appartient à ce groupe de mots.

Sur la base de ces analyses, on peut dire que le culte des dieux ou l'adoration des dieux par les hommes exprime, en réalité, les sentiments de respect et de considération mêlés de crainte que les hommes éprouvent, naturellement, envers leurs pères, leurs mères, leurs maitres et les grands personnages qui se sont distingués par des œuvres particulières, en matière de production intellectuelle, scientifique et technique, outre les chefs à divers niveaux, militaires et politiques.

De nos jours encore, les sociétés humaines continuent d'imprimer et de graver les portraits de leurs grands personnages sur les pièces et billets de monnaie, de leur ériger des statues, de nommer les rues et places des villes par leurs noms et de mettre en valeur leurs domiciles et lieux de travail en les transformant en musées que les gens visitent respectueusement à l'image des visites rituelles rendues aux anciens sanctuaires sacrés dédiés aux anciens dieux.

Mythes d'origine

Outre la vénération dont ils entouraient leurs dieux à travers l'accomplissement de divers actes consacrés, les anciens peuples de la terre racontaient aussi, à propos

de l'origine de leurs dieux, des histoires et des récits connus, encore, sous le nom de « mythes », mot d'origine grecque, employé, en français et autres langues européennes dans le sens de récits relatifs aux anciens dieux, notamment dans les études spécialisées.

Ainsi, les anciens grecs, habitants de la Grèce au Sud- est de l'Europe, racontaient plusieurs mythes concernant l'origine des dieux qu'ils avaient adorés.

Les anciens irakiens, soit les sumériens, les akkadiens, les babyloniens et les assyriens, racontaient également plusieurs mythes au sujet de l'origine des dieux qu'ils avaient adorés.

Ces mythes qui relatent l'origine des dieux sont souvent appelés dans les études spécialisées « mythes de la création » ou encore « récits de la création », car ils relatent des évènements qui eurent lieu au début du monde et de l'histoire humaine.

Les anciens peuples sémitiques dont les arabes, les hébreux et les cananéens, plus particulièrement les cananéens de Syrie et de Liban tels que les phéniciens , racontaient aussi un mythe de la création dont des versions assez complètes se trouvent dans le livre de la Genèse de la Thora juive, le livre sacré des hébreux, et dans le Coran, le livre sacré de l'Islam.

Tous ces mythes ou récits de la création s'accordent à dire que les dieux sont les premiers êtres qui sont apparus dans le monde et sur la terre, et qu'après avoir aménagé et façonné le monde et la terre, tels qu'ils

sont, ces mêmes dieux ont procédé à la création de l'homme.

Il faut comprendre à travers ces histoires que les dieux sont les pères des premières familles humaines sur terre tandis que l'homme qu'ils créent représente justement ces mêmes familles que ces pères avaient fondées. Le monde qu'ils avaient aménagé et façonné représente les camps et les villages qu'ils avaient construits.

Le monde ou l'univers s'appelle en arabe « cone », soit en écriture arabe كون. Or, le mot « cone » existe dans la langue grecque et dans plusieurs autres langues européennes et sert à désigner, dans ces langues humaines, la figure géométrique appelée « cône ». Justement, les premières habitations humaines étaient des huttes rudimentaires ayant la forme d'un cône.

Les autres êtres surnaturels auxquels les hommes ont cru ou croient encore, tels les génies et les anges, représentent également des hommes ayant réellement vécu autrefois et ils correspondent aux diverses catégories humaines dont étaient composés les premiers groupes humains, soit les pères, leurs femmes, leurs filles, leurs garçons, les gendres, les esclaves, et diverses autres catégories. Ces êtres surnaturels sont notamment les anges, les démons, les diables, les génies, les esprits, les êtres appelés « djinns » ou mieux « jins » ou encore « gen » et « gens », en langue arabe, (en écriture arabe جن), les satyres, elfes, nymphes, muses, pans, et autres êtres surnaturels du genre.

Or, les mythes disent que ces êtres ont vécu avec les dieux et étaient contemporains des dieux.

Comme il a été signalé précédemment, les dieux, en particulier, représentent les pères, les grands et les chefs dans les premières familles humaines apparues sur terre. Pour leur part, les anges correspondent à la catégorie des femmes et des filles dans ces premières familles humaines et les premiers groupes humains sur terre. Le mot français « ange » est un homonyme du mot arabe « ons », en arabe أنس , radical du mot arabe « nissa » , en arabe نساء qui désigne les femmes et les filles. Les génies, les démons et les êtres appelés « djinns » en arabe représentent les jeunes garçons. Les mots « gène » et « gin » désignent les fils et la progéniture dans plusieurs langues humaines, ainsi que l'élément féminin en tant que procréateur, comme en grec et autres langues européennes, tel qu'on peut le remarquer dans le mot français « généalogie », composé du terme « généa » qui signifie « descendance », « naissance », « femme », « famille », « enfant « », et du terme « logie », mot dérivé du mot grec « logos » qui signifie, entre autres, science et connaissance.

Un très ancien livre grec sur l'origine des anciens dieux grecs et les conditions entourant leur apparition et leur naissance porte le titre de « Théogonie », mot grec composé du terme « théos » qui signifie « dieu » en grec et du terme « gonie », homonyme de « gène » et « jin », qui veut dire « naissance », « origine naturelle », « descendance », « femme », « enfant », « famille ».

L'embryon dans le ventre de sa mère s'appelle « janine » en arabe, mot signifiant « petit jin », ou « petit djin », comme on dit en français « maisonnette » pour désigner la petite maison.

Ainsi, en arabe le mot « jin » ou « djinn » est synonyme du mot « bin » ou « ben » qui signifie « fils » en arabe, et s'emploie souvent pour marquer la descendance. Ainsi, un tunisien peut s'appeler « Ali ben Mohamed », c'est-à-dire « Ali, fils de Mohamed ».

La grande famille ou clan était désigné autrefois par les anciens habitants de la cité de Rome, en Italie, au Sud- ouest de l'Europe, dit « romains », par le mot « gens » employé encore en français au sens des hommes en général.

Ces analyses expliquent la croyance des anciens peuples à la véracité des mythes qu'ils racontaient à propos de leurs dieux. Ces anciens peuples disaient, en effet, que ces mythes qu'ils racontaient à propos de leurs dieux sont des récits véridiques et des histoires relatant des évènements qui s'étaient réellement passés, au début du monde.

Pour chaque famille humaine, ou groupe humain, le début du monde correspond au début de son histoire marqué par l'apparition des dieux et des êtres surnaturels que cette famille ou ce groupe adore et qui représentent ses ancêtres réels.

On peut donc dire de façon générale que les mythes relatent l'histoire réelle de l'humanité à ses débuts

et ce qui était arrivé, effectivement, aux premières familles humaines aux premières époques de l'histoire humaine.

Contes et légendes populaires

A cet égard, il est à remarquer que le mythe est appelé, justement, en arabe, « oustoura », au singulier et « assatir » au pluriel (en arabe أسطورة et أساطير), soit un terme homonyme du mot français « histoire » et du mot anglais « history » employés au sens de l'histoire comme ensemble des récits avérés, relatifs aux évènements passés, à l'instar de l'histoire de la fondation de la cité de Carthage en Tunisie par un groupe de phéniciens venus de Liban, huit siècles avant notre ère.

Puis, étant des récits relatifs à la vie des dieux, les mythes étaient considérés par les anciens peuples qui les racontaient comme étant des histoires sacrées. Chacun de ces anciens peuples considérait que les mythes qu'il racontait à propos de ses dieux sont des histoires vraies et sacrées.

Or, les contes et les légendes populaires, comme les contes populaires tunisiens mentionnés précédemment, sont des anciens mythes qui ont perdu leur caractère sacré et sont devenus des histoires profanes.

Cependant, les contes populaires ont l'avantage d'avoir redonné aux dieux des mythes leur aspect réel initial, c'est-à-dire leur aspect humain. Les héros des

contes populaires sont des hommes, et plus particulièrement, des princes et des rois, ou des sultans comme en Tunisie.

Mais, outre les hommes, et les êtres surnaturels signalés précédemment, d'autres catégories d'êtres surnaturels jouent des rôles actifs dans les contes populaires, à l'instar des ogres, et des animaux parlants ou animaux raisonnables.

Les ogres ou goules représentent également une classe d'hommes ayant vécu autrefois. Ils correspondent généralement à des groupes humains restés très près de l'état naturel. Il en va de même en ce qui concerne les animaux parlants ou animaux raisonnables qui représentent des hommes et des groupes d'hommes ayant vécu autrefois et qui portaient, au cours de leur existence sur terre, les noms de ces animaux.

Les hommes, partout sur la terre, portent encore des noms d'animaux. En Tunisie et dans les autres pays d'Afrique du Nord, il existe des personnes qui portent le nom de « Amchiche » ou tout simplement « Méchiche », mot qui sert à désigner, en langue berbère, l'animal appelé « chat », en français. Un grand saint de l'Islam de nationalité marocaine, connu dans toute l'Afrique du Nord, et ayant vécu au Maroc, au 12ème et 13ème siècle grégorien, s'appelle Sidi Abdesselem Ben Slimane Méchiche qu'on écrit aussi Mashish.

Ainsi donc, les contes populaires relatent l'histoire réelle des premières familles et des premiers groupes

humains ayant vécu, effectivement, sur terre, aux premières époques de l'histoire humaine.

Figuration

Aussi, conformément aux données rapportés par les contes populaires tunisiens évoqués précédemment, les statues, les mannequins, et les idoles avaient été, à l'origine, conçus et confectionnés par les hommes en vue de leurrer, piéger, chasser et épouvanter, à l'image des épouvantails qu'on met dans les champs et les jardins pour effrayer les oiseaux.

Ainsi, en mettant ces épouvantails, les propriétaires des jardins et champs cherchent à faire peur aux oiseaux à l'aide de ces figures et formes humaines et à les éloigner afin de ne pas manger les fruits des arbres et le blé de leurs champs et jardins.

Ces statues, mannequins et idoles relèvent donc de la figuration, de la simulation et de la façade, à l'image des clôtures, enclos, barrières et murs de toutes sortes que les hommes ont appris à ériger autour de leurs habitations, campements et exploitations agricoles pour empêcher les étrangers et les intrus parmi les hommes et les animaux d'y entrer, car ces campements, habitations et exploitations agricoles étaient leurs biens et leurs propriétés privées. Ces barrières désignent les limites et les frontières de la propriété privée.

En effet, la limite s'appelle, en arabe, « had », soit en écriture arabe حد . Or, ce mot « had » est le nom d'un ancien dieu adoré par certains peuples sémitiques du Proche Orient, en particulier les cananéens de Syrie et de Liban. Il s'appelait « Had » et « Haddad ».

Ce mot sert encore à appeler les hommes et les femmes, notamment en Tunisie où des femmes s'appellent « Haddi », en écriture arabe حدي.

Le dictionnaire Larousse de la langue française signale que le mot « façade » signifie « la face d'un bâtiment sur laquelle s'ouvre l'entrée principale », ainsi que « l'apparence trompeuse d'une personne », ajoutant que l'expression « de façade » est employée, en français, pour qualifier « ce qui est simulé, ce qui n'est pas réel ».

Les pierres et par extension les matériaux traditionnels de construction, comme l'argile, servant à confectionner autant les idoles que les murs et les barrières portent en arabe le nom de « sakhre, en écriture arabe صخر. Ce mot « sakhre » est un homonyme du mot français « sacré » qui désigne le sacré, comme les dieux, leurs idoles et les lieux et sanctuaires de leur culte.

Justement, les homonymes sont des mots qui se prononcent de la même façon ou de façon proche, mais qui revêtent, en apparence, des sens différents. Cependant, les homonymes, appartenant à une même langue humaine ou à des langues différents, sont, à l'origine, un seul et même mot ayant pris des formes de prononciation plus ou moins différentes, et des sens en

apparence différents mais très intimes et très proches, comme le mot « sakhre » en arabe et le mot « sacré » en français, ou encore le mot « déguiser », employé, en français, au sens de travestir, donner une apparence trompeuse à quelqu'un, et le mot « daguèze », employé en langue berbère au sens de devin et de deviner.

On peut dire que les idoles sont des déguisements, alors que le personnage de devin appartient au sacré par son pouvoir de communiquer avec le monde surnaturel des dieux.

Outre le sens de pierre, le mot arabe « hajar », synonyme du mot arabe « sakhre » signalé précédemment, désigne aussi les interdits. Or, le sacré se confond souvent avec l'interdit. Les pierres servant de clôture aux maisons et jardins privés signalent ainsi par le seul nom qu'elles portent, comme le nom « hajar » en arabe, qu'il est interdit d'aller au-delà et de les dépasser, ou encore « d'aller outre ». Une seule pierre ou un très petit nombre de pierres posées ensemble suffit à indiquer qu'il est interdit de les outre- passer de sorte que les murs sont de simples dérivés venus plus tard par addition.

Ce mot « hajar » sert aussi à désigner, en arabe, le giron de la mère qui protège l'enfant, ainsi qu'une petite clôture rudimentaire faite de branchages servant à protéger l'entrée des tentes chez les bédouins nomades.

On se souvient que l'héroïne du conte populaire tunisien évoqué précédemment s'était servi d'une outre pour piéger le jeune homme qui la poursuivait de sa haine.

En français, on emploie, entre autres, le mot « outre » pour indiquer ce qui est situé au-delà, comme dans l'expression « outre atlantique », c'est-à-dire « situé au-delà de l'océan atlantique » pour une personne se trouvant en Afrique ou en Europe. Et ce, en plus du sens de « peau de bouc cousu en forme de sac » que revêt le mot « outre » en français.

En arabe, l'outre est désignée par plusieurs noms dont le nom de « querba » ou encore « qarba » et « garba », en écriture arabe قربة , mot qui peut désigner aussi le sens de se rapprocher, d'être proche. Le mot arabe « quareb » qui signifie « barque », en français, appartient au même champ lexique.

Or, les premières barques humaines étaient faites d'outres gonflées d'air, et capables ainsi de flotter sur l'eau, comme il est encore d'usage en Irak, pays arabe du Proche Orient. On peut même dire que le mot français « barque » est le mot arabe « quareb » inversé.

Le mot français « pierre » et ses synonymes arabes « sakhre » et « hajar » sont employés comme des noms propres pour appeler les personnes humaines.

Sens réel du sacré

En effet, les quelques données précédentes et plusieurs autres données irréfutables montrent que le sacré désigne et qualifie, à l'origine, la famille, le foyer, la maison où on habite, les biens qu'on possède et la

propriété privée de quelque nature que ce soit. La famille, les enfants, les serviteurs, les esclaves, et de manière générale, les hommes et femmes sous tutelle, faisaient autrefois partie des biens qu'on possède et étaient une propriété privée du chef de la famille. Par voie de conséquence, la maison qu'on habite, et le lieu dans lequel on est établi, de quelque nature que ce soit, étaient autant sacrés, que ce soit un coin quelconque d'une forêt, une caverne dans une montagne, ou un ensemble de huttes rudimentaires servant d'habitations.

Tous les lieux saints et les sanctuaires sacrés existant actuellement sur la terre étaient, à l'origine, des établissements humains devenus sacrés parce qu'ils appartenaient à quelques familles humaines ou quelques groupes d'hommes qui les avaient occupés avant les autres, en avaient fait leur propriété privée, les protégeant, par tous les moyens, contre les rodeurs et les intrus parmi les hommes et les animaux qui s'aviseraient à les attaquer et à dépasser les limites de ces établissements figurés par divers objets, éléments et témoins de toutes sortes.

C'est ce qui explique que ces lieux saints et leur environnement immédiat sont inviolables et constituent un refuge à tous ceux qui sont poursuivis pour une raison ou une autre, y compris les criminels.

Cette qualité de lieux inviolables s'est étendue, jusqu'à nos jours, aux mausolées des saints de l'Islam, y compris les saints locaux, comme c'est le cas dans les pays d'Afrique du Nord dont la Tunisie.

Ainsi, le sacré désigne, d'une part, les hommes asservis et sous la tutelle d'un chef et d'un maitre, et qu'on peut qualifier d'esclaves et de serviteurs de ce maître, et d'autre part, les sites habités en général. Les hommes asservis autant que les sites habités tirent leur caractère sacré de leur appartenance à un protecteur qui assure leur défense contre les prétentions et les empiétements des autres, en tant que ses biens propres et sa propriété privée.

La sacralité émane du protecteur et rejaillit de celui-ci sur ses protégés de sorte que le protecteur et ses protégés forment, ensemble, le sacré. Les biens propres représentent le prolongement naturel du corps de l'homme et c'est la réaction naturelle du corps humain lui-même contre ses agresseurs extérieurs qui s'est, naturellement, étendue au milieu où il évolue. La famille humaine peut être considérée, naturellement, comme étant un seul et même corps et elle l'est effectivement.

Il faut noter que toutes ces situations et tous ces faits doivent être rapportés aux premières époques de l'histoire humaine, de sorte que les premiers ancêtres des premiers groupes humains sont devenus, avec le temps, des êtres sacrés, et cette sacralité s'est rejailli sur les établissements humains qu'ils avaient fondés et habités. Puis, ces premiers établissements ont conservé ce caractère sacré, même après avoir été abandonnés au profit d'endroits mieux appropriés physiquement à l'habitat ou sous la poussée d'envahisseurs plus puissants, et autres causes du genre.

Justement, le chroniqueur arabe Ibn Al Kalbi, signalé précédemment, indique que des auteurs arabes expliquent l'origine de la vénération de certaines idoles arabes en forme de pierres par le fait que quelques uns des premiers clans arabes habitant le site de la Mecque où se trouve le sanctuaire sacré de la Kâaba , prirent avec eux, en émigrant vers d'autres endroits, des morceaux de pierre de la Kâaba et les vénérèrent en tant que représentations de ce sanctuaire, dans les nouveaux endroits où ils s'installèrent.

Cette pratique ou habitude humaine est universelle. L'ancienne ville de Dougga en Tunisie était considérée, jadis, comme sacrée par les populations berbères du pays et elle a gardé longtemps cette qualité, même après la venue de l'Islam, de sorte que les habitants prenaient des pierres et même un peu de poussières de l'endroit, lorsque l'occasion se présente, le mettent dans des étuis et autres accessoires du genre, pour le porter ou le poser dans leurs maisons ou sur les embarcations et autres lieux de travail, en vue de se protéger contre le mal d'où qu'il émane.

Ainsi donc, conformément aux analyses précédentes, le respect éprouvé envers les lieux sacrés provenait, initialement, de la peur d'empiéter sur les biens d'autres hommes et sur la propriété privée des autres et de s'exposer ainsi à la colère des propriétaires et des possesseurs de ces biens.

De la Servitude à la Sainteté

Justement, le mot « qadès » qui sert à désigner le sacré dans les langues sémitiques comme l'arabe et l'hébreu (en écriture arabe قدس) est employé en langue berbère, entre autres, pour désigner les communautés placées sous les ordres d'un chef, comme les membres d'une famille humaine, la communauté de serviteurs et d' esclaves appartenant à quelqu'un ou à un groupe humain, en particulier, les dévoués à une cause, les membres d'un ordre religieux vivant dans les cloitres et les monastères sous la direction d'un chef ou d'un supérieur, ou encore dans les établissements appelés « zaouias », dans les pays arabes et islamiques. En langue berbère, les membres de tels ordres et établissements portent le nom de « qaddachas » et « qaddassas », mot homonyme du mot sémitique « qadès » et dérivant du mot « qad », en écriture arabe قد , encore utilisé fréquemment en Tunisie et les autres pays d'Afrique du Nord, au sens de travailler, suer, faire, bûcher.

Les établissements humains signalés consistent en communautés de personnes humaines vivant et fonctionnant comme de véritables familles placées sous les ordres du père de famille de sorte que leurs membres sont astreints à effectuer tous les travaux ménagers et domestiques qu'exigent le fonctionnement et la survie de l'établissement sous les ordres et la conduite du chef ou supérieur de l'établissement. Les membres des zaouias dans les pays arabes et islamiques sont souvent des

élèves et des étudiants internes qui viennent recevoir une formation durant une période déterminée sous la direction de quelques maitres supérieurs de l'établissement, avant d'obtenir des licences scientifiques et accéder, à leur tour, au statut de maitre leur permettant de quitter l'établissement et de s'installer ailleurs pour leur propre compte.

On a vu , dans l'un des contes populaires tunisiens évoqués précédemment, qu'un jeune garçon se met, en tant qu'esclave, au service d'un père de famille pendant une période déterminée en échange de la main d'une des filles du père de famille, et son union avec elle au terme de la période d'asservissement convenue. Dans certains contes populaires racontés en Algérie, un tel jeune homme porte le nom de Méquédéch, mot de la même racine que le mot berbère « quaddachas » signalé précédemment et le mot sémitique « qadès ».

Ainsi donc, appliqué aux hommes des deux sexes, le sacré, comme on dit en français, et le « qadès », comme on dit dans les langues sémitiques, signifie que ces hommes sont des serviteurs et des esclaves appartenant à un maître qui assure leur protection.

Tous les saints de l'Islam, notamment les saints locaux vénérés dans les diverses villes et les divers villages des pays d'Afrique du Nord dont la Tunisie avaient passé par ces établissements appelés « zaouias » et avaient été, à un moment de leur vie, des étudiants dans des zaouias, comme l'attestent les histoires racontées, encore, à leur sujet. Ces saints locaux sont jusqu'à

présent, entourés d'une vénération et d'une adoration, en tous les points, semblables à l'adoration et à la vénération dont les anciens peuples de la terre entouraient leurs dieux. Les saints locaux sont vénérés plus particulièrement par leurs descendants et les groupes dont ils sont les ancêtres lointains.

Cette analogie prouve encore que les dieux étaient des hommes et des pères de familles plus spécialement. Les histoires racontées à propos des saints ressemblent également aux mythes racontés à propos des dieux vénérés par les anciens peuples, ce qui montre que ces mythes sont des relations d'histoire et des récits véridiques qui se rapportent à la vie et l'œuvre de certains hommes et de certains personnages humains ayant effectivement vécu autrefois sur terre.

Or, au début de l'histoire humaine, la famille était, en effet, un groupe de femmes, de filles et de petits garçons mâles qui dépendait totalement du père de la famille de sorte que ses membres étaient pratiquement les esclaves naturels du père. L'obéissance des enfants à leur père et à leur mère, fait, encore, partie des règles sociales les plus importantes et est considérée comme étant sacrée.

Familles, chat et château

Or, le mot « qadès » qui signifie le sacré dans les langues sémitiques, en particulier, et dont est issu le mot

berbère « quaddachas », sert à désigner le chat en langue arabe notamment, sous la forme de « qat », en écriture arabe قط et encore « gat » , mais les tunisiens le prononcent, dans leur arabe parlé, sous la forme de « qattousse », ou encore « gattousse », en écriture arabe قطوس . En Nubie, au sud de l'Egypte, le chat s'appelle « qaddis », en écriture arabe قديس, nom arabe des saints et des élus de Dieu et de tout ce qui est sacré. Les saints et les élus de Dieu portent également ce nom en hébreux. Au pluriel, ce mot prend, en arabe, la forme de « qaddissin », soit un homonyme du mot berbère « qaddachas » évoqués précédemment. Comme il a été noté précédemment, dans tous les cas, à l'origine, ce mot « qaddis » signifie « serviteur » et « esclave ».

Justement, le mot « chat » en français est à la base du mot français « château » qui signifie « grande maison », c'est-à-dire « famille ». Il ne faut pas se leurrer sur le sens actuel du mot français « château ». En arabe, le palais et le château, voire le fort et la citadelle, s'appelle « kaçaba », (en écriture arabe قصبة) mot qui sert également à désigner les roseaux en arabe. Or, les anciennes habitations humaines étaient des huttes rudimentaires faites de roseaux. Ainsi, donc, à l'origine, le palais et le château n'étaient que des huttes rudimentaires faites de roseaux et de branches d'arbres et servant à loger la famille de sorte que la famille se confond avec son habitation et inversement. Les hommes habitaient directement les plantations naturelles des roseaux, entourant les étendues d'eau, et sur les arbres des forêts,

avant d'apprendre à construire des huttes à partir des roseaux et autres arbres et végétaux.

Les récits mythiques à caractère sacré des anciens peuples sémitiques comme ceux rapportés par la Thora juive et le Coran de l'Islam, disent que Dieu avait son trône sur l'eau, avant de créer le monde et l'homme.

Or, le mot trône est désigné, en arabe, par le mot « arch », (en écriture arabe عرش), terme encore utilisé par les tunisiens dans leur arabe parlé au sens de grande famille, de clan, et de tribu.

Les palais royaux et princiers portent aussi le nom connu de « sérails » dans l'ancien empire turc, appelé « empire ottoman » et par extension et emprunt dans les pays arabes qui furent longtemps des parties de cet empire, en écriture arabe سرايا. Or, ce mot dérive, en réalité, du mot « ser » ou encore « sir » et « sire » qui sert à désigner, encore, en langue arabe les peaux tannés et les lanières et les morceaux de peaux tannés employés pour confectionner les tentes, et les souliers, entre autres. Ces mots « sir » et « sire » sont encore employés en anglais et en français en tant que titre royal et honorifique en général pour les grands personnages.

Dans ce même contexte, un cycle de contes populaires tunisiens a pour héros principal un personnage de sexe féminin appelé « Oummi Sissi », et présentée tantôt comme un oiseau et tantôt comme une personne humaine, mère d'une petite fille. Traduit en français, le nom « Oummi Sissi » signifierait, en apparence, « Mère

Sissi » ». Mais, dans tous les cas de figure, cette Oummi Sissi est confrontée à un chat qui vit avec elle et qui lui dérobe du pain ou du fromage, devant servir de goûter à sa petite fille. Pour le punir, Oummi Sissi lui coupe la queue. Le chat l'implore pour qu'elle lui rende sa queue, mais Oummi Sissi lui impose certains travaux domestiques qu'il accomplit et enfin sa queue lui est restituée.

En réalité, le nom « Oummi Sissi » est une déformation du mot berbère « amchiche », signalé précédemment, et qui signifie « chat » en langue berbère de sorte que ce cycle de contes populaires a été, à l'origine, des récits et des histoires vraies qui se rapportaient à une ancienne famille, ou un ancien chat ou encore à un ancien château, au sens originel de tous ces mots, signalés précédemment.

Le cycle des contes populaires s'appelait initialement les contes populaires d'amchiche, c'est-à-dire les contes du chat, ou du château, soit les contes de la famille. Initialement, il s'agissait du mythe d'origine ou de l'histoire réelle de la fondation de la famille et de sa généalogie.

Le chat dont il est question, dans ce cycle de contes populaires tunisiens, désigne et représente, en réalité, à l'origine, un jeune homme en quête d'une épouse ou d'une compagne. Il se met, volontairement, en tant que serviteur et esclave saisonnier, au service d'une certaine famille rencontrée au gré des circonstances, pendant une certaine période, en échange de la main de

l'une des filles de la famille, comme c'était la coutume autrefois, un peu partout sur terre. Au cours de cette période, il accomplit pour le compte de ses beaux parents touts les travaux domestiques, comme la garde des troupeaux, la confection du fromage, la cuisson du pain, et au bout de la période d'esclavage convenue, le jeune homme est affranchi et autorisé à se marier avec la jeune fille choisie, et l'élue de son cœur.

Ainsi, le conte populaire relate, en réalité, les circonstances ayant entouré la fondation d'une ancienne famille, ou encore l'origine d'une ancienne famille humaine ayant existé, autrefois, réellement, sur terre et qui s'appelait, au cours de son existence sur terre, la famille du Chat ou « le Chat » ou encore « les Chats » tout court.

Les jeunes filles pouvaient aussi connaitre un tel sort, comme le prouvent les contes populaires relatant l'histoire d'une jeune fille maltraitée par sa belle mère et qui se voit contrainte de fuir la maison paternelle et s'exposer ainsi à tous les aléas de la vie humaine. Un conte populaire de ce genre, raconté par les français, habitants de la France, au Sud- ouest de l'Europe, s'appelle « le conte de Cendrillon », nom dérivant du mot français « cendres », résidu du feu éteint dans un foyer. Or, le mot « foyer » sert à désigner la famille en français.

En Tunisie, ces contes populaires relatant les aventures d'une jeune fille maltraitée par sa belle mère sont appelés les contes de la chatte des cendres, soit en arabe خرافة قطوسة الرماد. En effet, le conte populaire s'appelle en arabe « khourafa », en écriture arabe خرافة,

mot homonyme du mot arabe « ghourfa », en écriture arabe غرفة qui signifie « chambre », « pièce » et par conséquent « maison » et « famille ». Il est aussi l'homonyme du mot anglais « grove » qui désigne les tombeaux, et par conséquent les morts et les ancêtres. Le mot français « mythe » est un homonyme du mot arabe « meit », en écriture arabe ميت qui désigne le mort et les morts de sorte que les mythes et les contes populaires sont les histoires relatives aux morts, c'est-à-dire aux ancêtres, et par conséquent au passé humain en général.

Tatouage

L'amputation de la queue du chat par sa maitresse Oummi Sissi, dans les contes populaires tunisiens signalés, signifie son asservissement tandis que la restitution de la queue signifie son affranchissement. L'amputation est à prendre au sens propre.

Plusieurs contes populaires tunisiens comportent, en effet, des scènes où l'asservissement de jeunes garçons, dans de telles situations, consiste à les marquer sur leur derrière, c'est-à-dire entre les fesses, par un sceau, ou à être tatoués sur cette partie du corps. Or, le tatouage consiste à couper la chair et à y pratiquer des incisions par un couteau et autres instruments tranchants.

En langue arabe, on utilise encore l'expression « couper le derrière » au sens de mettre hors d'état de nuire. La domestication à travers l'asservissement,

comme celle du jeune homme du conte populaire, est une manière de mettre hors d'état de nuire. La domestication est appelée, de nos jours, l'insertion sociale ou encore « l'acculturation », dans les études spécialisées, c'est-à-dire l'apprentissage et l'assimilation de la culture et de la civilisation d'une société humaine donnée.

A une certaine époque de l'histoire humaine, l'itinéraire de l'asservissement saisonnier était un des itinéraires incontournable à suivre par les jeunes garçons célibataires en quête d'une épouse. L'autre itinéraire était l'enlèvement et l'emploi de la force. Les rencontres pacifiques entre jeunes garçons et jeunes filles, loin des yeux des grands et des familles, étaient extrêmement rares, outre la répulsion naturelle qu'éprouvent les filles domestiquées dans le cadre du milieu familial à l'égard des étrangers, tant par habitude que par peur du chef du groupe auquel elles appartiennent, étant ses esclaves.

Les contes populaires tunisiens signalent plusieurs unions et mariages par enlèvement souvent avec le consentement de la jeune fille, alors que dans beaucoup de légendes grecques, les filles résistent souvent aux poursuites des jeunes prétendants. Les satyres dans les anciennes croyances grecques qui représentent en réalité les jeunes garçons d'autrefois, passaient leur temps à chasser les nymphes farouches qui représentent les jeunes filles d'autrefois, dans ces mêmes croyances grecques de jadis.

Or, les dieux portent le nom de « god » en anglais et « got »en allemand, soit un nom homonyme du mot arabe « qat » et « gat » employé au sens de chat.

Cependant, les rois et les chefs en général sont désignés, en persan, par le terme « chah », homonyme du mot français «chat » et synonyme du mot arabe « got » (قط).

Il a été signalé que les dieux étaient les pères et les chefs des familles humaines aux premières époques de l'histoire humaine. Or, la famille se confond avec son chef. Selon les contes populaires, le titre de « got » est obtenu après l'affranchissement et le mariage, mais durant la période d'esclavage, le jeune garçon asservi est un aspirant au titre de « got », ce qui revient un peu au même. Les contes populaires disent souvent que leurs héros sont des princes, et même des princes héritiers. Ces jeunes garçons, ou princes, arrivent, après maintes aventures, à se marier avec la jeune fille désirée, à fonder des familles et à devenir « rois », ou « gots » et « chat » ou « chah », c'est-à-dire des pères de familles, des chefs et des grands.

Tous les mythes et tous les contes populaires sont, en réalité, des récits historiques véridiques qui relatent les circonstances ayant entouré la fondation d'une famille humaine ou l'origine d'une famille humaine ayant vécu, jadis, réellement, sur terre.

Les sons naturels

Au début de leur histoire sur terre, les hommes avaient appris, comme les animaux, à vivre sur les arbres des forêts et dans les cavernes des montagnes en petits groupés séparés. A l'image du corps humain qui éprouve une répulsion naturelle à l'égard de tout ce qui est étranger à lui et le repousse naturellement, les groupes humains repoussaient les intrus et rôdeurs qui essaient de s'approcher de leur camp ou habitation, en dépassant une certaine limité naturelle, comme le chien qui aboie lorsqu'un intrus s'approche de lui et dépasse une certaine limite naturelle dont il est le seul juge.

A l'origine, à l'instar des autres animaux, les groupes humains repoussaient les intrus en criant et en émettant, spontanément, divers sons et diverses interjections, comme les interjections « ès », « èch », « o », « a », « ou », « akh », « er », « elt », et autres cris, sons et interjections dont ont dérivé les sons constituants les mots des différentes langues humaines et répertoriés dans les alphabets en usage dans les différentes langues, soit une trentaine de sons environ. L'arabe compte 28 sons représentés par les lettres de l'alphabet arabe, alors que le français compte 26 sons représentés par des caractères empruntés à l'alphabet latin des anciens habitants de la Cité de Rome, en Italie, dits romains ou latins.

Tous ces sons naturels sont encore utilisés par les tunisiens et autres peuples sur la terre comme des

interjections et des cris pour exprimer la colère, le dérangement, la gêne, et chasser les auteurs et sources de ce dérangement, parmi les hommes et les animaux, tel que le son « er » dont dérive le son « er » constituant le mot français « tour », par exemple. Les tunisiens utilisent encore ce son « er » pour inciter les ânes à s'ébranler et à se mettre en marche (en écriture arabe ار). Les tunisiens chassent les mouches et les oiseaux, également, en criant à leur adresse « èch », et « ich », c'est-à-dire en émettant le son « èch » et « ich ». Pour exprimer la colère induite par le bruit, un tunisien émet le son « ès », tandis qu'un français dit « assez » ou encore « oust ». A l'origine, ce son « ès » est produit en sifflant. Les sons « ès » et « che » sont équivalents.

Donc, à l'origine, dans les conditions naturelles, lorsque des intrus et des rodeurs parmi les hommes et les animaux dépassent une certaine limite naturelle, les membres du groupe humain conduits par leur chef se mettent à les chasser et à les huer, en sifflant et en émettant, spontanément, les divers cris et sons naturels signalés. Ils accompagnent ces sons et ces cris par des gesticulations et des mouvements de la main, du pied et de la tête, comme quelqu'un qui frappe un autre.

Le chef et les grands du groupe se trouvent aux premiers rangs, ce qui explique qu'un ancien dieu sémitique porte le nom de « Had » et « Haddad », d'après le mot « had » servant encore à désigner la limite dans la langue arabe. Le nom « Haddad » est également donné, en arabe, aux forgerons, c'est-à-dire aux fabricants des outils et des machins et trucs dont les figurines.

Puis, les hommes ont appris à ériger des clôtures à partir de divers matériaux dont des clôtures consistant à suspendre des peaux d'animaux sur les arbres et autres éléments situés à proximité de leurs lieux d'habitations pour marquer la limite de leur territoire. Les peaux, entre autres, étaient, à l'origine, des peaux d'animaux morts, ramassés sur les chemins. Il est à noter que les outres sont faites, principalement, à partir des peaux d'animaux.

Les naturalistes, spécialistes du comportement animal, estiment que les animaux, aussi, marquent les limites de leurs territoires au moyen de leurs urines et excréments, ou matières fécales, ce qui reste à vérifier.

En effet, à l'inverse de cette opinion, les urines et les excréments, ou matières fécales, servent, au contraire, à tracer et à identifier les intrus et les autres en général, c'est à dire à tracer et à identifier ceux qui les avaient secrétés, de sorte qu'uriner et sécréter des matières fécales peut être contraire aux intérêts du sécréteur.

A l'instar des animaux, les hommes avaient appris, de façon naturelle et spontanée, à flairer les urines et les excréments laissés, sur le sol, par ceux qui les avaient secrétés, ainsi que les traces de sang sur terre et tout ce qu'ils rencontraient sur leur chemin, avant et après l'acquisition de la station debout, et de cette manière, ils avaient appris à tirer des renseignements et des indications sur les sécréteurs et sécrétrices de ces urines, excréments et sang.

De nos jours encore, pour dire qu'il n'y a pas de trace de quelqu'un, les tunisiens disent « qu'il n'y a pas son odeur » de sorte que les hommes avaient l'habitude d'utiliser, naturellement et spontanément, les odeurs pour se renseigner sur leur environnement, y compris les odeurs que les hommes dégagent, dans les conditions naturelles.

Ainsi, s'agissant des excréments, le grand tas de matières fécales consistantes et moulues en forme de cône, du genre appelé « étron » en français, s'appelle « câalousse », dans l'arabe parlé des tunisiens, en écriture arabe كعلوص. Or, ce mot est un homonyme du mot français « colosse », c'est-à-dire grand. Donc, ce genre de tas de matières fécales désigne et indique que celui qui l'a secrété est un homme de grande taille, ou plus exactement un homme dans la force de l'âge. Les tunisiens ont identifié environ six types différents de tas de matières fécales en fonction de la grosseur et de la nature de la matière et ont donné un nom particulier à chaque type dont le type appelé « câalousse ». Il y a aussi le type de tas appelé en Tunisie « câabouche », ou « kâabouche », en écriture arabe كعبوش qui ressemble au premier.

Ainsi, au début de l'histoire humaine, les établissements humains comportaient nécessairement un mont de matières fécales constitué progressivement par les urines et excréments secrétés par leurs habitants, généralement des membres de la même famille et du même clan, se nourrissant des mêmes aliments et secrétant pratiquement des matières fécales de même

composition, dans un même endroit réservé à cet effet. On peut même dire que jadis, les établissements humains se confondaient avec ces monts de matières fécales humaines. Il s'y était ajouté, par la suite, les monts de matières fécales animales secrétées par les animaux domestiqués et élevés par le groupe.

Or, les petites pièces ou chambre de maçonnerie en forme de cube portent, justement, en arabe, le nom de « câaba » ou « kâaba », à l'image du sanctuaire sacré de la Kâaba, dans la ville de la Mecque, en Arabie, regardé comme étant un lieu sacré par les peuples arabes et islamiques et appelé « la maison antique de Dieu ». Il s'agit d'une petite pièce de maçonnerie rudimentaire, en forme de cube, qui n'avait pas de toit, à l'origine, et d'après l'historien arabe Ibn Khaldoun, mort en 1406 du calendrier grégorien, au Caire en Egypte, elle avait été justement bâtie sur un mont de matières fécales. Elle draine, actuellement, à la fin de chaque année lunaire, selon le calendrier de l'hégire, des millions de musulmans, croyants à l'Islam, dans le cadre d'un pèlerinage collectif rituel très ancien.

Selon les chroniqueurs arabes de l'âge classique, il y avait, avant l'Islam, beaucoup d'autres « Kâabas » sacrés en Arabie.

Coupoles, dômes, et tombeaux

Justement, les mausolées et tombes dédiés, actuellement, aux saints de l'Islam, notamment aux saints

locaux dans les pays d'Afrique du Nord dont la Tunisie, sont des pièces en maçonnerie en forme de cubes, montées d'une coupole, ou dôme, ou encore voûte, de forme conique et sphérique et qui s'appelle en arabe « coubba », « qoubba » ou encore « koubba », en écriture arabe قبة .

Toutefois, les tombes de quelques saints locaux comme en Tunisie, consistent en une petite coupole et en un petit dôme, de forme conique, reposant directement sur le sol et pouvant donner l'impression d'une forme humaine si on y dessine les traits d'un visage humain. Elles ressemblent parfaitement à des cônes de sucre, ainsi qu'à un four à pain traditionnel, et très ancien, en poterie, appelé « tabouna » par les tunisiens, ou encore aux courges, citrouilles et calebasses.

Or, les populations du Sud ouest tunisien, dans la région de Nefzaoua, et les tunisiens en général désignent les courges par des mots désignant la tête et le chef, tels les mots « garâa » ou encore « cabou » (كابو , قرعة). Le mot « cabou » que d'aucuns rapprochent du nom d'un village libyen appelé « Cabaou », au djebel Néfoussa de Libye, est un homonyme de certains mots employés dans les langues européennes et les langues sémitiques dans le sens de chef, tête et coiffures de tête, dont le mot français « chef » lui-même , le mot français képi, le mot arabe « coufia » qui désigne une certaine coiffure de la tête ou encore le mot hébreu « képia » qui désigne la coiffure de tête des juifs. Tous ces éléments ont la caractéristique commune d'avoir une forme conique à l'image de la forme de la tête humaine.

Ainsi, des ébauches d'idoles et de figures de formes humaines firent leur apparition à travers ces ouvrages en poterie et maçonnerie rudimentaires représentés par les coupoles et les dômes édifiés sur les tombes des ancêtres et des morts en général, en tant qu'êtres chers, nommés « dieux », car ils étaient des pères, des chefs et des grands, et servant à signaler aux autres que les lieux concernés sont des établissements habités et occupés par des hommes, qu'il faut respecter et éviter de les exploiter sous quelque forme que ce soit, sans l'autorisation préalable de leurs propriétaires ou premiers occupants.

Selon le dictionnaire Larousse de la langue française, le mot français « dôme » dérive du mot latin « domus » qui signifie « maison », et plus spécialement « maison de dieu ». En grec, le mot « doma » signifie également « maison ».

Un genre de clowns spécialisés, autrefois, dans l'animation des cérémonies de mariage dans les sociétés arabes porte le nom de « khalbousse » et « khalbasse », mot homonyme du mot « calebasse », ce qui montre que les calebasses et les citrouilles servaient autrefois de récipients et de moyens de déguisement. Ces clowns masquaient leur visage par des calebasses pour se déguiser.

Dans ce contexte, un conte populaire tunisien rapporte qu'un certain voleur très rusé s'était déguisé, un jour, en personnage effrayant, en portant sur la tête un crible en poterie couvert de bougies allumées, de sorte

que celui qui le voyait le prenait pour un fantôme sorti tout droit du cimetière. Il avait eu recours à ce truc pour effrayer quelqu'un en particulier.

Les masques faisaient ainsi partie de toute cette panoplie de trucs et de machins destinés à faire peur aux autres et à se protéger.

Hommes d'argile

Mais, selon les mythes sémitiques et mésopotamiens relatifs à la création de l'homme, cette panoplie protectrice renfermait également les hommes.

En effet, plusieurs mythes racontés par les anciens irakiens, soit les sumériens, akkadiens, babyloniens et assyriens, et les anciens peuples sémitiques du Proche Orient dont les arabes, les hébreux et les cananéens rapportent que le premier homme avait été façonné à partir de l'argile et que les premiers hommes étaient, initialement, des idoles et des mannequins faites à partir de l'argile et qu'ils avaient été exposés, ainsi, pendant un certain temps, au soleil pour sécher et devenir solides, avant d'être recouverts en chair et en os et devenir des êtres vivants, grâce à l'action des dieux.

Des légendes liées à ces mythes signalent que le créateur de ces ébauches d'hommes en argile les avait placées dans un four pour sécher et qu'oubliant de les retirer à temps, ils ont brûlé et sont devenus noirs, donnant ainsi naissance à la race noire des hommes.

D'autres légendes disent que ces premiers hommes naquirent particulièrement faibles tandis que d'autres légendes disent que les premiers hommes naquirent myopes et malvoyants, ne supportant pas la lumière du jour et du soleil, comme les albinos.

Aussi, les hommes sont souvent qualifiés, dans certaines œuvres littéraires, de figures d'argile ou de figurines d'argile pour les rabaisser.

Comme il a été signalé précédemment, les scènes concernant la création de l'homme dans les mythes désignent la fondation des premières familles humaines, sur terre, par les pères fondateurs de ces familles. Ces premières familles représentent les hommes tandis que les pères fondateurs représentent les dieux.

Cependant, les jeunes garçons étaient autrefois astreints à se mettre en tant qu'esclaves, au service d'un père de famille en échange de la main de l'une de ses filles, durant une période déterminée. Au bout de cette période, le jeune garçon est affranchi, épouse la fille choisie et fonde à son tour une famille. Or, dans les mythes des anciens irakiens et des anciens peuples sémitiques signalés, l'homme créé par les dieux correspond à cette catégorie de jeunes garçons serviteurs, de sorte que, dans cette perspective, le premier homme est un esclave tandis que l'humanité est une race d'esclaves.

Dans les mythes sémitiques relatifs à la création de l'homme, il est dit que Dieu créa l'homme pour qu'il lui

garde son jardin, tandis que dans les mythes des anciens irakiens, il est dit que les dieux créèrent les hommes pour qu’ils les servent.

Ainsi, l’homme est un gardien à la solde d’un maître et d’un propriétaire, comme les épouvantails et les mannequins placés dans les jardins pour les garder contre les attaques des oiseaux. Il assure la garde des biens de son maître comme le jeune garçon dépité dans le conte populaire tunisien signalé précédemment, chargé par un père de famille de lui garder ses poules, durant une période déterminée en échange de la main de l’une de ses filles.

Or, le mot français « garde » est un homonyme de plusieurs mots utilisés par les différents peuples de la terre dans le sens justement d’esclave, serviteur, courtisan dans la cour d’un roi, corde pour lier, collier ainsi que dans le sens de singe.

En effet, le singe porte en arabe le nom de « guerd » et « querd », tandis que le collier est appelé par les égyptiens dans leur arabe parlé « querdan ». En persan, entre autres, ce mot sert à désigner les courtisans et les serviteurs d’un roi, ou plutôt la cour du roi. Les tunisiens désignent la cour du roi par le mot « cercle » du roi, c'est-à-dire l’entourage du roi, comme le collier qui entoure le cou.

Or, les colliers et les bijoux en général étaient à l’origine des espèces de cordes dont on se servait pour lier les esclaves et les captifs en général parmi lesquels

figuraient notamment les femmes, aux premières époques de l'histoire humaine lorsque les mariages passaient essentiellement par l'enlèvement des filles. Dans les sociétés humaines, les pères, les chefs, et les maitres sont des hommes dotés du pouvoir de lier et de délier ceux qui dévient du « droit chemin », de sorte que les chefs et les notables sont qualifiés en arabe par « ceux qui lient et délient ».

Domestication

Mais, le plus intéressant dans ces faits concerne, sans doute, le lien établi entre l'homme et le singe, puisque le premier homme, dans le mythe sémitique de la création, avait été façonné par son maitre en vue d' assurer « la garde » d'un jardin appartenant à ce maitre, c'est-à-dire à être le « guerd »,ou singe, de son maitre.

Or, au-delà des idées très discutables développées par les naturalistes contemporains concernant les liens naturels de parenté entre les hommes et les singes ou primates, il faut comprendre ce terme de singe, dans le contexte des récits mythiques signalés, au sens d'imitateur.

En effet, le mot « singer » s'emploie en français au sens d'imiter quelqu'un de façon grotesque, selon le dictionnaire Larousse de la langue française, tandis que ce même dictionnaire dit que « imiter », c'est reproduire

l’allure, le comportement de quelqu’un, d’un animal, le bruit, le mouvement de quelque chose ».

Justement, autrefois, le terme « homme », comme dans les récits mythiques signalés, s’applique aux hommes et femmes domestiqués, vivant dans le cadre d’une famille ou d’un groupe humains, de sorte que pour un groupe, le terme « homme » s’applique aux membres de ce groupe, qu’il s’agisse des membres du groupe liés par des liens de sang ou d’esclaves et de captifs des deux sexes appartenant à d’autres groupes et asservis, pour une raison ou une autre, à l’instar des jeunes garçons qui se laissent asservir, de leur plein gré, pendant une certaine période, en échange de la main d’une fille du groupe.

Ces esclaves et captifs sont domestiqués afin d’apprendre le mode de vie des maîtres. Cette domestication consiste à leur apprendre ce mode de vie, comme la garde des troupeaux, la fabrication du fromage, la manière de faire le feu, de construire une hutte, de puiser de l’eau, de labourer, de chasser, de tailler une pierre, de manier une massue, de modeler l’argile, mais aussi et surtout la manière de parler du groupe.

Cet apprentissage est fondé sur l’imitation. L’esclave apprend en imitant les gestes de ses maitres. On lui montre deux ou trois fois comment il fait, puis on le charge de faire le travail pour le compte du maître.

Ainsi, la servante et l’esclave femme porte en arabe le nom de « amate », en écriture arabe أمة , mot

homonyme du mot français « homme ». Puis, ce mot français « homme » est, à son tour, homonyme du mot anglais « home » qui signifie « maison », c'est-à-dire un membre de la maison, de la famille.

Dans un conte populaire raconté par les Touarègues, peuples berbères habitants du grand Sahara nord africain, il est dit qu'un jeune homme appelé Sissi, captura une femme sauvage qui, aussitôt, se mit à l'imiter dans tous les gestes qu'il faisait. Puis, remarquant son acharnement à l'imiter, le jeune homme fit semblant de prendre un tison par sa main, la femme sauvage l'imita, et brûlée par le feu, elle se mit à crier, ne sachant quoi faire. Elle fut appelée la fée de Sissi, ou « Amat Sissi », soit une déformation du mot « amchiche » signifiant « le chat » en berbère, c'est-à-dire l'esclave et le serviteur, comme il a été expliqué précédemment.

Djinns, anges et esprits

S'agissant de la création du premier homme à partir de l'argile rapportée par les mythes sémitiques et des anciens irakiens, elle est à prendre au pied de la lettre, car elle signifie tout simplement que l'homme est le fils de son père.

L'argile s'appelle en arabe « téfal », en écriture arabe طفل, d'après le même mot signifiant « enfant », ou encore « ouahal », en écriture arabe وحل, d'après un mot qui signifie à la fois «boue », « embarras », et « le fait de

s'empêtrer ». Le mot français « boue » est un homonyme du mot arabe « bou », en écriture arabe بو et أبو , qui signifie le père . Sur un autre plan, les enfants s'appellent « jin » et « djnn » en arabe et dans d'autres langues humaines, comme en grec. Le fœtus s'appelle « janine » en arabe, c'est-à-dire petit « jin », comme on dit en français « tablette » pour une petite « table ».

Or, le mot « jin » est un homonyme du mot français « gêne », c'est-à-dire « embarras » et « fait de s'empêtrer ». Dans les sociétés arabes, et dans la langue arabe, en général, les parents qualifient souvent leurs enfants par le mot « cabède », en écriture arabe كبد, mot qui signifie à la fois « embarras », « fatigue », « gêne » mais aussi l'organe du corps appelé « foie » en français. Or, tout le monde croit que ce mot « cabède » appliqué aux enfants se rapporte à l'organe appelé « foie » alors qu'il désigne, en réalité, l'embarras, la fatigue et la gêne permanente causées par la charge d'élever les enfants, en raison notamment de leur turbulence naturelle.

Or, le mot arabe « djinn », homonyme et synonyme du mot français « génie » qui est appliqué, communément, aux êtres surnaturels appelés « esprits » et « démons », était, à l'origine, un nom qualifiant les jeunes garçons devenus majeurs dans les groupes humains aux premières époques de l'histoire humaine.

Il a été signalé que les groupes humains au début de l'histoire humaine étaient formés essentiellement de trois catégories, les pères qui sont représentés par les dieux dans les mythes, les femmes et filles sous tutelle qui

sont représentées par les anges et êtres similaires dans les mythes et enfin les jeunes garçons célibataires qui sont représentés par les djinns, démons et êtres similaires dans les mythes.

L'homme, en particulier, correspond dans les mythes, aux membres des familles et aux jeunes hommes ou jeunes garçons domestiqués qui ont accepté de faire alliance avec un père de famille pour épouser l'une de ses filles.

Par contre, les djinns, les génies, les démons et autres êtres similaires correspondent aux jeunes garçons obligés, à la majorité, de quitter leur famille, de gré ou de force, et qui vivent, en état de liberté totale aux alentours des familles établies, consacrant une partie de leur temps à la recherche d'une fille et d'une compagne pour fonder une famille, soit par enlèvement, soit en faisant alliance avec un père de famille en échange de la main de l'une de ses filles.

Or, ces djinns ou démons étaient une source de « gêne » pour les pères de familles car ils cherchaient à enlever leurs filles et leurs femmes. Justement, le mot « gêne » est homonyme du mot « djinn », « génie » ainsi que du mot « jeune ». Donc, les djinns et les démons représentent la classe des jeunes hommes libres de toute attache, dans les premières familles humaines sur terre, à l'inverse des « hommes » qui représentent la classe des jeunes hommes asservis par le père ou le chef d'une famille humaine établie, pour une période déterminée, en échange de la main de l'une de ses filles.

Origine naturelle des inventions humaines

Dans ce même contexte et comme il a été signalé en ce qui concerne l'origine naturelle du langage humain, les actes humains consistant à marquer les limites des établissements humains par les divers moyens évoqués précédemment, comme la pose de pierres, l'édification de mannequins et la suspension de peaux d'animaux sont naturels et constituent le prolongement d'actes naturels spontanés et mécaniques. A l'origine, il n'y a pas d'intention et de planification. Ces actes ressemblent aux actes consistant à construire des nids, des toiles, ou à creuser des trous, observés chez les animaux. Cette vérité s'applique aux arts et aux techniques et « inventions » humaines si compliquées soient-elles.

Il a été signalé que les sons composant les mots des différentes langues humaines dérivent de sons naturels, sortes de cris et d'interjections d'origine naturelle, encore utilisés, spontanément et de façon mécanique, par les tunisiens et les divers peuples de la terre pour exprimer la douleur, la peur, la colère, le dégoût et autres émotions et sensations naturelles.

Ainsi, lorsqu'un tunisien attrape un voleur ou quelqu'un d'autre, il lui dit spontanément « ob, je t'ai attrapé », mais il peut émettre, dans de tels cas, le son « ob » tout simplement. Ce son « ob » ou interjection, émis de façon spontanée et mécanique est employé sous diverses formes par les divers peuples de la terre, comme les français qui l'emploient, dans leur langue française,

sous forme de « hop » et « hep ». Les noms désignant le père dans de nombreuses langues humaines dérivent de ce son naturel, comme le nom « papa », en français, ou encore le nom « bou » en arabe.

Or, ce son « ob » est produit naturellement lorsque l'homme claque la bouche, et pose brusquement sa mâchoire supérieure sur la mâchoire inférieure, comme lorsqu'il cherche à attraper quelqu'un ou quelque chose par la bouche.

Ainsi, donc, l'homme produisait mécaniquement ce son « ob » lorsqu'il était acculé à attraper les proies par la bouche, comme les autres animaux, avant d'acquérir totalement la station debout, puis lorsqu'il avait appris à attraper ses proies par les mains, il a continué à claquer, mécaniquement, la bouche, produisant dans le sillage ce son « ob ».

Or, ce son naturel « ob » est encore utilisé par les tunisiens dans les situations embarrassantes et gênantes pour exprimer la colère, et par voie de conséquence pour mettre en garde et avertir sous la forme du mot « abouc », mot composé du son « a » qui est aussi un son naturel émis pour exprimer la colère et du son « bou » dérivant du son « ob ». Or, ce son « ob » est le son « b » utilisé dans le langage humain et composant de nombreux mots dans les différentes langues humaines comme le mot français « bouc ».

De la même manière, les techniques humaines sont d'origine naturelle, à l'instar des clôtures et moyens de

protection consistant à creuser des trous, comme les fossés aménagés autour des châteaux forts, pour éloigner les intrus. Ces trous servaient aussi de pièges pour chasser les hommes et les bêtes. Les hommes ont appris l'usage de ces trucs ou pièges en tombant et en voyant d'autres hommes et d'autres animaux tomber dans des trous naturels et à être ainsi entravés et éprouver de grandes difficultés à se mouvoir pour en sortir.

Contrairement aux idées reçues, à l'origine, la chasse et les moyens servant à la chasse avaient été pratiqués par les hommes pour chasser leurs semblables, c'est-à-dire d'autres hommes avant d'être étendus aux animaux. La domestication avait commencé par celle des hommes avant d'être étendue aux animaux. L'appellation par des noms propres avait également commencé par l'appellation des hommes avant d'être étendue aux animaux et autres objets environnant. Ainsi, les noms donnés aux astres et aux étoiles étaient à l'origine des noms donnés aux hommes avant d'être étendus aux astres et étoiles. Beaucoup d'hommes et de femmes sont appelés, encore, par les noms des astres et des étoiles comme en Tunisie où plusieurs femmes sont appelées « Qamar », le nom arabe de la lune.

Les contes populaires de Tunisie et d'autres pays comportent beaucoup de scènes où des hommes dressent des pièges pour chasser d'autres hommes, mâles et femelles, mais surtout femelles, de sorte que les pièges étaient initialement des trucs utilisés par les jeunes garçons célibataires pour chasser les jeunes filles, en

particulier les pièges consistant à creuser des trous sur les chemins empruntés par la cible.

Auparavant, les hommes avaient rencontré l'usage des trous chez les insectes et les vers de terre, et appris à introduire leurs mains dans ces trous des insectes et des vers de terre pour les extraire et les manger, puis ils ont appris à se servir d'un bout de bois pour extraire ces vers de terre de leurs trous, en imbibant les bouts de bois d'un peu de salive, substance visqueuse et collante par nature, comme le font les animaux appelés singes d'ailleurs. Il se peut que les hommes aient appris ce truc en imitant les singes. Les enfants dans le Sud-ouest tunisien, au Nefzaoua, utilisent encore ce moyen pour extraire les vers de terre de leurs trous et les utiliser comme appâts dans les rets et filets servant à chasser les oiseaux. Certains animaux sont munis naturellement de langues adaptées à la prise directe des insectes.

Ces pièges humains sont donc des reproductions et des imitations mécaniques de la nature environnante.

Les cachets

La figuration par le dessin et les idoles est aussi un acte mécanique. Celui qui fait face à des nombreux problèmes pense constamment à ces problèmes. Il s'isole dans une pièce ou dans un lieu quelconque et sous l'effet des pensées qui l'accablent, il se met à dessiner, mécaniquement, toutes sortes de figures et de dessins

par la main et par tout autre moyen sur le sol ou sur un papier quelconque. Si le souci provient de la peur d'un ennemi quelconque, l'homme soucieux a tendance à dessiner la figure de cet ennemi ou quelque chose qui le représente, par exemple, la tête d'un loup, si cet ennemi a l'habitude de porter des peaux de loup.

Les tatouages qui sont des figures et des signes pratiquées par les hommes sur leurs peaux ou sur la peau de leurs animaux ont une origine naturelle mécanique. En effet, les tatouages servaient initialement à marquer l'asservissement et l'appartenance des individus tatoués à celui qui les a tatoués et à indiquer que les tatoués sont les esclaves et la propriété privée de l'auteur des tatouages ou tatoueur. Or, les tatouages sont le prolongement des traces de blessures que se font les hommes lors des luttes et des combats. Celui qui est le plus fort et qui a notamment une tête grande et solide arrive à blesser le faible et à laisser des traces sur sa peau. La défaite était suivie de l'asservissement, c'est-à-dire que le vainqueur devient le maitre du vaincu alors que le vaincu devient l'esclave du vainqueur. Les traces des blessures laissées par le vainqueur sur le corps du vaincu sont le témoin de sa défaite et de son asservissement.

Les cachets et les marques des sceaux servant à officialiser, de nos jours, les documents administratifs portent le nom de « damgha » dans l'arabe parlé des égyptiens, d'après le nom du cachet en langue turque. Or, le mot « damgha » sert à désigner en arabe l'acte de blesser par n'importe quel moyen. Ce mot désigne aussi la tête sous la forme du mot « damagh », ainsi que le

cerveau chez les tunisiens, ce qui est le même, de sorte que les cachets ont pour origine naturelle les traces des blessures faites par la tête sur le corps, lors des luttes et des combats entre hommes.

Or, outre les tatouages au moyen d'incisions pratiquées directement sur la peau, les marques d'asservissement étaient faites à l'aide de cachets et de sceaux. On chauffe le sceau de fer et on l'applique sur la peau de l'esclave, ce qui laisse une trace. On emploie aussi ce moyen pour marquer la propriété des animaux.

Chasser le mal par le mal

Le caractère spontané et mécanique des « inventions » humaines peut être tracé et dégagé dans plusieurs autres domaines. Ainsi, les vaccins employés de nos jours pour prévenir les maladies infectieuses consistent à chasser le mal par le mal. Leur principe de base est de conjurer le mal par le mal. Le vaccin consiste à inoculer à une personne les substances toxiques qui provoquent la maladie qu'on veut justement prévenir par ce moyen.

En effet, les tunisiens chassent encore les chiens en émettant à leur adresse, de façon mécanique et naturelle, le son ou l'interjection « cher ». Quand un chien attaque un tunisien et veut le mordre, le tunisien lui dit « cher ». Or, le mot « cher » signifie le mal en arabe, en écriture arabe شر , de sorte que pour chasser le mal, en

l'occurrence la morsure d'un chien, on prononce le mot servant à désigner le mal.

Le mot « cher » est un homonyme du mot « ser », car les sons « ès » et « ch » sont équivalents. Or, le mot « ser » signifie en arabe « va-t-en », car il est l'impératif du verbe « sara » qui signifie « aller », « marcher », « s'éloigner ». Cependant, ce mot se trouve aussi en français sous la forme de « sort » qui revêt les mêmes sens que le mot arabe « ser ». Quand un français veut éloigner quelqu'un, il peut lui dire « sort », notamment si ce quelqu'un se trouve dans la maison du français.

Ces transpositions sont très nombreuses. Ainsi, les tunisiens emploient encore le son naturel « akh », en écriture arabe اخ, pour avertir et mettre en garde. Lorsqu'une mère tunisienne voit son petit enfant chercher à toucher des objets sales ou tranchants, elle lui dit « akh », et pour renforcer l'injonction, elle dit « kakh », en écriture arabe كخ et كخة, soit le son « akh » répété deux fois. Or, ce mot « kakh » sert à désigner en Tunisie les saletés en général, dont les matières fécales. En français, ce son a pris la forme du mot « caca » qui signifie les saletés et les excréments dans la langue française.

Par extension mécanique, les anciens arabes, en Arabie, avaient pris l'habitude de porter et de faire porter à leurs enfants et animaux domestiques divers objets sales pour conjurer le mal et éloigner les sources de nuisance. Dans certains pays arabes, la femme qui a les règles, était chargée, jusqu'à une époque récente, de dormir, la nuit, le cas échéant, avec les troupeaux de moutons et de

chèvres pour tenir à distance les loups, car les milieux populaires dans ces pays croyaient que les loups ne s'approchent pas de la femme qui a les règles.

Dans une légende racontée par les populations de la région de Sakiet Sidi Youssef, près de la ville du Kef, en Tunisie, il est dit qu'un voleur avait enduit son corps de matières fécales pour dérober le contenu du sanctuaire d'une sainte locale, parce que les matières fécales protègent dans de telles situations. Les saints, purs, n'osent pas s'attaquer à un homme impur, enduit de matières fécales.

Justement, certaines pratiques de sorcellerie censées faire du mal et nuire aux autres portent en français le nom de « sorts » et aussi « sortilèges ». Il s'agit à l'origine de l'habitude naturelle de dire « sort », c'est-à-dire « va-t-en » à l'adresse des intrus, en émettant les sons naturels « ès » et « er » combinés ensemble. Jadis, le groupe humain, s'opposant aux intrus, se composait de plusieurs membres qui émettent, en chœur, face aux intrus et rodeurs, les divers sons et cris naturels signalés, ce qui donne des combinaisons nombreuses de mots et de vocables, comme le vocable « sort ».

Ces faits montrent que ce qu'on appelle « sorcellerie » désigne à l'origine des pratiques naturelles comme le fait de dire « sort », « ser » ou encore « cher » à quelques intrus et rodeurs cherchant à faire du mal.

En effet, ces mots sont composés du son naturel « er » et du son naturel « ès » signalés précédemment et

que les hommes avaient appris à émettre et à utiliser naturellement pour chasser les animaux et les hommes lorsque ces animaux et ces hommes cherchent à les attaquer.

Les pratiques en vigueur de nos jours en médecine et consistant à effectuer des analyses médicales des matières fécales et du sang dans le but de déterminer l'état de santé des personnes ont pour origine l'habitude naturelle développée par les hommes et consistant à flairer les urines, les matières fécales secrétées par d'autres ou encore les traces de leur sang pour avoir des renseignements à leur propos, tel qu'il a été signalé précédemment.

Caractère mécanique du langage

Cependant, initialement, ces sons naturels et interjections, à la base du langage humain représenté par les diverses langues humaines, étaient émis de façon mécanique et spontanée sous l'effet des émotions éprouvées lors des situations embarrassantes et gênantes, à l'instar de la colère, la douleur et la peur. Lorsque le corps humain se trouve dans des situations embarrassantes et gênantes, il se « gonfle » d'air pour ainsi dire, suite à des accumulations anormales de l'air qu'il contient, et alors cet air intérieur se dégage, avec force, à l'extérieur, sous forme de courants, à travers les orifices constitués par la bouche et le nez. Ces courants d'air perturbent et troublent l'environnement ambiant du

corps ému, produisant ainsi des sons et des cris sans but ni signification quelconque. Et, ceci s’applique aux animaux et oiseaux producteurs de sons et de cris dans les situations embarrassantes et gênantes.

Mais, ces sons et ces cris émis, spontanément et de façon mécanique, sans le moindre but, dans les situations embarrassantes et gênantes, étant des courants d’air, troublent, perturbent et poussent tous ceux qui se trouvent sur leur chemin, comme le vent, qui est un courant d’air, pousse et trouble, en soufflant, tout ce qu’il rencontre sur son chemin. D’ailleurs, tout en criant, les hommes menacent les rodeurs avec les mains et les bâtons.

A cet égard, les instruments de musique, comme les cors et les instruments à vent, sont des prolongements de ce comportement naturel humain consistant à crier, à faire du bruit et du tapage, en émettant divers sons et diverses interjections face aux situations embarrassantes et gênantes.

Le gardien de troupeaux de chèvres fait porter à ses bêtes des cloches qui produisent du bruit lorsque les chèvres bougent et marchent, chassant ainsi les intrus et les rodeurs parmi les hommes et les animaux.

Les mariages dans les sociétés humaines sont restés bruyants et accompagnés par les chants et la musique parce que les mariages étaient, à l’origine, au début de l’histoire humaine, des enlèvements de femmes opérés de force par des prétendants étrangers. Les deux

parties, les victimes de l'enlèvement et les auteurs de l'enlèvement, avaient intérêt à faire du bruit et du tapage pour effrayer l'adversaire.

Les outres étaient justement un de ces instruments de musique à vent servant à produire du bruit.

A l'image de ce qu'il avait été signalé concernant le mot « cher » qui désigne en arabe le mal et qui sert en même temps à conjurer le mal, en le prononçant pour chasser un chien méchant, un ancien poète arabe, buveur invétéré, parlant du vin en tant qu'un mal et son remède à la fois, dit, dans un vers, à un ami imaginaire « laisse de côté tes reproches, car le reproche séduit, et guéris moi par la source du mal ».

Préparation naturelle

A cet égard, des données folkloriques recueillies par les auteurs intéressés indiquent que certains groupes humains faisaient boire à leurs enfants, de temps à autres, de très petites doses de poison pour habituer leur corps à supporter , le cas échéant, les effets de doses de poison plus importantes, et qui seraient mortelles sans cette préparation préalable du corps. Un individu mordu plusieurs fois par un scorpion venimeux et ayant réussi à surmonter, à chaque fois, l'effet de la dose de poison inoculée, devient plus résistant au poison du scorpion.

Le philosophe et savant arabe Ibn Cina rapporte dans un de ses ouvrages que des anciens rois orientaux

enduisaient, de façon régulière, pendant un certain temps, les parties sexuelles de quelques-unes de leurs concubines et esclaves filles de manière que celui qui couche avec l'une d'elles s'empoisonne et meurt sur le champ et ils se servaient de ce moyen pour liquider des adversaires en leur offrant ces femmes esclaves ainsi préparées.

Une légende tunisienne rapporte que le pain levé ou fermenté avait été découvert fortuitement par une femme suite à la fermentation favorisée par le résidu de pâtes azymes (sans levain) qui collait à son insu sur les parois du plat servant à pétrir la pâte. En préparant ainsi le pain normal ou azyme (sans levain) sept jours de suite, en se servant du même plat, elle a remarqué qu'au septième jour, sa pâte était fermentée et levée.

Dessins protecteurs

Jusqu'à nos jours, les tunisiens, dans les différentes régions de la Tunisie, du Sud au Nord, se servent de quelques dessins pour éloigner et conjurer le mal, dont notamment les dessins en forme de poissons et les dessins figurant la main de l'homme. On se sert aussi à cet effet de dessins figurant l'œil.

Le caractère mécanique de la figuration a été expliqué dans les analyses précédentes. Un homme absorbé par la pensée à divers problèmes qui l'accablent, s'isole et se met à tracer mécaniquement sur le sol des

lignes et des figures de diverses formes par la main ou par tout autre moyen à l'aide de sa main. La pensée est une excitation qui trouble le corps de l'homme, le remue, le fait trembler et le met en mouvements. Les mains, partie intégrante du corps, en tremblant et en s'agitant, dans de telles situations, dessinent ces lignes et figures sans but.

Cependant, ces dessins peuvent prendre la forme des objets auxquels on pense, à l'image du vent qui, en soufflant, imprime aux objets qu'il rencontre sur son chemin son propre mouvement. Un tourbillon imprime aux objets rencontrés un mouvement ayant la forme d'un tourbillon. Le même mécanisme est à la base de la vue et de la vision produites par des excitations lumineuses émanant des choses extérieures. Ces actes sont appelés communément des imitations et des reproductions. Les techniques et inventions humaines sont des imitations et des reproductions de la nature et des choses naturelles selon le mécanisme mentionné précédemment, à l'image de l'imitation et de la reproduction de la faculté de voler et de se déplacer à travers l'air comme les oiseaux.

Divers récits à caractère historique, rapportés par différents auteurs de diverses nationalités, et à diverses époques, parlent de découvertes fortuites de quelques faits physiques et de leurs principes, à l'instar du principe du flottement des objets sur l'eau, ou encore la radioactivité.

Toutefois, comme il a été déjà signalé, les premières applications spontanées du flottement des objets sur l'eau avaient été l'utilisation des outres

gonflées d'air, depuis les époques les plus reculées de l'histoire humaine. Auparavant, les hommes avaient appris spontanément à nager, c'est-à-dire à s'apercevoir qu'on peut se déplacer sur l'eau. Des objets légers flottants avaient sûrement aidé à penser au flottement.

Une légende tunisienne rapporte que la fille du saint appelé Sidi Bou Saïd, patron de la ville qui porte son nom dans la banlieue nord de la capitale Tunis, de la Tunisie, s'était, un jour servie du burnous de son père comme d'une voile pour propulser une barque.

Des contes populaires d'Afrique noire rapportent qu'à l'origine, les hommes s'étaient servis de leurs habits et vêtements pour se déplacer sur l'eau. Il est dit dans l'un de ces contes populaires africains que sept frères guidés par le plus jeune, un garçon exceptionnel, sorti accompli du ventre de sa mère, avaient eu maille à partir avec une méchante ogresse vivant avec ses sept filles que les sept jeunes hommes voulurent épouser. Ils s'enfuirent après avoir poussé, par ruse, l'ogresse à égorger ses filles, mais l'ogresse s'en aperçut aussitôt et se mit à leur poursuite, les rattrapant sur la rive d'un fleuve qui coupait le chemin et que les sept frères avaient eu auparavant l'occasion de traverser à dos d'un crocodile, en quittant leur village pour aller rechercher des épouses qui soient sept sœurs nées le même jour. Alors, le garçon exceptionnel, se rappelant avoir emporté avec lui le manteau en peau d'animal de l'ogresse, jeta le manteau dans le fleuve et le manteau se transforma en barque dans laquelle les sept frères prirent place à la hâte, et traversèrent, à son bord, le fleuve au

grand dépit de l'ogresse qui les vit, ainsi, s'échapper, sans pouvoir faire quoi que ce soit.

L'effet des dessins en forme de poissons, de main et d'œil, signalés précédemment, est analogue à l'effet des protections faites de pierres. Il a été signalé que le mot arabe « hajar », en écriture arabe حجر, sert à désigner dans la langue arabe, les pierres et les interdits à la fois de sorte que poser une seule pierre à la limite d'un établissement humain désigne qu'il est interdit de dépasser cette pierre et d'aller au-delà de cette pierre, puisque le nom de la pierre signifie « interdit ». De nos jours, on suspend un écriteau disant « interdit d'entrer, propriété privée ». Autrefois, on pose une pierre, tout simplement. Le mur n'est qu'un prolongement de cette première et unique pierre.

Il en va de même en ce qui concerne la protection par les figures en forme de main, de poisson et d'œil. En effet, le nom servant à désigner les poissons en arabe, notamment dans l'arabe parlé des tunisiens, est « hout », en écriture arabe حوت, mot qui dérive du son naturel « ah », en écriture arabe أح que les tunisiens et les hommes en général émettent, spontanément, pour exprimer la douleur et la souffrance, à l'instar de la douleur occasionnée par une blessure faite par un couteau tranchant ou par une brûlure par le feu. Aussi, le dessin du poisson signifie que le porteur de ce dessin est dangereux et fait dire « ah », c'est-à-dire, fait mal à celui qui le touche.

En effet, l'œil s'appelle « aïe», en anglais, mot qui s'écrit « eye » dans cette langue. Or, le mot « aïe » est un son naturel et une interjection que les hommes émettent sous l'effet de la douleur. Quand un tunisien est brûlé par le feu, il crie et dit spontanément « aïe ». Aussi, le dessin de l'œil veut dire que le porteur de ce dessin fait mal et pousse celui qui le touche et cherche à lui nuire, à dire « aïe » en sentant le mal, c'est-à-dire qu'il s'expose au mal représenté, dans ce cas, par la réaction violente du groupe humain auquel appartient la personne ou l'établissement protégés par ce dessin.

Ces pratiques sont aussi à l'origine des croyances au mauvais œil. Dans ces représentations, l'œil s'applique au mal en général, soit à tout ce qui occasionne l'émission du son naturel ou l'interjection « aïe ». Aussi, on peut dire que la protection par les dessins en forme d'œil relève des pratiques consistant à chasser le mal par le mal, signalées précédemment. L'œil et les petites ouvertures similaires portent en grec le nom de « ope », un mot dérivant du son naturel ou interjection « ob » signalé précédemment. Le nom arabe de l'œil « ain », en écriture arabe عين, dérive aussi d'un son naturel ou interjection destiné à mettre en garde et à avertir du danger. Les éclaireurs et les espions portent, en arabe, le nom d'œil, soit « ain » au singulier et « ayoun », au pluriel. Les sources d'eau sont également désignées, en arabe, par ce mot « ain ».

De la même façon, il a été signalé que le nom servant à désigner les poissons en arabe, notamment dans l'arabe parlé des tunisiens, est « hout », en écriture arabe حوت, mot qui dérive du son naturel « ah », en

écriture arabe أح que les tunisiens et les hommes en général émettent, spontanément, pour exprimer la douleur et la souffrance, à l'instar de la douleur occasionnée par une blessure faite par un couteau tranchant ou par une brûlure par le feu. Ainsi, la sensation de douleur s'exprime par l'émission du son « ah » de sorte que l'émission du son « ah » fait mal en elle-même. Aussi, le dessin du poisson signifie que le porteur de ce dessin est dangereux et fait dire « ah », c'est-à-dire, fait mal à celui qui le touche ou cherche à lui nuire. Son effet est mécanique en ce sens que prononcer et « émettre » le son « ah » fait mal, en lui même puisque la douleur s'exprime par l'émission du son « ah », ce qui se produit lorsqu'un tunisien ou un usager de la langue arabe en général voit se dresser devant lui le dessin d'un poisson

SOMMAIRE